

إما الإيمان

وإما الفوضى

Creed or Chaos

للدكتور

هيثم طلعت

الطبعة الأولى

"رب اشرح لي صدري

ويسر لي أمري

واحلل عقدة من لساني

يفقهوا قولي"

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد؛

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية:٢٧].

لن ينتهي الباطل إلى قيام الساعة، وستظل له صولةٌ وجولة، وصحوةٌ وغفوة، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها .

وستبقى كل التأويلات الكفرية مفتوحةً لينحاز البطّالون إلى باطلهم، وينحاز الذين يتبعون الزيغ إلى زيغهم وينحاز الذين يتبعون ما تشابه منه إلى ما تشابه منه ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧] .

وينحاز الصادقون في تجردهم للحق إلى صدقهم ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٩].

ومن رحمة الله على العباد أن الكفر سيظل إلى قيام الساعة مرجوحًا ضعيفًا، يتجشّم له البطالون تأويلاتٍ تلو تأويلات، ويحتاجون له كوماتٍ من المعالجات.

وبعد كل هذا العناء ومع أول لمحة صافية من أوليات العقل وبديهيات النظر المجرد يذوب الباطل كما يذوب الثلج وينهار بكل جعجعته كما تنهار كل السفسطات عبر التاريخ ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ [الرعد:١٧] .

فلن ينتصر الباطل على الحق في جدالٍ منصفٍ إلى قيام الساعة ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١].

﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١] [(١)].

الكفر والإيمان

وسيظل الباطل مجرد افتراض وسفسطة عقلية وتخمينات ضعيفة وتأويلاتٍ مرجوحة!

فالباطل في الأصل يقوم على التكاسل عن استخدام الأدوات العقلية، والسمعية النقلية – النبوات– ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

ومن أظهر أنواع الباطل "الإلحاد"!

ولو أردت تعريفًا للإلحاد في كلمتين فهو: **جعْل ما لم نحط بعلمه –الابتلاءات –سفسطة على ما أحطنا بعلمه –روعة الخلق وبديع الصنع وغاية الإيجاد–!**

بينما يبقى الإيمان مسلكًا قائمًا على استخدام الأدوات العقلية والحجج الفطرية وأدلة النبوة ومعطيات خلق الله من إبداع صُنعه وإتقان ما ذراه.

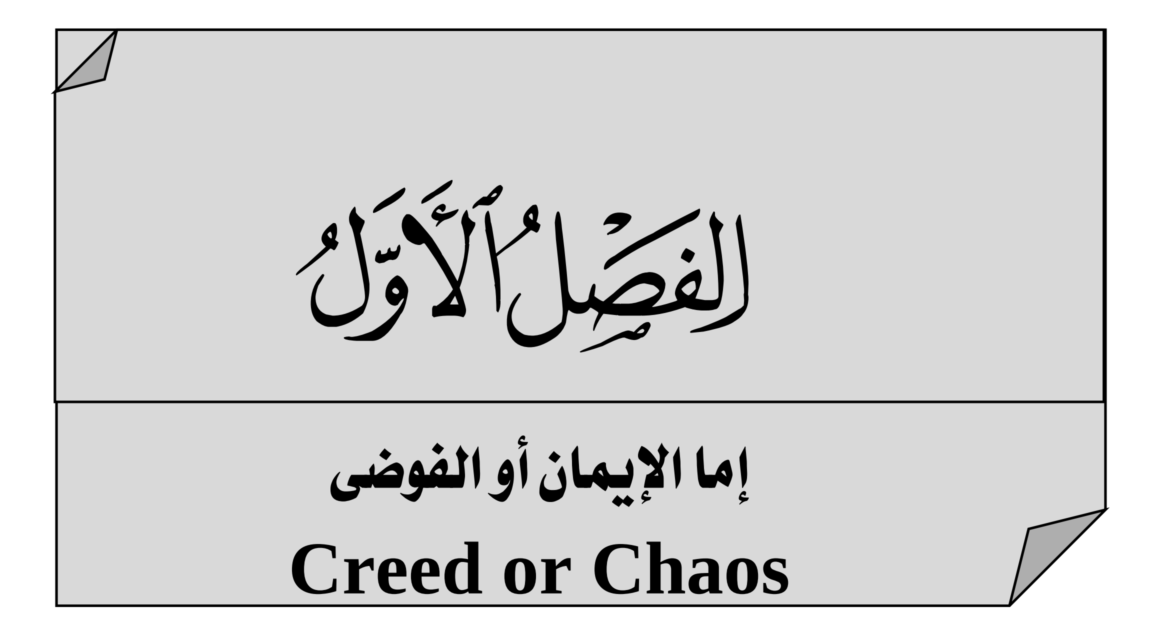
ونحن في هذا الكتاب لن نفعل أكثر من تحفيز عقلك وضبط بديهياتك، ويبقى قرارك أنت وحدك!

فهذه رحلة نبحر فيها عبر الإيمان والإلحاد راجين أن يتضح المقصود ويبين المطلوب!

فإلى الشروع في الرحلة على بركة الله!

---

(١) راجع كتاب "مناظرة الملحدين" للمؤلف، من إصدارات نيو بوك للنشر والتوزيع.



الفصل الأول

إما الإيمان أو الفوضى

Creed or Chaos

"الإلحاد ليس تصورًا وجوديًا كما تتوهم، بل هو خيالٌ، تبرره شبهةٌ طارئة وتبقيه شهوةٌ جامحة".

إما الإيمان أو الفوضى

Creed or Chaos

يعترف عرّاب الملحدين في العالم ريتشارد داوكينز Richard Dawkins ضمنيًا أن الإيمان بالرسل والرسالات شرطٌ جوهري لمعرفة الخير والشر والصواب والخطأ.

يقول داوكينز: "من الصعب جدًا الدفاع عن القيمة الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين"(١).

فداخل أرضية الدين وحسب يمكن استيعاب معنى الإنسان وتحليل ظاهرة وجوده، والتأسيس لقيمته وأخلاقياته ومبادئه.

وخارج الدين يتحول الإنسان إلى مجموعة من الذرات المتلاحمة بلا معنى، والتي تتحرك بلا غاية وترتطم بلا هدف.

فالعماء الكامل يصم حالة عدم الإيمان والذين لا يملكون نور الإيمان بالدين لن يستطيعوا أن يوجدوه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فبدون الإيمان بالرسل يتسمم كل شيء.

ويفقد الوجود بأكمله معناه.

ويصبح من العسير جدًا انتقاد أفعال شخص مثل هتلر.

---

(١) It is pretty hard to defend absolute morals on grounds other than religious ones. (The god Delusion, p.٢٣٢)

وفي هذا يعترف ريتشارد داوكينز قائلًا: "داخل العالم الإلحادي المادي الحتمي لا يمكن تخطئة هتلر"[١].

فالإنسان من منظور المادة، ومن منطلق الإلحاد مجرد نمط مادي ثلاثي الأبعاد لا قيمة لوجوده ولا غاية لسعيه.

فلا تختلف أفعال هتلر الإجرامية عن أفعال المصلحين، فالكل بلا غاية!

ولذا لك أن تقولها مدويةً أن: أصل النور هبة إلهية تقترن بالإيمان، ولن تستطيع كل فلسفات العالم أن تؤسس لومضةٍ من نور، ولن تستطيع كل ماديات العالم أن تؤسس للمحةٍ من قيمة الإنسان أو غاية وجوده.

ولن تستطيع كل محاكم العالم أن تكبح جماح جريمةٍ واحدة على أساسٍ عقلي أو فكري!

فالإنسان بالمنظور المادي هو جُرم ناتج عن تجمع ذرّي لا ينفصل عن المنظومة المادية ولا يتمايز عنها ولا تتحق له غاية بوجوده، وتفقد حتى كلمة "الغاية" معناها!

يقول الملحد اللاأدري الشهير كارل ساغان Carl Sagan: "الإنسان... هو نتاج نفس القوانين والثوابت التي كانت لازمة لصناعة حجر"[٢].

---

(١) What's to prevent us from saying Hitler wasn’t right? I mean that is a genuinely difficult question.

http://byfaithonline.com/richard-dawkins-the-atheist-evangelist/

(٢) Essentially the same laws and conistants are required to make a rock

Carl Sagan, Pale Blue Dot: A Vision of the Human Future in Space.

ويصف الأستاذ بجامعة هارفارد جورج سيمسون George Gaylord Simpson منتهى تصور الإلحاد عن الإنسان فيقول: " الإنسان ما هو إلا نتيجة عملية طبيعية غير هادفة، لم تكن تضعه في الحسبان"[(١)] .

-وجورج سيمسبون هو عالم الحفريات وأحد أبرز دعاة التطور على الإطلاق!-

لم تكن المادة لتضعنا في الحسبان!

لأننا طبقًا للرؤية الإلحادية حصيلة قوى طبيعية عنيفة، ولم نكن مُصممين البتة لنصير في الواجهة!

وفي حقيقة الأمر لا يمتلك الإلحاد جوابًا أفضل من ذلك.

ولن يستطيع الملحد أن يستمد قيمةٍ لحياته في إطار تلك الرؤية المادية للوجود.

يقول التطوري اللاأدري الأشهر ستيفن جاي جولد Stephen Gay Gould: "نحن هنا لأن طائفة غريبة من السمك كانت زعانفها ذات تركيب خاص مكنّها أن تتحول إلى أرجل.

لا يوجد جواب أسمى من ذلك "[(٢)] .

بالفعل إلحاديًا لا يوجد جواب أسمى من ذلك.

---

(١) Man is the result of apurposless and natural processthat didn’t have him in min.

Simpson, George Gaylord. ١٩٧٠. *The Meaning of Evolution.* New Haven, CT: Yale University Press, P.٣٤٥.

(٢) The meaning of life: reflctions in words and pictures on why we are here, ١٩٩١, p.٣.

فمن نسي الله نسي نفسه ونسي قيمته ونسي معنى وجوده ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾ [الحشر:١٩] .

سبحان الله!

إنها سنة كونية لا تتخلف!

سنة كونية تتبع كل كافر يريد أن ينسى الله؛

فإذا به ينسى نفسه.

وهكذا ففي الداخل الإلحادي لا يستطيع الإنسان أن يستمد معنىً للقيمة ولا للأخلاق ولا للغاية.

وأنت إذا أردت أن تُدمر معنى وجود الإنسان في هذا العالم وتُدمر مبادئه ومطلقاته فلن تفعل أكثر من أن تنزع غاية وجوده عنه، وتحاول أن توهمه بعبثية وجوده.

ولم يفعل الإلحاد غير ذلك!

يتحدث الملحد ريتشارد داوكينز بفخر عن شخصٍ ما أخبره أنه لم ينم لثلاثة أيام متواصلة، بعد أن اطلع على النظرة الإلحادية للوجود التي يبثها داوكينز في كتبه، فقد اكتشف ذلك الشخص –والكلام على لسان داوكينز– أن الحياة مجرد خواء بلا معنى! (١)

هذا ما يعِد به الإلحاد.

وفي هذا الإطار الذي أفقد الوجود معناه؛ تصبح أكبر الجرائم بلا معنىً، ويتحول الإفساد في الأرض إلى حركات ذرات مترابطة بلا غاية. يقول آرثر ألين ليف Arthur Allen Leff

---

(١) One man said he didn't sleep for three nights after reading *The Selfish Gene.* He felt that the whole of his life had become empty, and the universe no longer had a poin.

Reinventing the Future, p.١١٢.

أستاذ القانون بجامعة يال بالولايات المتحدة الأمريكية: " لا توجد طريقة لإثبات أن حرق الأطفال بقنابل النابالم هو شيء سيء"[(١)].

فإذا كان الإله غير موجود فإحراق الأطفال بقنابل النابالم قضية نسبية حضاريًا.

إذا كانت مقدمتك منطقية فالنتيجة أيضًا منطقية.

ولا تستطيع من داخل الإلحاد أن تصِم المقدمة أو النتيجة بالفساد!

وتوكيدًا على ما سبق يُلخِّص الحائز على نوبل في الأدب تشسلاف ميلوتش Czeslaw Milosz في مقاله "مفاتن العدمية الحذرة The discreet charms of nihililsm" الموقف على النحو التالي: "الإلحاد أفيون الشعوب"؛ فاعتقادك بعدم الحياة بعد الموت هو أكبر مخدِر للقيم.

فالإلحاد يقدم عزاءًا ضخمًا لكل المجرمين والقتلة والزناة بأنه لا بعث ولا حساب!

وداخل هذا التخدير المُتعمد للقيم يصبح الاغتصاب عمل محايد. وهذا توصيف ريتشارد دواكينز لجريمة الاغتصاب فيقول: "اعتقادك بأن الاغتصاب خطأ أمر اعتباطي تمامًا"[(٢)].

وقد أصاب ريتشارد داوكينز؛ فمِن أين لك أن الاغتصاب خطأ والتعفف أفضل؟

وعلى أي مستندٍ تعتمد خطأ فعلٍ أو صواب آخر؟

إذا لم تكن هذه هي الفوضى فما هي الفوضى؟

ومن أجل ذلك!

---

(١)there is today no way of ‘proving’ that napalming babies is ba Economic Analysis of Law: Some Realism about Nominalism (١٩٧٤).

(٢) Your belief that rape is wrong is an arbitrary conclusion From an interview with Justin Brierley of unbelievable.

نقول أن: تصور وجود الإله والإيمان بالدين ليس حاجة مشروعة بل حاجة مُلِّحة، فالعقل هنا لا يبتدع فرضية وإنما يُعبر عن حاجة ضرورية ضرورة الماء والهواء بل أولى منهما.

فمعرفة الله هي مقتضى عقلي من الواقع المادي ذاته، ومن واقع طبيعتنا نحن كبشر.

إننا نطلب شيئًا لا يستطيع أن يلبيه أي شيءٍ في هذا العالم.

إنه نداء المقدمة السماوية التي جئنا منها يومًا ما!

إنه نداء القيم الأخلاقية التي نُسلِّم جميعًا بصحة مقدماتها!

إنه نداء الفطرة.

تلك الفطرة التي نعلم ونوقن من خلالها بوجود الخير والشر والصواب والخطأ والقداسة والنجاسة!

إنه نداء الإنسان الذي لن يستطيع أن يتفهمه الإلحاد.

ذلك الإنسان الذي فشلت وستفشل كل الحلول لتحليل ظاهرته خلا الإيمان!

إما الإيمان أو الفوضى

Creed or Chaos

لا يحتمل العالم بديلاً ثالثًا.

تدّبر عالمًا بلا دينٍ ولا إيمانٍ بالخالق.

تدّبر عالمًا بلا بعثٍ ولا حساب!

إذا لم تكن حياة بعد الموت فكل هذا الجمال في الحقول والأمواج والأزهار هو رعب[١].

إن الرؤية الإلحادية تُفقد العالم المعنى وتُبدد الجمال وتقتل القيمة وتُحول أروع الأشياء إلى رعب.

الرؤية الإلحادية تجعل كل الوجود بلا لزوم.

وتجعل كل الغايات الجميلة سخف وهراء!

وتتحول أجمل الأحلام الفردوسية إلى كابوس مرعب.

ويصبح الوجود كله بلا معنىً.

يُعبر عن هذه الحقيقة المزعجة الملحد الوجودي جان بول سارتر Jean-Paul Sartre في روايته غثيان كالتالي: " لا داعي للوجود على الإطلاق وليس للحياة معنىً، فأنا قد ظهرت صدفةً كجرثومةٍ لم يكن لي أن أوجد على الإطلاق"[٢].

وهكذا يرسم سارتر بريشة الإلحاد معنى الوجود!

---

(١) من رواية ريش الحمام pigeon feathers

(٢) جان بول سارتر، الغثيان. (Jean-Paul Sartre, Nausea (novel))

فنحن شيء عرضي تافه في هذا الكون مثل ذبابة مايو mayflies التي تظهر وتختفي في طي النسيان؛ كما يصفنا داعية المذهب المادي الكاتب شيت رايمو (Chet Raymo)[١].

وكل أهدافنا التي نتصور أنها أهدافًا سامية، هي مجرد وهم؛ كما يقول الملحد الشهير ريتشارد داوكينز (Richard Dawkins)[٢].

أما الرؤية الإيمانية فهي على المقابل من ذلك تمامًا تجعل العالم مفهوم والحكمة مدركة والبلاء مقبول والكد مجبور.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

فالإحالة إلى الإيمان هي شرط فكري وعقلي لاستيعاب المعنى والغاية ومبررها المعطى المادي نفسه.

الإحالة إلى الإيمان مبررها ظاهرة "الإنسان".

ذلك الكائن الذي لا يمكن استيعابه في إطار المادة ولا الحتميات الصارمة التي تحكمها!

ذلك الكائن الذي أقدامه مغروسة في الوحل، بينما يتطلع إلى السماء.

---

(١)We are small, contingent parts of something that existed long before we appeared on the scene. . . . We are as incidental to the cosmos as are ephemeral mayflies to the planet Earth. At first glance, this was shattering news. Indeed, the majority of us have not yet come to terms with it. . . . *Our lives are brief, our fate is oblivion*.

Raymo, Chet. ١٩٩٨. *Skeptics and True Believers.* New York, NY: Walker, p.٢٢٢.

(٢) ""has shown higher purpose to be an illusion.

A Scientist's Case Against God,"

ومن أجل ذلك يصبح الانتقال من عالم الحس -العالم المادي- إلى عالم المُثُل -العالم الإيماني الغيبي- هو مقصد الوعي الإنساني في حال أراد استيعاب ذاته، ولذا فقد ارتسمت صورة المفكر في كل الحضارات بالشخص المنعزل عن المجتمع المادي، لأنه مشغولٌ بالكليات.

وقد كانت وما زالت المعرفة الماورائية عند المفكرين أعلى المعارف وأشرفها، لأنها النوع الوحيد المنوط بتفسير القضايا الكلية والوجودية والأسئلة الكبرى، فنجد ديكارت مثلًا يقول: "الفكر الإنساني شجرة جذورها الماوراء وجذعها الفيزياء وأغصانها بقية العلوم"[١].

فأصل الإحالة إلى الإيمان هو أصل عقلي، هدفه الأسمى بحث الوجود الحق -الغيب-.

إن الحقيقة التي يُسلِّم بها البشر الآن أنه: لا حقيقة في الخارج المادي المستقل، ولا يمكن ضبط الحقيقة بدون دين واستقاء من الما وراء، ولا يمكن التأسيس للحقيقة أو ضبط المعرفة أو تقييم المعنى بلا دين.

فأنت بلا دين تتحول إلى كتلة خلايا ترتطم على جدرانها أيونات صوديوم وبوتاسيوم.

وتصبح نمط مادي من حساء سيتوبلازمي *Cytoplasm* زلالي بلا حدود ولا إطار.

فما الإنسان إلا كمبيوتر من اللحم، كما يقول شيت رايمو -سابق الذكر-[٢].

---

(١) Descartes, principes de la philosophie, p.٢٦

اقتباسًا من" في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة، د. الطيب بوعزة، ص٧٨"

(٢) merely a computer made of mea

Raymo, Chet. ١٩٩٨. *Skeptics and True Believers.* New York, NY: Walker, p.١٨٧-١٨٨.

بل ويَعتبِر رايمو هذه القضية –كون الإنسان مجرد كمبيوتر من اللحم– على أنها أقرب إلى البديهة لدى الملاحدة (almost a truism)[١].

وفي هذا الإطار يصبح من العسير الدفاع عنك.

ويصبح كل خطأ صواب، وكل صواب خطأ؛ فلا معنى لا للخطأ ولا للصواب.

يقول الملحد ريتشارد داوكينز مُلخصًا الوضع: "الكون في حقيقته بلا تصميم، بلا غاية، بلا شر ولا خير، لا شيء سوى قسوة عمياء لا مبالية"[٢].

وداخل هذه الصورة التفكيكية المرعبة يصبح قتل البشر مباحًا. ويصبح فعل كل الجرائم شيئًا محايدًا!

ويصبح إعلان الملحد داوكينز عن أن : "قتل الأجنة عمل محايد". أمرًا متوقعًا[٣].

فالجنين طبقًا لداوكينز كتلة من الخلايا بلا قيمة

وتتطور رؤية داوكينز أكثر نحو استيعاب الإلحاد فيقرر أن: "أكل لحوم البشر لا مانع منه بشرط أن يكونوا من الأعداء لا الأصدقاء"[٤].

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٢.

(٢) The universe we observe has precisely the properties we should expect if there is, at bottom no design, no purpose, no evil and no good, nothing but blind, pitiless indifference.

River out of Eden, p.١٣١-١٣٢

(٣) The god delusion, p.٢٩٧, ٢٩.

(٤) - Selfish Gene, p. ٨.

ويظهر زميل داوكينز ورفيق كهنوته الملحد سام هاريس Sam Harris الذي يتطور أكثر وأكثر في ابتلاع الإلحاد فيقرر أنه : "لا مانع من قتل الأصدقاء والأعداء طالما يحلمون أفكارًا مخالفة"[١].

ولا مانع من إبادة المسلمين بقنبلةٍ نووية تستأصل شافتهم إلى الأبد -كما يقول المجرم بالحرف-[٢].

هذا هو الإفراز الإلحادي المتوقع!

هؤلاء هم أعمدة الإلحاد في العالم.

الحمد لله على نعمة الإسلام!

كفانا الله شرّهم!

وهكذا داخل الإلحاد يصبح الإنسان ممزقًا في عالمٍ لن يصبو فيه إلى الحقيقة يومًا ما!

ولن يدرك الإنسان حقيقة وجوده إلا داخل رحابة الإيمان.

ففي داخل الإيمان يستطيع أن يستوعب الحس الأخلاقي والحس الجمالي والحس الفطري والحس الوجداني والحس القيمي والحس الديني، ويقبل بالتسليم لمعطيات المعنى والقيمة وهكذا فحسب يعود الإنسان إنسانًا مرةً أخرى كما بدأ رحلة صراعه الأولى مع طموحه البروميثيوسي Prometheus -التمرد على الخالق- وتطلعه لتحديد قدَره بيده هو لا بيد خالقه.

---

(١) -Some propositions are so dangerous that it may even be ethical to kill people for believing them.

The End of Faith, p.٥٢

(٢) -Harris, S. (٢٠٠٦) the End of Faith, the Free Press, P.١٢٩.

إن هذه الملحمة الكبرى –ملحمة البحث الإلحادي عن الغاية في إطار المادة– تُذكرنا بالقصة القديمة لذلك الرحالة الذي رأى رؤيا أنه سيجد كنزًا عظيمًا يومًا ما تحت الأرض!

وظل الرجل يجوب البلاد ويقطع الوديان ويخرق الفجاج باحثًا عن كنزه، وبعد أن مضت السنوات عابثًا في سعيه وبعد أن أرهقته الأيام عاد إلى بيته منكسرًا مهمومًا حزينًا يصارع العبثية والشؤم والحسرة، والضياع واللامعنى واللاغاية!

وبينما هو كذلك إذ سقط القدح من يده على الأرض فأحدث رنَّةً عظيمة!

فحفر بيده ليجد كنوزًا لا أول لها في قعر بيته.

لقد كان الكنز الذي يبحث عنه!

إن الكنز الذي يبحث عنه الإنسان لا يوجد في الخارج المادي، ففي العالم المادي لن يجد إلا ما هو مادي، لن يجد إلا غذاء جسده، أما غذاء روحه فليس من هذا العالم!

ولن يصبح الإنسان إنسانًا ولن يؤسس لقيمته ومبادئه وأخلاقياته إلا في ظلال القيمة والمعنى والتي لا تمت إلى هذا العالم بصلةٍ!

إن المعنى يوجد داخلك أنت. في فطرتك، وصبغتك التي صبغك الله عليها!

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة:١٣٨].

إننا لو كنّا أبناء هذا العالم الخُلص، لما شعرنا بالمعاناة ولا الاغتراب ولا بحثنا عن القيمة ولا كان لهذه الكلمات معنىً.

في رواية البؤساء لفيكتور هوجو Victor Hugo يتوقف الزمان عند تلك اللحظة التي يلقي فيها الضابط جافير Javert بنفسه في نهر السين حين أطلقه الجاني جان فالجان Jean Valjean بعد أن قَدر عليه.

إن قرار الضابط هو نتيجة صراع نفسي لا يُحتمل، فلم يكن يصدق أن هذا المجرم أكثر عاطفةً وحنانًا منه، وأنه يقدر على العفو ويحب العفو ويعفو!

هذا الصراع النفسي الذي دار داخل نفس الضابط لا معنى له إذا لم يكن لنا روح!

إننا لو كنّا أبناء هذا العالم لما بدا فيه شيء نجس أو طاهر، إن وجودنا يستمد معناه من عالمٍ آخر.

إننا نوقن وندرك أننا دخلنا هذا العالم برأس مال قيمي معرفي أخلاقي مبدئي هائل.

وليس في هذا العالم ما يحلل شيئًا من ذلك، ولا يبرر شيئًا من ذلك!

إننا أبناء عالمٍ آخر نقتبس منه المعنى والقيمة والهدف والغاية، ونرد إليه مطلقاتنا التي نؤمن بها ولا نجد لها صدىً في عالمنا الخارجي!

إن الصراع الأزلي بين الضمير والمصلحة، هذا الصراع لا يوجد في هذا العالم المادي ما يبرره، فلا يعرف العالم المادي الخارجي سوى المصلحة، أما الضمير فهو خاصية محايثة -مرتبطة- للإنسان، كما أن القيمة خاصية حصرية للروح، إن معنى الإنسان الحقيقي لا معنى له إلا بمقدمةٍ سماوية؛ هذا هو التنظير الأخير لظاهرة وجودنا، إن الإحالة إلى الإيمان هي مصدر اقتباس وتحليل وتعريف وتفسير الوجود الإنساني كله.

!فإما الإيمان أو الفوضى... ولا يوجد بديل ثالث

الفصل الثاني

ظاهرة النبوة

"لولا النبوات لتحولت كل الأحلام والقيم والمُطلقات الأخلاقية إلى كابوسٍ مرعب"

ظاهرة النبوة

النبوة والعقل!

النبوة هي وسيلة المعرفة الصحيحة بالله ومعرفة مراده من خلقه، ولولا النبوة لما حصلت الهداية ولا حصلت معرفة غاية الوجود ولا المصائر بعد الموت ولا معنى الدنيا ككل!

لكن بعض الملحدة يزعمون أن العقل قد يُعوَّل عليه في الوصول إلى بعض المعاني الكلية للوجود.

وهذا خللٌ ظاهر فالعقل لا يستقل بالوصول إلى الهداية، وإلا ما اختلف المُعوِّلون على العقل وحده فهم مختلفون فيما بينهم أشد اختلاف.

فعندما تُرك الناس للعقل آمنوا بالله وآمنوا بالأصنام والأوثان وعبدوا الملوك وألحدوا وصاروا لاأدرية في آنٍ واحد!

فمعطيات العقل متفاوتة للغاية وتخريجاته مزعجة ومُربكة لأبعد ما نتصور!

فالعقل البشري لا يملك أي عتادٍ حقيقي يمنعه من التورط في صناعة الخرافة والأسطورة والوهم والهلاوس وقبول كل ذلك واعتباره حقائق!

يقول د. ثامر غشيّان: "بدون العودة بالعقل إلى وظيفته الأصلية ضمن أُطر ومسلَّمات يُؤمِّنها الوحي ويُحدد أبعادها الكتاب، بدون هذه العودة فإننا نظلم العقل وندخله ميادين ليست ميادينه وحروبًا ليست حروبه ثم بعد ذلك نلومه ونغضب عليه إذا عاد خائبًا منكسرًا حزينًا "[1].

ثم تبّصر تاريخ الأمم وفلسفاتهم وثقافات المتقدمين والمتأخرين، وانظر هل وصلوا بالعقل وحده إلى نتائج مُرضية في مسألةٍ واحدة من المسائل الوجودية الكبرى -المسائل الوجودية الكبرى مثل: لماذا نحن هنا، وأين نحن إذا متنا، وماذا بعد الموت؟- أم عاد الجميع حائرين تائهين يترّصدون بابًا آخر يلِجوا منه لبحث الأجوبة؟

---

(١) الفقرة من وحي كتاب"رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد".

ألم يعترف ستيفن هاوكنج Stephen Hawking الفيزيائي الأشهر وفي أول صفحة من كتابه الأخير "التصميم العظيم the Grand Design" أن **الفلسفة قد ماتت**؟

لكن صراحةً الذي مات لم تكن الفلسفة، وإنما الاعتماد على العقل وحده في المسائل الوجودية الكبرى!

فالعقل بدون النبوات، كالعين بدون آلية الإبصار، وكالأذن بدون آلية السمع. ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقد حاول ديكارت Descartes (١٦٣٧) أن يصل بالعقل وحده إلى مفردات معاني الوجود فاستخدم وسيلة الشك المنهجي الجذري، واستطاع بهذه الوسيلة أن يهدم معتقداته في كل شيء حتى الأفكار المُجردة، ثم بعدها أسس لفلسفة الكوجيتو cogito–أنا أُفكر إذن أنا موجود – أيضًا باستخدام العقل.

ثم بعدها انهار هذا الكوجيتو على يد ديفيد هيوم David Hume أيضًا باستخدام العقل.

وظهرت فيما بعد الحداثة التي أسّس لها كانط Immanuel Kant والتي بدورها ذابت على أعتاب ما بعد الحداثة post-modernism.

فالعقل يبني ويهدم .. يرفع ويخفض .. يُؤله ويُوثن .

ولم يعد ثمة إمكان لتأسيس الوعي والقيمة والمعنى للوجود باستخدام العقل المفرد.

ولذا يقول الدكتور عبد الحليم محمود –رحمه الله– شيخ الازهر السابق: "فالدين سفينة والعقل لوح خشب وقلّ من نجا بلوح خشب "(١) .

---

(١) انظر: "يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية".

وقد كان أندريه جيد André Gide المفكر الفرنسي الشهير ذكيًا، فعندما طلب منه طه حسين يومًا أن يسمح له بترجمة أعماله إلى العربية؛ رد عليه أندريه جيد مندهشًا وقال: "يدهشني اقتراحك .. الإنسان المسلم يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة "[(١)] .

فالعقل الذي يعرف صفات الإله ويعرف الرسالة الإلهية يجد الأجوبة عن الأسئلة الكلية. بينما الذي ينكر النبوات يطرح نسخًا لا نهائية للتصورات الوجودية -أي يستحيل أن ينجو ضمنيًا-.

ومن أجل ذلك يعترف الرازي في آخر مصنفاته بعد أن خاض في علوم الأوائل حتى الحلقوم، وتشّرب من الفلسفات حتى تضّلع ثم قال في النهاية: "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ومِن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. فنهاية إقدام العقول عقال"[(٢)] .

نعم نهاية إقدام العقول بلا بصيرةٍ من وحيٍ عقال!

فللعقول أقيسة لا نهائية لكل مسألة، وضروب متباينة متفاوتة. فكيف ينجو بعقله من رأى نسبية طرحه؟

يقول ابن قتيبة رحمه الله: "وقد كان يجب مع ما يدّعونه – في تقديسهم للعقل–من معرفة القياس وإعداد آلات النظر أن لا يختلفوا كما لا يختلف الحُسّاب والمُسّاح والمُهندسون، لأن آلاتهم لا تدل إلى على عددٍ واحد، وإلا على شكلٍ واحد، فما بالهم أكثر الناس اختلافًا؟

لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمرٍ واحدٍ"[(٣)] .

---

(١) المراسلات مع أندريه جيد. رسالة من أندريه جيد إلى مترجم كتابه "الباب الضيق"، باريس في ٥ يوليو ١٩٤٥ .

(٢) ثبوت النبوات ص٣١٨.

(٣) تأويل مختلف الحديث ص١٤.

فما أشد تشرذم الذين اعتمدوا العقل وحده في النظر!

وقد قال فيهم الغزالي -رحمه الله-: "فإن خبطهم طويل، ونزاعهم كثير، وآراؤهم منتشرة، وطرقهم متباعدة متدابرة"[(١)].

ويرى الغزالي رحمه الله أن ردود أرسطو على أفلاطون دليل أنهم يحكمون بظنٍ وتخمين، ولو كانت علومهم العقلية متقنة البراهين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا كما لم يختلفوا في علومهم الحسابية[(٢)].

فالعقول متفاوتة. ولا إجابة إلا ببعثة الرسل فهي التي تحسم الخلاف بين العقول.

قال الماوردي: "إن قضايا العقول قد تختلف فيما تتكافأ فيه أدلتها فانحسم ببعثة الرسل"[(٣)].

وتفاوت العقول ليس لتفاوت الأفهام فحسب، ولا لتفاوت القدرات والملكات فقط. بل إن العقل ذاته يتغير في كل لحظةٍ. فانظر إلى نفسك في يومك وأمسك وغدك. وانظر إلى ما كنت لا تعقله ثم عقلته ثم ربما غدًا لفظته أو عقِلت غيره. فهذا حالك وأنت **بعقلك لا بعقل غيرك تتقلب!**

ف: **"رحمة الله الكبرى هي النبوة والرسالة، وكل ما فيها خيرٌ مما يجمعون بعقولهم المختالة"**[(٤)].

فالمبالغة في تقدير العقل كذب. وحجْب العقل عن التفكير والنظر قد يؤدي إلى الكفر ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

فللعقل ميدانه؛ وآليات العقل لها مسالكها التي تجيدها، لكن هذه المسالك في بحرها هي لا في بحر غيرها. فإذا خرجت بها عن بحرها إلى بحر غيرها غرقت وأغرقت.

---

(١) تهافت الفلاسفة ٧٦.

(٢) المصدر السابق ص٧٦.

(٣) أعلام النبوة للماوردي ٢-٦٨.

(٤) الملل والنحل ٢-٢٥٢.

ومثال ذلك أن: العقل قد يدل على الامتنان والشكر للرزّاق الوهاب فهذه دلالة عقلية من النظر في الموجودات وتبّصر النعم التي لا تحصى، لكن العقل وحده لا يدل على كيفية شكر الخالق سبحانه، ولا طريقة ذلك، ولا شروط وأوقات العبودية الحقة!

فبالنص الشرعي وحده تقوم الحجة وتُعرف الطريقة ويرتقي العُبَّاد ويذل المتكبرون.

قال الشهرستاني -رحمه الله-: "المعارف قد تحصل بالعقل، ولكنها لا تجب إلا بالسمع -الأدلة الدينية-"[١].

فأنت لا تفهم ما يلزمك بعقلك. لكنك في الوقت ذاته تشعر بحاجتك إلى باريك وخالقك.

فهنا يكون **العقل سابق والوحي سائق!**

أضِف إلى ما سبق أن: العقل لا يدل على شيءٍ من الغيب ولا يعرف تفصيل الماوراء وجزئياته فضلًا عن مجمله فضلًا عن ثبوته أو نفيه!

قال ابن خلدون -رحمه الله- في مقدمته: "العقل ... لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمعٌ في محال، ومثال ذلك مثال رجلٍ رأى الميزان الذي يُوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يُدرك"[٢].

فالعقل لا يرصد إلا في نطاق آليات محيطه؛ ولا يُرتجى منه غير ذلك!

---

(١) نهاية الإقدام للشهرستاني ص٣٧١.

(٢) المقدمة ص٤٥٩.

ملحوظة: بعض الاقتباسات الواردة في هوامش هذا المقال من كتاب ""رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد"

لكن دعونا نتسائل: ما فائدة أن تعرف تفاصيل جزءٍ معينٍ من العلوم في نطاق محيطك وأنت جاهلٌ بأعظم مطلوبٍ؟

ما فائدة أن تعرف شعورك بالامتنان لرازقك ولا تقوم بواجبك؟

ما فائدة أن تشهد آيات الخلق وشواهد الحق وحِكَم النِعم بعقلك، ثم لا تعرف ردة فعلك الأصلح تجاه ذلك وغاية وجودك؟

فأي تخلفٍ وانحطاطٍ معرفيٍ يريد أن يعيشه هؤلاء منكرو الرسالات؟

كل خيرٍ في الوجود فمنشؤه من جهة الرسل

بدون الرسل والرسالات والإيمان بالنبوات، تتحول كل القيم في هذا العالم إلى غثاء.

بدون الإيمان بالنبوات يتحول الإنسان إلى مجرد نفاية نجمية star-stuff بلا قيمة كما يقول اللاأدري كارل ساغان(١).

بدون التسليم بصحة الرسالة تتحول كل الأشياء الجميلة إلى رعب ويصير الكون بلا هدف، وتصبح كل الغايات السامية هراء لا يُطاق(٢).

هذه مسلمات يتفق عليها الملحد والمؤمن!

فالعالم لا يستمد قيمته من ذاته.

ولذلك لا يرغب عن الإيمان بالله وبرسالاته إلا مَن أراد أن يدمر معنى وجوده، ويُسفه غايته في الحياة﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة:١٣٠].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "كل خيرٍ في الوجود فمنشؤه من جهة الرسول، وكل شر في العالم مختص بالعبد فسببه مخالفة الرسول أو الجهل بما جاء به، وأن سعادة العباد في معاشهم ومعادهم باتباع الرسالة، والرسالة ضرورية للعباد لابد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق

---

(١) Video Source: The Shores of the Cosmic Ocean [Episode ١].

Some part of our being knows this is where we came from. We long to return. And we can. Because the cosmos is also within us. We're made of star-stuff. We are a way for the cosmos to know itself. ٠٦ min ٠٤ sec.

(٢) cosmically inconsequential bundles of stardust, adrift in an infinite and purposeless universe.

حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاحٍ للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة.

وكذلك العبد ما لم تشرق فى قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة وهو من الأموات قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فهذا وصف المؤمن، كان ميتا فى ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشى به فى الناس.

وأما الكافر فميت القلب "في الظلمات"، وسمى الله تعالى رسالته روحًا، والروح إذا عُدم فقد فقدت الحياة قال الله تعالى: (﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]. فذكر هنا الأصلين وهما الروح والنور"[(١)].

فأي ضلالةٍ يحياها المرء بإنكاره للرسل والرسالات!

وكل البشر بفطرتهم وصبغتهم التي صبغهم الله عليها لديهم قناعة بالواجب الأخلاقي، حتى الملحدين منهم. لكن لا شيء مادي يعطي تبريرًا لهذا الواجب الأخلاقي.

فما مصدر هذا الواجب الأخلاقي؟

أيضًا: لا شيء مادي نستمد منه وخز الضمير الأخلاقي وشعورنا بالحرج حين نُخطيء!

وإذا لم تكن الرسالات موجودة فلا يمكنك أن تصف عمل ما بأنه "أخلاقي" أو عمل آخر بأنه "لا أخلاقي"، فقط يمكنك أن تقول هذا "يعجبني" وذاك "لا يعجبني".

فبمعزل عن الله والرسالات لا يمكنك أن تبرر الواجب والحق والعدل والقيمة!

فنحن في عالمٍ مادي غير معنيٍ بالأخلاق أصلًا!

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩-٩٣،٩٤.

فإما أن هذه الأخلاق سخف على أعلى درجة، وإما أنها تستمد معناها من عالمٍ آخر!

لذا فالرسالة هي روح هذا العالم، وهي نبضه الأوحد، وبغيرها يتحول العالم بكل صخبه إلى جثةٍ هامدة.

فالدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فالرسالة روح العالم ونوره وحياته.

وظاهرة الرسالات والنبوات هي من الظواهر التي يتوقف عندها التاريخ بالرصد والتعجب واليقين. فالرسالة ليست حدثًا فرديًا لا يتكرر.

ولا هي تطلعًا نفسيًا عند دعاتها بل هي على العكس من ذلك تمامًا، فكثير من الأنبياء كيونس وأرميا ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- توقفوا في بداية رسالتهم ورهبوا الموقف وابتعدوا، ولكن دعوتهم استولت عليهم أخيرًا، بعد أن تبين أنها دعوة من خارج أنفسهم.

فمقاومتهم في البداية تدل على التعارض بين اختيارهم والإرادة الإلهية العليا التي تطوق رغبتهم. وفي هذا دلالة قوية على استقلالية حجة الرسالة عن الرغبة الشخصية والنزعة النفسية.

أيضًا الرسالة ليست حدثًا فرديًا بل هي تتكرر في أصقاعٍ شتى وأزمانٍ متباينة؛ يقول مالك بن نبي -رحمه الله: "ثم إنَّ مبعث نبيٍّ ما ليس حدثًا فردًا ليكون غريبًا نَادرًا بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام واستمرار، ظاهرة تتكرر بالكيفية نفسها، وهذا يُعد شاهدًا علميًا يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتفقة مع العقل ومع طبيعة المبدأ "[(١)].

فهنا لك أن تسأل دعاة التجريب: ألا يعد تكرار ظاهرة الرسالة شاهدًا على موضوعيتها؟

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ [المؤمنون:٤٤].

---

(١) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية ص٨٧.

أما التثبت من صحة وجود الرسالة فيسير.

وترّصده جد بسيط.

وآياته متكاثرة لا تتوقف ولا يحصيها المتبصر!

ومدار التسليم بصحة الرسالة يتوقف على صدق مدعيها لا أكثر!

يقول الفيلسوف زكي نجيب محمود: " ليس مدار التسليم برسالة النبي على ما يقدمه من برهان عقلي، بقدر ما يكون مدار التسليم مبنيـاً على صدق صاحب الرسالة وأمانته"[(١)].

فمدعي الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم -لأنه رسول من عند الله-، وإما أن يكون من أنقص الخلق وأذلهم-لأنه ادعى بهتانًا عظيمًا-، فكيف يشتهب أفضل الخلق وأكملهم بأنقص الخلق وأذلهم؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "كل شخصين ادعيا أمرًا من الأمور أحدهما صادق في دعواه والآخر كاذب، فلابد أن يبين صدق هذا وكذب هذا من وجوه كثيرة، إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور"[(٢)].

ويقول رحمه الله في موضعٍ آخر من كتبه: "ليست المعجزة هي الشرط الأوحد للنبوة فمُدعي النبوة إما أن يكون أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ، ولا يُلبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين.

وقد أسلم السابقون الأولون أمثال أبي بكر الصديق وخديجة والمُبشَّرين قبل انشقاق القمر والإخبار بالغيب والتحدي بالقرآن ... وكثيرٌ من الناس يعلم صدقَ المُخبر بلا آية البتة ...وموسى بن عمران لما جاء إلى مصر وقال لهم إن الله أرسلني علموا صدقه قبل أن يُظهر لهم الآيات، وكذلك النبي لما ذكر حاله لخديجة وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، قال هذا هو الناموس

---

(١) من وحي كتاب موقف من الميتافيزيقيا، زكي نجيب محمود.

(٢) الاصفهانية ص٤٧٤.

الذي يأتي موسى، وكذلك النجاشي وأبو بكر علموا صدقه علمًا ضروريًا لما أخبرهم بما جاء به وما يعرفون من صدقه وأمانته.

مع غير ذلك من القرائن يوجب علمًا ضروريًا بأنه صادق، وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد تقترن به قرائن يُعرف بها صدقه بالضرورة فكيف بمن عُرف بصدقه وأمانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا مَن هو أصدقُ الناس أو أكذبهم وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني"[١].

فالاستدلال على صحة دعوى الرسالة أمرٌ يسير.

والنبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يدعِ أحد أنه كذِب ولو لمرةٍ واحدة!

فقد عجز البشر عن إظهار كذبةٍ واحدة في جميع عمره صلى الله عليه وسلم على تعدد مواقفه وكثرة أخباره.

"ما عهدنا عليك كذبًا قط"

"ما جربنا عليك كذبًا" ألم تكن هذه الجملة هي أول رد من المشركين في أول حوارٍ بينه وبينهم بشأن رسالته؟[٢].

بل ما اشتهر –صلى الله عليه وسلم– إلا بالصادق الأمين، ولذا فقد أخبر القرآن العرب أنهم ماكرين حين ينتكرون لرسالته صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون حاله قبل بعثته وأنه صادق وأمين ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩].

ولو تبصّرت الكتب السابقة لما ازددت إلى يقينًا!

---

(١) ثبوت النبوات عقلًا ونقلًا، شيخ الإسلام بن تيمية، دار ابن الجوزي، ص ٥٧٣، وبمعناه في نفس المصدر ص٣١٨.

(٢) انظر تفسير الطبري في قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤].

فقد عُرِّف النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضًا بالصادق الأمين في كتب الأسبقين.

ينقل سفر الرؤيا -آخر أسفار الكتاب المقدس- وهو السفر الخاص بنبوءات آخر الزمان، ينقل لنا صورة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- ونعته فيقول: " ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أمينًا وصادقًا، وبالعدل يحكم ويحارب"[(١)].

مَن هو الذي ركب الفرس وبالعدل كان يحكم ويحارب، وكان لقبه "الصادق الأمين"، وكان مبتعثًا من السماء -السماء مفتوحة- غيره -صلى الله عليه وسلم-؟

إن حجة الرسالة وحجة صدق الرسول هي من الحجج العقلية التي لا تتطلب من المرء أكثر من التسليم والإسلام!

---

(١) سفر الرؤيا إصحاح ١٩ عدد١١.

لا يستقيم إيمان عبدٍ يؤمن بأحد الأنبياء ويكفر بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم

لقد قام الأنبياء بدورٍ رئيس في تاريخ الإنسـانية، ومن خلال الأنبياء فحسب أصبح الإنسـان محورًا للتاريخ، ومعنىً للوجود، وغايةً كبرى في هذا الكون!

وعن طريق الإيمان بالأنبياء تـأكّد سمو الإنسان ومعنى قيمته وأصل مركزيته.

فكما قرّرنا من قبل: العالم بدون النبوات ظلامٌ دامس وغثاءٌ قاحل وصحراء مجدبة.

ولولا النبوات لما اطمئنت النفس ولا اهتدت البصيرة ولا رُزقت القلوب حياتها!

فبالنبوات تحيا القلوب وتطمئن النفوس وتهتدي البصائر.

فالحمد لله رب العالمين.

وكل جاهلٍ بالعلم الإلهي الذي بثّه الأنبياء جاهلٌ بأعظم مطلوبٍ في الوجود.

فحاجة العبد إلى الرسالة أعظم من حاجته لكل شيءٍ، فالرسالة ضرورية للعباد، لا بدَّ لهم منها.

ونبوة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- لم تكن بدعًا من النبوات قبله ﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٩].

فنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- جائت بترسيخ التوحيد واستمرار الشريعة وحفظ المصادر، واستقرار موازين الفضيلة وظهور الدين.

بل كان لنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- من كل هذا الحظ الأوفر والجناب الأسمى والمقام الأرفع!

فلن يجد الملحدة لأحدٍ مثل الذي لمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- في الأعجوبة والرفعة.

وشريعته -صلى الله عليه وسلم- لم يعترها ما اعترى سائر الشرائع بل هي في كل عصرٍ غضة طرية، ومنذ موته -صلى الله عليه وسلم- وحتى الآن لم تلزم الحاجة لمبعث رسولٍ آخر فالأحكام

تُقرأ ليل نهار كأنها للتو خرجت من فم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فمَن يُقر بجنس الأنبياء لا يبقى عنده أدنى شك في نبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-.

والذي يُكذب بنبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- هو بالأحرى يكذب بنبوة كل نبيٍ أخر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الذي يُكذب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم يُكذب بالطريق الذي عرفنا من خلاله صدق الأنبياء وصحة نبوتهم.

فإن الطريق الذي يعلم به نبوة موسى وعيسى يُعلم به نبوة محمد بطريق الأولى، فإذا قالوا علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا، قيل لهم معجزات محمد صلى الله عليه وسلم أعظم وتواترها أبلغ والكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أكمل، وأمته أفضل وشرائع دينه أحسن. **وموسى جاء بالعدل وعيسى جاء بتكميلها بالفضل وهو صلى الله عليه وسلم قد جمع في شريعته بين العدل والفضل.**

فإن ساغ لقائل أن يقول هو مع هذا كاذب مفتر كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك فيبطل بتكذيبهم محمدًا جميع ما معهم من النبوات، **إذ حكم أحد الشيئين حكم مثله فكيف بما هو أولى منه.**

فلو قال قائل إن هارون ويوشع وداوود وسليمان كانوا أنبياء وموسى لم يكن نبيًا أو أن داوود وسليمان ويوشع كانوا أنبياء والمسيح لم يكن نبيًا، أو قال ما تقوله السامرة أن يوشع كان نبيًا ومن بعده كداوود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء، أو قال ما يقوله اليهود إن داوود وسليمان وأشعيا وحبقوق وميخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء والمسيح بن مريم لم يكن نبيًا، كان هذا قولًا متناقضًا معلوم البطلان. فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوةً ممن أثبتوها له، **ودلائل نبوة الأكمل أفضل فكيف يجوز إثبات النبوة للنبي المفضول دون الفاضل**، وصار هذا كما لو قال قائل أن زفر وابن القاسم والمزني والأثرم كانوا فقهاء وأبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد لم يكونوا فقهاء، أو قال إن الأخفش وابن الأنباري والمبرد كانوا نحاة والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة، أو قال إن صاحب الملكي والمسيحي ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء

وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء، أو قال إن كوشيار والخرقي ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة وبطليموس ونحوه لم يكن لهم علمٌ بالهيئة.

ومن قال إن داوود وسليمان وميخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء، ومحمد بن عبدالله لم يكن نبيًا فتناقضه أظهر وفساد قوله أبين من هذا جميعه، بل وكذلك من قال إن موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله ومحمد ليس برسول والقرآن لم ينزل من الله فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمن تدّبر ما جاء به محمد وما جاء به من قبله، وتدّبر كتابه والكتب التي قبله وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء، وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء، وهذه الجملة مفصّلة مشروحة في غير هذا الموضع لكن المقصود هنا التنبيه على مجامع جوابهم، وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليلٍ واحدٍ يدل على صدق من احتجوا به من الأنبياء، فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم، ولا حجة لهم أيضًا على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء، **فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح في الأصل الذي به علموا صدقهم.**

وأيضًا فالطريق الذي به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم فكذلك تعلم نبوة محمد بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولى، فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحدٍ من هؤلاء مع تكذيبه لمحمد في كلمةٍ مما جاء به"[١].

ويقول في موضعٍ آخر: "فما من جنسٍ من الأدلة يدل على نبوة موسى والمسيح إلا ودلالته على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أقوى وأكثر، فيلزم من ثبوت نبوة موسى والمسيح ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومن الطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الطعن في نبوة موسى

---

(١) الجواب الصحيح ٢-٢٩،٢٦.

والمسيح"[١].

فلا يمكن التصديق بنبوة نبيٍ من الأنبياء مع التكذيب بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم.

والطريق الذي بها تثبت نبوة الأنبياء بمثلها وبأعظم منها بكثير تثبت نبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-.

بل إن التصديق بنبوته أولى من التصديق بنبوة غيره، وكل دليلٍ يُستدل به على نبوة نبيٍ، فمحمد -صلى الله عليه وسلم- حاز منتهى جنس ذلك الدليل.

وما ترتب على بعثته -صلى الله عليه وسلم- من تحقيق التوحيد ووضع شرائع العدل وغيرها من مقاصد الرسل أعظم من غيره وأجل وأكثر.

وبذلك يجب القطع بأن رسالته أتم وأعظم.

فلم يأت -صلى الله عليه وسلم- بنسقٍ خارجٍ على نسق الأنبياء قبله ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات:٣٧].

وإلا فمَن علّمه -صلى الله عليه وسلم- بطلان عبادة الأوثان؟

مَن علّمه بطلان عبادة الآلهة البشرية؟

-مع أن العرب ما عرفوا التقرب إلى الله إلا بوثنٍ أو ببشر!-

ومَن علّمه عصمة الأنبياء حتى يطهر مقامهم الشريف مما ألصقه به أتباعهم؟

من علّمه فضيلة ترك الزنا والخمر والربا وفواحش الأعمال -مع أن مدار أشعار العرب ومعلقاتهم التي بها يتباهون على الخمر والنساء والغزل-؟

من علّمه -صلى الله عليه وسلم- التقرب إلى الله بالطاعات؟

أليس كل هذا كان طريق الأنبياء قبله؟

---

(١) الجواب الصحيح ٢-٤٥.

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت:٤٣].

فلم يكن -صلى الله عليه وسلم- بدعًا من الرسل.

ولذلك مَن آمن بأحد الأنبياء وقرّر في نفس الوقت أن يكفر بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم فهو ضالٌ مفترٍ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [آل عمران:٩٠].

يقول الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله في تفسير الآية: (إن الذين كفروا) بعيسى (بعد إيمانهم) بموسى (ثم ازدادوا كفرًا) بمحمد (لن تقبل توبتهم) إذا غرغروا أو ماتوا كفارًا (وأولئك هم الضالون).

فالذين وصلتهم البينات الظاهرات على صدق النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهم يعرفون حال الأنبياء من قبله ثم شهدوا حاله، وبعد ذلك أنكروا رسالته فأولئك هم الظالمون ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:٨٦].

وقد جاء وفدٌ من النصارى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم وفد نجران، وأرادوا مباهلته. لكن لما شهدوا حاله وحال رسالته ومشابهتها لرسالات الأنبياء من قبله نكصوا عن المباهلة وخافوا.

وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران:٦١].

والمباهلة أن يقولوا: اللهم العن الكاذب في شأن عيسى وقد وافقهم -صلى الله عليه وسلم، وبالفعل خرج ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي، وقال لهم: إذا دعوت فأمِّنوا، فقالوا: حتى

ننظر في أمرنا ثم نأتيك فقال ذو رأيهم: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدًا نبيٌ مرسل، وأنه ما باهل قومٌ نبيًا إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوا وصالحوه على الجزية! [(١)].

تخيل!

تخيل صالحوه على الجزية، في مقابل ألا يدعو عليهم؟

أي حجمٍ من المكابرة والعناد وصل إليه هؤلاء!

وعن ابن عباسٍ قال: لو خرج الذين يباهلون لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا!

فهؤلاء الذين شهدوا صدق الرسالة لا حجة لهم في كفرهم ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [آل عمران:٧٠].

فلا يستقيم إيمان عبدٍ يرفض رسالة ربه ويمتنع عن قبول بعض الرسل، بينما يرض بآخرين.

قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ [الحديد:٢٨].

(يا أيها الذين آمنوا) بعيسى (اتقوا الله وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى [(٢)].

فدعوة الإسلام دعوة لا يمكن لعاقلٍ أن يردها!

---

(١) نقلًا عن تفسير البغوي.

(٢) نقلًا عن تفسير الإمام جلال الدين المحلي للآية.

صفته ونعته -صلى الله عليه وسلم-

الذي يظن أن إقناعًا لعقول الناس تم بالسيف، أو أن ترك هؤلاء الناس لدينهم كان رغبةً فقط أو رهبةً من أمرٍ دنيوي، هو واهمٌ جاهل.

فأي أمةٍ هذه التي تركت ما ينعقد عليه قلبها -دينها- من أجل خوفٍ طاريء؟

وأي جيلٍ هذا الذي يستسلم عن بكرة أبيه ويتحول إلى عاملٍ مخلصٍ في خدمة دينٍ جديد لمجرد تلويحٍ بسيفٍ؟

إن هذه الفروض التي يطرحها الملحدة الجدد لتبرير تحوّل حضارات الأرض في ظرف جيلٍ واحد -جيل الصحابة- إلى الإسلام، وذوبان عقائد الكفر من القلوب بشواهد الحق لهي فروضٌ تسيء لأصحابها أكثر مما تحفظ لهم كفرهم!

وقد آمن بمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- أهل مكة وأهل المدينة وأهل البحرين وأهل اليمن ولم يعط واحدًا منهم درهمًا، ولا كان معه ما يخيفهم.

وقد أسلم الجلندي ملك عمان زمن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا خوفًا من سيفٍ ولا حبًا في رياسة. بل كان إسلامه لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمر بالخير ويفعله، وينهى عن الباطل ويجتنبه؛ قال الجلندي: "لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخيرٍ إلا كان أول آخذٍ به، ولا ينه عن شر إلا كان أول تاركٍ له... وأنه يفي بالعهد وينجز الوعد وأشهد أنه نبي"[(١)].

وأسلم النجاشي ملك الحبشة حين سمع جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- يتلو شيئًا من سورة مريم. فقال: "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة"؛ ثم بكى حتى

---

(١) كما ورد بتفصيله في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، والشفا للقاضي عياض باب: فيما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات و شرفه به من الخصائص و الكرامات.

اخضلت لحيته![1].

أما باذان عامِل كسرى على اليمن فقد أسلم بعد أن شهد معجزةً حيةً لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– وذلك أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أخبر رُسل باذان بهلاك كسرى بعد أن مزّق رسالة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. ولم يصدقا فعادا إلى باذان، وانتظر باذان الخبر من بلاد الفرس، فجاء الخبر بعد شهورٍ بمقتل كسرى في تلك الليلة التي حددها النبي –صلى الله عليه وسلم –، فأسلم باذان، وأسلمت حكومته، وأسلم أهل اليمن بإسلامهم، وجاء وفدٌ من أهل اليمن يتعلمون الإسلام وهم الذين أرسل فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل[2].

فالذي يظن أن سيفًا رُفع لإسلام تلك الأمم فقد أبعد النُّجعة، بل ما رُفِع السيف أولًا إلا في وجه الإسلام. ولم يكن ينشغل المكذبون برسول الله –صلى الله عليه وسلم– بشيءٍ إلا للتخطيط لهدم الدعوة وقتل قائدها صلى الله عليه وسلم بأي ثمنٍ.

فقد حوربت الدعوة منذ اللحظة الأولى بالسيف تارةً وبالمكر تارات، والنبي –صلى الله عليه وسلم– كان يعلم من شأن الأنبياء قبله أن كثيرًا منهم قد قُتل. فلم يرده ذلك ولم يجعله يجزع بل صبر وصابر ودعا وأصلح وهادن ورفق بهم ودعا لهم.

وقد أقام بقلةٍ قليلةٍ من أصحابه طيلة ثلاثة عشر عامًا بين قومٍ يريدون استئصال شأفته هو أتباعه.

فقد جائهم بدينٍ يخالف فيه عهدهم ويسفه أحلامهم. وكان يقرأ في مجامعهم القرآن وفيه عيبهم وعيب آلهتهم.

وكان يخرج إلى المواسم ويقوم في المحافل ويبرز إلى القبائل يدعو لتوحيد النبيين من قبله ويحذر من الشرك وأهله، كل هذا وقريش ترصده وتتبعه برجالاتها ودهاتها. ويصدون الناس عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١/ ٢٠٢ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رجاله رجال الصحيح.

(٢) البداية والنهاية، الجزء الثاني، ما آل إليه أمر الفرس باليمن.

دعوته بل ويأمرون الحجيج أن يضعوا الكرسف –القطن– في آذانهم حتى لا يسمعوا للقرآن وهو يتلوه لئلا يتأثر العرب به![(١)].

وظلوا يمكرون به ويحاولون اغتياله المرة تلو المرة ويمكرون بصاحبته ويقتلونهم ويعذبون من آمن معه، وحبسوه في شعب أبي طالبٍ أربع سنواتٍ، وحاصروا داره وألقوا على كتفه القذر ومكروا به كل مكرٍ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم:٤٦].

وقد تضرع أهله إليه أن يلين لقومه من قريش، وأن يتوقف عن عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم فلا يزداد إلا إبطالًا للباطل وإحقاقًا للحق[(٢)].

وقد تلونت الأحوال عليه –صلى الله عليه وسلم– من غنىً وفقرٍ وسلمٍ وخوفٍ وأمنٍ وإقامةٍ وقتل أحبائه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بالحبس والتجويع والقهر والإغراء ومحاولة القتل، فهو في مجموع التعذيب والأذى لم يُعذب نبي ولم يؤذ نبيٌ مثل ما أوذي –صلى الله عليه وسلم–[(٣)].

وللمرء أن يتسائل: لماذا مع الترهيب الذي تعرض له في بداية دعوته لا يتوقف عن الدعوة؟

فضَرَبه الصبيان في الطائف حتى أُدمي رأسه ورجله الشريفة، ودخل مكة في جوار مطعم بن عدي ثم رد جواره ، ورُمي أمعاء الجزور عليه ، وعانى وأتباعه الجوع والحصار لمدة ثلاث سنواتٍ في شعاب مكة حتى أنه كان يربط الحجرين على بطنه من شدة الجوع.

---

(١) كما ورد في قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه، يُنظر: البيهقي في دلائل النبوة (٢١٠٨).

(٢) الفقرة من وحي كتاب"رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد".

(٣) م.س.

وقال صلى الله عليه وسلم -بأبي وأمي ونفسي- : " لقد أُخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتت علي ثلاثون من بين ليلة ويوم ، وما لي ولبَلال طعام يأكله ذو كبد ، إلا شيء يواريه إبط بلال"[(١)] .

كل هذا يجري في الوقت الذي يعرض عليه الكفار الرياسة والمال، لا مقابل أن يتنازل عن دعوته، بل مقابل أن يتركهم وآلهتهم وألا يُسفه عقيدتهم!

لكن دعوته كانت وحيٌ يوحى ليست مِن قِبل نفسه حتى يتركها لأفضل العروض المتاحة!

فكان -صلى الله عليه وسلم- أمام كل هذه الفتن قويًا في الحق لا يخش لومة لائمٍ.

وظل طيلة حياته ثبتًا حين الكرب الشديد، لا يفر ولا يجزع. يقول علي بن أبي طالبٍ -رضي الله عنه- : "كنا إذا حمي الوطيس واحمرت الحُدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب من العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدرٍ ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا للعدو"[(٢)] .

أما عبادته وذكره لربه على كل أحواله، وقيامه حتى تتفطر قدماه، ووصاله الصوم وتصدقه بكل ماله وإحسانه إلى أهل بيته وإلى جيرانه، وتفقد أحوال أصحابه؛ فهذا مما سارت بأحاديثه ومروياته الركبان.

فكيف يستقيم في عقلٍ زهده -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا ؛ وتصور الملحدة أنه طلب الدنيا بالسيف!

وكان زهد النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا زهد من ملكها وهي راغمةً لا زهد من عجز عنها.

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٤٧٢).

(٢) رواه أحمد.

فلم يشبع -صلى الله عليه وسلم- من خبز الشعير ثلاثة أيامٍ تباعًا حتى فارق الدنيا[(١)].

وكان يمر الهلال والهلالان ولا يطعم سوى التمر والماء[(٢)].

ولم ينم -صلى الله عليه وسلم- على الفرش الناعمة؛ وقد دخل ابن مسعودٍ يومًا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأثر الحصير بأحد جنبيه فبكى على حال محمدٍ -صلى الله عليه وسلم.

فقال: ما يبكيك يا عبد الله؟

قال: يا رسول الله كسرى وقيصر في الحرير والديباج. فقال -صلى الله عليه وسلم- : لا تبكِ يا عبد الله فإن لهم الدنيا ولنا الآخرة، وما أنا والدنيا ومثلي ومثل الدنيا إلا كراكبٍ نزل تحت شجرةٍ وتركها[(٣)].

فقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على جلدٍ حشوه الليف ومات ودرعه مرهونةٌ عند يهودي[(٤)].

فعندما يتهمه الملحدة بطلب الدنيا فاعلم أنهم لا يعرفون شيئًا عن سيرته. فكيف يرضى بالعيش الكدر وكانت الدنيا تحت يده ولم يمت إلا وجزيرة العرب تدين بالإسلام.

أما عن رحمته -صلى الله عليه وسلم- بأمته؛ فانظر إلى رواية معاوية بن الحكم السُّلمي، حين يقول: بينا أنا أُصلِّي مع رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - إذ عَطَس رجلٌ من القوم، فقلتُ: يرحمك الله، فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثُكل أُمِّياه! ما شأنكم تنظرون إليَّ؟! فجعلوا

---

(١) رواه البخاري (٤٩٥٥).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩). واللفظ من: الزهد لابن أبي عاصم (١/ ٢٠٠).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣).

يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلمَّا رأيتهم يُصمِّتونني، لكنِّي سكت.

فلمّا صلَّى رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ معلِّمًا قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليمًا منه، فوالله ما كَهَرني ولا ضَرَبني ولا شتمني، قال: «**إنَّ هذه الصَّلاةَ لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنَّما هو التسبيحُ والتكبير، وقراءة القرآن**»[(١)].

وقد جذبه أعرابي من ثيابه جذبةً أثرت في صفحة عنقه –صلى الله عليه وسلم– وقال له: يا محمد مر لي من مال الله الذي عنده فإنه ليس مالك ولا مال أبيك.

فالتفت إليه –صلى الله عليه وسلم– وضحك وأمر له بالعطاء[(٢)].

فقد كان صلى الله عليه وسلم حكيمًا في معالجة الأمور.

دائم البِشر سهل الخلق سمح الوجه، يخزن لسانه لإحقاق الحق وإبطال الباطل، عظيم الكرم سخي الروح، فيجيب دعوة العبد ويأكل مع المجذوم ويحلب شاته ويخدم نفسه صلى الله عليه وسلم.

وقد أوتي –صلى الله عليه وسلم– من الحِكم البالغة والعلوم الكثيرة وعلّم التشريعات الشاملة الجامعة في كل صغيرةٍ وكبيرة في أمور الدنيا والدين وهو أمي من بيئةٍ أمية.

فبُعث –صلى الله عليه وسلم– بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع[(٣)].

وجاء القرآن لا على مقاسه هو ولا على مقاس بيئته ولا نزولًا على رغبات أصفيائه وصحابته، وإنما كان يأتي معاتبًا ومصححًا ومفسرًا ومعلمًا وهاديًا.

فالمدّعون من البشر والراغبون في العلو في الأرض يحاولون قدر الإمكان إخفاء عيوبهم لستر حقيقة أمرهم على الناس، أما النبي –صلى الله عليه وسلم– فما أكثر الآيات التي تصحح

---

(١) رواه مسلم (٨٤١).

(٢) أخرجه النسائي (٤٧٧٦) وأبو داود (٤٧٧٥).

(٣) الفقرة من وحي كتاب"رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد".

وتعاتب على مواقفه -صلى الله عليه وسلم- مثل أول سورة عبس والتحريم والآيات في أسارى بدر.

أيضًا لو تبصّرت إلى حاجته الماسة -صلى الله عليه وسلم- لنزول الوحي في لحظاتٍ عصيبة ليقطع ألسنة المشركين والمشككين وإذا بالآيات تتأخر جدًا ولو كانت من عند نفسه لما تأخرت.

صلى الله عليه وسلم!

وفي الأخير: أخبر الله عز وجل بنصر نبيه، وأخبر بسيادة دينه وانتشاره، وديانات العرب قائمة وملوكهم على جزيرة العرب مستولية، وكانت ممالك الهند وكسرى والقسطنطينية مما لا يحلم العرب أن يروه فضلًا عن أن تنتشر كلمتهم فيه.

فركب جيله -صلى الله عليه وسلم- البحار وأخرجوا الروم من مصر والشام وأرض المغرب.

وكانت العرب قبلها بقليل تسخر حين تسمع أن هذا الرجل سينتصر ويبطل الباطل في شرق الأرض وغربها، وكانوا يعتبرون انتصاره من قبيل هدم الجبال الشم الرواسي بريشةٍ تطير[1].

بل أخبر الله في كتابه أن نصر نبيه وانتشار دينه حقٌ قادم، وأن مَن ظن خلاف ذلك فليشنق نفسه ليهدأ غيظه ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحج:١٥].

فقد أخبرت الآيات أن نصره -صلى الله عليه وسلم- قادمٌ لا محالة، وهو ما وقع بتمامه!

---

(١) م.س.

شيءٌ من آيات نبوته -صلى الله عليه وسلم-

أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بعجائب الأمور ومغيبات الأحداث والأحوال فوقعت كما أخبر.

وكانت هذه الشواهد دليلًا على صدق صاحب الرسالة والتأييد الإلهي!

فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أم حرام بنت ملحان أن أُناسًا من أمته سيركبون البحر غزاةً في سبيل الله، وستكون هي أول الشهداء في غزاة البحر وقد كان كما أخبر -صلى الله عليه وسلم[1].

حيث ركبت البحر في خلافة عثمان بن عفان وماتت شهيدةً ودفنت هناك، وجامع أم حرام في قبرص معروفٌ إلى اليوم![2].

وأخبر -صلى الله عليه وسلم- أننا سنقاتل الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كأن وجوههم المجال المطرقة؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهؤلاء الطوائف كلها قاتلهم المسلمون وهؤلاء هم التتار وهذه هي صفتهم"[3].

وأخبر -صلى الله عليه وسلم- بحدوث الردة، مع أن هذا كان مستبعدًا تمامًا في عصره، وكان الناس يأتون للدين أفواجًا وتُسلخ ظهورهم لتركه فما يزيدهم هذا إلا تمسكًا وقد كان[4].

وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بشهادة عمرَ وعثمانَ وعلي وطلحة والزبير -رضي الله عنهم أجمعين-، وأنهم لن يموتوا على فُرُشِهم أو سواه مما يموت به الناس.

فقد صعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على حراء ذات يوم هو وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ

---

(١) متفق عليه. البخاري (٢٦٣٦) ومسلم (١٩١٢).

(٢) أعلام النساء، عمر رضا كحالة، أم حَرَام بنت مُلحان..

(٣) الجواب الصحيح ٢-٨١.

(٤) رواه مسلم (١١٤).

وعليُ وطلحةُ والزبيرُ، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**اهدأ، فما عليك إلا نبيٌّ أو صديقٌ أو شهيد**»[(١)] .

فشهد -صلى الله عليه وسلم- لنفسه بالنبوة، ولأبي بكرٍ بالصديقية، ولعثمانَ وعليَ وطلحةَ بالشهادة وقد كان.

وذات يومٍ مرِض علي -رضي الله عنه- مرضًا شديدًا، فزاره أبو سنان الدؤلي، فقال له: لقد تخوفنا عليك يا أمير المؤمنين في شكواك هذه.

فقال له علي: لكني والله ما تخوفتُ على نفسي منه، لأني سمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- الصادقَ المصدوقَ يقول: «**إنك ستُضرب ضربةً ها هنا، وضربةً ها هنا - وأشار إلى صُدغَيه - فيسيل دمها حتى تختضب لحيتُك، ويكونَ صاحبها أشقاها، كما كان عاقر الناقة أشقى ثمود**». وهذا الذي كان مع علي -رضي الله عنه-[(٢)] .

وتقبل فاطمة بنت النبي -صلى الله عليه وسلم- تمشي، فيقول لها أبوها: «**مرحبًا بابنتي**»، تقول أم المؤمنين عائشة: ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليهًا حديثًا، فبكت، ثم أسرَّ إليها حديثًا فضحكتْ.

فقلت لها: ما رأيتُ كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فسألتُها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأُفشي سِرَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فلما قُبِض النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- سألتُها، فقالت: "أسرَّ إليّ: إن جبريل كان يعارضني القرآن كلَ سنةٍ مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أولُ أهلِ بيتي لحاقًا بي، فبكيتُ، فقال صلى الله عليه وسلم: أما ترضَينَ أن تكوني سيدةَ نساء أهل الجنة أو نساءِ

---

(١) رواه مسلم ح ٢٤١٧.

(٢) رواه الحاكم (٣/ ١٢٢)، والطبراني في الكبير ح (١٧٣). قال الهيثمي: إسناده حسن.

المؤمنين، فضحكتُ لذلك"[(١)].

ومن هؤلاء الذين تحدّث النبي -صلى الله عليه وسلم- عن وفاتهم، سِبطُه الحسين بن علي ريحانة أهل الجنة، فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لإحدى أزواجه: «**لقد دخل عليّ البيت ملَك لم يدخل عليَّ قبلَها فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتُك من تربة الأرض التي يقتل بها. قال: فأخرج تربةً حمراء**»[(٢)].

وأخبر -صلى الله عليه وسلم- بموت النجاشي في أرض الحبشة في يوم وفاته، وهذا خبرٌ تحمله الركبان يومذاك في شهرٍ، يقول أبو هريرة -رضي الله عنه-: «**نعى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى، فصفّ بهم، وكبر أربعًا**»[(٣)].

وفي اليوم السابق ليوم بدرٍ، تفقد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أرض المعركة المرتقبة، وجعل يشير إلى مواضع مقتل المشركين فيها، ويقول: «**هذا مصرع فلان**».

قال أنس: ويضع يده على الأرض هاهنا هاهنا. فما ماطَ أحدهم عن موضع يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[(٤)].

ومن عجيب ما جرى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن سوء خاتمة رجلٍ قاتل مع المسلمين فأحسن البلاء والجلاد، يقول أبو هريرة -رضي الله عنه- : شهدنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال لرجلٍ ممن يدعي الإسلام: «**هذا من أهل النار**».

يقول أبو هريرة: فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالًا شديدًا، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الذي قلتَ له: إنه من أهل النار؛ فإنه قد قاتل اليوم قتالًا شديدًا، وقد مات!

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٢) السلسلة الصحيحة ٨٨٢.

(٣) رواه البخاري (١٢٥٤).

(٤) رواه مسلم (١٧٧٩).

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إلى النار**».

قال أبو هريرة: فكاد بعض الناس أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحًا شديدًا.

فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فقتل نفسه، فأُخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فقال: «**الله أكبر، أشهد أني عبدُ الله ورسولُه**»، ثم أمر بلالًا فنادى بالناس: «**إنه لا يدخلُ الجنة إلا نفسٌ مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجلِ الفاجر**»[(١)].

وأخبر -صلى الله عليه وسلم- بمقتل أحد المتنبئين الكذبة على يد رجلٍ صالح!

وأصل القصة في البخاري. قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**قتَل الأسود العنسي الليلة رجلٌ صالحٌ من قومٍ صالحين**».

وبالفعل ففي تلك الليلة هلك الأسود العنسي على يد فيروز الديلمي باليمن.

وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأمر بقاء أمة الروم فقال: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**»[(٢)].

والروم -الشعب المعروف وما يلحق به من نصارى- هم اليوم أكثر الناس[(٣)].

وأنت لو تدّبرت الأحاديث الصحاح التي جائت فيها أخبار آياته ومعجزاته -صلى الله عليه

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٨٩٨).

(٣) أمة الروم هي أكثر أمم الأرض، بعدد تقريبي ٢,٢ مليار نسمة، ثم المسلمون بعدد تقريبي ١,٦ مليار نسمة.

http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_religious_populations

وسلم- لوجدت أن منها متواترًا لا يرق إليه شك رجلٍ باحثٍ عالمٍ في معنى نقل الحديث![١].

فمثلًا حديث حنين جذع النخلة شوقًا إلى محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- وسماع الصحابة بكاؤه وأنينه حتى ضمّه النبي -صلى الله عليه وسلم- فسكت. فهو حديثٌ متواتر شهده الصحابة الكثر، وأخبر به كما في الصحاح عشرة صحابة مختلفين إلى مئات التابعين فهو في أعلى درجات الصحة[٢].

وحديث لجوء الجمل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يشكو إليه تعذيب صاحبه له وعيناه تدمعان حديثٌ متواتر نقله جماعة من الصحابة إلى مئات التابعين[٣].

أما معجزة انشقاق القمر فهي أيضًا من المتواتر، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ سورة القمر في المجامع الكبار كالجُمع والأعياد ليُسمع الناس ما فيها من معجزاته -صلى الله عليه وسلم- وكان يستدل بها على صدق نبوته.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك في زمنه -عليه الصلاة والسلام- ، وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها

---

(١) شروط التواتر التي تتفق العقول على أنها توجب علمًا ضروريًا هي:

أ- عددٌ كثير أحالت العادة تواطؤَهم، أو توافُقَهم، على الكذب.

ب- رووا ذلك عن مثلهم من الابتداءِ إلى الانتهاءِ.

ج- وكان مُسْتَنَدُ انْتِهائِهم الحِسَّ.

ومتى تحققت الشروط الثلاثة تحقق التواتر ولزم منه علم ضروري لا مجال لإنكاره أو لتكذيبه. وهذه شروط عقلية يقتضيها التقصي العقلي للخبر!.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ص٣٠٦.

(٣) رواه مسلم (٣٤٢)، وأبو داوود (٢٥٤٩)، وأحمد (١٧٤٥)، والحاكم(٢-١٠٩).

ونظر فيها"[١].

وحديث نبع الماء بين أصابعه الشريفة -صلى الله عليه وسلم- هو أيضًا من المتواتر الذي شهده جمعٌ كبيرٌ من الصحابة ونقلوه إلى مئات وآلاف التابعين، فقد توضأ ألف وخمسمائة صحابي وشربوا من الماء الذي نبع بين أصابعه الشريفة -صلى الله عليه وسلم-، وقالوا لو كنا مائة ألفٍ لكفانا[٢].

وقد روى الحديث جمعٌ غفيرٌ ممن يُحرمون الكذب ويرونه فاحشة فكيف يجتمعون على الكذب في خبرٍ كهذا؟

قال رحمت الله الهندي رحمه الله: " نبع الماء من بين أصابع النبي -صلى اللهّ عليه وسلم- في مواطن متعددة، وهذه المعجزة أعظم من تفجر الماء من الحجر كما وقع لموسى -عليه السلام-، فإن ذلك من عادة الحجر في الجملة، وأما من لحمٍ ودم فلم يعهد من غيره -صلى اللهّ عليه وسلم-"[٣].-١٩-

أما تكثير الطعام اليسير ليطعم منه الجيش العظيم فقد جائت به الأخبار المتواترة عن الصحابة فمَن بعدهم. وقد ذكر البخاري وحده هذه الأخبار في خمسة مواضع من صحيحه[٤].

وتسليم الحجر عليه -صلى الله عليه وسلم- وتسبيح الطعام بين يديه وارتجاف الجبل مهابةً

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣/ ١١٨.

(٢) فتح الباري (١/ ٥٤٠).

(٣) إظهار الحق، رحمت الله الهندي، ص٣١.

(٤) البخاري (١٢١٧)، البخاري (٢٦١٨)، البخاري (٣٥٧٨)، البخاري (٤١٠١)، البخاري (٦٤٥٢). وكلها أحداث ووقائع مختلفة متباينة وهذا في البخاري وحده!.

له، هي أخبارٌ رواها الشيخان واتفقوا على صحتها[١].

فكل هذه الأحاديث من المتواتر الذي يُشَك في عقل مكذبه، ويتهم منكره. فما أعلى وثوقية النقل وما أعظم المعجزات التي تقطع بأن نبوته -صلى الله عليه وسلم- على أعلى درجات النبوة.

فالذي يجزم أن عيسى جاء من عند الله أو أن موسى كان نبيًا ثم يكفر بنبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- لهو أكذب الخلق!

فأدلة نبوته -صلى الله عليه وسلم- مما تعجز عن جمعه القراطيس وفي كل زمانٍ تنفتح للعلماء أدلة جديدة تُنير دروب المتبّصرين!

---

(١) يقول عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: "لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل". أي بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم-. البخاري (٣٥٧٩).

الفصل الثالث

الظاهرة القرآنية تتحدى الملحدين

"أوجدت الظاهرة القرآنية من الهباء أُمةً ضخمةً واستبقت على القرون جيلًا من الناس ما كانوا ليدخلوا التاريخ أبدًا لولا نهوض هذه الظاهرة بهم"

الظاهرة القرآنية تتحدى الملحدين

لا يوجد كتاب نزّه الخالق وقدّسه وأمر بالتوحيد والتصديق بالرسل وتنزيههم عن كل نقيصةٍ، والحث على الصالحات الباقيات مثل القرآن؛ منذ كانت الدنيا.

فالقرآن منسوجٌ بالتوحيد والنبوات والغيبيات والحِكم والفقه والتشريع والآداب، كل هذا بحبكةٍ لغويةٍ ونسجٍ لم تعهده العرب[1].

وكم من ملايين القناطير المقنطرة من الذهب والفضة دُفعت لمحو القرآن، وإذهاب أثره عن القلوب، وتشتيت أتباعه وتشويه مراده عبر الأزمان، طمعًا أن يُفعل به ما فُعل بالكُتب من قبله.

فبقي رغم كل المحاولات رافعًا أعلامه حافظًا أحكامه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٦].

وإذا أنعمت النظر في دين النصارى وجدت أن كل شرائعهم مبدلة محرفة محدثة، فلم يكن المسيح عليه السلام يعرف كنيسةً فضلًا عن أن يبنيها فضلًا عن أن يضع قوانينها، ولم يكن يعرف ناقوسًا ولا صليبًا ولا أسرارًا ولا مطانيات -السجود للقساوسة-، ولا أيقونات -صور قديسين-، ولا مراتب كنسية ولا طقوس كهنوتية. وليس في الإنجيل الذي بين أيدي النصارى اليوم شيءٌ من ذلك!

فهي تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان.

ولو انتقلت إلى التوراة لوجدت أن العمل بها صار من الصعوبة بمكان. حيث شدّد اليهود على أنفسهم فما أطاقوا؛ وطقوس التطّهر والنجاسة عندهم تحتاج إلى قرابين وانعزالية تامة عن

---

(١) الفقرة من وحي كتاب: "رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد".

الحياة!

وقد تعلقت أحكام التوراة بالهيكل السليماني والمذبح وقد خرِب الهيكل ولا أحد يعرف له مكانًا، وهُدم المذبح وزال أثرهما من الوجود وهذا برهانٌ واضح على نسخ الشريعة.

أما الهندوس الذين يتردون من الجبال ويحرقون الأجساد ويغرقون في الماء من أجل التطهر فلم يبتعدوا كثيرًا عن طقوس اليهود، ولو أراد الله بعباده الهلكة للتطهر ما أذِن لهم في صنعة لبوسٍ لتحصنهم من بأسهم. ولما أوجد لهم سرابيل تقيهم الحر! [(١)].

ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فليس في التوراة ولا الإنجيل مماثلًا لمعاني القرآن:

لا في الحقيقة.

ولا في الكيفية.

ولا الكمية.

بل يظهر التفاوت لكل مَن تدبر القرآن وتدبر الكتب"[(٢)].

فالقرآن رسالة "اليسرى" للأمم؛ يقول الإمام جلال الدين المحلي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى:٨].

لليسرى أي: للشريعة السهلة وهي الإسلام.

ولو انتقلت إلى معاني القرآن لوجدتها غير محدودةٍ.

وعلومه غير محصورةٍ ولا معدودةٍ.

---

(١) الإعلام بمناقب الإسلام، أبو الحسن العامري، ص١٣٧.

(٢) الجواب الصحيح ٥- ٤٣٥.

فقد اتسع مجاله لكل فن.

يقول الألوسي رحمه الله: "فأنت تجد في كتاب الله أخبارًا وأحكام ومواعظ وأمثال وأخلاق وآداب، وترغيب وترهيب ومدح الأخيار وذم الفجار، وتدبير السياسات ومجادلة الأخصام وإقامة الدلائل على أصول الاعتقاد وإزالة الريب، ووصف الغيب ووصف عوالم الأرض والسماوات، خارجًا بكل ذلك في حسن نظمه عن كل أسلوب فلا هو من الأراجيز البدوية ولا القصائد العربية فكلما تكرر حلا، وسمعته من أي الأفواه غلا مع اقتران معانيه المتغايرة فينقلك من الوعد إلى الوعيد ومن ماضٍ إلى حاضرٍ ومستقبل، ومن حكم إلى جدل، فلا ينبو ولا يتنافر بل تتجانس معانيه في بنيةٍ نظميةٍ بديعة"[(١)].

وإعجاز القرآن ليس في بلاغته فقط كما يظن الملحدة.

ولا في لفظه فقط.

ولا في معانه فقط.

بل إعجاز القرآن يشمل اللفظ والمعنى والبلاغة، وينتقل إلى العلوم والأحكام والتشريعات وتحليل النفس وسبر أغوارها وإشباع مراداتها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فالإعجاز في معناه –القرآن الكريم– أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه"[(٢)].

وانظر إلى عبارته الأخيرة – رحمه الله– والتي تُسبك بماء الذهب: " وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه".

فالقرآن معجزٌ وإعجازه لا يتوقف؛ فهو معجزٌ بلفظه ومعناه ومعارفه وفنونه وعلومه.

---

(١) الدلائل العقلية/ الألوسي، مخطوط.

(٢) الجواب الصحيح ٥– ٤٣٤.

ولم يقدر أحد من العرب أن يأتى بمثله في لفظه ولا غير العرب في معانيه.

وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة.

أما إعجاز القرآن البلاغي فلأنه:

جاء بأفصح الألفاظ.

في أحسن نظوم التأليف.

مضمنًا أصح المعاني.

فاللفظة الواحدة من القرآن لو أخذتها وأدرت لغة العرب كله لتحصل على لفظةٍ أحسن منها ما استطعت[١].

ولو أردت أن تؤلف بكلماتٍ أخرى غير كلمات القرآن لتوازي حسن تأليفه وحبكته ورونقه لشهدت له بالنصر وعلى نفسك بالعجز.

انظر إيجاز اللفظ مع دقة المعاني وكثرتها وتلاؤم الكلام في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٤٤].

وانظر إلى الإيجاز القرآني المعجز في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات:١٠٣].

وتفسير الآية: (فلما أسلما) خضعا وانقادا لأمر الله تعالى (وتله للجبين) صرعه عليه ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة وكان ذلك بمعنى وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئا بمانع من القدرة الإلهية[٢].

---

(١) الفقرة من وحي "رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم"؛ م. س.

(٢) تفسير الجلالين للآية.

هل تستطيع أن تأتي بهذا المعنى المطلوب بنفس هذا العدد من الكلمات في إطار حبكةٍ بلاغية لا تنبو عن سير الآيات قبلها وبعدها؟

ولو انتقلت عن لغة العرب وأردت أن تترجم كلمة مثل " أنلزمكموها" في قوله تعالى ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود:٢٨].

فأنت تترجمها بعد أن تتفكك ويخفت رونقها إلى سبع كلماتٍ بالإنجليزية Shall we compel you to accept it.

وحبكة اللفظ القرآني واستيعابه للمعنى التام مما سارت بأمثاله الركبان. أنظر إلى كلمة " فأسقيناكموه" في قوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر:٢٢].

لفظة واحدة بها حرف عطف، وفعل وفاعل، ومفعول أول ومفعول ثانٍ.

ولذا عندما سمع العرب الأقحاح كتاب الله عز وجل خطف أسماعهم بقوة تأثيره ورقراق بلاغته؛ فعن جبير بن مطعم عن أبيه حين سمع قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧].

قال: كاد قلبي أن يطير![1].

إن كل هذا ليقطع بأن الظاهرة القرآنية ما جائت إلا لتتحدى وتهدي وتُصلح!

---

(١) صحيح البخاري، ٤٥٠١.

لم يزل القرآن يقرع المشركين البلغاء أشد التقريع، ويُسفه أحلامهم، ويذم آلهتهم، ويتحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ من مثله، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته.

بل لقد قال الله عز وجل للمشركين: ﴿لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة:٢٤].

فما فعلوا، ولا قدروا.

ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كُشف عواره لجميعهم، فقد ولوا عنه مدبرين[(١)].

وللإنسان أن يتسائل: كيف يجرؤ رجلٌ أن يتحدى أناس في جنس ما يحسنون ويبدعون، ثم يتركهم على مضي السنين وقد علاهم الوجيب والخزي والسكون؟

يقول د. عبد الله دراز رحمه الله: "ألم يكن يخشى الرسول -صلى الله عليه وسلم- بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية؟

فيهبوا لمنافسته وهم جميعٌ حذرون؛ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم، وهكذا.

حتى يُخرجوا كلامًا إن لم يبزه فلا أقل من أن يساميَه ولو في بعض نواحيه!

ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة، بل على الإنس والجن؟

إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها رجلٌ يعرف قدر نفسه إلا وهو مالئٌ يديه من تصاريف القضاء، وخبر السماء، وهكذا رماها بين أظهر العالم، فكانت هي القضاء المبرم، فلم يهم

---

(١) الفقرة من وحي كتاب " الشفا للقاضي عياض ١-٣٦٥ " بكثير من التصرف.

بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح، والفشل الفاضح، على مر العصور والدهور"[(١)].

فتحدى القرآن أهل البيان في عباراتٍ محرجة، أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ منه، فما فعلوا.

فلم يأت العرب جميعًا ولا الأمم التي نُقل لها التحدي بشيءٍ يستريح له الملحدة ويريحون به غيرهم!

يقول الألوسي رحمه الله: "فلم ينطق أحد منهم إلى يومنا هذا ببنت شفه ولا أعرب عن موصوفٍ أو صفة، وأظهر الكل العجز عن المعارضة في كل وقتٍ وحين، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين!

فكأن محمدًا صلى الله عليه وسلم موجودٌ كل عصرٍ بين أظهرنا والوحي غير منقطعٍ منا، لأن دليل نبوته وحجته يُذكِّر الناس بصحة نبوته في سائر الأقطار آناء الليل وأطراف النهار "[(٢)].

فقد رأى هؤلاء الذين يتحداهم القرآن أنّ تجميع الجيوش وتحزيب الأحزاب لمحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهون وأيسر من معارضة القرآن وقبول التحدي.

فهذا بالغ جهدهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

وعندما قدِم طفيل بن عمرو الدوسي وكان شاعرًا مفوهًا -ورئيس قبيلة دوس في اليمن-، عندما قدم مكة استقبله أهل مكة وكعادتهم حذّروه من سماع قرآن محمد -صلى الله عليه وسلم- لئلا ينجذب لسحره، حتى حشا أذنه الكرسف- القطن- حين جاء إلى المسجد الحرام.

لكن يبدو أنه وقع في نفسه شيء من هذه الطريقة السخيفة، فقال في نفسه: إني لبيبٌ وشاعر ولا يخفى عليّ الحسن من القبيح، فأزال الكرسف عن أذنه وسمع شيء من القرآن فتملك عليه قلبه وأسلم وشهد لله شهادة الحق.

---

(١) النبأ العظيم، د. عبد الله دراز رحمه الله، ص٤٤-٤٥.

(٢) الدلائل العقلية، الألوسي. مخطوط!.

وعاد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام وفي طريق عودته خرج نورٌ من سوطه فدخل به بلده وأسلم أهله، وأسلم قريبًا من ثمانين بيتٍ من قومه، وهم الذين لحقوا برسول الله –صلى الله عليه وسلم– فيما بعد في المدينة[١].

فأثر القرآن في الفِطر والأنفس عجيب، فالقرآن يُذيب جبال الغِلظة ويشرح الصدور في توِهِ ويخطف الألباب في نحوِهِ ولفظِهِ.

وقد كان نساء المشركين وأطفالهم يتقصفون –يزدحمون– حول بيت أبي بكرٍ في بداية الدعوة حين يقرأ القرآن من فرط انجذابهم وتأثرهم.

روى البخاري في صحيحه: "ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره وبرز فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقصّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريشٍ من المشركين"[٢].

فسطوة القرآن على القلوب عجيبة فهو يزرع اليقين في القلب الصدِأ ويغرس الإيمان في الكافر الحنِق.

وقد نبهنا الله تعالى إلى هذه الحقيقة وأمرنا أن نستغل سطوة القرآن على القلوب. فأخبرنا أن الكافر في قلب معمعة القتال واشتداد رحى السيوف قد يرجى منه خيرٌ حين يستمع القرآن ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦].

سبحان الله!

كف ينكسر كافر في لحظة احتدام قتالٍ لصوت كتاب عدوه؟

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ١/ ٣١٢ سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٢.

(٢) البخاري: ٢٢٩٧.

إنها أسرار القرآن!

وكم من عدوٍ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أراد اغتياله فما أن سمع آيات القرآن حتى انفطر قلبه وتشدق الإيمان من عينيه!

فللقرآن سلطانٌ قاهرٌ على النفوس ولا يزال غضًا طريًا على كثرة الترداد مع ما فيه من قوانين وتشريعات، وهو الأنيس في الخلوات وتهفو إليه النفوس في الأزمات ويزيل الوحشة عن أي مكانٍ وُجد فيه.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

فتستبشر لكتاب الله النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق[(١)].

ولما سمع الوليد بن المغيرة من النبي -صلى الله عليه وسلم- قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

قال: " والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بقول بشر". فقد رقّ قلبه وقال والله ما يشبه الذي نقول شيئًا من هذا.

ولذا اجتمعت كلمة وفود العرب على ألا يسمعوا للقرآن ولا يُسمِعوه أهليهم، فهذا هو السبيل الوحيد لمقاومة التحدي بمثل هذا القرآن، فأنى للعرب أن يتحدوا كتابًا جاء بأفصح ما تسمو إليه لغة العرب في جزالتها ودقة أوضاعها وإحكام نظمها واجتماعها.

كل هذا والنبي محمد-صلى الله عليه وسلم- كان أميًا لا يعرف القراءة والكتابة.

---

(١) الفقرة من وحي كتاب"رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد".

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت:٤٨].

وللمتدبر أن يسأل: أنى لمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- أن يضع مثل هذا الكتاب الذي حوى أخبار الأولين وتاريخ الأقدمين؟

وأنى له أن يسبك عبارات القرآن ويلقيها لكتبة الوحي بلا إعادة ضبطٍ وتقنين؟

وأنى له أن يُصلح بها مسالك وضروب ما نزلت بسببه؟

وأنى له بعد أن تنزل آيات الله لتضبط نازلة أو تصحح الحُكم في واقعة، إذا به -صلى الله عليه وسلم- يأمر كتبة الوحي أن يضعوا هذه الآيات في سورة كذا بين كذا وكذا. فتأتي في موضعها بين سابقها وتاليها من الآيات دون أن تنبو معهم أو تتنافر عنهم، بل وكأنها نزلت في جملتهم ولحمتهم؟[(١)].

---

(١) أشار د.عبد الله دراز رحمه الله إلى هذه القضية المذهلة في كتابه مدخل إلى القرآن الكريم؛ فقال: " في وقت نزول القرآن كانت بعض المواضيع تتزايد بمعزل عن مواضيع أُخرى، وتُكوِّن تدريجيًا وحدات مُستقلة بعد أن تنضم إليها آيات أُخرى نزلت بعدها، وأن بعضها كانت تُضاف هنا، والأُخرى تتداخل مع غيرها هناك، بحسب أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم- الذي كان يتلقاه بدوره من الروح القدس.

فإذا أخذنا في اعتبارنا التواريخ التي لا حصر لها – تواريخ نزول آيات القرآن الكريم- والتفتيت المتناهي في نزول الآيات، ولاحظنا أن هذا الوحي كان بوجهٍ عام مرتبطًا بظروف ومناسبات خاصة، فإن ذلك يدعونا إلى التساؤل عن الوقت الذي تمت فيه عملية تنظيم كل سورة على شكل وحدة مستقلة.

وكأن القرآن كان قطعًا متفرقة ومرقمة من بناء قديم، كان يُراد إعادة بناؤه في مكان آخر على نفس هيئته السابقة، وإلا فكيف يمكن تفسير هذا الترتيب الفوري والمنهجي في آنٍ واحد، فيما يتعلق بكثير من السور؟

ولكن أي ضمان تاريخي يستطيع أن يتحصل عليه الإنسان عند وضع مثل هذه الخطة إزاء الأحداث المستقبلة، ومتطلباتها التشريعية، والحلول المنشودة لها، فضلًا عن الشكل اللغوي الذي يجب أن تُقدم به هذه الحلول، وتوافقها الأُسلوبي مع هذه السورة بدلًا من تلك؟

فسبحان الله!

لم تكن الظاهرة القرآنية مرغمة ببلاغتها فحسب، ولا مرغمة ببيانها لأصول الدين ومعتقد الأنبياء الأسبقين فقط، ولا توقفت على إصلاح تحريف المفترين.

وإنما الظاهرة القرآنية تتخطى كل ذلك. وتتجاوز ما كُتب عنها وانفتحت له عقول الأولياء من مهج الإعجازات المتضمَنة في الكتاب.

فأنت تقرأ في كتاب الله مغيباتٍ تحدث دون أن تتخلف.

وأخبار أقوامٍ لا يزيد بحث الزمان وتحريه إلا تصديقًا لوقوعها.

وتقرأ تحليلًا بديعًا لطبائع الأنفس وأهوائها وميولها وما يصدها ويردعها ويعيدها.

فتجد عبر سبك الأيام وخبراته وتراكم مشاهدة أحوال الناس تحقيقًا لكل ذلك!

ولو أردنا الشروع في بسط كل عجيبةٍ أتى بها القرآن لما كفانا الزمان.

نسأل الله أن يصفح عن العجز والتقصير. لكن عذرنا أن لمحة تُرشد لتقصٍ. ونفحةً تُهيئ لتدّبر. ومقدمةً تشد الهمم لمن يُكمل.

فاللهم اغفر وارحم!

وحسبنا هنا أن نرصد شيئًا آخر عرضته الظاهرة القرآنية بسلاسةٍ. وجاء هذا الشيء تضمينًا لا قصدًا لتحدٍ ولا إظهارًا لمعجز.

فقد عرضت الظاهرة القرآنية موت أناسٍ بأعيانهم على الكفر:

فحدث ذلك دون أن يُسلم منهم أحد. ولو أن واحدًا منهم أسلم لانتهت الرسالة من فورها!

ألا نستنتج ان اكتمال هذه الخطة وتحققها بالصورة المرجوة، يتطلب تدخلًا من قوة عظمى ، تتوفر فيها القدرة على إقامة هذا التنسيق المنشود؟" انتهى -بتصرف-.

ومن هؤلاء:

أبو لهب ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد:٣] .

والوليد بن المغيرة ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦].

بل إن الظاهرة القرآنية أخبرت بأن الوليد ابن المغيرة قد رُزق ببنين كُثر وأنه يطمع في المزيد. لكن كلا!

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ [المدثر: ١٢-١٥].

يقول البغوي رحمه الله في- تفسير الآية: "فما زال الوليد بعد نـزول هذه الآية في نقصانٍ من ماله وولده حتى هلك".

وأخبر القرآن أن شدة عناد الوليد ابن المغيرة وبسبب منعه الخير وكثرة إثمه وافتراءه على آيات الله عز وجل. بسبب كل ذلك سيُخطم بالسيف على أنفه فيُعرف بذلك!

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٢-١٦].

قال ابن عباس: وقد فُعل ذلك يوم بدر -خُطِم على أنفه بالسيف-[١].

بل لقد انتقلت الظاهرة القرآنية إلى منحىً آخر عظيمًا. إذ أكدت منذ بداية الدعوة أن هناك سجالًا حربيًا سيجري بين حزب محمد -صلى الله عليه وسلم- وحزب مشركي قريش.

وهذا قطْع إعجازي بأن قريش لن تُسلم بسهولةٍ ويسر كما ستسلم المدن البعيدة كيثرب وعمان واليمن والبحرين.

بل ثمة سجالات وسجالات ستجري. كل هذا في بدايات الدعوة. ولا أحد يستطيع التنبؤ

(١) انظر تفسير البغوي للآية.

بما سيكون بعد ساعات فضلًا عن عقودٍ من الزمان.

فقد قال الله تعالى مخبرًا عن هزيمة قريش قبل الهجرة ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر:٤٥].

بل لقد تكررت هذه الآيات وهذا الوعيد في أغلب السور التي نزلت في بداية الدعوة.

قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ [مريم:٧٥].

أي سيهلك كفار قريش في معارك فاصلة ومن يموت منهم قبل ذلك فالساعة موعده.

أيُ استشرافٍ للمستقبل هذا الذي يقطع بأن عناد هؤلاء سيطول حتى تكون الحرب؟

أي استشرافٍ للمستقبل هذا الذي يضع الدعوة ككل تحت مقصلة نبوءةٍ لو أسلم سادات قريش في الحقبة المكية لسقطت النبوءة وانتهت الدعوة؟

وكم من بوادي العرب وكم من القرى أسلمت سلمًا ودون حرب وفي يومٍ وليلة؟

ماذا لو استيقظ كفار قريش وساداتهم وأعلنوا إسلامهم؟

تخيل!

ثم انظر كيف جهّز كفار قريشٍ الجيوش وعادوا القبائل ودفعوا أنفس أموالهم ورجالهم لمحاربة الدعوة الناشئة، ولم يتفطنوا لمسألةٍ كهذه -إظهار أنهم أسلموا كذبًا- تريحهم وتريح أبنائهم أبد دهرهم؟

فإذا لم يكن القرآن موحىً به من عند الله فأي تأويلٍ آخر يمكن أن يطرحه الإنسان المتعقل لثقة النبي صلى الله عليه وسلم بما سيحدث في مقبل الأيام؟

أيضًا تحدت الظاهرة القرآنية اليهود أن يتمنوا الموت فلم يفعلوا ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٦-٧].

فما تمنوا الموت أبدًا –لأنهم يعلمون أنهم لو تمنّوه لماتوا من ساعتهم– مع الاقتضاء والمطالبة التي تدفع لجواب التحدي.

يقول القاضي عبد الجبار: "لا يتمنون ذلك مع خفته وسهولته ومع علمه –صلى الله عليه وسلم– بشدة حرصهم على تكذيبه وفضيحته تعجب؟

ولم يقل هذا من عندي بل قال هذا من عند ربي وإلهي وإلهكم الذي يعلم سركم وجهركم، وهذا أشد على اليهود من تحديه للعرب بمثل القرآن، وهذا مقام لا يبديه النبي صلى الله عليه وسلم إلا مع اليقين.

وقد تحيرت الملحدة وأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم لماذا لم يتمنَ اليهود الموت زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيُكذبوه بذلك فيستريحون ويُريحون"[(١)].

وأخبر القرآن بالانتصار يوم بدر قبل أن تبدأ المعركة والحسابات المادية في صالح الكفار قولًا واحدًا ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره للآية: " وهذا خطاب... للمؤمنين يشجعهم اللهّ، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين".

وأخبر القرآن أن المنافقين سيكذبون على يهود بني النضير ولن ينصروهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١-١٢].

وحدث ما أخبر به فإن يهود بني النضير أُخرجوا ولم يخرج المنافقون لنصرتهم بل تركوهم؛

---

(١) تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار ٢-٤١١ بتصرف.

وقوتلوا فلم ينصروهم.

ففي النهاية واجه يهود بني النضير وحدهم مصير خيانتهم ولم يتلقّوا أي عونٍ من المنافقين!

وكانت هذه بشارة -من القرآن الكريم- مستقلة بنفسها كما يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية.

وتنبأ القرآن بهزيمة الفرس وانتصار الروم في بضع سنين؛ قال الله تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤-٥].

مع أن التاريخ في ذلك الوقت كان يكتب نهاية إمبراطورية الروم. وقد سحقت حملات أبرويز الفارسية كل أمل للروم في النصر حتى أخذ أبرويز صليب الصلبوت إهانةً للروم!

ومع ذلك وفي لحظة تاريخية فاصلة يفيق هرقل وينتصر على أبرويز في معركة فاصلة وتتحقق الآية والمعجزة![١]

وأخبر القرآن أنه في يوم نصر الروم على الفرس سينتصر المسلمون أيضًا ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤-٥].

وبالفعل فقد جائت أخبار نصر الروم في غزوة بدرٍ الكبرى![٢]

وأثلج القرآن صدور الصحابة الكرام وطمأن قلوبهم بأنهم سيدخلون المسجد الحرام. وذلك بعد أن صدّهم المشركون عن البيت. قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧].

---

(١) http://www.angelfire.com/nt/Gilgamesh/sasanian.html

ولترجمة هذا الحدث العظيم إلى العربية يُنظر الرابط التالي: https://goo.gl/GWGDyr

(٢) يُراجع تفسير البغوي للآية.

يصف د.عبد الله دراز رحمه الله الحدث العجيب كالتالي: "مُنع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية، واشترطت عليهم قريش إذا جاءوا في العام المقبل أن يدخلوها عزلًا من كل سلاح إلا السيوف في القُرُب، فهل كان لهم أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود وقطع الأرحام وانتهاك شعائر الله؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله؟ فماذا هم صانعون غدًا؟ على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم، ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ؟ وآية ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف في القراب، وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى أنهم لن ينالوهم بأيديهم ورماحهم، ولكنه لا يأمنون معه أن ينالوهم بسهامهم ونبالهم، في هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة: الدخول، والأمن، وقضاء الشعيرة ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح:٢٧] فدخلوها في عمرة القضاء آمنين، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم"[(١)].

وتنبأ القرآن بأنه سيأتي اليوم الذي يظهر فيه الإسلام على كل الديانات؛ قال الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣].

فجاء ذلك اليوم وظهر الإسلام على الدين كله!

بل إنه في اللحظات التي كانت تعاني فيها الدعوة الأمرين. تقرر أن الإسلام سيبقى إلى قيام الساعة ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم:٥٦].

وبيّن القرآن أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سيعود إلى مكة بعد خروجه منها مهاجرًا

---

(١) النبأ العظيم، ص٤٨-٤٩.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥].

ومعاد الرجل هي بلده.

وأن الله عز وجل سوف يغني قريشًا ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة:٢٨].

وقد كان كل هذا!

وغير ذلك الشيء الكثير!

إن ظاهرة الإخبار القرآني للمغيبات التي تأتي بسلاسةٍ وتقع كما أخبر لهي تقطع في كل جانبٍ من جوانبها بصدق صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم.

الظاهرة القرآنية هي الظاهرة المستحيلة!

مستحيلة التكرار.

مستحيلة التحدي.

مستحيلة المقابلة.

مستحيلة المقارنة بغيرها.

ومجرد إتيان الرسول -صلى الله عليه وسلم- الأمي بهذا الكتاب في دلائله وتشريعاته ومعجزاته وبيانه لمن أكبر الآيات على صدقه.

ثم عجْز المشركين عن معارضته أو حتى مجاراته؛ ثم إصلاح هذا الكتاب لأكبر مشكلتين في الوجود وهما "المعرفة والسلوك" مع المحافظة على النسق البياني البلاغي البديع؛ ومطابقة كل أمرٍ ونهيٍ في الكتاب للعدل والميزان والفطرة ومنهج الأنبياء قبله؛ لهي حججٌ بعضها فوق بعض لمن تدّبر.

وقد أوجدت الظاهرة القرآنية من الهباء أُمةً ضخمةً واستبقت على القرون جيلًا من الناس ما كانوا ليدخلوا التاريخ أبدًا لولا نهوض هذه الظاهرة بهم!

وقد تقررت هذه الحقيقة في اللحظات التي كانت فيها الدعوة على المحك ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ

وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤].

ولم يستطع ملاحدة العصر أن يواجهوا الظاهرة القرآنية إلا بسخافاتٍ، كان صمتهم أفضل وأكثر تعقلًا من التصريح بها!

ومن هذه السخافات: زعم بعضهم أن النبي صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من حدّادٍ نصراني مشتغلٍ في الحدادة، منهمك في مطرقته لا يعلم الكتاب إلا أماني، لسانه أعجمي.

وقال آخرون: ربما نقله من بحيرا الراهب حين قابله وهو طفل.

فيا له من منطقٍ كان السكوت أستر لهم!

ويأتي زعم آخر أن القرآن من حديث نفس محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- حيث أفاضت نفسه هذه المعارف، ويرد د.عبد الله دراز رحمه الله على هذا الادعاء المضحك فيقول: "نعم؛ إنها لعجيبة حقًّا: رجلٌ أمي بين أظهر قومٍ أميين، يحضر مشاهدهم -في غير الباطل والفجور- ويعيش معيشتهم مشغولًا برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعيًا بالأجر، أو تاجرًا بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء؛ يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشيةٍ وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وربما لم يتحدث إلى أحدٍ بحرفٍ واحد منه قبل ذلك، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى مما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم.

أفي مثل هذا يقول الجاهلون: إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟

أي منطقٍ يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية؟

إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سرٌّ آخر يلتمس خارجًا عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة.

وإن ملاحدة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلًا لهذه

الظاهرة وأقرب فهمًا لهذا السر من ملاحدة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء: إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه، بل قالوا: إنه لا بد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذٍ علومٌ جديدة، فدرس منها ما لم يكن قد درس، وتعلم ما لم يكن يعلم ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:١٠٥].

ولقد صدقوا؛ فإنه درسها، ولكن على أستاذه الروح الأمين، واكتتبها، ولكن من صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرةٍ، بأيدي سفرة، كرامٍ بررة.

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦].

ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها"[١].

والظاهرة القرآنية بُعيد كل هذا هي في استقلالٍ تام عن ذات موضوع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يتعرض لنكباتٍ ونكبات -مثل موت خديجة وعمه أبي طالب-، ولا نجد لذلك أثرًا في القرآن.

أيضًا لا نجد أسماء زوجاته في القرآن الكريم مع تعلقه بخديجة إلى آخر لحظةٍ في حياته؛ وفي المقابل نجد اسم السيدة مريم تكرر قرابة ٣٤ مرة.

وأيضًا لو نظرت إلى المجاز القرآني لوجدته بعيدًا تمامًا عن خيال العربي الذي ينشد في معلقاته وأشعاره الغزل ووصف المرأة والخمر، فالمجاز القرآني لوحة شاملة رائعة تختلط فيها الأنهار التي تجري في المروج الخضر مع الظلمات التي في البحار اللجية.

وداخل هذه الوحدة الأدبية تتوافر الدقة العلمية والدقة المعرفية لأنه كتابٌ موحىً به من خالق السماء والأرض.

---

(١) النبأ العظيم، د.عبد الله دراز، ص٤٠.

وفي إطار حديثنا عن الدقة العلمية. فالقرآن الكريم هو الكتاب المقدس الوحيد على وجه الأرض الذي يخلو من خطأ علمي واحد وهذا بحد ذاته أعظم إعجاز علمي على الإطلاق.

في المقابل أعطني كتيب أو مطوية صغيرة مكتوبة منذ مائتي عام فقط تصف أية مسألةٍ علمية وسأُخرج لك منها أخطاء صريحة.

فقد كَتب أرسطو ثلاثة كتب علمية "في الطبيعيات، في السماوات، في الأرض" هذه الكتب الثلاثة لا توجد اليوم فيها جملة واحدة صحيحة علميًا، فقد كان أرسطو طبقًا لهذه الكتب يرى أن:

أسنان المرأة تختلف في العدد عن أسنان الرجل!

وأنه يوجد في صدر المرأة ثلاثة ضلوع فقط!

وأن وظيفة المخ تبريد الدم بينما وظيفة القلب تسخينه! (١)

وكان أرسطو يرى أن المياه الجوفية تتكون نتيجة فجوة في قلب الأرض تنقل مياه المحيط إليها!

وما إلى ذلك من الخرافات العلمية التي تملأ كتبه. بينما يقول القرآن في هذه المسألة الأخيرة مثلاُ –تكّون المياه الجوفية– خلاصة ما توصل له العلم منذ عقودٍ قليلة فقط، وهو أن المياه الجوفية مصدرها مياه الأمطار ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَابِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر:٢١].

فمصدر الميـاه الجوفيه هو الينابيع المتكونة من الأمطـار، وليس فجوة أرسطو التي في عمق القارة.

فمعجزة الضبط العلمي للقرآن الكريم هي أعظم معجزة علمية على الإطلاق!

وطبقا للمبدأ البوكيلي Bucaillism – الذي قام بصكه موريس بوكاي منذ عقودٍ قليلة–

(١) http://chsi.harvard.edu/bok/٠٦.html.

فإن القرآن الكريم بعد مراجعة علمية دقيقة هو الكتاب الوحيد الذي لا يوجد به خطـأ علمي واحد رغم أن عمره ١٤٠٠ عام[١].

مع أن القرآن كتاب إصلاح للمعرفة والسلوك في المقام الأول.

ولو ترّحلت عن القرآن الكريم إلى غيره من الكتب فأنعمت النظر في منحى الدقة العلمية في تلك الكتب. لوجدت نصوصًا تقطع بالوضع –التحريف– في تلكم الكتب!

فلك أن تتخيل! لو أن نصًا واحدًا من كتاب مثل الفيدا – الكتاب المقدس للهندوس– كان موجودًا في كتاب الله ؟

وسأعرض الآن بين يديك شيئًا من نصوص كتب الأسبقين:

- تقول الفيدا أن: الأرض ثابتة لا تتحرك[٢].
- وخلق الله الأرض ثابتة[٣].
- والشمس تدور حول الأرض داخل عربة ذهبية يقودها سبعة أحصنة[٤].
- والثور يُثبت السماء[٥].

والياجور فيدا هي أحد الكتب الأربعة القانونية المقدسة لدى الهندوس

- ويقول الفيشنو بارانا أن الشمس تبتعد عن الأرض ٨٠٠ ألف ميل، بينما المسافة علميًا ٩٣ مليون ميل.

---

(١) Bucaillism at Wikipedia.

(٢) الريج فيدا ١ ١٢.

(٣) ياجور فيدا ٣٠.

(٤) ياجور فيدا ٣٣–٤٣.

(٥) ياجور فيدا ٣٠.

➢ ويقول الآثارفا فيدا: وفي خضم الماء يدور القمر[١].

وغيرها الكثير؛ فالحمد لله على الدين الخاتم المعصوم المحفوظ، الذي بلغه لنا أشرف الخلق محمدًا صلى الله عليه وسلم، كاملًا غير منقوص.

ولو نظرنا إلى تقرير الظاهرة القرآنية لجانب العقيدة والتوحيد. فالقرآن هو منتهى الرقي في تنقية العقيدة التوحيدية من أية شوائب كفرية؛ يقول د.الطيب بو عزة: "يؤكد القرآن دائمًا دور الكتب المقدسة في المسألة التوحيدية، ومع ذلك يؤكد القرآن دائمًا على إخراج الذات الإلهية من نطاق الأنانية اليهودية – حيث الرب القومي لليهود –، والتعدد المسيحي – حيث عقيدة الثالوث الموغلة في التشويش والارتياب –، فالله ربُّ العالمين واحدٌ أحدٌ ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير، ولذا فقد خرجت التعديلات اللاهوتية اللاحقة على اليهودية والمسيحية على يد توما الاكويني وموسى بن ميمون كإفراز لقراءتهم المنشور الإسلامي في عقيدته الصافية بالله، والتي شوهتها معاصي اليهود والمسيحيين، فحاول الرجلان تنسيق ديانتيهما بما يتناسب مع المنشور الجديد الذي سيجذب كل أتباع الديانات إليه إذا لم يحدث تدخل سريع لموازبة الصدع ومحاولة التقرب من عقيدة الإسلام النقية، وإثبات أن كلتا العقيدتين الأخريتين بناؤهما الأصلي وعمادهما أيضًا على توحيد الله في الصيغة النهائية، فالتحسينات التي أُدخلت على العقيدتين لم يكن منها مناص لإيقاف أفواج الداخلين في الدين الجديد"[٢].

وفي الختام هل تبقى دعوى لمدعٍ أن القرآن من صنع محمدٍ –صلى الله عليه وسلم–؟

يقول دكتور محمد عبد الله دراز –رحمه الله–: "القرآن إذن صريح في أنه لا صنعة فيه لمحمدٍ – صلى الله عليه وسلم– ولا لأحدٍ من الخلق، وإنما هو منزلٌ من عند الله بلفظه ومعناه ومن

---

(١) آثار فيدا ١ ٨٩.

(٢) من وحي بعض مقالات د. الطيب بو عزة على منتدى التوحيد –بتصرف–.

العجب أن يبقى بعضُ الناس في حاجةٍ إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة وهو أنه ليس من عند محمد .

في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضيًا يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه.

وأي مصلحةٍ للعاقل الذي يدَّعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، أي مصلحةٍ له كي ينسب بضاعته لغيره ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدًا يعارضه ويزعمها لنفسه؟

بل وشهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- على نفسه بالعجز ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦]"[١] .

إنها قضية عادلة، قضية محايدة، قضية يقتضيها العقل والمنطق ألا وهي: التسليم بأن القرآن الكريم موحىً به من عند الله سبحانه.

---

(١) النبأ العظيم ص ٢١.



أصول الإلحاد الكلية

"كل مَن مات على الإلحاد سيقول هذه الكلمة يومًا ما والله:

﴿ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس:٥٢].

الآن المرسلون صدقوا؟"

أصول الإلحاد الكلية

الأصل الأول

الإلحاد قرمطةٌ في السمعيات، وسفسطةٌ في العقليات.

الإلحاد كغيره من المباني الفكرية يقوم على أصولٍ كلية ومقدماتٍ أولية ونتائج نظريةٍ وعمليةٍ وقلبيةٍ!

وسنعرض في هذه السلسلة بمشيئة الله لأهم أصول الإلحاد الكلية؛ وسيكون تنظيرنا -إن شاء الله- منصبًا على إطار الإلحاد بصيغته العربية تحت مبنى الثقافة الإسلامية، التي نشأ فيها أغلب الملحدين العرب.

وإن كنّا نزعم أن تنظيراتنا هذه لا تحتاج إلى أكثر من الترجمة إلى الثقافات الأخرى لتنطبق على ما خارج بلادنا من إلحاد!

فالأصول الكلية قد تختلف في المعاني لكنها تتفق في النهاية في المباني!

ولنشرع الآن في المقصود على بركة الله!

الأصل الأول الذي يقوم عليه الإلحاد هو أنه: ينبني على **قرمطةٍ في السمعيات، وسفسطةٍ في العقليات**[1].

ونبدأ بتفصيل الشِق الأول: **"الإلحاد قرمطة في السمعيات"**.

السمعيات تعني أدلة الإيمان المنقولة بالسماع -قرآنٌ وسنة-، والقرمطة فيها تعني التمويه

(١) ترد هاتان اللفظتان في كتب العقائد، وقد أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة التدمرية ص١٩ إذ يقول في معرض رده على المتكلمين: "ولكنهم من أهل المجهولات المشبهة بالمعقولات يسفسطون في العقليات، ويقرمطون في السمعيات".

والكذب وتجاهل المطلوب.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحج:٥٢].

قوله تعالى "إذا تمنى": أي تلا آيات الله ، فالتمني في اللغة هو القراءة والتلاوة.

والمعنى: ما جاء رسولٌ ولا نبيٍ ثم تلا على قومه الآيات المُرسل بها للدعوة إلى التوحيد، ونبذ ما هم عليه من الكفر، إلا ألقى الشيطان شُبهًا وتخيلاتٍ باطلة، واحتمالاتٍ فاسدة في الآيات المتلوة لإغوائهم وحملهم على مجادلته بالباطل[(١)].

ومنه أيضًا قوله سبحانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴾ [الأنعام:١١٢].

فإذا ذكرت للملحد الأدلة الإيمانية المنقولة بالسماع، ومعجزات صاحب الرسالة –صلى الله عليه وسلم– وأدلة نبوته الباقية إلى قيام الساعة –وقد فصّلنا شيئًا من هذه الأدلة في سلسلة ظاهرة النبوة بما يغني عن إعادة سردها هنا– فإن الملحد يقرمط هذه الأدلة بالتكذيب والتمويه.

وقد يطرح شيئًا من الشبهات إمعانًا في الكذب؛ مع أن شبهات الملحد تقوم على مصادر وثوقية نقلها أضعف بكثير من وثوقية نقل أدلة النبوة.

فما أكثر أدلة النبوة المنقولة بالتواتر والتي لا تستقيم شبهات الملحد في مجموعها لوثوقية تواترية جائت بها أفراد أدلة النبوة!

هذا إذا سلّمنا جدلًا للملحد بما يظن ويزعم أنها شبهات وما هي في حقيقة الأمر إلا هلاوس وتصوراتٍ خاطئة، يستخدمها للقرمطة في الأدلة الإيمانية!

أما السفسطة في العقليات فتعني: تسخيف الأدلة العقلية والتشكيك فيها.

فلن يُلحد إنسان إلا إذا أسقط البديهيات قبل أن يُلحد، **فالعقل السليم والبناء الفكري**

---

(١) كلمات القرآن تفسير وبيان، فضيلة الشيخ: حسنين مخلوف شيخ الأزهر السابق –رحمه الله– بتصرف.

السليم ضد الإلحاد!

ولو حاورت ملحدًا فأول ما يبدأ به هو التشكيك في مقدمات العقل!

فإذا حدّثته عن السببية – لكل شيءٍ سبب– كمقدمة عقلية وبديهة مُرّكبة في الأذهان، فإن الملحد سيحاول أن يُسفسط هذا الدليل كما سيأتي بيانه. على الرغم من أن السببية برهانٌ عقلي أعلى من القوانين بل عليه تقوم قوانين العلوم.

والسببية ليست فرضًا عقليًا ولا جدلًا تصوريًا، وإنما هي أصل عقلي A-Periori ، فلا يستقيم علم دون التسليم مسبقًا بصحة السببية.

بل إن أصل العلم الحديث يقوم على العلاقة بين السبب والمؤثِر، فرصد الذرات يتم عبر إثبات أثرها ودلائل وجودها، ورصد القوانين يتم عبر الاستدلال بأثرها، ورصد الجاذبية هو رصد لأثرها وليس رصدًا للجاذبية ذاتها. فنحن إلى اليوم لم نرصد جسيم جاذبية واحد graviton ومع ذلك نُسلم يقينًا بوجود الجاذبية، بل كل علوم المايكرو micro-physics –ما دون الذرة– تقوم على رصد الأثر، فلا يوجد شيءٌ في العلم الميكروي يسمى مثلًا مشاهدة الإلكترون، وإنما رصد أثره![١]

وهنا شاهدان؛

الشاهد الأول: أن السببية أصل العلم وأقوى من البرهان والقانون، فالذي ينكر السببية لمجرد مخالفتها لعقيدته الإلحادية، هو معاندٌ لبديهةٍ عقليةٍ مستقرةٍ في عقول جميع البشر منذ اللحظة الجنينية –إذ ثبت أن الجنين يؤمن بالسببية وهو ما زال في بطن أمه ولو ضغط الطبيب على رحم الأم أثناء الفحص يعطي الجنين رد فعل حسب مكان الضغط والتأثير فهو يؤمن بوجود سبب ومُسبِب–.

(١) From Microphysics to Macrophysics: Methods and Applications, Roger Balian.

<u>الشاهد الثاني</u>: أن الاستدلال بالأثر هو استدلال علمي ومنطقي يقبله العقل ويقوم بمنزلة البرهان على وجود المؤثر.

والآن: لدينا كونٌ ظهر من اللازمان واللامكان؛ إلى المكان والزمان بمعايرةٍ دقيقةٍ للغاية Fine-tuning وبضبطٍ مدهشٍ وحدود حرجة، بمئات الثوابت الفيزيائية التي لو اختل ثابت واحد منها بمقدار واحد على مائة بليون لما ظهر الكون[١].

وعلى الرغم من أن قانون العلم يقول بـ"حفظ الطاقة وأن الطاقة لا تُستحدث من العدم"[٢].

لكن نحن أمام طاقة هائلة أستُحدثت من العدم في لحظةٍ واحدة، فكل طاقة الكون وكل مادة الكون ظهرت في جزء أقل من مليار مليار مليار جزء من الثانية، ففي اللحظة ١٠ أس –٤٣ من الثانية وهي لحظة لا يمكن استيعابها لقصرها الشديد ظهر كل شيء فجأةً وظهر الكون، وتضخّم الكون من أصغر من حجم الذرة بمليارات المرات إلى أكبر من مجرة[٣].

---

(١) قوانين الفيزياء التي ظهرت في أول ثانية من نشأة الكون هي نفسها التي تحكم عالمنا اليوم، هذه القوانين تم ضبطها بعناية Fine Tuned ، وإلا فإن أي خلل أو أي تغيير في أي من الثوابت الكونية سيفرز كونـًا مُجهضًا وسيظل بيضة كونية Cosmic egg .

during this cosmological inflation, the universe

expanded by a factor of ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠

in .٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠١ second. It was as if a coin ١ centimeter in diameter

suddenly blew up to ten million times the width of the Milky Way. .

source: The Grand Design, Stephen Hawking

(٢) http://hyperphysics.phy-astr.gsu.edu/hbase/conser.html

(٣) اليكس فلبينكو Alex Filippenko عالم الفيزياء الفلكية بجامعة كاليفورنيا في الوثائقي: " History of the World in Two Hours".

ألا يعد هذا دليلًا على المُحدِث والخالق والصانع، أليست هذه بديهة لا يجد العقل لها ردًا؟

وأمام هذا الدليل الكبير فإن الملحد يحاول أن يُسفسط لك هذا البرهان بمجموعة من السفسطات، مثل: **الظن بغياب السببية في عالم الكم.**

لكن الحقيقة في هذا الأمر أنه: في عالم الكم لا تتبع الجسيمات ردود أفعال واحدة أو حتمية متوقعة دومًا، وإنما يكون لها "احتمالات" وهذا ما بيّنه لنا عالم الفيزياء والرياضيات الألماني الأشهر "ماكس بورن Max Born" حيث أوضح في أثناء تفريقه بين "السببية والحتمية Causality and Determinism"، كيف أنه في عالم فيزياء الكم لا تنتفي السببية ولكن التي تنتفي هي الحتمية لتحل محلها الاحتمالات![١]

ثم إن ظواهر الكم تحدث داخل إطار الزمان والمكان space-time والكون جاء من اللازمان واللامكان!

فكيف يستقيم أن نزعم حدوث ظاهرة من ظواهر الكم قبل ظهور الزمان والمكان وبالتالي قبل ظهور إمكانات الكم ذاته.

أيضًا ما علاقة ظاهرة أحادية تحدث في عالم الكم بكون عملاق انضبطت لحظة ظهوره عوامل غاية في التعقيد؟

أضِف إلى ماسبق أن: أية محاولة للسفسطة في برهان السببية يعد لعنة anathema على العلم الطبيعي، لأن الشك في السببية يقضي على أي أملٍ في تفسير العالم، وبهذا تتحول دوغما Dogma الإلحاد إلى لعنةٍ على كل علمٍ وفكر!

فهذه السفسطات التي يطرحها الملحد لا ترقى أن تكون ظنًا ضعيفًا فضلًا عن أن تكون ظنًا قويًا؛ فما بالك ونحن نتحدث عن برهان عقلي وليس ظن قوي أو ظن ضعيف فضلًا عن أن يكون

---

(١) انظر الفصل الثاني مِن كتابه الشهير: Natural Philosophy of Cause and Chance.

سفسطة تُقَابل بسفسطة!

فالقضية الدينية الإيمانية مُسلّمة عقلية ومعرفية ووجدانية وفطرية ونقلية بدرجة يقينية!

وإذا انتقلت بالملحد لأدلةٍ عقليةٍ أخرى كالأدلة على التصميم الدقيق لحظة الخلق الأولى للكائنات الحية، وظهور الخريطة الجينية المشفر داخلها المنظومات البيولوجية الدقيقة في هذه الكائنات –انظر الهامش للفائدة–[(١)].

فإن الملحد سيحيلك إلى المتشابه كالابتلاءات والأمراض.

وهكذا يتعامل الملحد معك ومع أدلتك!

يقول ابن الوزير اليماني: "فسبب الشك والكفر: هو النظر في المتشابهات، التي لم يحط البشر

---

(١) الخريطة الجينية Genome التي هي منظومة التشفير داخل كل خلية. هذه الخريطة معقدة ومركبة وقانونية ولغوية ومنتجة!

ونقول **معقدة مركبة لغوية منتجة** لأن الحياة ليست إلا تنفيذ للخريطة الجينية المقننة الهادفة وهذا يجعلها دالة على خالق هادف، فصفة الأثر دالة على صفة المؤثر.

فالحياة تسير بنظام دقيق منتج هادف واعي، تحت إشراف خريطة جينية ظهرت بمنتهى الضبط منذ البدء!

وهذه الخريطة الجينية قانونية فهي تُنشيء قوانين غاية في الضبط والتعقيد فسونار الطبيب أو رادار المرور قد صممها مصمم وفق قانون دقيق ومحكم ليؤدي الغرض الذي صُنع من أجله، وبنفس القياس العقلي نقول أن سونار الخفاش قد صممه مصمم ليؤدي قانون وظيفي دقيق ومحكم ومحدد فالخفاش يستخدم تقانة عالية لتحديد المواقع بالصدى echo location .

وأبسط بديهيات العقل والمنطق تقول أن خالق هذه الخريطة الجينية هو خالق حكيم عليم قدير مريد فلغة الخريطة الجينية تدل على أن وراءها متكلم مريد، خاصةً وأن الخريطة الجينية تصل إلى أهداف مشفرة مسبقًا وهي أهداف لها قانونية كاملة.

فالخريطة الجينية مقننة وتعمل بقانون وهي لاعشوائية فهي تعمل في كل جزئية من جزئياتها لغاية وهدف معين ويحكمها نظام يعرف عاقبة كل عمل. وإذا لم يكن هذا هو الخلق المتقن فما هو الخلق المتقن؟

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل:٨٨].

بها علمًا، ولا عرفوا تأويلها"[(١)].

فأصل استشكالات الملحد مُرّكبة من افتراضات وخيالات، فهو يُحيل في العادة الأدلة اليقينية إلى ما لم نُحط بعلمه، فصار إلحاده قائمًا على ثغراتٍ وفجواتٍ معرفية.

فأجوبة الملحد على الأدلة الإيمانية هي في أصلها أجوبة في غير محل الشاهد.

فحارب الملاحدة الأدلة العقلية والبراهين الأولية والمقدمات الفطرية، وحاربوا أدلة النظام والغائية والقصد والعناية، وتجاهلوا القضايا العقلية الكبرى مثل دليل الحدوث، ومعجزة خلق الحياة، والنبوات والدين والفطرة والأخلاق، والمعايرة الدقيقة في كل شيءٍ حولنا وداخلنا ومعضلة استيعاب الخير والشعور بالامتنان، وما لا يمكن حصره من الأدلة[(٢)].

وصار الإلحاد يتطلب من أتباعه باستمرار إنكار بديهياتٍ عقليةٍ ومنطقيةٍ أقسى من أشد الديانات إغراقًا في الوثنية.

فما قام الإلحاد إلا على الانتحار المتواصل للعقل البشري في كل لحظة وفي مواجهة كل دليلٍ سمعيٍ أو عقلِي ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وصارت القضية الإلحادية اليوم حُبلى بالإشكاليات المعرفية والنظرية والمادية ومليئة بالتناقضات العقلية وصارت تُبرر المستحيل العقلي –إيجاد الزمان والمكان والعالم بمنتهى المعايرة الدقيقة من اللازمان واللامكان، وإيجاد الحياة من اللاحياة– كل هذا من أجل تسويغ وجودها.

وأصبح الإلحاد يرتكن ويُشرعن وجوده على أدلةٍ ميتافزيقيةٍ غير مدعومةٍ بمنطقٍ ولا عقلٍ ولا حُجةٍ ولا سندٍ علمي.

---

(١) العواصم (١/ ٢١٤).

(٢) قد يتسع المقام إن شاء الله في سلاسل قادمة لتفصيل شيءٍ من آحاد هذه الأدلة.

فمنتهى ما آل إليه الإلحاد كالتالي:

١- اللاشيء انضاف إلى اللاشيء فصار شيئًا عظيمًا من أروع ما يكون وبمنتهى المعايرة الدقيقة.

٢- الصدفة أنتجت الحدود الحرجة والثوابت الفيزيائية التي جاء بها الكون؛ في حين أن شرطي الصدفة هما المكان والزمان. والكون جاء من اللامكان واللازمان!

٣- العشوائية أنتجت حياة، في حين أن العقل البشري في قمة جبروته الآن لا يستطيع أن يُنتج أبسط صور الحياة.

٤- كل القيم الأخلاقية والتأصيلات القيمية التي نُسلم بصحتها والتي يسير أغلبها في اتجاه مضاد للمادة تمامًا هي من معطيات المادة ومنتوجاتها.

كل هذه الإشكالات والتناقضات المعرفية جعلت من الإلحاد ظاهرة طفيلية وقتية، والسبب الرئيس في طفيليته ليس خطأ الأدلة، فما أكثر الوثنيات الخاطئة. وإنما لعدم الأدلة أصلا.

فقوام ما يملكه الإلحاد هو سفسطة أدلة الآخر ومحاولة تسخيفها -سفسطة العقليات وقرمطة السمعيات-.

ولو كان الإلحاد ينفع الناس أو يملك أجوبة ذاتية مستقلة لمكث في الأرض.

ويحاول الملاحدة في سفسطتهم هذه أن يقوموا بإحلال الطبيعة المادية محل الخالق.

فجعلوا الإيمان بالطبيعة بديلًا عن الإيمان بالخالق. مع أن هذه أدنى صور الوثنية التي وصذذل لها العقل البشري على الإطلاق!

وهنا استعير عبارة د. حسام حامد في كتابه "الإلحاد؛ وثوقية التوهم وخواء العدم" حيث يقول: "فحال الملحد أنه ارتقى جبل السفسطة، وبينما هو على وشك أن يقهر أعلى قمة من قمم السفسطة وإذ تعترضه آخر صخرة فيشد آخر نفسه ليصعدها، إذ به يجد جماعة من الوثنيين كانوا

يجلسون قبله في نفس المكان هناك منذ قرون"[١].

فما أن يصعد الملحد أعلى جبل الإلحاد وفي لحظة ارتقائه أعلى قمةٍ من قممه، إذا به يكتشف وثنية إلحاده.

فما هذه السفسطات التي يقدمها الملحد إلا وثنياتٍ عتيقة.

وهذا كان أصل الإلحاد الأول!

---

(١) الإلحاد وثوقية التوهم وخواء العدم، د.حسام الدين حامد، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، ص١١٠. بتصرف.

الأصل الثاني

تقعيد الاستثناءات

أحد الأصول الكبرى التي ينبني عليها الإلحاد هو: "تقعيد الاستثناءات".

وتقعيد الاستثناءات تعني: **جعل الاستثناء قاعدة.**

وهذا أصل إلحادي كبير!

قال الله تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ** ﴾ [آل عمران:٧].

فإذا شهد الملحد شخصًا مريضًا حكم بأن الشر أصلٌ في العالم: ﴿ **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ** ﴾ [آل عمران:٧].

وإذا شهد جواز التعدد في النكاح حكم باستلاب كافة حقوق المرأة، وإذا شهد جواز الخُلع حكم باستلاب كافة حقوق الرجل.

وهكذا صار أصل الإلحاد تقعيدً للاستثناءات!

وهذا التقعيد الذي يمارسه الملحدة الجدد يسري على أحكام الشريعة والجهاد والنكاح والبيوع والمعاملات، والفتن والبلايا والأوجاع والشرور والتكليف وكل شيء!

فهذا أصل جوهري من أصول إلحادهم.

مع أن الإلحاد لو كان صحيحًا لما استوعبنا وجود الشر ولا الخير، ولا استوعبنا الحكم على أمثال هذه القضايا بأحكامٍ كليةٍ، وكأن معنا تركيبًا عقليًا متجاوزًا نعطي خلاله أحكامًا وتصير هذه الأحكام صحيحة.

فمِن أين لنا بهذا السلطان authority التي نحكم من خلاله ونعطي تقييمًا؟

هل العالم المادي الذي يفتقد للمعيارية أصلًا يعطي هذا السلطان وهذه الوثوقية في

الأحكام؟

إن حُكم الملحد وقراره بخطأ هذا وصحة ذاك، وخيرية هذا الحكم وشر الحكم الآخر. هذه القرارات التي يصدرها الملحد تعني خطأ الإلحاد ذاته.

فلو كنّا أبناء هذا العالم فلن يبدو فيه شر ولا خير، ولن تعرف معنى الخطأ ولا الخلل وهذا ما يقرره بالحرف ريتشارد داوكينز Richard Dawkins –عرّاب الملحدين في العالم– حين قال: "الكون في حقيقته بلا تصميم، بلا غاية، بلا شر ولا خير"[(١)].

فإذا كانت قسوة عمياء غير مبالية كما تقولون وكما تصفون الكون. فكيف أنت تبالي بالخير أو بالشر؟

إن مبالاتك بالخير والشر وتساؤلك عن وجود أطفال مشوهين، أو وجود ظلم في هذا الحكم الشرعي او ذاك. لهو أكبر دليل على سخافة التصور الإلحادي للوجود!

فالمرء لا يصف خطًا بأنه غير مستقيم إلا إذا كانت لديه فكرة ما عن ماهية الخط المستقيم .

وإذا كان العرض كله سيئًا وتافهًا من الألف إلى الياء كما تزعمون، فلماذا وجدت نفسك أيها الملحد! في ردة فعل عنيفة هكذا تُجاهه، مع أنك من المفترض جزءٌ من العرض؟

فلو كان الكون كله عديم المعنى لما كان قد تبين لنا إطلاقًا أنه عديم المعنى .

فالوضع شبيه بهذا تمامًا: لو لم يكن في العالم نور، ولم تكن في العالم مخلوقات لها أعين لما كُنا نعرف قطعًا أن الظُلمة مسيطرة ولكانت الظُلمة كلمة عديمة المعنى[(٢)].

---

(١) The universe we observe has precisely the properties we should expect if there is, at bottom no design, no purpose, no evil and no good.

River out of Eden, p.١٣١-١٣٢.

(٢) C.S. Lewis response (بتصرف).

فاستيعاب التشوه واستيعاب الخطأ يدلان على استقرار الكمال في الفِطر، ولولا ذلك لما أدركنا معنى الخلل، وكل هذه مفاهيم لا تنتمي إلى هذا العالم المادي اللامعياري في شيء!

إذن الشر هو أكبر دليل على أننا لسنـا أبناء هذا العالم؛ واستيعابك للشر دليلٌ على أن المقدمة الدينية موجودة وصحيحة.

لأنه لا بديل ثالث!

إما مقدمتك الإلحادية: وهذه تفتقد للمعيارية، وبالتالي لا تستطيع عبرها أن تستوعب الخطأ ولا الشر.

وإما المقدمة الدينية: وهذه المقدمة تؤكد وجود الكمال ووجود الفِطرة التي تستوعب ذلك الكمال، وتؤكد هذه المقدمة أن الشر لِحكمة والخير لاختبار. فهي مقدمة متسقة مع ذاتها وتملك تعليلًا ومعنىً وقيمةً للأحكام!

أضِف إلى ما سبق: أن وجود التشوه يُسقط الإلحاد رياضيًا لو كنت تعي!

فلو كانت قضية وجود الإنسان في هذا العالم محض صدفة وتطور، فلن ينشأ إنسان واحد معافىً بالصدفة، ولا كائن أقل تطورًا ولا ميكروب ولا حتى عضية خلية بل ولا إنزيم واحد!

فلو افترضنا أن الكون كله تحوّل إلى برميلٍ من الأحماض الأمينية –البنى التحتية للبروتين– ومضى على هذا البرميل مليارات أضعاف عمر الكون فلن يُنتج إنزيم واحد متخصص فضلًا عن آلاف الإنزيمات والبروتينات المتخصصة التي توجد في أدنى الكائنات الحية وأبسطها.

وهذا ما يعترف به الملحد العنيد فريد هويل Fred Hoyle حين يقرر أن فرصة الحصول على فقط مجموعة الإنزيمات لأبسط خلية حية تصل إلى ١٠ أس ٤٠,٠٠٠ مع أن عدد الذرات في الكون كله لا تتجاوز ١٠ أس٨٠[١].

---

(١) the chance of obtaining the required set of enzymes for even the simplest living cell without panspermia was one in ١٠٤٠,٠٠٠. Since the number of atoms in the known universe is infinitesimally tiny by comparison (١٠٨٠).

بل مجرد افتراض أن البرنامج المنظم للخلية الحية، يمكن أن يظهر بالمصادفة في الحساء البدئي لبيئة الأرض الأولى، هو هراء على أعلى مستوىً ممكن؛ كما يقول بالحرف فريد هويل.

Is evidently nonsense of a high order[١].

وهذا نفس ما توصل إليه اللاديني فرانسيس كريك Crick Francis مكتشف جزيء الDNA حيث يقرر أن نشأة بروتين واحد وظيفي بسيط بالصدفة هو ضرب من الاستحالة يكاد يفوق ١٠ أس ٢٦٠ مع أن عدد ذرات الكون ككل كما قلنا لا تتجاوز ١٠ أس ٨٠، هذا في بروتين وظيفي بسيط. مع أن أدنى الكائنات به آلاف البروتينات، وفي النهاية يعترف فرانسيس كريك قائلًا: "كرجل منصف، ومُسلح بالعلم المتاح لنا الآن، أستطيع أن أُقرر بشيءٍ من المنطق، أن نشأة الحياة معجزة"[٢].

---

(١) The notion that not only the biopolymer but the operating program of a living cell could be arrived at by chance in a primordial organic soup here on the Earth is evidently nonsense of a high order.

Sir Fredrick Hoyle and Chandra Wickramasinghe, Evolution from Space (New York: Simon & Schuster, ١٩٨٤), p. ١٤٨.

(٢) "If a particular amino acid sequence was selected by chance, how rare an event would this be?

"This is an easy exercise in combinatorials. Suppose the chain is about two hundred amino acids long; this is, if anything rather less than the average length of proteins of all types. Since we have just twenty possibilities at each place, the number of possibilities is twenty multiplied by itself some two hundred times. This is conveniently written ٢٠٢٠٠ and is approximately equal to ١٠٢٦٠, that is, a one followed by ٢٦٠ zeros.

فإذا كنت أيها الملحد صادقًا مع نفسك في طرحك للشبهة فودِّع إلحادك قبل أن تطرحها!

فوجودك ذاته دليلٌ على خطأ إلحادك.

واستيعابك الشبهة دليلٌ إضافي على وجود الفطرة والمقدمة الدينية.

لذلك أقول أن الملحد لحظة إلحاده يشبه قول القائل: "أعطني معجزة واحدة مجانًا –خلق الحياة، خلق الكون، خلق الجينوم، خلق الفطرة، خلق القيم الأخلاقية، خلق منظومات الحدود الحرجة فيزيائيًا وكيميائيًا،....– وسأشرح أنا البقية".

أما عن جواب "معضلة الشر" –كما يُسمونها– من منظورٍ ديني فنزيده تفصيلًا كما يلي:

الشر موجود لأنك في عالم اختباري تكليفي توجد فيه بعض الغوامض التي لا تستوعبها لكن تكِل علمها إلى الله وهذا هو التصرف الحكيم المُطالب به ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران:٧].

فأنت تجد المحكم –الأطفال الأصحاء– وهو الأشمل والأعم، وتجد المتشابه –المشوهين– في صورةٍ لها حِكمتها التي قد تخفى عليك، والمطلوب منك أن تكِل علم هذا المتشابه إلى الله، لأن حكمتك ليست كُلية وربما يَفتح الله لك بالجهد العلمي المادي، والجهد الإيماني الروحي وتطلع

" Moreover, we have only considered a polypeptide chain of rather modest length. Had we considered longer ones as well, the figure would have been even more immense. The great majority of sequences can never have been synthesized at all, at any time". pp. ٥٢-٥١

"An honest man, armed with all the knowledge available to us now, could only state that in some sense, the origin of life appears at the moment to be almost a miracle, so many are the conditions which would have had to have been satisfied to get it going".

Life Itself: Its Origin and Nature, P.٨٨.

على شيءٍ من الحكمة! ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

يقول ديكارت في كتابه التأملات: "ليس لدي أدنى سبب يجعلني أتذمر من أن الله لم يمنحني قدرة أعظم على الفهم، أو أنه لم يهبني نورًا طبيعيًا أكثر مما وهب، فمن الطبيعي أن تظل هناك أشياء غير مفهومة بالنسبة لفهمٍ محدود، ومن الطبيعي أن يظل الفهم المخلوق محدودًا"[١].

فقوام التكليف على الحكمة وقوام الحكمة على الخفاء!

فلو كان الله موجودًا فما المانع أن تكون له حكمة في تدبير الامور؟

فما أبعد أحكامه سبحانه وتعالى عن الفحص، وطُرقه عن الاستقصاء[٢].

وقد جلَّى الله الحِكمة من أفعال الخضر لسيدنا موسى -عليه السلام-، مع أنها أفعالٌ تُعد ظاهريًا مُنكرة وغير مستساغة، لكنها تكتنف على خيرٍ عظيم، وقصة موسى والخضر لم تأت في القرآن من باب السرد والحكايات، لكن من باب التدبر والإخبات والإقرار بقصور النفس البشرية وحكمها المُتعجل.

ثم إنك لو تدّبرت أحوال العباد؛ فقد تجد عجبًا. وقد تحزن على حال الذي يموت في سن المائة بضيق الشرايين التاجية، وتفرح لمآل الذي وُلِد مشوهًا.

فالعبرة لا تقاس بمُعاملٍ واحدٍ في مسألةٍ متشابكةٍ كالإنسان، فربما المشوه يجد الوقت ليتدبر ويرتقي، وابن المائة سنة يرتع في الملذات ويسقط في الدركات.

لذا التبسيط واختزال المُعاملات في مُعاملٍ واحد أسلوبٌ غير مقبولٍ منطقيًا وغير صحيح

---

(١) Descartes, R., Meditations and Other Metaphysical Writings, p.٤٩.

(نقلًا عن كتاب ثلاث رسائل؛ د.عبد الله الشهري، مركز نماء)

(٢) قول كتابي -منقول عن الكتب المقدسة القديمة، الرسالة إلى رومية إصحاح ١١ عدد ٣٣.

دينيًا، لكنه الحجة الباقية للملحد، وبدون هذا الأُسلوب لن تستقيم له شبهة.

فلا يجوز لملحدٍ أن يحتجَّ في باب الحِكمة الإلهية بشيءٍ، لأن الملحد بداهةً ليس كُلي العلم، ولا يعرف ما في غدٍ حتى يُقرر ويعطي نظرةً شموليةً على مسألةٍ لم يستوعبها.

فحُكم الملحد على الأمور التي تخفى فيها الحِكمة قاصرٌ بقصور الطبيعة البشرية نفسها، وبقصور نظرتها الإدراكية.

فالاستيعاب الشمولي، والحُكم الكُلي، ليس مجال النفس البشرية ولا يقع في نطاق قدراتها القاصرة، وبالتالي فلا يحق للملحد أن يتحدث في باب الحِكمة الإلهية بشيءٍ أو يعطي فيها رأيًا!

فالبقعة السوداء قد تكون فى الصورة كلها لونًا من ألوانها التى لا غنى عنها -كما يقول محمود عباس العقاد رحمه الله-، ونحن فى حياتنا القريبة قد نبكى لحادثٍ يعجبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته.

فسبحان الخالق المدّبِّر!

وإلى هنا قد نكون أطنبنا في الحديث عن "معضلة الشر" وقد نكون خرجنا عن المقصود شيئًا. لكن حال المعالجة اقتضى منّا ذلك.

المهم خلاصة ما نريد أن يرصده القلم، ويثبت عليه البصر، ويستجليه القلب، أن إطباق الملحدين على تقعيد الاستثناءات صار أصلًا لا ينفك رصده عمن قرأ خطابهم!

والحمد لله رب العالمين.

وكان هذا هو الأصل الثاني من أصول إلحادهم الكبرى.

الأصل الثالث

الافتتان بالمظهر المادي لخصوم الرسل

"أصل الإلحاد وأصل كفر الأقدمين والمعاصرين افتتانهم بالمظاهر المادية لخصوم الرسل".

هذا هو الأصل الثالث من أصول الإلحاد الكبرى!

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم:٧٣].

فإذا أتيت للملحد بالآيات البينات على صحة الرسالة، انتقل بك إلى ضعف المظهر المادي للمؤمنين، وقوة المظهر المادي لخصوم الرسل من الكافرين.

وهذا حال الكفار عبر العصور، فهم يتخذون من السخرية بحال المؤمنين وفقرهم المادي والمعرفي والتقني سبيلًا للتشكيك في عقيدتهم.

مع أن الجهة منفكة!

لكن هذا واقع حال الملحد: "الانكسار للثقافة الغالبة".

فالمظهر المادي للكافر والتقدم التقاني والسفر للفضاء وحل المعادلات، كل هذا له مفعول السحر في الأنفس.

فقد يؤدي الهوس بالمظهر المادي إلى التكذيب بلقاء الله. وهذا واقع يشهد له كفر الأقدمين والمعاصرين.

فأصل كفرهم يقوم على الافتتان بالغلبة المادية. قال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ** ﴾ [الزخرف:٣٣].

قال الحسن: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها، وما فعل الله ذلك، فكيف لو فعله؟

يقول الباحث إبراهيم السكران -حفظه الله-: "وهذا قانون تاريخي وسنة كونية متكررة لا ينتهي العجب من تأمل أرشيفها الطاعن في العمر، فجمهور المبلغين عن الله منذ فجر النبوات وحتى لحظة العمل الإسلامي المعاصر يواجهون دومًا "قوى مادية" تفوقهم وتفتن الناس عن اتباع الوحي الذي معهم.

وانظر في تجارب الأنبياء وما انطوت عليه من الخبرات الدعوية، ستجدها تكاد أن تكون جميعًا تمثالًا ناطقًا للصراع بين داعي "الوحي الإلهي" وفتنة "القوة المادية"، وستجد افتتان الناس بالقوة المادية يخلب ألبابهم ويعشي أبصارهم ويصرفهم عن الانصياع والاستسلام للوحي، وستجد العاملين للدين يعانون الأمرَّين من افتتان الناس بالمظاهر المادية.

فالرسول الأول نوح عليه السلام قال له قومه بكل صراحة مادية:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود:٢٧].

ويتحدث القرآن عن قوة الكافرين المادية ويصف قصورهم ومنشآتهم الضخمة وبطشهم العسكري في سورة الشعراء فيقول سبحانه:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠].

وما أن يظهر نبي الله موسى في أثناء "الحضارة الفرعونية" بكامل وزنها التاريخي وإمكانياتها الإمبراطورية، ليتكرر من جديد مسلسل طغيان القوة المدنية وغرورها أمام الوحي.

ولا ينقضي العجب من عمق فهم نبي الله موسى وملاحظته كيف فتنت الحضارة الفرعونية وقوتها المدنية الناس، وكيف صرفتهم عن الاستسلام للوحي، فيُعبر كليم الله موسى عن هذا القانون التاريخي لأعظم تحدٍّ يواجه الدعوات كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس:٨٨].

ولم يكن الحال جديدًا بالنسبة لنبينا محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- فقد كان الجاحدون لنبوته والوحي الذي معه يتعلقون في الإعراض عنه بضعفه المادي، وأنه لا يتمتع بمظاهر القوة والرفاة كما يتمتع بها بعض اللامعين في منطقة الحجاز، ورأوا أنه لا يليق الخضوع لنبي إلا إن كان من أشراف الطبقة الارستقراطية في عاصمتي الحجاز وهما مكة والطائف كما قال تعالى عنهم في سورة الزخرف: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١]

وبكل صراحةٍ ووضوح واجهوه بأنه لا يملك "ثروة مادية" يستحق بها أن يتبعوه كما ساق تعالى احتجاجهم في سورة الفرقان بقولهم: ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان:٨].

وبعد هذه الآية مباشرةً يعقب سبحانه وتعالى على هذا الاحتجاج المادي الرخيص بكونه لايعجزه سبحانه ذلك ولكنه أراد اختبارهم وامتحانهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴾ [الفرقان:١٠].

ولذا كاد أن يكون جوهر الصراع القرآني بين "المظاهر المادية" و "المبدأ الديني" أو ما يسميه القرآن الدنيا/ الآخرة، ومن أشد ما يفتن الناس عن حقائق الوحي أنه يغلب على الرسل وأتباعهم من العاملين للدين المشغوفين بتبليغ هذا الوحي أنهم لا يملكون مظاهر القوة المادية الباذخة التي يتمتع بالاستحواذ على مفاصلها غير المسلمين"(١).

وللمرء أن يتسائل: ولماذا يستحوذ الكافرون على مفاصل القوى المادية؟

إن اتباع الحق لا المظهر المادي هو أصل من أصول التكليف الدينية.

فأي معنىً لاختبارٍ وامتحانٍ وابتلاءٍ في اتباع القوي المسيطر؟

فالمفترض أن الاختبار يكون في اتباع الحق، لا المظهر المادي.

---

(١) من وحي كتاب "مآلات الخطاب المدني"، إبراهيم السكران، بتصرف.

فمن يتبع المظهر المادي مفتونٌ تائهٌ عما وراء المادة، خاضعٌ لسحر القوالب الفكرية التي يصبها الماديون وينحتونها وفق ما تمليه أهوائهم.

وفي هذا فصلٌ بين أتباع الدنيا وأتباع الآخرة.

يقول ابن خلدون رحمه الله في مقدمته مؤرخًا لهذه القضية الخطيرة: " الفصل الثالث والعشرون في أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه و نحلته و سائر أحواله وعوائده، و السبب في ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أولما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب فإذا غالطت بذلك و اتصل لها اعتقادًا فانتحلت جميع مذاهب الغالب و تشبهت به و ذلك هو الاقتداء أو لما تراه و الله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية و لا قوة بأس لم إنما هو بما انتحلته من العوائد و المذاهب تغالط أيضًا بذلك عن الغلب و هذا راجع للأول و لذلك ترى المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب في ملبسه و مركبه و سلاحه في اتخاذها و أشكالها بل و في سائر أحواله و انظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائمًا و ما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم"[١].

فحقيقة الأمر أن الملحد وقع ضحية الاستبداد الثقافي للسطوة الغربية على عقله.

بل وصراحةً كل العلمانيين داخل هذا السجن.

ويميل الملحد إلى التفهم قدر الإمكان إلى كل إشكالات الماديين وكل ثغرات أفكارهم. ويُقدم في ذلك المعالجات تلو المعالجات، والاعتذارات تلو الاعتذارات.

لكن يا ترى ما هي مشكلة المظهر المادي بخلاف أنه مصكوكٌ على الهوى؟

مشكلة دعاة المظهر المادي أنهم لا يقدمون أجوبة عن أسئلة الغاية، فقد كانوا وما زالوا عميًا في الغايات ولكنهم متمكنون جدًا من الوسائل فجعلوا من الوسائل عصائب على أعينهم تمنعهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون، الفصل الثالث والعشرون.

تبصُّر الغايات.

ولو أنهم لحظة انتصارهم المادي انصاغوا إلى الأجوبة الدينية. فصاروا مقلدين في الدين مبتدعين في الحضارة -كما كان حال المسلمين في تاريخ مجدهم الأزهر- لما صارت مشكلة. لكن ما نعيبه على دعاة المادية أن اغترارهم بالمادة أعمى بصائرهم عما ورائها. ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ [غافر:٨٣].

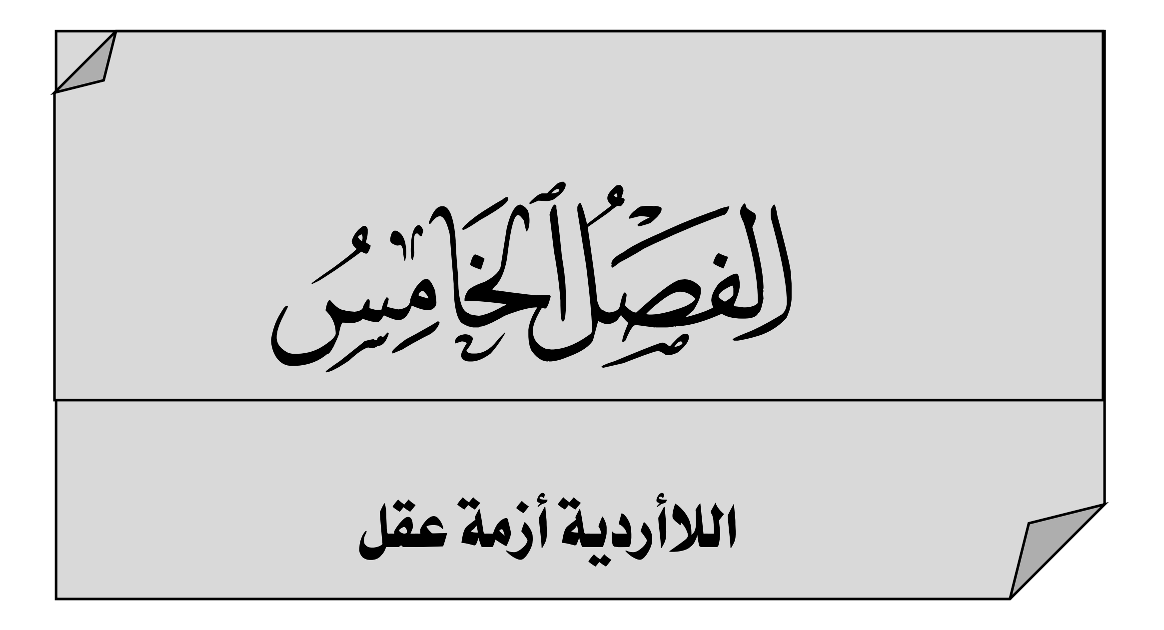
فأصل معرفة الغايات هبة إلهية تقترن بالإيمان، وقد عجزت كل حضارات العالم أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام في أجوبة الغاية. بل ظلت هذه الأجوبة حصرية داخل ميدان الإيمان ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]..

فالعودة إلى الإيمان تملك الإجابة الشمولية على كل أسئلة لماذا، وكل أسئلة المعنى، وداخلها يجد الإنسان ذاته، أما خارجها فلا يجد إلا مجموعة من الذرات المتلاحمة بلا معنى، والتي تتحرك بلا غاية وترتطم بلا هدف.

فما فائدة أن تعرف تفاصيل جزء معين من العلوم -الوسائل- وأنت جاهلٌ بأعظم مطلوبٍ للإنسان -الغايات-؟

لذا كان الافتتان بالمظهر المادي وتجاهل أعظم مطلوب هو منتهى الجهل الذي سقط فيه الملحدة!

وكان هذا أصلًا كبيرًا من أصول إلحادهم.



﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء:١٤٣]

اللاأدرية ؛ أزمة عقل!

اللاأدرية Agnosticism؛ هي مرحلة منتصف الطريق، فاللاأدرية أحد الفرق الإلحادية الثلاث الكبرى "إلحاد – ربوبية– لاأدرية"، وتتميز اللاأدرية عن غيرها من الفرق الإلحادية أنها لم تجزم بوجود خالق ولم تنفِ وجوده، بل تجعل كل الاحتمالات قائمة.

وهي بذلك أشبه ما تكون بمرحلة عارضة طارئة –موقف وقتي–، ولذا فهي أقل الفرق الإلحادية الثلاث أتباعًا[١].

إذ أن البديهة المُركبة في البشر هي الوصول إلى الحقائق والاستقرار عليها، وإلا ما حدث تقدم في حياة البشر –فشرط التقدم أن تستقر على موقف ثم تنتقل منه لغيره–، أما اللاأدرية فهي تفترض حالة من حالات التوقف –عدم الجزم بشيء–، أو كما يسميها الملحد ريتشارد داوكينز Richard Dawkins : "اللاأدرية؛ حالة من حالات الجُبن الفكري، فهي كالجالسين على السور –الراقصين على السلم باللهجة المصرية– fence-sitting, intellectual cowardice "[٢].

ولذا فهي غير مستساغة ولا توجد لها ركائز داخل النفس، ولا يقبل الإنسان السوي أن يحيا ويموت تحت هذا المُسمى " لا أدري"، فالإنسان يعرف أنه توجد حقائق واضحة جلية، ولولا هذه المعرفة ما صّحَّ علم ولا فكر.

وعلى قِلة أتباع اللاأدرية فقد انقسمت إلى طوائف شتى؛

الفرق والمذاهب اللاأدرية المعاصرة:

١ – اللاأدرية القوية المغلقة Strong Agnosticism

٢– اللاأدرية الضعيفة Weak Agnosticism

---

(١)http://www.nature.com/nature/journal/v٣٨٦/n٦٦٢٤/abs/٣٨٦٤٣٥a٠.html.

(٢) The god Delusion, p.٧٠.

٣- اللاأدرية البرجماتية Apathetic Agnosticism

٤- اللاأدرية الملحدة Agnostic atheism

٥- اللاأدرية المؤمنة Agnostic Theism

وتجتمع هذه الفِرق على عدم الجزم بصحة المعتقد الديني وأيضًا عدم الجزم بتخطئته، وتختلف فيما بينها في قوة التوجه نحو هذا أو ذاك!

وقوام حجة اللاأدرية أن خبرتنا البشرية لا موضوعية –من العسير التحقق من صحة معطياتنا–، وبالتالي يستحيل الإجابة عن مسألة كبرى مثل وجود الله–سبحانه وتعالى–.

وهنا تناقض ظاهر لا يخفى، حين يتحدثون عن مسألة وجود الله سبحانه وتعالى وكأنهم يُعرفونها مسبقًا بأنها موضوعية، فما أدراهم أنها كذلك إلا لو كان العقل البشري يُميز المسائل الموضوعية من المسائل الذاتية!

ثم مَن قال أنها موضوعية أو غير موضوعية ومَن أدراهم أنها مسألة مستقلة وليس كمثلها شيء؟

ثم إن أدلتنا العقلية على الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى تقوم على براهين أولية قبلية A-Periori وليس قياسات عقلية.

والبرهان العقلي الأولي لا علاقة له بالخبرة البشرية بل هو سابق في الوجدان والوجود عليها.

فالإنسان يولد ببراهين عقلية أولية مسبقة، اتفق على وجودها الملحد والمؤمن، فيُسميها المؤمن ب"الفطرة" أو "الصبغة الإلهية" ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾ [البقرة:١٣٨].

ويُسميها الملحد بالغرائز الأولية instincts .

ومن اللافت للنظر أن علم اللغويات الحديثة التي أسس لها نعوم تشومسكي Noam Chomsky تقوم على أن العقل لا يولد كصفحة بيضاء بل يحتوي على الكثير من المقدمات الأولية

. knowledge is innate

وأصل علم اللسانيات الحديث لا يمكن دراسته دون التسليم مسبقًا بوجود فطرة منسوجة مسبقًا داخل العقل البشري وأنه ليس صفحة بيضاء(١).

فالعقل يمتلك براهين أولية أو قبلية، لا تعتمد على الخبرة ولا يتم اكتسابها أو توريثها عبر الأجيال، ومن هذه البراهين العقلية القبلية الأولية برهان السببية!

فهو برهان قبلي أولي لا ينفك ولا ينخرم، فأنت موجود ووجودك لا يُفسر نفسه بنفسه إذن لك موجِد ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥].

إنه دليل عقلي أولي كوني، يتجاوز أُطر الزمان والمكان، ولا يتقيد بخبرتنا البشرية بل هو أعم وأعمق.

وقوام كل العلوم النظرية والتجريبية على برهان السببية، فلولا اضطراد هذا البرهان ولولا استقراره في الأذهان ما صحت معادلة ولا انضبطت تجربة ولا سلّمنا بنتيجة ولصارت كل العلوم لغوٌ فارغ!

فبرهان السببية هو برهان كوني أعلى من القانون وعليه تقوم كل العلوم!

أيضًا من أدلة الإيمان بالخالق أن هذا العالم موجود ووجوده يفيد عرضيته وتغيره، والعالم لا يفسر نفسه بنفسه، إذن لابد لهذا العالم من موجِد ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٦].

إذن نحن نقوم بالإيمان بالخالق استنادًا إلى برهان عقلي أولي يسبق الخبرة البشرية ويسبق كل ملكاتنا المكتسبة.

ثم قبل هذا وذاك بأي دليلٍ من خارجنا نحن مُطالبون بالتمرد على خبرتنا البشرية؟

---

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/Universal_grammar

بأي دليلٍ من خارجنا نحن مضطرون لعدم الانصياع لمكتسباتنا البشرية؟

بأي دليلٍ نرفض كل ما تمدنا به حواسنا؟

الآن الموقف انقلب! نحن الذين نُلزم اللاأدري بالتسليم بما ترصده الحواس وهو يرفض ويعاند، مع أنه داعيه المذهب الطبيعي والمبشر الأول به، أليس كذلك؟

زِد على ذلك أن براهيننا القبلية الأولية أعلى وثوقية من خبرتنا العلمية التجريبية بكثير وأكثر منها ضبطًا وإتقانًا.

ومع ذلك اللاأدري يُسَلِّم بصحة العلم الطبيعي التجريبي، ويقطع به!

أضف إلى ما سبق أن أدلتنا لا تنحصر في البراهين القبلية الأولية، بل هذه أحد البراهين لا أكثر، وإلا فبرهان النبوة هو برهان آخر قائم بذاته ومنفصل عن البراهين الأولية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رائعته ثبوت النبوات: "ليست المعجزة هي الشرط الأوحد للنبوة، فمُدعي النبوة إما أن يكون أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ولا يُلبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، وقد أسلم السابقون الأولون أمثال أبي بكر الصديق وخديجة والمُبشَّرون قبل انشقاق القمر والإخبار بالغيب والتحدي بالقرآن، .... و كثيرٌ من الناس يعلم صدق المُخبر بلا آية البتة، وموسى ابن عمران لما جاء إلى مصر وقال لهم إن الله أرسلني علموا صدقه قبل أن يُظهر لهم الآيات، وكذلك النبي لما ذكر حاله لخديجة وذهبت به إلى ورقة ابن نوفل قال هذا هو الناموس الذي أتي موسى، وكذلك النجاشي، وأبو بكر علموا صدقه علمًا ضروريًا لما أخبرهم بما جاء به وما يعرفون من صدقه وأمانته مع غير ذلك من القرائن يوجب علمًا ضروريًا بأنه صادق، وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد تقترن به قرائن يُعرف بها صدقه بالضرورة، فكيف بمن عُرف بصدقه وأمانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا مَن هو أصدق الناس أو أكذبهم، وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني"[(١)] .

---

(١) ثبوت النبوات، شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٥٧٣.

فبرهان النبوة هو برهان مستقل آمن بمثله ما لا حصر له من البشر ومنهم ما لا يُحصى من المفكرين والعقلاء عبر التاريخ.

أيضًا من البراهين التي تقطع بصحة القضية الدينية تلك البراهين التي تتجاوز إطار القيد المادي في هذا العالم مثل برهان الأخلاق، فالأخلاق لا مصلحية ولا مادية وتستمد بانتظام معناها وقيمتها من عالمٍ آخر لا علاقة له بهذا العالم المادي المجرد، ومع ذلك يُسلِّم بصحة معنى الأخلاق في ذاتها المؤمن والملحد واللاأدري.

مع أن الجميع يعلمون أنه ليس للأخلاق مستند مادي يدعمها، بل الأخلاق في أجلى تعريفاتها أنها: "تأتي دائمًا ضد المادة وضد المصلحة الشخصية".

(٢)

ولا تخضع لرغبات البشر أو نزواتهم فالخير خير عن الصالح والطالح، والشر شر عند الصالح والطالح، فهي تستمد معناها باستمرار من عالمٍ آخر ولا يوجد داخل هذا العالم لها مستند يدعمها!

فهذه كلها براهين مستقلة تؤكد سخافة دعوى اللاأدرية، وخطأ حصرها للأدلة في نطاق الخبرة البشرية، مع الجزم بأن كل العلوم التجريبية تقوم على الخبرة البشرية، ولا مجال لنقد الخبرة البشرية بدليل من داخلها، ولا يوجد خارجها ما ينقدها!

كما ذكرنا أدلة الإيمان لا تنحصر في نطاق الخبرة البشرية كما يزعم اللاأدري، بل هي تتجاوز ذلك بكثير، مع التوكيد مرارًا وتكرارًا على عدم جواز تخطئة الخبرة البشرية في ذاتها، وإلا فكل علوم الدنيا تقوم على الخبرة البشرية فهل يكفر اللاأدري بهذه العلوم؟

مشكلة اللاأدري أنه يحبس نفسه داخل حالة من التوقف الغير مُبرر والغير مُمنهج، فلا ينضبط لدليل ولا ينساق لحجة.

وإذا كان التأزم النفسي الشديد قد يؤدي إلى الإلحاد تخلصًا من الدين ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج:١١].

أو يؤدي إلى الدين تخلصًا من الإلحاد، فإن اللاأدرية تحبس صاحبها في قلب حالة التأزم- ولم يحرم هذا الموقف الشخص اللاأدري أيضًا من خسارة الدنيا والآخرة-!

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا التخبُّط والتوقف الغير مُمنهج هو أصل كفر الكافر وأن الذي يزعم أنه لا يدري هو كاذب في زعمه؛ ففي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داوود وصححه الألباني أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: " إن العبد الكافر ... يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدري، فيقولان له ما دينك فيقول هاه هاه لا أدري، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له بابًا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها"[(١)].

والشاهد من الحديث أن هذا حال اللاأدري في قبره، فهو كاذب كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، فأدلة اليقين التي على مثلها آمن البشر لا حصر لها، ولذا فحجة اللاأدري داحضة عند الله يوم القيامة خاصةً وأن أدلة الإيمان استجاب لها البشر وأورثتهم اليقين التام ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى:١٦].

---

(١) أحكام الجنائز، للألباني، ص١٥٦.

واللاأدري لا يضع احتمال وصول معرفة الله إلى وجداننا بطريقة نعلمها أو لا نعلمها، فأغلق الطريق وسدّد مسالك قلبه قبل أن يأتيه الدليل، وهذه هي مرحلة "الرّان" التي حذّر منها القرآن الكريم، والتي لا تصلح معها موعظة ولا تستجب لمؤثر ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤].

مع أن اللاأدري لو تدّبر أبسط بديهيات عقله لسقطت لاأدريته في جلسة، فبرهان انتقال اللاحياة إلى حياة مثلًا وهو برهان استخدمه القرآن الكريم كثيرًا في إثبات التدخل الإلهي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ ﴾ [الحج:٧٣].

هذا البرهان ما زال حتى اللحظة حجة في وجه كل البشر.

ذلك أن كل علوم العالم وكل جامعات العالم وكل ما توصل إليه العالم من ذكاءٍ وتقانةٍ وضبطٍ وماكيناتٍ عملاقة لا يستطيع أن يُنتج أبسط صور الحياة!

ومع ذلك ما زال الكافر يفترض أن العشوائية أنتجت كل صور الحياة وأنتجت الفيروس والباكتريا والإنسان، في حين أننا بمكائننا العملاقة وعقولنا الجبارة لم نستطع أن ننتج أبسط صور الحياة، ثم نفترض أن العماء والصدفة قاموا بذلك.

إذا لم تكن هذه قمة السذاجة فأين تقبع قمة السذاجة؟

إن أدق الكائنات الحية على الإطلاق يقودها الغرض والهدف والغاية، وتتمتع بالوعي و تحليل المعلومات ثم إعطاء رد فعل بِناءًا على تلك المعلومات، مثلًا الأميبا Amoeba وحيدة الخلية لو جاء بجوارها غِذاء متحرك فإنها تلف أذرعها حوله بحذر حتى لا يهرب، في حين لو كان الغذاء ثابتًا لا يتحرك – حُبيبة نشا – فإنها تلتصق به دون احتراس.

والأميبا كائن وحيد الخلية بلا مخ ولا عين ولا أعصاب ولا حواس[١].

و البويضة بعد تخصيبها تُعبِّر عن استقلالها البيولوجي ويكون لها وعي وإحساس بحقيقة أنه يمكنها التفاعل مع بيئتها، وتبدأ في الإنقسام الذاتي لخلايا يفوق في عددها نجوم مجرة درب التبانة، و لديها القدرة على تلقي المعلومة ومعالجتها والتفاعل باستقلال مع المعلومة[٢].

في المقابل لا يمكن أن يبلغ الكمبيوتر مهما اشتد تعقيده أبسط درجات الوعي في كائن وحيد الخلية كالأميبا، ومع ذلك عملية تصنيع الكمبيوتر عملية واعية وذكية للغاية وفي حدود زمان ومكان.

ولو كنّا أكثر إنصافًا فالحق أنه لا وجه للمقارنة أصلًا لأن نسبة وعي أذكي الكمبيوترات على الإطلاق تساوي صفر I.Q.=ZERO ، في مقابل أبسط عضية من عضيات الأميبا التي تتمتع بالوعي -وإصدار رد فعل بناءً على المعطيات والمعلومات- فضلًا عن الأميبا ذاتها[٣].

ومع ذلك المطلوب أن نُصدق أن اللاحياة أنشأت الأميبا والإنسان، والذكاء الإنساني لم يستطع أن يُنشيء أبسط صور الوعي.

إنه السؤال المفصلي والجوهري، بين الدين المنطقي واللاأدرية الكاذبة .

وهنا بعض معتنقي اللاأدرية قد يقولون: حسنًا ما سبق جيد؛ لكن كيف تطالبوننا بالإيمان بخالق لا نعرف عن جوهره شيئًا ثم تقولون لنا: ليس كمثله شيء؟

وهذا من انطماس بصائر اللاأدرية فعدم معرفة جوهر الشيء لا تعني انتفاء وجوده، فنحن لم نعرف جوهر المادة ذاتها حتى الآن، فهل نُنكر وجود المادة؟

---

(١)https://en.wikipedia.org/wiki/Amoeba

(٢) http://www.innerbody.com/image/repo٠٤.html

(٣) Russell, Stuart J.; Norvig, Peter

(٢٠٠٣) pp. ٩٥٨–٩٦٠ Artificial Intelligence: A Modern Approach

والإنسان يستطيع الإيمان بالأشياء المجردة والمطلقة دون القدرة على الإحاطة التامة بها، فالعقل الإنساني يستطيع أن يصل إلى حتمية وجود قوة إلهية خارجة عن أبعاد الكون التي يعهدها.

بل إن تشارلز داروين نفسه يقرر أن الدين قضية عقلية محترمة يتبعها عقلاء ومفكرون عبر كل العصور فيقول: " أما وجود حاكم للكون فهذا مما دانت به جموع من أعظم العقول التي وُجدت على الإطلاق"[١].

فأغلب البشر يؤمنون بالله تبعًا للفطرة الداخلية دون إعمال كثير عقل ويتبعون الدين السائد. والله يفصل بينهم يوم القيامة، ومن الناس مَن يُعمل عقله فيهتدي أو ينحرف حسب درجة البحث ومصداقيته.

وخارج كل هذا تربض اللاأدرية بلا مستندٍ ولا ركيزةٍ ولا معنى!

(٣)

تحدثنا فيما سبق عن سخافة المقدمة اللاأدرية، وخطأ إسقاط الخبرة البشرية، أيضًا فصّلنا في الحديث عن مدى قوة واستقلالية أدلة وبراهين الإيمان.

ومدى اعتماد هذه البراهين على أدلة عقلية صحيحة وسليمة تركن في أغلبها لصِبغةٍ فطرية ومقدماتٍ استدلالية.

لكن هنا قد يتقافز لاأدري ويقول: **كيف سلَّمنّا من الأساس بصحة مقدماتِنا العقلية الاستدلالية؟**

لماذا لا تكون هذه المقدمات بنتائجها مجرد وهمٍ كبير؟

لماذا لا تكون سرابًا خادعًا؟

---

(١) Darwin, Charles (١٩٠٢) The Descent of Man, p.١٣١

ألسنا إلى اليوم نعجز عن حل معضلاتٍ فيزيائيةٍ كثيرة؟

ألسنا عاجزين عن الجمع بين فيزياء النسبية وفيزياء الكم؟

وللرد على ذلك نقول: في واقع الأمر هنا اللاأدري لابد أن يعي أن عملياتنا العقلية تعكس شيئًا ما عن العالم المادي الذي نسكنه فهي صحيحة.

ولذلك أحكامنا ناجحة جدًا وتنبؤاتها صحيحة، وأعطت نتائج جيدة!

والبحوث العلمية تحتوي على قدرٍ كبيرٍ من الدقة لأنها ترتبط بواقعٍ مادي، يثبت أننا نسير في الاتجاه الصحيح، لكن الأهم من ذلك أن عقولنا ترصد كل ذلك وتحلله وتتوقع النتائج.

من أجل هذا فلنا الحق كاملًا أن نثق في أحكام عقولنا.

فالعقل استنتج قوانين سقوط الأجسام –قوانين نيوتن الثلاثة Newton's Laws – وحين قمنا بتطبيقها جائت النتائج صحيحة تمامًا[١].

وأيضًا صدقت تنبؤاتنا واستطاع أينشتاين أن يُدخل بعض التعديلات على قوانين نيوتن في السرعات الأعلى وجائت نتائجه مبهرة وعلى قدرٍ مدهشٍ من الدقة والضبط، بما يعطينا ثقة أعلى في أن أحكام عقولنا ليست وهم فارغ أو سراب خادع![٢]

والعلم نفسه مؤسَس على أمل أن العالم عقلاني –مستوعَب عقليًا the rationality of the universe– في جميع مناحيه المشهودة ولم تنخرم هذه القاعدة حتى الساعة، وفي الفيزياء النووية وفيزياء الأفلاك ظلت قدراتنا العقلية غير خادعة بالمرة، بل هي ثابتة ومتزنة وتعطي أحكامًا لها طابع الوثوقية العالية.

وليس معنى عدم استيعاب عقولنا لأشياء مثل توحيد فيزياء النسبية مع ميكانيك الكم – يأمل العلماء أن تتوحد النسبية لأينشتاين مع ميكانيك الكم في نظرية شاملة تأتي على القوى الأربع

---

(١)http://www.physicsclassroom.com/Physics-Tutorial/Newton-s-Laws.

(٢)http://csep١٠.phys.utk.edu/astr١٦١/lect/history/einstein.html.

الكبرى TOA – ليس معنى ذلك أي تشكيكٍ في قيمة عقولنا فلا يعني ما لم نصل إليه افتقاده للمعقولية!

وإنما يعني طبيعتنا البشرية القاصرة لا أكثر. وهذا لا يُخرج العقل عن مصداقية أحكامه!

فلا يعني عدم مقدرة الآلة الحاسبة جمع أرقام تزيد على عشرة أرقام خطأ ما تتوصل إليه وإنما طبيعة تصميمها لا يتيح لها إلا هذا القدر من المعلومة وما فوق ذلك يتجاوز مقدرتها، ولا يُشكك هذا التجاوز في معطياتها، لأن كل معطياتها –العمليات الحسابية – بالتطبيق المادي سليمة وتنبؤاتها صحيحة.

أضف إلى ذلك أن قانون المربع المقلوب للقوة الكهربية تم إثباته دائمًا –وفرق الجهد الكهربي بين نقطتين يظل ثابتًا: فعندما تنتقل شحنة كهربية بين نقطتين مقدارها واحد كولوم *Coulomb* فإن الشغل المبذول يكون واحد جول *Joule*–[١].

وهذه محاكمة استقرائية ناجحة تمامًا وهي أساس نجاح العلم ذاته!

فالعلم يقوم على إمكانية الاعتماد على الطبيعة من خلال محاكمة استقرائية عقلية مسبقة، توفر قناعة أن المربع المقلوب للقوة الكهربية سيظل ثابتًا في التجربة التالية، وبالتالي فالحكم العقلي سليم!

فالزعم بأن الكون عقلاني مرتبط بحقيقة أنه منظم، ومرتبط أكثر بحقيقة صحة مقدماتنا العقلية!

والتشابك المنضبط للأحداث –مثل ظهور الملح والماء عند الخلط بين الحامض والقاعدي– يمدنا بانتظام بتأكيد صحة مقدمتنا العقلية عن السببية!

فالسببية هي أحد مظاهر النظام العقلاني للعالم، وجميع الأحداث التي نرصدها تدور في

---

(١) http://www.rapidtables.com/convert/electric/Joule_to_Volt.htm.

إطار سبب ونتيجة!

فأصل العلم التجريبي يقوم على أن: القوانين التي تحكم العالم ليست عديمة المعنى بل تسير وفق أنساقٍ مبهرة يمكن التنبؤ بها واستنباطها واستيعابها.

وبالتالي فأحكامنا لها وثوقية عالية!

ويؤكد الدين أيضًا على هذه الحقيقة، فأصل الدين على أن كل ظواهر الكون وقوانينه منضبطة ولها هدف وغاية، وليست عبثًا ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

وألف باء علم تجريبي أن قوانين الكون مُفصّلة تفصيلًا ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢].

فالزعم بأن مقدماتنا العقلية قد تكون وهم خادع، هو زعم خيالي يناقض ألف باء علم وعقل ومنطق!

فهو زعم ناتج عن خيال. والخيال مجاني، ولا حِكر على الأوهام، وهنا فقط تركض اللاأدرية وترتع حيث الأوهام والخيالات التي لا حصر لها.

فالعقل ينفتح على ما لا حصر له من الإيرادات والتوهمات والخيالات والحقائق والهلاوس.

ويبقى معيار التمييز بين الحقائق والهلاوس محايثًا –مرتبطًا ب- لأول احتكاك بالعالم المادي وبسننه التي تُسقط كل هلاوس اللاأدرية!

ومن عجيب ما يُذكر هنا: أن التشكيك في صحة معطيات العقل هو مرض عصابي يُسمى: مرض اعتلال الذاكرة المتكرر

Reduplicative Paramnesia [١].

(١) https://en.wikipedia.org/wiki/Reduplicative_paramnesia

ومرض اعتلال الذاكرة المتكرر هو خلل عصابي يطابق الحالة اللاأدرية في كونه مرتبط بخلل معرفة الواقع –نسبية المقدمات العقلية – كأحد عوارضه الأساسية.

فسبحان مَن جعل من الكفر داءًا ومن الإيمان شفاءًا ورِيًّا.

إذن اللاأدرية خلل عصابي وهلاوس عقلية وليست وظيفة مخيّة سليمة، فهي عقيدة مرضية تستوجب العلاج.

نسبية المعرفة عند اللاأدرية

يقول بعض دعاة اللاأدرية: طبقًا لتجاربنا العلمية المتكررة قد نخرج بحقيقة أن العالم المادي حقيقي، لكن ما المانع أن تكون معرفتنا نسبية -لا يمكننا التأكد من صحّتها-؟

بدايةً: الذي يتخذ النسبية منهجًا له هو يعتبرها حقيقة مطلقة، فوقع في التناقض الذاتي، وهدَم نسبيته ولا أدريته بنفسه قبل التعرض لها!

فعندما تفترض أنه يمكنك أن تعلم أُمورًا كافية عن الواقع بحيث تؤكد أنه لاشيء يمكن معرفته عن الواقع، فهذه قمة التناقض.

إذ ليس من الممكن أن نعرف الفرق بين النسبي والمطلق دون أن نعرف قدرًا كافيًا عنهما لكي نُميز الفرق بينهما، فعندما نُصنِّف معرفتنا أنها نسبية، ثم إن هذه النسبية تقرر أن الخارجي -العالم المادي- حقيقي بناءً على صحة تجاربنا العلمية، والداخلي الذهني نسبي. فهذا التقرير لا يصدر عن عاقل، لأنه حين يصدر منه فهو كاذب، وإلا فكيف يعرف أن الخارجي مُطلق في حين أن معرفته تلك نسبية ؟

وبعبارةٍ أُخرى يُمكننا أن نقول: بدون أن تكون المعرفة البشرية لها قيمة موضوعية لما تطابقت معها أي عبارة !

أليس كذلك؟

فعندما يقرر اللاأدري أن المعرفة البشرية نسبية فهذا معناه أنه يحدد خطًا لا يمكن عبوره لهذه الحدود، لكن لا يستطيع الإنسان أن يرسم مثل تلك الحدود بدون أن يتجاوزها ويعرف ما ورائها.

إنه من المستحيل أن نُجاهد في تقرير أن هناك حدًا أو خطًا بين النسبي والموضوعي، بدون أن يتلامس الفرد ببعض المسافة مع الجانب الآخر، وإلا لأصبحت عبارته خاطئة وبلا معنى وغير جدّية.

فكيف يُمكن للإنسان أن يُفرق ما بين النسبي والموضوعي إلا إذا عرف مقدمًا كليهما لكي

يُجري هذه المقارنة .

وكما يقول أوغسطينوس : "كُل من يشك يعلم أنه يشك، وهو على وعيٍ كاملٍ بهذه الحقيقة على الأقل، وتحديدًا أنه يشك، لذلك فإن كُل مَن يشك فإن قُدرته على الشك سوف تُقنعه بأن هناك شيئًا ما يُسمى حقيقة "[١] .

وخُلاصة ما في الأمر: أننا عندما نَقول أن الحقيقة المعرفية هي أنه لا توجد حقيقة معرفية، فهذا أمر افتراضي ترفيهي يصلح للعبث العقلي فحسب، لأنه إذا كانت هذه الجُملة صحيحة فإنها غير حقيقية!

وبذا تصبح النسبية شيء ذاتي الهدم، سفسطي، خرافي، وهمي، لا وجود له.

لكن قد يقول اللاأدري: حسنًا؛ لكن ألسنا نرصد الواقع بصورة مختلفة عنه في حقيقته؟

أليس الصوت مثلًا في حقيقته ليس أكثر من موجات لها ترددات مختلفة تتحول في آذاننا إلى أصواتٍ مميزة؟

بدايةً: رصدنا العقلي للوجود المادي هو رصد موضوعي سليم، ولا أقصد برصد موضوعي أنه مطابق للخارج من حيث هو خارج، وإلا لصار العقل مجرد مرآةٍ عاكسةٍ، فالأصوات كونها مجرد موجات لا يعني أنها نسبية، ولا يعني أنها ليس لها معنى.

ثم إن كون العقل يرصد هذه الموجات كأصواتٍ مميزةٍ لها قيمةٍ ومعنىً بحسب التردد والشدة، فإن هذا له دلالةٍ خطيرةٍ؛ وهي أن العالم حولنا يتحول إلى حقيقة مرصودة لها معنىً حين يحضر في أذهاننا ووعيْنا، ويتخلى عن معناه إذا غِبنا عنه، وبالتالي فهذا يُحَرِّر بديهة أن يكون هناك خالق-سبحانه- أحضر الكون بهذه الصورة إلى أذهاننا، وجعل الكون مجرد شيء ظاهري لا قيمة حقيقية له في ذاته- إذ لا قيمة لموجة الضوء ولا لموجة الصوت في ذاتها ، ولا قيمة للطعم ولا

---

(١)Evidence That Demands a Verdict, Josh McDowell.

للشكل ولا لأي شيءٍ في ذاته-.

وكأن بالفعل كل ما حولنا مُسخرٌ كُليًا لوجودنا ووعينا بوجوده، ونصير نحن مركز هذا الوجود فعليًا، ومركز تسخيره وقيمته، ولا تصبح له قيمة في ذاته أو معنىً في ذاته، وهذا يؤكد السبق القرآني المعجز أنَّ الحياة الدنيا مجردُ وجود غروري ظاهري لا أكثر ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية:٣٥]

فكل ما حولنا مُسخرٌ لنا ولا معنى له بدون وجودنا ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[النحل:١٢-١٣].

فالحياة الدنيا مجردُ وجودٍ ظاهري قِشري لا قيمة له في حقيقته ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧].

بالله عليك أيها اللاأدري لو كنت منصفًا في تحّري الحق بسؤالك هذا؛أليس يقودك الآن إلى الإيمان؟

بالله عليك لو كنت منصفًا وكنت بالفعل ترى كل ما حولك لا معنى له بدون الإنسان، ألا يقودك هذا فورًا إلا تحرير حقيقة وجودنا؟

إذن معرفة حقيقة العالم المادي من حولنا تقود إلى الإيمان، وتقود إلى حقيقة معنى وجودنا المستقل والغائي والذي يحمل القيمة والمعنى للإنسان!

إن النسبية المعرفية اللاأدرية وهم فارغ؛ فللأشياء حقيقتها الموضوعية الخارجية المستقلة، وللأشياء رصدها الحقيقي الموضوعي الداخلي المستقل أيضًا، فنحن نعرف أن اللون مجرد موجات، نعرف أنه في الخارج الموضوعي مجرد موجات، ونعرف أن رصدنا له هو لونٌ مميزٌ له معنىً، إذن الحقيقة موجودة وليست نسبية، لكن تباينها في حقيقتها عن رصدها لا علاقة لهذا التباين بالنسبية، ولذا كان مدخل الشيطان على اللاأدرية من هذه الجهة فاللاأدري يظن أن التباين بين الرصد والشيء في حقيقته هو نسبية وهذا خطأ شديد وخطل شيطاني غريب!

إذ لو كان الأمر كذلك ما عرفنا الأشياء في حقيقتها، وما عرفنا أن اللون موجة والصوت موجة.

إذن نكرر مرةً أُخرى لمزيد بيان: الأشياء الخارجة لها وجود موضوعي مستقل، والرصد الذهني العقلي البدني هو رصد موضوعي مستقل قد يخالف الهيئة التي تبدو عليها الأشياء في حقيقتها لأن العقل ليس مرآةً عاكسةً، وإنما العقل يعطي للأشياء معناها ولذا فهو هبة الله للإنسان وهو مناط التكليف، ولا معنى للبدن بدون العقل، فبه ندرك الأشياء بمعناها لا بحقيقتها الغرورية الظاهرية التي بلا معنىً، والتي هي في لامعناها لها وجود موضوعي نحترمه ونرصده لو أردنا أن نرصده فنحن نعرف طول الموجة الضوئية بالضبط ومعامل الانكسار وزاوية الانكسار!

حين سأل المذيع جون فريمان John Freeman كارل يونج Carl Jung عملاق علم النفس التحليلي هل تصدق وجود الإله، قال يونج: " أنا لا أُصدق، بل أعرف"[١].

فمن ذاق روعة ذاته وروعة الخلق؛ عرِف.

والعالم المادي الخارجي لو كان بغير الهيئة التي هو عليها ما كنا هنا لنتأمله أو لنعرفه فضلًا عن أن نتذوق معناه، فهو مصنوعٌ بمعايرةٍ دقيقةٍ للغاية (Fine-tuned)[٢].

فالعالم حولك هو عالمٌ إنسانيٌ Anthropic بامتياز، لأنه يعني العقل الإنساني ويشد انتباهه، وما تشهده في هذا العالم يقذف في روعك معاني العظمة والجلال والجمال والإشراقات المهيبة،

---

(١)https://www.youtube.com/watch?v=FPGMWFvkU_٨

(٢) الكون مُعد بعناية فائقة كما يقول الفيزيائيون فقد ظهر الكون إلى الوجود بمعايرة دقيقة لآلاف الثوابت الفيزيائية والطبيعية، والتي لو اختل ثابت منها بمقدار جزء من مليار مليار مليار جزء لاختل الكون قبل أن يبدأ أو لتوقف عند مرحلة البيضة الكونية cosmic egg.

ولذا يقول جيروم كارل Jerome Karle الحائز على نوبل في الكيمياء" مفهوم الإله هو خلاصة أسمى خبرة يمكن أن يتصورها الإنسان في وجوده"[١].

إن العالم هو عالمك أنت، وكل ما حولك مُسخرٌ لك أنت، وهو في ذاته ينتظرك أنت لتفهمه ولتعلمه ولتتدبره!

هل تحتاج إلى دليلٍ آخر على غائية وجودك؟ هل تحتاج دليلًا آخر على كونك أنت المقصود؟ أنك أنت المعنيّ بالقضية كلها؟

إن تحرير ما نحن بصدده هو رؤية رومانسية للعالم، يتجه نحوها العلم الآن بشدة[٢].

هذه الرؤية الرومانسية للعالم لم يستوعبها أصحاب الوضعية المنطقية logical positivism ، الذين حرروا رؤيتهم للعالم طبقًا لمركزية كل شيءٍ في العالم، فوجدوا أنه لا شيء له معنىً في ذاته، فانهار منهجهم كما حرّرنا من قبل[٣].

وظهرت على أعتاب الانهيار رومانسية العلم التي تقضي على كل آمال الماديين الذين يريدون أن يكون الإنسان شيئًا بين الأشياء!

---

(١) jerome karle quotes.

(٢) تُراجع أبحاث عالم الفيزياء ليونارد سسكيند Leonard Susskind أبو نظرية الأوتار الفائقة وأستاذ الفيزياء النظرية بجامعة ستافورد، في أعماله بشأن المبدأ الهولوغرامي للكون Holographic principle.

(٣) يُراجع مقال: الإلحاد يُسمم العلوم.

داخل اللاأدرية : مَن الذي عليه عبء الإثبات؟

مَن الذي عليه عبء الإثبات؟ Burden of Proof

في البداية علينا أن نقول أن: القضية الوجودية الكبرى لا تحتمل الركون في منتصف الطريق ولا تحتمل عدم الوصول، فالأمر جد وليس بالهزل: مِن أين جئنا وإلى أين نحن ذاهبون؟

هذا هو السؤال الأكبر في المسألة الوجودية.

والذي لا خلاف عليه بين المؤمن والملحد واللاأدري: أن كل متع الدنيا وكل شهوات العالم لا تكفي إنسان يعلم أنه وُلد ليموت!

فالقضية الوجودية الكبرى هي أعظم القضايا ترًا، ولذا هي لا تحتمل أنصاف الحلول-كما تقتضي اللاأدرية-، أو التأجيل للمستقبل لعل العلم يُخبرنا شيئًا- كما يقتضي الإلحاد فيما يُعرف بفجوات المستقبل المعرفية، حيث المستقبل العلمي قد يسد فجوات ما نجهله، مع أن الدين جواب لسؤال آخر لا علاقة له بالعلم -.

فالقضية الوجودية لا تحمل إلا الجواب الشافي الوافي والآن وحالًا!

فهذه طبيعة إلحاح الأسئلة الوجودية على العقل البشري، وكأن هذا العقل مُصمَّم للبحث عن إجابة هذه الأسئلة وتكون هذه غاية ما يريده من العالم[١].

لكن يا تُرى! مَن المُطالَب بتقديم أجوبة للأسئلة الوجودية الكبرى، الملحد أم المؤمن أم اللاأدري؟

الذي يؤمن بوجود الله والذي يُنكر وجوده والذي لا يدري؛ كل واحدٍ من هؤلاء مُطالَبٌ

---

(١) بحْث العقل عن أسئلة الوجود الكبرى، هذا يُسمى ب"الدوار الميتافيزيقي" وهو دوار لأنه لا يترك صاحبه دون إجابة للأسئلة الماورائية الميتافيزيقية الكبرى. يقول هنري سيمل Henry Semel :- " إن رجل الكهف الذي عانى من الدوار الميتافيزيقي قبل آلاف السنين لا يزال هذا الدوار هو مرض الإنسان الحديث".

بمنتهى البساطة بطرح منطقي متكامل!

فلن يقبل العقل بأنصاف الأجوبة ، ولا بإرجاء الحلول!

وبما أن ادعاء وجود الله له من الوجاهة والأدلة والقرائن الشيء الكثير مثل: السببية والعناية والقصد والغاية والإيجاد من اللازمان واللامكان، ودليل الحدوث، ومعجزة خلق الحياة، والنبوات والدين والفطرة والأخلاق، والمعايرة الدقيقة لحظة الخلق الأولى لكل الموجودات، والمعايرة الدقيقة لحظة خلق الكون، والمعايرة الدقيقة في كل شيء حولك وداخلك، واستيعاب الخير والشعور بالإمتنان وما لا يمكن حصره من الأدلة.

وآحاد آحاد هذه الأدلة قد يوّلد يقينًا لا يبق معه إلا التسليم لله، فضلًا عن آحادها فضلًا عن الأدلة في مجموعها! [(١)]

ولّما كان كل ذلك من الأدلة التي يمتلكها المؤمن بالخالق صار من البديهي أن ينتقل عبء الدليل إلى المنكر -منكر وجود الله- وإلى اللاأدري!

وهذا ما يفعله القاضي المنصف حين يطلب دليل نفي من المتهم، خاصةً لو كانت تحت يده عدة إثباتات أو حتى قرائن.

فمثلًا في قصة سيدنا يوسف -عليه السلام- مع امرأة العزيز التي راودته عن نفسه، شهد شاهدٌ من أهلها وجاء بقرينةٍ تدل على أنها هي التي راودته عن نفسه، وبالتالي انتقل عبء الدليل ليكون على المنكِر [(٢)].

وبالمثل نقول إن قرائن كبرى عقلية كالتي ذكرناها تجعل عبء الدليل في الحقيقة على المُنكِر.

لكن صراحةً والذي يصدم القاريء المحايد فإن جميع أدلة مفكري اللاأدرية والإلحاد كانت من السذاجة والسماجة بمكان!

---

(١) قد نتعرض لتفصيل بعض هذه الأدلة في مقالاتٍ قادمةٍ إن شاء الله تعالى.

(٢) من وحي أحد مقالات: لست ملحدًا. لماذا؟ للأستاذ: كريم فرحات.

فمثلًا يقول برتراند راسل Bertrand Russell أحد مفكري اللاأدرية أنه لا يستطيع إثبات وجود الله كما لا يستطيع نفي وجود إبريق شاي يدور حول كوكب زحل[١].

أوكما يقول الملحد المعاصر ريتشارد داوكنز Richard Dawkins أنه لا يستطيع إثبات وجود وحش سباجيتي طائر Flying Spaghetti Monster أو نفي وجوده![٢]

أو كما يقول آخر لا نستطيع إثبات وجود تنين قابع في جراج، وما لا حصر له من الأمثلة الساذجة!

وكالعادة يرتجع الملحد العربي نفس هذه الأمثلة سابقة الذكر بنفس الصياغات والأسلوب الذي حيكت به دون أدنى إعمال للآلية العقلية في تدّبر هذه الأمثلة وهل هى تستحق أن يعيد الملحد العربي استخدامها أم أنها فاشلة عقليًا!

فنحن لا ندري ما وجاهة هذه الأمثلة الساذجة التي لا تمت بأي صلة للعلل والمعلولات والأسباب والنتائج؟

فهل مثلًا إبريق الشاي له صلة بالسببية أو الغائية أو الضبط؟

هل إبريق الشاي معلول – مخلوق –، أم عِلة – خالق– ؟

هل إبريق الشاي سبب أم نتيجة ؟

فهذا خلطٌ ساذج بين مستوياتٍ مختلفة –خالقٍ ومخلوق، فإبريق الشاي مخلوق بينما نحن نتحدث عن موجِدٍ أول– فها هنا اللاأدري يخلط بين مستوياتٍ لا علاقة لأحدها بالآخر، وليس بين بدائل يُجيز النظر الخلط بينها ولو افتراضًا، وهذا يُعرف بالخطأ الطبقي category error.

فهو مغالطة منطقية ساذجة يقع فيها كبار مفكري اللاأدرية ويبتلعها الملحد العربي بلا وعي!

---

(١)http://www.tandfonline.com/doi/pdf/١٥٦٦٥٣٩٩,٢٠١٠,١٠٨٢٠٠١١/١٠,١٠٨٠

(٢) http://archive.wired.com/wired/archive/١٤,١١/atheism.html.

وهذا يوضح أن كبار فلاسفة اللاأدرية والإلحاد على قدرٍ مدهشٍ من السذاجة، فما وقعوا فيه بطرح هذه الأمثلة هو تناقضٌ جوهري لا يُفرق بين المعلول والعلة أو السبب والنتيجة، فنحن نتحدث عن علة أولى- خالق-، ولا نتحدث عن معلول- مخلوق-.

نحن نتحدث عن سبب لا نتيجة.

هذا التناقض المُركب Paradox في الطرح يؤكد عدم استطاعة كبار مفكري اللاأدرية والإلحاد مجاراة المتدينين في وجاهة الأدلة وكثرة القرائن وحضور المنطق في الطرح!

فلم يبق لهم إلا الإفلاس المعرفي والطرح المتناقض الذي يعبر عن عدم استيعاب المسألة أو استيعابها لكن مع الفشل والخيبة في مجاراة أدلة المؤمن.

وبذلك يصبح عبء الإثبات Burden of Proof إشكالية حصرية بالإلحاد واللاأدرية لم تتم الإجابة عنها ولو بصورة ساذجة أو بسيطة منذ آلاف السنين وحتى الساعة، ويظل موقف المتدين هو الأكثر عقلانية ومنطقية خاصًة مع تكامل فلسفته ورؤيته للحياة والوجود من حوله!

فالشيء المقبول الممتليء بكل هذه الأدلة والقرائن، لو أردت أن تنفيه فيجب عليك أن تخرج علينا بأدلة أقوى حتى نؤمن بما تقول، وحتى تفعل ذلك- ولن تفعل- يبقى التفسير الديني هو التفسير الوحيد المنطقي المقبول.

اللاأدرية ؛ وسؤال الخالق!

اللاأدرية كما قرّرنا وفصّلنا تقوم على الريب والشك الشمولي الترددي الذي لا يستقر على حال! فأصل طوائف اللاأدرية أنهم ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥].

وأصل هذا النوع من الشك الذي لا يرحم مجرد لعِبٍ ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ [الدخان:٩].

فهو ليس شكًا منهجيًا يضع فيه الإنسان خطوطًا وغاياتٍ متى وصلها انتقل إلى ما بعدها، بل اللاأدري يستقر على الشك ويجعله هدفًا ومستوطنًا في ذاته، ولا يرغب عنه إلى غيره ولو كان باطلًا مثله، بل هو يُسفسِط كل طريقٍ يُوصل إلى علمٍ أو معرفة!

ولذا فلا تصح اللاأدرية إلا بسفسطة بديهيات العقل، وإيقاف العمل بمقدمات الفهم!

ولو تدّبر الإنسان هذا الحال لأدرك هوة التناقض داخل المذهب اللاأدري مع الواقع في حقيقته، فقوام العلم التجريبي مثلًا على مُسلَّمة صحة انضباط الكون وخطأ عبثية اللاأدرية، وهو مبدأٌ مُسلّمٌ به علميًا ودينيًا ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨]. فسبحان ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [السجدة:٧].

ولزيادة تأكيد العلم التجريبي على سخافة الرؤية اللاأدرية العبثية للوجود، وضع العلم التجريبي مبدأ التماثلية uniformitarianism والذي يؤكد العلم التجريبي من خلاله أن قوانين الطبيعة ثابتة عبر الزمان وعبر المكان، وأن أنساق الطبيعة لا تتخلف ويمكن قياسها والثقة بالقياس.

يقول التطوري الشهير ستيفن جاي جولد Stephen Jay Gould: " إن التماثلية التي تعني

ثبات قوانين الطبيعة عبر الزمان والمكان شيء جوهري لصلاحية الاستدلال الاستقرائي الذي هو أصل العلم التجريبي، فليس هناك طريقة غير ذلك للوصول لاستنتاجات عامة من خلال عدد محدود من الملاحظات"[١].

فالعلم والواقع وتجارب الإنسان وخبراته لا تعترف بالرؤية اللاأدرية للوجود وإلا لتشظّى كل علمٍ ذاتيًا وما انضبطت له مقدمة، فالعكس هو الحاصل دومًا إذ العلم -بل والتجارب الانسانية التي هي أثرى من العلم- يسير في وثوقيةٍ وتأكدٍ تام من انضباط العالم وإمكان العقل أن يستوعب ويدرك هذا الانضباط.

كل هذه الأصول تؤكد أن اللاأدرية في جانب والعقل الإنساني في جانبٍ آخر تمامًا.

لكن قد يقول اللاأدري عند هذه المرحلة: حسنًا لا بأس بما تقدم؛ لكن **لماذا تقولون أن خالق هذا الكون هو الخالق الذي تؤمنون به تحديدًا -الله سبحانه وتعالى-؟**

وهنا يقُف الشعر من سفاهة القول ووقاحة المنطق وبجاحة الفروض العقلية، فهل أنت تُنكر وجود طارق للباب لمجرد أنك لا تعرف مَن الذي يطرق الباب الآن ؟

هل تنكر وجود أستاذك لمجرد أنك لا تعرف اسمه؟

هل تنكر وجود ركاب بالطائرة أو قائد لها لمجرد أنك لا تعرف مَن هم؟

ولله المثل الأعلى!

لماذا تصادر على المطلوب وتقفز على الإلزام وتتجاوز التكليف العقلي المباشر، الذي لا يحتمل ترددًا بفرضٍ آخر وسؤالٍ آخر لا علاقة له بما يُكلفك به البرهان؟

تقافزك لا يُخرجك عن الإلزام، وتجاوزك لا يُسقط عنك التكليف بما عرفت عبر الأدلة الماثلة في الأنفس والآفاق!

والخالق هو الله سبحانه وتعالى، ولا يوجد سوى الخالق سبحانه "الله". ولم نستمد هذه

---

(١) http://courses.washington.edu/ess٤٠٨/Gould١٩٦٥.pdf.

المعرفة الخاصة إلا ببرهان "النبوات"، ولا يختلف أهل الأرض جميعًا في أن الخالق الواحد الأحد هو "الله"!

وخلافنا مع بقية الأديان ليس لأنهم لا يعبدون الله، ولكن لأنهم جعلوا لله شركاء في الدعاء والطلب والتصرف في الكون.

فجميع أديان الأرض تعبد الله وهو عندها الخالق العظيم، حتى أكثر الديانات إغراقًا في الوثنية؛ لكنهم جعلوا له شركاء متشاكسون نسبوهم للخالق واعتبروهم أدنى منه منزلةً - آلهة صغيرة (Subordinationism).[(١)]

لكنهم مع عبادتهم لهذه الآلهة الصغيرة يعترفون ويُقرون بوجود الله سبحانه!

بل إن الأصنام ما عبدها البشر إلا وساطةً لله عز وجل ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦١].

وليست آلهة الهند الكثيرة حاليًا -كمثال- إلا كأوثان العرب الأقدمين، فهي وسائط لله الخالق ولا يعبدونها لذاتها!

وهذا ما ذكره التقرير المرفوع إلى الحكومة البريطانية في الهند وفيه أن: "النتيجة العامة التي انتهت إليها اللجنة من البحث هي أن: كثرة الهنود الغالبة تعتقد عقيدة راسخة في كائن واحد أعلى"[(٢)].

ويرى ول ديورانت Will Durant -صاحب موسوعة قصة الحضارة- أن هذه الألوف من

---

(١) https://en.wikipedia.org/wiki/Subordinationism

(٢) موسوعة قصة الحضارة، ول ديورانت، مجلد ٣ ص ٢٠٩.

الآلهة فقط يتم تقديسها كما تفعل الكنائس المسيحية من تقديس لآلاف القديسين، فلا يتطرق إلى ذهن الهندي ولو للحظةٍ واحدةٍ أن هذه الآلهة التي لا حصر لعددها لها السيادة العليا[١].

ولذا فقد كان النزاع بين الرسل وأقوامهم في توحيد الألوهية " إفراد الله بالعبادة "، لا في توحيد الربوبية "إفراد الله بالخلق ".

ومن أجل ذلك لم يَرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشريك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومن ظن في عُباد الأصنام أنهم كانوا يعتقدون أنها تخلق العالم أو أنها تُنزل المطر أو أنها تنبت النبات أو تخلق الحيوان أو غير ذلك، فهو جاهلٌ بهم. بل كان قصد عباد الأوثان لأوثانهم من جنس قصد المشركين بالقبور للقبور المعظمة عندهم"[٢].

فالله سبحانه هو المعبود في جميع ديانات الأرض وخلافنا مع بقية الديانات نابع من إشراكهم في الألوهية -إفراد الله بالعبادة-، لا في الربوبية -إفراد الله بالخلق-.

لكن الذي يزعج كل عاقل أن يُنكر ملحد لاأدري الخالق وينكر الإلزام بالأدلة لمجرد زعمه عدم معرفته بمَن خلق، فيكون كالذي يُنكر وجود بشر بنوا المدينة لأنه لا يعرف أسمائهم!

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مجموع الفتاوى ١-٣٥٩.

اللاأدرية وسؤال الإسلام!

سؤال الإسلام داخل اللاأدرية هو سؤالٌ محوري؛ إن لم يكن أهم سؤالٍ يُطرح داخل ملف اللاأدرية والإلحاد عمومًا!

فيقول اللاأدري: لماذا الإسلام بالتحديد؟

لماذا ليست بقية الديانات أو المذاهب والفلسفات؟

في البداية على اللاأدري أن يعي أن الإسلام ليس فِرقة من الفِرق ولا عقيدة من بين عقائد الأرض، حتى يوضع في مجال مُقارنة مع باقي الديانات، بل هو أصل الأديان والعقائد والعبادات، وهو أنقى أديان التوحيد.

فالإسلام هو تصحيح لمسار الديانات التي انحرفت، وإعادة لنهج أنبياء العهد القديم من لدن آدم إلى نوحٍ وصالح وأيوب وهود وإبراهيم وموسى وداوود ويونس وهارون وعيسى.

فعقيدة الأنبياء جميعًا هي عقيدة الرب إلهنا رب واحد بلفظ التوارة والإنجيل.

وما جاء الأنبياء إلا لتقرير تلك العقيدة ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥].

إنها العقيدة التي لا تعرف تثليث ولا أقانيم ولا موت آلهة منتحرة، ولا انتزاع آلهة من آلهة أخرى – انتزاع الروح القدس من الآب كما عند النصرانية – ولا آلهة قومية –كما عند اليهودية.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٣]

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ

زَبُورًا ﴾ [النساء:١٦٣]

إذن فالإسلام ليس ديانة كالديانات وإنما هو أصل الديانات، وتصحيح للخلل الذي أصاب الديانات وبالأخص اليهودية والمسيحية في نسختيهما العهد القديم والجديد .

وبينما في الكنيسة لا يحل للرجل أن يتزوج إلا بإذن رجال الأكليريوس -رجال الدين-، ولا يدخل المسيحية إلا بتعميد الإكليريوس له، بل الرضيع لا يحسب مسيحيًا إلا بعد التعميد، ولابد من اعتراف المرء أمام الكاهن بكل مصيبةٍ ارتكبها؛ تجد في الإسلام لا واسطة بين العبد وربه، وينعقد الزواج بشهادة أي رجلين، والتوبة إلى الله لا يتدخل فيها أحد، والصلاة تكون في أي مكانٍ طاهر.

بل لقد حارب الاسلام منذ أول لحظةٍ كل صور التدخل والوساطة وحَجب العقل.

فالإسلام يحرر العقل من نير وسخافات الكهان.

ويحارب الإسلام كل صور الولاية على العقل سواءً عبر رجال دين أو أضرحة تُقدم لها الذبائح.

أيضًا الإسلام يحارب كل صور حجب العقل بالأشياء المعنوية كالسحر والطلاسم.

أو بالعلوم الزائفة كالطالع وقراءة الأبراج.

وكذلك يحارب الإسلام حجب العقل بالأشياء المادية كالمسكرات والمخدرات!

فالإسلام هو حرية العقل وانفتاقه من غلول الحجب التي يفرضها الكهنة والسحرة وبائعو الأوهام!

فهو دين الأنبياء والصالحين.

بينما وصلت العبودية في ظل الكنيسة في الغرب إلى صورٍ فجة فكان العبيد يؤجَّرون في الاراضي بلا مقابل على ملء بطونهم، ولم يكن لدمائهم قيمة. فقتلهم أو تعذيبهم كان حق للأسياد ولم يكن العبد يتزوج إلا بعد أن يفض السيد بكارة العروس.

فجاء الإسلام وحرّر البشر وأصيب المسلمون بعمى ألوان -على حد تعبير مالكوم إكس Malcom X رحمه الله- فلا يُفرقون بين أبيض ولا أسود، وصارت وصية الإسلام الخالدة هي اتباع تعاليم الأنبياء بعيدًا عن الكهنة والمحرفين.

فالذي يُشبِّه الإسلام بغيره هو كاذبٌ في تشبيهه، والذي يُشبِّه علماء المسلمين بكهنة إكليريوس الغرب ورجال دين الكنيسة فهو حتمًا خبيثٌ مخادع. فكلمة رجل دين لا وجود لها في قواميس الإسلام قاطبةً.

فلا رجال دين عندنا ولا إكليريوس في مساجدنا، ولا يوجد لدينا طبقة مُفرزة مِن قِبل الرب -كما في الديانات الأخرى- بل الكل سواسية أمام الشريعة الغراء. وخلافتنا لم تكن كهانة.

وكل مسلمٍ هو رجل دين، ولا فرق بين شيخ الأزهر أو المفتي أو أي مسلمٍ عامي، فالكل أمام الشرع سواء. فليس عندنا كهنة ممسوحين! بل كل مسلمٍ مكّلف بدينه ولا واسطة بينه وبين خالقه سبحانه.

فمساواة الإسلام بغيره خطأ كبير، صادر عن جهلٍ بحقيقته، وصلته بالفطرة الصحيحة، والقضاء الكوني الذي أخذه الله على نفسه بثبوته إلى قيام الساعة، ولكنه يتحول من حياضٍ إلى حياض، ومن ساحةٍ إلى ساحة، ومن حملةٍ إلى حملة، بحسب تغير بواطن حامليه، وتغير مقاصدهم، وتنكرهم لهم وانصرافهم عنه.

الفصل السادس

قل انظروا

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾

[يونس:١٠١]

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]

حوار حقيقي!

قالت لي إحدى الملحدات ذات يوم: **أنا لن أضر أحدًا ولن أظلم، فهل سيعذبني الإله لو لم أؤمن به؟**

فجاء ردي عليها في نقاط...

أولًا: امتناعِك عن الظلم ليس تفضلًا منكِ، فهذه فطرة فطركِ الله عليها، واعترافك بوجود الظلم والعدل ورفضك للظلم وبحثك عن العدل يعني الغائية الأخلاقية والقيمية في هذا العالم.

ولو كان العالم ماديًا مجردًا والروح أرضية لما كان هناك عدلًا ولا ظلمًا، فالعالم المادي لا يعرف إلا الحتميات المادية الصارمة منزوعة القيمة.

فإيمانك بالعدل يعني إيمانك بوجود سند آخر للإنسان يستمد منه معنى العدل؛ هذا السند هو المقدمة السماوية التي جئنا منها!

ثانيًا: بحثكِ عن الخير على الرغم من إلحادك فيه دليل مباشر على أن الإنسان لا يستطيع رفض التكليف الإلهي داخله، وأننا جميعًا نعيش داخل دائرة التكليف الإلهي؛ دائرة افعل ولا تفعل!

ثالثًا: رغبتك في فعل الخير مع عدم الإيمان بالخالق هو أشد أنواع الإجرام واللصوصية والخيانة على الإطلاق.

ولتوضيح هذه الصورة دعيني أعطيكي هذا المثال:

دخل رجلان بستانًا فيه كل ما تشتهيه الأعين وتلَّذ الأنفس وفيه موائد طعام ممدودة وأدوية وأكسية وما لا يُحصى من وسائل المعيشة والراحة والنِعم. فأما الرجل الأول فبحث عن صاحب البستان واستأذنه وبدأ يأكل ويشرب وهو في ذلك شاكرٌ حامد لصاحب البستان، أما الثاني فظل

ينهش من المطعومات ويشرب أقداح المشروبات ويكتسي بما يرغب دون إذنٍ ولا أدبٍ ولا شكرٍ وهو في كل ذلك يحتج بمنتهى الكِبر أنه لم يلحظ وجود صاحب البستان لحظة دخوله فظنه بلا صاحب!

فأما الرجل الأول فهو مثل المؤمن الشاكر لنعم الله عليه، وأما الثاني فمثل الملحد الذي ينهش في خيرات الله ويريد من خالقه أن يطعمه ويرزقه ولا يحاسبه!

وأما البستان فهو الخير في هذا العالم والنِعم التي لا تُحصى ولا تُقدر داخلنا وخارجنا، فنحن نعيش في بستانٍ أعظم من كل بساتين الدنيا!

وأنتِ أيتها الملحدة تسرقين من خيرات الله ولم تفكري للحظة في أداء شكر النعمة.

واقتضت حكمة الله أن يكون الامتحان التكليفي في معرفة الله سبحانه وشكر نعمته وطاعته فيما أمر، وكَفل لنا إن فعلنا ذلك بستانًا أبديًا ليس فيه شيءٌ من المنغصات الموجودة في بستان الدنيا، فالامتحان يسير والدعوة له جرت على لسان جميع الرسل فهل ثَم أيسر من ذلك؟

رابعًا: إن القضية ليست فعل الخير والقيام بالعدل وعدم الظلم، وإنما القضية الآكد هي لمن تفعلين هذا الخير وهل تفعلينه اتفاقًا بمقتضى الفطرة لمزيد سعادة وارتياح نفسي حتى يهدأ وخز الضمير الأخلاقي، أم تفعلينه انكسارًا لله ورضًا بعبوديته؟

هذه هي القضية، قضية النية لحظة العمل وليس مجرد العمل.

ولذا أخبر الله سبحانه أن أعمال الخير من الكفار مردودةٌ عليهم لأنهم لا يريدون بها وجه الله، ولا يبتغون رضاه، فهم بهذا لا يستحقون الثواب على العمل وإن كان صالحًا.

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٖ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

فالكافر تجاهَل بكفره أعظم مطلوبٍ في الوجود وهو عبوديته لله، وأي كفرٍ أعظم من تجاهل الخالق وتكذيب وحيه وإنكار رسالته واتخاذ آياته هزوًا والسخرية من حكمته في خلقه، ثم بعد كل هذا ينغمس الكافر في نِعم الله ويتبجح بكفره بخالقه ويرد على الله وحيه فهل مثل هذا يُقبل منه صرفٌ أو عدلٌ يوم القيامة؟

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [النور:٣٩].

فمقتضى النجاة ليس مجرد العمل الذي أنتِ ترينه صالحًا؛ وإنما الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين، فالعمل الصالح ليس مركزًا في ذاته وإنما المركز هو الإيمان ومنه يستمد العمل الصالح قيمته.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فالذي يظن أن نجاةً تكون بمجرد العمل يكون قد سلب العمل أهم ما يميزه ويعطيه معناه.

فالإيمان بالله هو الذي يعطي العمل الصالح معناه.

وأستعير كلمة نجيب محفوظ في كتابه وطني مصر حين قال: **"الله هو الذي يُعطي القيم معناها، الله هو الذي يعطي الوجود معناه، بدونه لا معنى للوجود، لا معنى للقيم، وبديله هو العبث، اللا معنى!"**

فليس أكفر من الذي يكفر بخالق فطرة العمل الصالح وخالق معنى الوجود ومعنى الصلاح وإرادة الصلاح وفعل الصلاح ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٣٦].

وكم هي عجيبةٌ الدنيا أن تجعل حتى في العمل الصالح مع الكفر إغراءًا فلا تبقى على صنف كافرٍ إلا وأدخلته في جعبتها، وجعلت من إطارها تنظيرًا يراه صالحًا لحياته، ويظنه غايةً ساميةً يحيا لها، فصار يحسب أنه يحسن صنعًا بعمله الصالح وهو في الأصل وفي حقيقة الأمر من الأخسرين

أعمالًا لكفره بآيات الله واليوم الآخر ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥].

فكم تُزين الدنيا على مرتاديها وكم يتقمصون في دهاليزها دور المصلحين وهم المفسدون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١١-١٣].

فليست سفاهةً أعظم من الإيمان بالفرع –العمل الصالح– وكفر الأصل –خالق فطرة العمل الصالح–، والتسليم للأثر والكفر بالذات، والظن بالنجاة في الحافرة –الدنيا– بناءً على قياسات تخمينية من وضع الملحد، فصاروا كالطالب الذي يُغير خارطة امتحانه داخل لجنة الاختبار حتى ينجح واشترط لتغيير الخارطة إلغاء كل الأسئلة والاكتفاء بدخول اللجنة مُهندمًا!

لكن هنا وفجأةً قاطعتني الملحدة وقالت: أنا أدفع ثمن ما آكله وما ألبسه!

سبحانك ربي وبحمدك!

هل تدفعين ثمن ضبط الهرمونات داخل جسدك في كل لحظة والتي لو اختل هرمون منها بمقدار ميكرو جرام واحد لتحولت حياتك إلى جحيم؟

هل تدفعين ثمن ضخ كرات الدم كل ثانية في خلاياكِ لتحمل الأوكسجين وترفع المخلفات بمنتهى الضبط والاتقان؟

هل تدفعين ثمن الوصلات العصبية التي تنقل كل ما ترغبين فيه إلى العضلات فتحققه بلا تردد؟

هل تدفعين ثمن أنقى عدسة في العالم ألا وهي عدسة العين؟

هل تدفعين ثمن أفضل نظام تخزين في الكون وهو منظومة التشفير الرباعي داخل الجينوم الخاص بك؟

هل تدفعين ثمن أدق آلة في الكون وهو المخ البشري بوصلاته المليارية؟

هل تدفعين ثمن آلاف الإنزيمات المتخصصة التي لو اختل إنزيم منها لانهارت منظومات وظيفية كاملة داخلك؟

هل تدفعين ثمن صماماتك الموجودة في أجهزة جسدك المختلفة فصمام المعدة لئلا يعود الطعام إلى فمك فتتأذين، وصمامات أوردتك لئلا يعود الدم فينتفخ الجسد ويفشل القلب، وصمامات كثيرة لا أحصيها في حوار.

هل تدفعين ثمن الجلطة التي تنطلق لحظة ولادتك لتغلق ما بين الأذينين في القلب، والجلطة التي تنطلق لتغلق الحبل السري؟

هل تدفعين ثمن الغرائز التي ولدتِ بها لحظة نزولك من بطن أمك تبحثين عن الطعام وتهضمينه بهدوء ويسر؟

هل تدفعين ثمن الطبقة العازلة التي تغطي جميع أعصابك لئلا تشرد الإشارة الكهربية أو تضيع أو تسبب لكِ إزعاجًا؟

هل تدفعين ثمن مفاصلك الملساء التي توفر لكِ حركة كل لحظة بلا احتكاك ولا تآكل؟

هل تدفعين ثمن ضبط حواسك وضبط خلاياكِ وتناسقها فيما بينها وتفاعلها وضبط وظيفيتها داخل كل عضو بما هي أهلٌ له؛ فخلايا الكبد تعرف أنها في الكبد وتعرف أن مهمتها إنتاج البروتينات وتخزين الجلوكوز، وخلايا النخاع تعرف أنها في النخاع فتنتج كرات الدم وصفائحه، وخلايا الشبكية تعرف أنها في الشبكية فتحول إشعاع الضوء إلى منتج بيوكيميائي، يحفز عصب العين لينقل التغير البيوكيميائي إلى تغير كهربي، ينتقل عبر أسلاك العصب على شكل ومضات كهربية يفسرها المخ بحسب نوع الومضة وشدتها طبقًا لقاموس لا نعرف عنه شيئًا يترجم به الومضة الكهربية إلى صور وأشكال نعيها في لحظة؟

هل تدفعين وهل تدفعين وهل تدفعين وماذا لو تعلمين أن مِداد أحبار العالم لا يكفي لحصر النِعم!

ثم إن ما تدفعينه لشراء غذائك وكسائك: مَن الذي أعطى الكساء قانونية التدفئة ومَن الذي أعطى الغذاء قانونية الإطعام؟

ومَن الذي أعطاكِ قدرة العمل للدفع؟

لو كان لأحدٍ عليك من فضلٍ لاستحييتِ أن تبارزيه بالإساءة وقلة الأدب، بل تتأدبين في حضوره وتتهذبين في الحديث إليه، فكيف بالخالق الذي أنعم عليكِ كل نعمة .. وكل نعمةٍ منه لا نحصى؟

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

سبحانك ربنا على حلمك!

الحساء الكوانتي

مركزية الإنسان في الكون

لعل من أشهر سمات العلم الحديث هو انهيار قيمة الفيزياء التجريبية الرصدية الحسية، فمثلًا في الفيزياء الكمية لم يعد يلزم المحسوس لإثبات الوجود، وإنما تكفي آثار الصفات!

فالالكترون ليس له حجم ولا وجود مادي وإنما فقط صفات. والكل يؤمن بوجوده لأثر صفاته لا أكثر!

وهذا يسقط دعوى المذهب التجريبية في شرط المادية.

بل الأعجب من ذلك أنه لم يعد يوجد ما يسمى وحدات أساسية للمادة، فعندما تذهب بعيدًا في عمق المادة ينهار المذهب المادي، فهناك في نهاية الأمر إلكترون بلا حجم ونواة تنحل إلى كوارك غير مُدرك.

فهنا في عمق المادة تموت المادة، وعلى المادي أن يعيد تعريف فلسفته ورصفها بعد أن انهارت أسسها، فما تبقى يختلف تمامًا عن المادة، فقد انهار مسمى المادة وذاتها وجوهرها في الفيزياء الحديثة.

فإذا انتفت الصفة المادية لجوهر المادة فهذا شبيه بنفي أصل المعتقد من داخل المعتقد ذاته.

فقد أصبحت معرفتنا للواقع تقوم على بعد غير مدرك –الكوارك–، وغير موجود –الالكترون–، وهذا على العكس تمامًا مما بشرّت به الفلسفة المادية.

إن المادة في أصلها كيان بلا نمط ولا شكل وإنما غيمة أرقام تخيلية.

فالكوارك خيال رياضي والالكترون بلا حجم.

فالواقع المادي ليس سوى تفاعلات تجريها كيانات وسيطة تدعى بوزونات تنقل القوى

وتؤمن العلاقة بين الفرميونات.

وداخل حيز البوزونات والفرميونات ليس هناك حتمية فالكون لم يعد يسير وفق حتمية علمية كما كان يُظن، وإنما وفق احتمالية إحصائية في كل لحظة -مشيئة وقيومية إلهية-.

وإذا أردت أن تختصر منجز العلم الحديث في كلمتين فعليك أن تقول أن منتهى ما وصل إليه العلم المادي هو **نزع مركزية المادة عن الوجود** والانتقال بفهم الكون من الرصد المادي إلى التخيل الرياضي.

أضِف إلى ذلك حقيقة في غاية الخطورة وهي أن الحقيقة المادية في العالم الخارجي لا تكتسب معناها إلا بتدخل الراصد لها -الراصد الإنسان-.

https://en.wikipedia.org/wiki/Wave_function_collapse

وهذا يعني أن الشجرة التي أمامك لا تصبح شجرة إلا إذا نظرت إليها، وبمجرد أن يختفي رصدها تتحول إلى غيمة من الأرقام التخيلية!

هذه النتيجة أخطر من أي كتاب فلسفي عبر كل التاريخ.

وأخطر من أية سردية معرفية يمكن أن يُلقنها متأمل لنُساك!

إنها نتيجة من قعر المجتمع العلمي ومن قلب البحوث التي طالت أغوار الذرة لتكتشف في النهاية أن الوجود في حقيقته مجرد وهم وهراء وغرور، ولا قيمة له إلا بنا نحن!

نعم!

فالراصد يصنع برصده العالم الخارجي المادي ولا معنى للعالم المادي بدون الراصد[1].

وبدون الراصد لا معنى للعالم المادي، ولا قيمة له في ذاته.

لو قلنا أن الإنسان مركز هذا الكون لقالت لنا مدرسة كوبنهاجن بقيادة نيلز بور: "نعم صحيح لا يوجد في هذا الكون سوى الإنسان وما الكون إلا غرورٌ باطل، فما الحياة الدنيا إلا متاع

---

(١) https://en.wikipedia.org/wiki/Observer_effect_٢٨٪physics٢٩٪

الغرور".

هذه النظرة تهدم الإلحاد والفلسفات المادية والمدارس العلمانية من قلب الرؤية العلمية الفيزيائية للوجود.

وصلًا بما سبق أؤكد على حقيقة أن:

أحد أسس ميكانيك الكم أن لجسيمات المادة طبيعتان في نفس الوقت طبيعة جسيمية وطبيعة موجية، فالإلكترون يتصرف كجسيم ويتصرف كموجة.

والمضحك في الأمر أن الفيزيائيين أيام نيلز بور كانوا مُجبرين على معاملة الإلكترون كجسيم أيام الإثنين والأربعاء والجمعة ، وكموجة في الأيام الأخرى للأسبوع وبهذه الفكاهة الفريدة كتب نيلز بور سنة ١٩٢٤ قائلًا: " حتى لو أرسل لي أينشتاين تلغرافا يخبرني بأن حقيقة المادة كجسيم فقط قد تم إثباتها نهائيًا وللأبد، حتى في ذلك الحين ستصل الرسالة فقط بفضل وجود الطبيعة الموجية للمادة –موجات الراديو –". أي إن الرسالة لن تنتقل عبر الهواء إلا بفضل الطبيعة الموجية للالكترون"[١] .

المدهش الآن والعجيب أن هذه الجسيمات تظل جسيمات حين ننظر إليها، ثم تصبح موجة حين نتوقف عن النظر إليها!

تخيل!

إن هذا يفوق كل السحر الذي أنتجه البشر !

وهذا الفيديو المبسط يشرح هذه القضية المدهشة[٢] :

---

(١) الاحتمالات المثيرة للنظرية الكمية تأليف :- ليونيد بونوماريف، ترجمة :- إيمان أبو شادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ٢٠٠٧ ص٢٠٠ وما قبلها.

(٢) https://www.youtube.com/watch?v=m٨in٩hxDTc٨

يقول الفيزيائي الشهير نك هربرتNick Herbert : "هذا الأمر يجعل الإنسان بعض الأحيان يتخيل أن خلفه وهو يسير، يتحول العالم إلى موجه من الذوبان الكلي ويتحول العالم من خلفه إلى حســاء الكوانتم، لكن وما إن يلتفت خلفه ليرى الحساء إذا بالأشياء تتجمد والأشجار والأحجار وتعود لطبيعتها العادية والمألوفة.

إننا بهذا المنطق نعيش داخل أسطورة مثل أسطورة ذلك الملك الذي لم يعرف في حياته ملمس الحرير، لأنه ما إن يلمسه يتحول إلى ذهب وهذا بطريقة مماثلة يشبه أنَّ الانسان لن يستطيع أنْ يختبر حقيقة جسيم الضوء لأنَّ كل شيء نلمسه يتحول إلى مادة"(١).

إن تحول العالم إلى حساء كوانتي بلا قيمة له في ذاته، يثبت مركزية الراصد -الذي هو الإنسان - في هذا الكون، وأن الكون مجرد وجود ظاهري ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد:٢٠].

وهذه الرؤية التي نقشتها فيزياء الكم تُسقط المادية والإلحاد وتثبت الغاية الوجودية للإنسان في هذا العالم.

يقول العالم بول إبشتاين : " إن القوانين الكمية بالشكل الحالي هي إلى حد ما نظرية لاهوتية فيما يختص بالطبيعة "(٢).

فميكانيك الكم أوقعت المادية وحبائلها الإلحادية في شَرَكٍ لا مخرج منه، وقد أزعجت بذلك كبار علماء المادية عبر العالم، وفي تعليق مدهش للعالم النمساوي النابغة باولي قال: " مرة أخرى فإن الفيزياء حليفٌ أعمى، وعلى أية حال فقد أصبحت صعبة جدًا بالنسبة لي، إنني أفضل أن أكون ممثلًا للروايات الهزلية في السينما أو شيئًا من هذا القبيل ولا أسمع المزيد عن الفيزياء".

ويتذكر أوتو شترن بعد مضي عدة سنوات أنه أقسم في تلك الأيام هو وماكس لوي على أنهما

---

(١) Nick Herbert (Summer ١٩٨٧) "How Large is Starlight? A Brief Look at Quantum Reality", pp. ٣٥-٣١

(٢) الاحتمالات المثيرة للنظرية الكمية تأليف :- ليونيد بونوماريف ص١٢٨.

سوف يتركان الفيزياء، وكان باولي يؤمن بشدة أن العلم الجديد البازغ هوknabenphysik أي فيزياء الصبية بالألمانية.

فسبحان الله!

إن خلاصة ما توصلت إليه ميكانيك الكم أن العالم غرور لا أكثر!

وأن الإنسان مركز هذا الوجود.

لكن هل يعني ما سبق ذكره أن ميكانيك الكم ينفي وجود العالم المادي؟

ربما يتوهم البعض أن أبحاث ميكانيكا الكم تُفيد إنكـار المادة بالكُليـة وهذا خطـأ شديد فلايجوز إنكار وجود المادة، فهذا بداهةَ لم يقل به علم ولا دين، وليس من إنجازات العلم المادي وليس من مأثورات الأديان .

والمقصود مما سبق أن الرصد المادي ليس كما تقرر الفلسفة المادية.

فما انهار هو التصور الفلسفي الذي كانت تفرضه علينا الفلسفة المادية، والذي كان مؤسسًا على هامشية الإنسان في الكون ومركزية العالم المادي.

لكن في المقابل نقول أن: المادة موجودة والله خالق العالم المادي، وعلم آدم الأسماء كلها ولم يُعلمه سبحانه أسماء خيالات، والله خلق العالم ورأى أنه حسن كما في بدايات سفر التكوين في مرويات بني اسرائيل، فالعالم المادي موجود بداهةً.

لكن إنجازات الفلسفة المادية هي التي باعتراف العلم المادي تتحول في لحظة وبمعادلة رياضية رصينة إلى خيالات ويعود الإنسان ليكتشف أنه في مركز الكون، وأن الطبيعة كلها سُخرت له وأنه خُلق لقيمه لا يمكنه أن يهرب منها .

فكل النقد الذي تعرضت له الأبحاث هو لجسيمات الضوء quanta of light والتي من خلالها قرر العلماء هامشية الإنسان وضخامة الكون!

لكن كل هذا يتعرض الآن لضربات موجعة!

وهذا ما تنبأ به ستيفن هاوكنج في كتابه الأخير التصميم العظيم The Grand Design ص٧٢.

حيث ذكر أن احتمالية اكتشافنا خطأ كل أرصادنا الفلكية أمرٌ قائم، خاصةً بعد أبحاث المبدأ الهولوغرامي.

كان هذا الكلام في عام ٢٠١٠.

وفي أواخر عام ٢٠١٣ نشرت الساينتيفك أمريكان بحثًا يثبت بالفعل إشكالية جسيمات الضوء، وأن العالم المادي ليس بالصورة التي كان يخبرنا بها فلاسفة المادية.

فطبقًا للبحث الأخير يتضح أن النجوم هي مصابيح هولوغرامية عملاقة في جو السماء كما أخبر القرآن الكريم منذ ١٤٠٠ سنة[١].

فسبحان الله

وللمزيد من البحث في هذا الأمر فقد خصّصت في كتابي: "موسوعة الرد على الملحدين العرب" فصل كامل بعنوان: "خرافة عمر الكون وحجمه"، لبحث هذه المسألة بالتفصيل!

(١)http://www.scientificamerican.com/article/universe-really-is-a-holo/.

التزامنية والسببية

يزعم الملحد أن بعض الأحاسيس هي إفراز هرمونات، فعواطف الكائن الحي مبرمجة في الجينوم الخاص به.

وردًا على ذلك نقول:

أولًا: هذه القضية معروفة.

لكن المشكلة التي لا يفهمها الملحد حتى الآن هي في **السببية لا التزامنية**.

فما معنى هذا الكلام؟

أنا عندما أرى ملحدًا فإن الكورتيزول -هرمون الغضب- يرتفع عندي= فهذه علاقة تزامنية!

أي في زمن الرؤية يرتفع الكورتيزول.

لكن هل الرؤية ذاتها تسبب رفع الكورتيزول؟

لا إطلاقًا!

العلم المادي لا يجيب إلا عبر التزامنية.

عند رؤيتي للملحد ارتفع هرمون الغضب عندي في نفس زمن الرؤية، لكن الرؤية في ذاتها لا ترفع الكورتيزول. بل الذي رفع الكورتيزول هو غضبي!

وفي المقابل أنا لو رأيت رجلًا صالحًا فإن الإندورفين -هرمون السعادة- يرتفع عندي وهو على العكس تمامًا من الكورتيزول.

مع أن نفس آلية الرؤية ونفس المواد والأجهزة التي ترى، لكن شتان بين النتائج.

لماذا اختلف الكورتيزول عن الإندورفين؟

سبب الاختلاف هو في السببية، لكن العلم المادي لا يرصد إلا التزامنية.

المشكلة أن الملحد لن يفهم العلاقة بين التزامنية والسببية.

فيتقنع بجواب التزامنية وينسى أن الاندورفين أو الكورتيزول معطى وناتج وليس سبب ومقدمة.

لو شرحنا ألف عام فلن يفهم الملحد لأنه لا يريد أن يفهم لئلا ينهار إلحاده !

ربما نحن نتحاور الآن في أدق التفاصيل التي تفرق بين العمى الإلحادي والنور الإيماني.

وكيف ان الإلحاد يؤدي إلى العمى فلا يعرف إلا التزامنية بينما يبقى سر السببية حكرًا على ميدان القيم الما ورائية.

إذا كانت القضية سببية وليست تزامنية، إذن لماذا نفقد الوعي بصدمة في الدماغ؟

الدماغ هو مجموعة من الأسلاك العصبية متجمعة، وكل ما يجري في الدماغ هو تبادل لأيونات الصوديوم والبوتاسيوم على جدران الخلايا العصبية لنقل النبضات لا أكثر.

فما علاقة هذا بالوعي أو بالذاكرة أو بالفكر؟

قام عالم النفس الشهير وأخصائي السلوك والذاكرة كارل لاشلي Karl Lashley بتدريب الفئران والقرود على العديد من الخدع، وعندما يتعلمون الخدعة يقوم بقطع جزء من الدماغ لمعرفة في أي جُزء تُخزن الذاكرة، وقد تفاجأ عندما رأى أنه باستطاعته قطع أجزاء كبيرة من الدماغ، لا يهم أي جزء أعلى أسفل داخل خارج سطحي عميق أمامي خلفي علوي سفلي، النتيجة واحدة دائمًا وهي عدم تلف الذاكرة أو ضياعها، فالذاكرة ليست في النهايات العصبية المُعدلة، ولا في فسفرة البروتين ولا الطرق الجزيئية الأخرى، ببساطة الذاكرة ربما لا تكون في الدماغ أصلًا[١].

ويرى عالِم الأعصاب الدماغية الشهير كارل بريبرام Karl Pribram أن الوعي والإدراك الإنساني لا علاقة لهما بالدماغ أو الوصلات العصبية والذي يرهق نفسه في هذا النفق الضيق فلن يخرج بشيء[٢].

لكن يظل السؤال قائمًا: طالما أن العقل ليس في الدماغ، لماذا إذن نفقد الوعي بتلف الدماغ؟

دماغنا يمثل جهاز تنفيذي لا تشريعي -إذا جاز التعبير- فهو لا يُشرعن القيمة ولا يحدد المعنى ولا يصدر القرارات، وإنما المسئول عن كل ذلك هو العقل.

وليس للدماغ إلا التنفيذ، فهو جهة تنفيذية وليس جهة تشريعية، ويمكن تشبيه الدماغ بجهاز التلفاز، فهو مجرد مستقبِل للمعلومة ومُعالِج لها، وحين يتم قطع الأسلاك يتوقف ويُفقد

---

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/Karl_Lashley

(٢) http://en.wikipedia.org/wiki/Karl_H._Pribram

الإرسال، فالأصوات الصادرة من التلفاز ليست صادرة عنه أو مُخزنة فيه، بل هو مجرد مستقبل ومعالج للمعلومة، وإذا تلفت الدائرة الكهربية فيه أو تلفت الأسلاك يتوقف عن الإرسال والإستقبال وبالضبط هذا ما يحدث في حال تلف أسلاك الدماع نتيجة صدمة أو تلف الدائرة الكهربية نتيجة زهايمر ، أو كليهما نتيجة تعاطي بعض العقاقير كالمخدرات، فساعتها يتوقف الدماغ عن الإرسال والإستقبال.

وقد أثبت د. روجر سبيري Roger Sperry الحائز على نوبل في وظائف المخ أن الوظائف العقلية لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالمخ المادي وهي فقط قد تستعمله كآلة .

ويقول السير جون إكلز John C. Eccles الحائز على نوبل في الطب: " أجدني مضطرًا إلى القول بطبيعة غير مادية لذاتي وعقلي، طبيعة تتفق مع ما يسمونه الروح".

The Self and its Brain

الحياة والموت مصطلحات ميتافيزيقية غيبية ماورائية!

دعاة المادية لا يملكون جوابًا عن أخطر ظاهرتين في هذا الوجود وهما ظاهرتي الموت والحياة.

فينحصر التعريف المادي للموت والحياة في التزامنية لا السببية.

فما معنى الموت؟

وكيف يحدث الموت؟

وما هو الموت؟

ماديًا وفيزيائيًا لا تتوقف ذرة واحدة عن الحركة بالموت.

ولا يتوقف الكترون في كل الجسد بالموت ولا بالحياة.

والتوصيف الطبي للموت هو توصيف تزامني فقط فنقول مثلًا: حين يتوقف القلب عن النبض لمدة عشر دقائق كاملة تكون هناك وفاة، أو حين يتوقف جذع المخ عن العمل أو حين تتسع حدقة العين ولا تتأثر بالشعاع الضوئي ساعتها نقول بالموت.

لكن كلها تعريفات تزامنية: حين يحدث كذا في هذه اللحظة نقول أن هناك موت.

هذا ليس تعريفًا ولا علاقة له بمعنى الموت.

فيظل السؤال: ما هو الموت؟

وليس السؤال: كيف نعرف أن هناك موت حصل!

والأمر ذاته ينطبق على الحياة فدعاة المادية لا يعرفون معنى الحياة!

قيل أن نواة الخلية هي مصدر الحياة.

لكن كم من خلية حية لا توجد بها أنوية ككرات الدم الحمراء، وهي خلايا حية!

ثم قالوا بأن غشاء الخلية هو مصدر الحياة.

لكن الأحماض الدهنية بها أغشية مكتملة ومع ذلك هي ليست حية!

فهذه أيضًا تعريفات لا علاقة لها بمعنى كلمة الحياة.

وإنما هي جواب لسؤال آخر مثل: كيف نعرف أن هناك حياة!

أما سؤال ما هي الحياة: فلا يملك له دعاة المادية جوابًا.

إن التزامنية والسببية هي محور الفرق بين الروح والمادة.

الإنسان والإلحاد.

المعرفة والمعلومة.

التزامنية هي إدارك إلحادي مادي قاصر جدًا للمعنى الوجودي بأكمله.

والتزامنية هي حل مريح وسريع للملحد ليهرب من عبء التدّبر.

بل إن التزامنية يستخدمها الملحد أيضًا لتبرير البلاء، فحين يُبتلى الكافر فإنه ينظر للبلاء باعتباره تزامنية لا سببية متعلقة بكفره، فيظن أن البلاء مرتبط بتقلب الأزمنة لا بسبب معاصيه ﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف:٩٥].

وفي النهاية ستظل أجوبة الأسئلة الوجودية الكبرى حصرية داخل ميدان الإيمان، وسيظل الإنسان مهما أوتى من علم وانفتحت له من معارف أعمى في جواب معنى وجوده وغاية وجوده!

معجزة العين

نحن نقول أن ظهور العين معجزة والملحد يقول إنه التطور مع الوقت!

لكن ما لا يفهمه الملحد أيضًا أن القضية منقوصة من البدء!

فكل الفروض التطورية لا تجيب إجابة عقلية ومنطقية لنشوء جهاز أولي حساس للضوء يُخصص خلايا تستشعر الضوء، وتحوله إلى نبضه كهربية يفسرها المخ، وكأنه مرآه لما يوجد أمامه مع أن المخ مظلم -يوجد داخل صندوق عظمي-، ولا يعرف ما يوجد أمامه أصلًا ولا تصله إلا نبضات كهربية .

فالقضية ليست بالسذاجة التي تحللها الرؤية التطورية لأن القضية منقوصة من البدء.

ولذلك كان تشارلز داورين أكثر ذكاءً من كهنة الإلحاد الجدد حين اعترف في كتابه أصل الأنواع وقال: " أنا أعترف أن افتراض أن العين نشأت عن طريق انتخاب طبيعي هو افتراض على أعلى درجة من العبثية".

To suppose that the eye could have been formed by natural selection .seems, I freely confess, absurd in the highest possible degree

فليست العين هي المعجزة وإنما الخلية الحساسة للضوء التي يفترض الدراونة تطور العين منها!

ثم كيف لعصب أن يصبح حساسًا للضوء ويتخصص في هذا؟

لماذا فوتون الضوء يحفز هذه الخلايا الحساسة للضوء دون غيرها؟

وما معنى يحفز؟

وكيف يتحول التحفيز إلى رؤية لما هو خارجك؟

دعني أشرح لك معنى الرؤية بشيء من التفصيل:

عندما يعبر فوتون الضوء عدسة عينك وهي أنقى عدسة في العالم، ليسقط على الشبكية فإنه

في هذه اللحظة يحفز جزئيات شبكية، هذه الجزيئات تجبر بروتين يسمى الرودوبسين rhodopsin على أن يُغير شكله ويلتصق ببروتين آخر فيُطلق الإثنان جزيئة GDP ويكتسبان بدلًا منها جزيئة GTP وبعد اكتساب هذه الجزيئة يكون بإمكانها الآن وأخيرًا فصل جزيئة Cgmp فتدخل جزيئات الصوديوم ذات الشحنة الموجبة إلى داخل الخلية ونتيجةً لذلك يحدث خلل في توازن الشحنات عبر غشاء الخلية، وهذا الخلل يُولد تيارًا يُنقل عبر العصب البصري إلى الدماغ.

الآن التغيرات البيوكيميائية المعقدة التي حدثت داخل شبكية عينك تحولت إلى تيار كهربي ينتقل عبر العصب البصري إلى دماغك!

يقوم الدماغ بتفسير تردد هذا التيار وكأنه يملك قاموسًا متكاملًا فكل مستوى تردد يمثل درجة لونية معينة، ويقوم الوعي باستيعاب كل هذا وتحويله إلى إدراك وفهم.

كل هذا يحدث في أقل من جزء من الثانية!

فالذي يفترض أن تطورًا قاد هذه المنظومات بلا وعي وبعشوائية فمثل هذا لا سبيل لنا عليه!

نسيت أن أخبرك أن بروتين الرودوبسين لابد أن يعود سريعًا ليشارك بعد أقل من لحظة في دورة إبصار جديدة، والذي يقوم بتفكيك الرودوبسين هو إنزيمات متخصصة تقوم بدورها ليعود الصوديوم خارج الخلية وليتفكك الرودوبسين ولتعود جزيئة Cgmp للالتصاق مجددًا بالبروتين الخاص بها!

إن كل ذرات الكون لا تكفي لتشكيل بروتين رودوبسين واحد بالصدفة؛ فضلًا عن تكوين شبكية عين، فضلًا عن إدراك لمعنى الرؤية داخل صندوق المخ المظلم، فضلًا عن ظهور تشفير لهذا البروتين داخل نواة الخلية التي تنتج هذه الشفرة فضلًا عن ظهورك أنت أيها الإنسان!

سبحانك ربي!

هل أدركت معنى المعجزة؟

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك:٢٣].

وأنت تنظر الآن إلى هذه الكلمات فإن الأطوال الموجية لألوان الحروف والخلفية تنتقل إلى شبكية عينك على شكل موجات هذه الموجات تُحولها الشبكية عبر تغيرات بيوكيميائية إلى نبضات كهرومغناطيسية، هذه النبضات الكهرومغناطيسية تنتقل عبر العصب البصري من الشبكية إلى مركز الإبصار في مخك، وهناك يوجد قاموس فك شفرة هذه النبضات وبعد فك التشفير تستطيع أن تدرك وتعي ما تراه وتميز بين الألوان.

هذه المنظومة المدهشة من التشفير وفك التشفير ومعرفة الطول الموجي وإعداد الشبكية لتناسب ذلك،

هذه المنظومة لو لم تدرك أن ورائها خالق عليم حكيم أتقن كل شيءٍ صنعه؛ فهذه قضيتك!

كيف ظهرت الشفرة في البدء وكيف امتلك المخ قاموس فك هذه الشفرة genotype.

المدهش أكثر من كل ما سبق أننا على المستوى التشريحي لا نجد قواميس لفك الشيفرات وإنما تبادلات لأيونات الصوديوم والبوتاسيوم على جدران الخلايا العصبية في الدماغ لا أكثر.

فكيف تحولت تبادلات لأيونات صوديوم وبوتاسيوم إلى وعي وجودي!

بالمناسبة: يمكنك أن تقوم بإجراء عملية تبادل أيونات الصوديوم والبوتاسيوم على أي ورقة ترشيح داخل المعمل، لكن الورقة لن تعي ولن تنظر ولن تدب فيها الحياة بمجرد هذه التبادلات المادية!

فسبحان الخالق!

شرنقة الفراشة تُسقط الإلحاد ونظرية التطور

هل حاولت يومًا ما أن تتدبر أمر الشرنقة؟

تلك الشرنقة التي تصنعها الدودة –اليرقة– وتلف بها نفسها، ثم تختبيء داخلها أيامًا لتتحول إلى فراشة تطير لحظة خروجها من الشرنقة.

فما يحدث يشبه هذا تمامًا: سيارة عتيقة من نوع فورد تحبس نفسها داخل أحد الاقفاص ثم تتفتت مكوناتها– المطاط والزجاج والحديد والتروس– لتتحول خلال أيامٍ إلى طائرةٍ عملاقة تطير في السماء.

حيث تتحلل أنسجة اليرقة وتتم إعادة تدويرها لتساهم في بناء أجنحة الفراشة وأعينها المركبة ومعدتها الخاصة وجهازها التناسلي ومنظومة الطيران والملاحة الخاصة بها بمنتهى الإتقان وجمال الشكل.

لكن السؤال هنا: كيف تسمح اليرقة لنفسها بأن تدخل داخل شرنقة تعلم أن خلاياها ستموت داخلها؟

أليس هذا تحدٍ مباشر لأصل نظرية الانتخاب الطبيعي؟

أليس هذا تحدٍ لكل أطروحات التطور؟

وإذا قال تطوري: تحول اليرقة إلى فراشة داخل الشرنقة هذا مكسب**!**

لكن : هل الانتخاب الطبيعي يعلم ما في غدٍ؟

هل الانتخاب الطبيعي يخطط أو لديه أجندة عمل؟

تحول معظم جسدك إلى حساء من الجزيئات ثم إعادة البناء هذه عملية انتحارية لا يعرف التطور لها تفسيرًا، فاليرقة تدخل قبرها بنفسها، والقبر هنا هو الشرنقة**!**

إذا أردت الانصاف وتحليل الأمر ببساطة فخلاصته أنه داخل شرنقة الفراشة تختنق نظرية

التطور وتصبح جثة هامدة!

سبحان الله

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر:٨١].

وهذا مقطع مرئي يصور الأحداث بتدّبر[(١)].

وأنا كنت أقول في نفسي سبحان الله، لو كانت الفراشة ملحدة ولا تؤمن بها بعد الموت لما دخلت الشرنقة ولما صدّقت أن حياتها الدودية ستتحول إلى حياة جديدة لا تعرف عنها شيئًا!

إن هذه مخاطرة لا يقوم بها إلا كائن يملك غريزة تسبح بحمد الله وتُسلِّم له في كل أمرها.

ولو أنعمت النظر في آليات الانتخاب الطبيعي لعملت أنه ليس هكذا يعمل الانتخاب الطبيعي فهو لا ينظر للمستقبل أصلًا.

كيف احتفظ الانتخاب الطبيعي بعملية مدمرة كالموت الخلوي الذي يحدث داخل الشرنقة.

فما يحدث داخل الشرنقة هو أن تنتج طائرة من خردة حديد.

ما علاقة هذا الأصل بالتطور التدريجي الأعمى؟

ثم إنه داخل الشرنقة لا مجال للعودة!

لا رجعة!

لقد تفكك كل شيء إما فراشة وإما الموت!

يجب داخل الشرنقة بعد التحلل أن يبدأ إنتاج سيقان بالغة وقرون استشعار بالغة وعيون بالغة وأجهزة ملاحة وأجنحة زاهية مبهرة وأجهزة تناسل -لأن اليرقة لا تملك أجهزة تناسل وظيفية-.

يجب أن يتغير شكل المخ والوصلات بين قرون الاستشعار والأعين.

يجب أن تتم إعادة تشكيل المعدة تمامًا بحيث تتحول من مضغ النباتات في المرحلة اليرقية إلى

---

(١) https://www.youtube.com/watch?v=Uq٢RIqdOqNA.

التغذي على الرحيق في مرحلة الفراشة.

فأنت لديك هدف ولديك موارد معينة ولديك خط إنتاج واحد.

أعطني أعظم الجامعات وأعظم العقول وأعظم الموارد وأعط كل هؤلاء ما يريدون من الزمن وصدقني لن يستطيعوا أن يحولوا يرقة واحدة إلى فراشة. مع أن هذا يحدث داخل الشرنقة كل لحظة.

فسبحان المعجز بآياته في الخلق!

القادر على ذلك هو الخالق.

والخالق أعطاكم كل ما تريدون. ومع ذلك أيضًا تعجزون!

لإنتاج فراشة واحدة لابد أن يكون التطور هراء!

لإنتاج فراشة واحدة من البديهي أن يكون هناك خالق عليم حكيم يعلم الهدف بعيد المدى من دخول اليرقة إلى الشرنقة لإنتاج فراشة ثم يوجه كل خطوة في اتجاهها الصحيح. ويضع الخطة كاملة من البداية!

خبرتنا البشرية تقول أن القادر على ذلك لابد أن يكون صانعًا متقنًا. لا نحتاج من الملحد سوى التسليم بهذه المقدمة التي تقررها خبرتنا البشرية.

أَضِف إلى ما سبق أن الفراشة الملكية –مثل التي تعيش في أمريكا الشمالية خاصةً كندا والغرب الأوسط– متوسط عمرها حوالي أسبوعين. لكن الفراشة التي تأتي في شهر أغسطس فإن عمرها يكون حوالي تسعة أشهر وهذا إعداد لابد منه للنجاة.

فالجيل الذي يولد في شهر أغسطس سيواجه الشتاء وبالتالي لابد أن يهاجر نحو الجنوب – جنوب المكسيك– في رحلة تبعد حوالي ٢٥٠٠ ميل عن موطنه الأصلي ثم يعود بعد انتهاء فصل الشتاء وهذا يتطلب تسعة أشهر كاملة. أما طوال فصلي الربيع والصيف فمتوسط عمر الفراشة

فقط أسبوعين.

المدهش الآن أن هذه الرحلة التي تقطعها تلك الفراشة نحو أماكن محددة وخط سير محدد هي رحلة لم يقم بها أحد من آبائها أو أجدادها الأقربين وإنما قام بها جد في الدرجة السابعة أو الثامنة- الجد الذي ظهر في أغسطس السابق- والأكثر داهشية أن هذه الرحلة لا يوجد فيها مرشدين ولا كبار سن بل الكل نفس الجيل.

فسبحان الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

فكم من معجزةٍ تقدمها فراشةٍ واحدة صغيرةٍ!

وكم من دليل قدرةٍ إلهيةٍ تحملها تلك الفراشة، وكم من دليلٍ يقيني تحرره وتؤمن به فراشة صغيرة ويكفر به ملحد ضخم الجثة.

فحين تدخل الفراشة إلى مرحلة البرزخ الخاصة بها -الشرنقة- تكون على يقينٍ تامٍ بالبعث والعودة إلى الحياة مرةً أخرى.

فهي تدخل الشرنقة وهي تؤمن بالبعث وتؤمن بأنها ستعود مجددًا ولا تشك في ذلك ولا تتردد تردد المذبذبين من البشر!

إن تحول اليرقة إلى فراشة داخل شرنقةٍ، هي معجزة خلق حياة.

حيث تحولت اليرقة الحية إلى حِساء من الخلايا داخل اليرقة وتمزقت كل ممزق، ثم عادت مرةً أخرى تطير في السماء وتُسبح لخالق الأرض والسماء.

إن هذه المعجزة أعظم من كل معجزات العلم المادي عبر كل تاريخه.

﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣].

فآيات البعث بعد الموت أمام كل ملحد، هي لمحات وآيات متكررة ليستقيم قلبه ويَسكن جنانه ويعود لربه ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر:٨١].

والبشر ملحدهم ومؤمنهم يملكون هبةً عقليةً فريدة تمكنهم من تقييم الدليل، والوصول

إلى نتيجةٍ منطقية، هذا هو جوهر العلم وجوهر الاستدلال الديني!

الوحيد الذي يتجاهل كل ذلك هو الملحد!

فعندما تجد آثارًا في الطبيعة تدل على مؤثرٍ، فليس من التكلف أن تقر بأن وجود المؤثر حقٌّ وليس بباطل!

ومع تراكم الشواهد وتزاحم الأدلة يتحول الحق إلى يقينٍ وتسليم.

فأنت مسئوليتك كمتعقل أن تجد السبب المفسر للأثر!

إنه الصنع المتقن الذي يتجاوز العالم الطبيعي.

إنه الروعة الهندسية والجمالية في جناح الفراشة.

إنه آيات إعادة الحياة بعد الموت.

إنه آيات الهندسة الملاحية وغريزة السفر التي تقفز بين عشرات الأجيال لتستقر في جيلٍ معين فيطول عمره ليقضي مهمته.

فسبحان الله!

مرةً أخرى مع الكائنات الدقيقة والبعوضة

تقوم الفلسفة المادية الإلحادية على التبسيط والإختزال ثم التعقيد، لكن هذه الرؤية شيء والرصد شيء آخر تمامًا، فالفيروس أدق الكائنات الحية ما زال حيًا بيننا إلى الآن ويُهدد بانتظام أعقد الكائنات الحية، وعندما ينجح الفيروس في خداع الأجسام المناعية antibodies ويصل إلى نواة الخلية فإنه يقوم بعملية سطو hijack لا تستطيع أعقد الأنظمة البيولوجية أن تواجهه، حيث يقوم الفيروس بتقطيع نفسه على بوابات نواة الخلية الحديدية حتى يتمكن من اختراق ثقوب البوابات ثم ينطلق الحمض النووي الخاص به إلى داخل النواة، وبعد هذه العملية التي تبدو انتحارية، يقوم الحمض النووي الخاص به والذي دخل ممزقًا بالالتئام مرةً أخرى ثم ينسخ نفسه داخل شريط الحمض النووي الخاص بالنواة آلاف المرات، ثم بعدها ينتقل إلى الريبوسوم خارج النواة ليُكمل عملية التصنيع، ثم يعود إلى النواة مجددًا ليصبح فيروس متكامل في مهمة من أعجب وأذكى وأمكر وأخبث المهام على الإطلاق، وبعد ٤٨ ساعة من نجاح فيروس واحد في الوصول إلى نواة خلية فإن النواة تصبح محملة ب١٠ آلاف فيروس مستنسخ حيث يُوقف جميع العمليات الحيوية التي تقوم بها النواة ويكرس كل جهدها في نسخ نفسه فقط ..

وفي هذه اللحظة العجيبة والفريدة والتي تحدث داخل كل إنسان ربما كل بضعة أيام، تصل إنذارات من الجسم بوجود مُحتل قام بعملية سطو كاملة على إحدى الخلايا فتقرر جميع الخلايا المجاورة للخلية المنكوبة أن تنتحر سريعًا حتى لا تتحول إلى مصانع لإنتاج جحافل فيروسية جديدة، وبهذه الطريقة تبدأ مقاومة الجسم للمحتل، وما زكام الأنف وانسداد الجيوب الأنفية إلا مخلفات المعركة -هذا في حال كان الفيروس تنفسيًا-، إن أبسط الكائنات الحية يحمل بصمة الخلق وعظيم الصنع فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، سبحان الله ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧].

ومن الفيروس إلى البعوضة أبسط الكائنات المرئية، نجد أن للبعوضة مائة عين في رأسها، و ٤٨ سن في فمها، وثلاثة قلوب في جوفها بكل أقسامها، ولها ستة سكاكين في خرطومها ولكل

واحدة وظيفتها، ولها ثلاث أجنحة في كل طرف، ومـُزوّدة بجهاز حراري يعمل مثل نظام الأشعة تحت الحمراء وظيفته: يعكس لون الجلد البشري في الظلمة إلى لون بنفسجي حتى تراه البعوضة، والبعوضة أيضًا مـُزوّدة بجهاز تخدير موضعي يساعدها على غرز إبرتها دون أن يحس الإنسان، وما يحس به كالقرصة هو نتيجة مص الدم، والبعوضة مـُزوّدة بجهاز تحليل دم فهي لا تستسيغ كل الدماء، ومـُزوّدة بجهاز لتمييع الدم حتى يسري في خرطومها الدقيق جدًا، ومـُزوّدة بجهاز للشم تستطيع من خلاله شم رائحة عرق الإنسان من مسافة تصل إلى كيلومتر.

إن الرؤية المادية الإلحادية والتصور الإختزالي لظهور الكائنات الحية هي فلسفة كهنوتية لا علاقة لها بالعلم ولا ببديهيات المنطق، إن الإيمان بالإلحاد يتطلب بانتظام إنكار بديهيات عقلية ومنطقية أقسى من أشد الديانات إغراقًا في الوثنية.

الزوجية في الكائنات الحية

يقول بعض الملحدة: الكائنات التي لها جنس واحد هل تتعارض مع قوله تعالي ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات:٤٩].

الرد: الزوجية أيضًا موجودة في هذه الكائنات الحية لكن داخل الجنس الواحد. ولم يقل الله عز وجل "ومن كل شيء خلقنا زوجين منفصلين".

فلم يقل القرآن الكريم أن الزوجية يلزم أن تكون ذكر وأنثى بل ولم ترد حتى هذه اللفظة !

فزوجية شريطي الدنا DNA اللذان يتباعدان لحظة الانقسام أحادي الجنس هي زوجية.

والحيوان المنوي الذي يُلقح البويضة زوجية.

وطلع الزهرة يقابله ميسمها.

وكل شيءٍ في هذا العالم له زوجية في طريقة مدهشة تدل على الصنع والخلق وانتفاء العشوائية والعماء والصدفة.

فالظلام له مقابل النور

والكفر له مقابل الإيمان

والجنة لها مقابل النار

ومادة هذا الكون المنظورة لها مقابل مضاد المادة Antimatter

والإلكترون له مقابل البوزيترون Posirton –إلكترون ذو شحنة موجبة–.

والبروتون له مقابل البروتون المضاد –بروتون ذو شحنة موجبة–.

وتاريخ أحدث الكشوف الفيزيائية هو تاريخ اكتشافات الزوجية في جسيمات ما تحت الذرة the sub atomic particles فالكوارك العلوي up quark له كوارك سفليdawn quark.

بل تخضع جميع الجسيمات في هذا الكون المنظور إلى مبدأ التناظر الفائق supersymmetry وهو المبدأ الذي أسّس له الفيزيائي الشهير بول ديراك Paul Dirac والذي يقرر وجود الزوجية

في جميع الجسيمات بالكون، حيث يمتلك كل جسيم نظير له لديه نفس كتلة وطاقة ذلك الجسيم لكن بشحنة مغايرة وزخم زاوي مغاير.

إن مبدأ التناظر الفائق أو الزوجية هو دين الفيزيائيين الغير مُعَلن كما يقولون، لقد أصبح عقيدة فيزيائية يلتزم في سلكها فيزيائيو العالم المعاصر من كثرة واطراد ما يرصدون من زوجية في هذا العالم.

فالزوجية هي آية من آيات الخلق الإلهي والصنع المتقن في هذا العالم، فاطراد الزوجية في كل شيء يؤكد القصد ونفي المصادفة والعشواء الذي يفترضه كهنة الإلحاد.

ولذا يطالبنا الله عز وجل أن نتدبر معنى الزوجية في هذا العالم ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥٠].

لكن قلّ من يتدبّر وقلّ من يستخدم أدلة الخلق والصنع الإلهي في زيادة الإيمان بعد أن كان يستخدمها كشبهة!

انضباط الكون كله

اكتشاف موجات الجاذبية

أعلن مؤخرًا فريق علمي دولي اكتشاف موجات الجاذبية التي تنبأ بها أينشتاين، ويعد الاكتشاف تتويجًا لعقود عديدة من البحث والاستقصاء، ونشرت نتائج الابحاث التي قام بها الفريق في نشرة Physical Review Letters.

يؤكد الدين على أن كل ظواهر الكون وقوانينه منضبطة ولها هدف وغاية، وليست عبثًا ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

وألف باء علم تجريبي أن قوانين الكون بالفعل مُفصّلة تفصيلًا ومنضبطة ويمكن استيعابها والتحقق منها!

أليس هذا ما أخبر به الدين؟ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢].

وما كان الاكتشاف الأخير لموجات الجاذبية Gravitational Waves إلا توكيدًا على هذه الحقيقة الشرعية العلمية.

فأين هذا بالله عليكم من فروض العبث والصدفة والخبط والعشواء في الكون عند الملحدة العرب؟

واكتشاف موجات الجاذبية هو أحد متعلقات النسبية العامة لأينشتاين!

وطبقًا للنسبية العامة فالسماء هي نسيج محبوك ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات:٧].

تتداخل فيه الأبعاد المكانية الثلاثة -الطول والعرض والارتفاع- مع البعد الزماني فيُشكلان نسيجًا تدور فيه الأجرام والأفلاك وتنتقل موجات الجاذبية على هذا النسيج بسرعة الضوء!

وعلى هذا الرابط فيديو في نصف دقيقة يشرح كيف أن السماء نسيج محبوك كما توصل

أينشتاين[١].

وهذه الموجات الجذبوية هي التي تربط الأجسام والكواكب والنجوم بعضها ببعض، فمثلًا المسافة بيننا وبين الشمس ثمانية دقائق ضوئية، ولو افترضنا أن الشمس اختفت فجأةً ستظل الأرض في مدارها حول الشمس لمدة ثمان دقائق إلى أن تختفي الموجات الجذبوية للشمس ثم بعدها تنحرف الأرض إلى أقرب مركز ثقالي -تنهار-.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١].

وموجات الجاذبية لو انهارت لن تستطيع كل البشرية بكل ما وصلت إليه من طاقةٍ وعلم أن تمسك بالأرض ولو للحظة واحدة إضافية، هذا فضلًا عن أي كوكبٍ آخر، فضلًا عن المجموعة الشمسية، ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١].

فسبحانك ربنا وبحمدك!

(١) https://www.youtube.com/watch?v=LoaOHvy٥AcA.

انضباط الكون

إن افتراض الملحدة العرب عبثية فيزياء الكون هذا يمثل أكبر لعنة على العلم، لأنه يحرم العلم من الثقة بالنتائج ويؤدي أيضًا إلى الزهد في التوصل إليها، فالإلحاد يُسمم العلم!

فأصل العلم التجريبي أن: القوانين التي تحكم العالم ليست عديمة المعنى بل تسير وفق أنساقٍ مبهرة يمكن التنبؤ بها واستنباطها واستيعابها، في حين أن أصل الإلحاد يقوم على أن: العبث واللامعنى يسودان كل شيء!

وهنا يكمن الفرق بين العلم والإلحاد!

ولزيادة التأكيد على سخافة الرؤية الإلحادية العبثية الصدفوية للوجود، وضع العلم التجريبي مبدأ التماثلية uniformitarianism والذي يؤكد العلم التجريبي من خلاله أن قوانين الطبيعة ثابتة عبر الزمان وعبر المكان، وأنساق الطبيعة لا تتخلف ويمكن قياسها والثقة بالقياس.

يقول التطوري الشهير ستيفن جاي جولد: " إن التماثلية التي تعني ثبات قوانين الطبيعة عبر الزمان والمكان شيء جوهري لصلاحية الاستدلال الاستقرائي الذي هو أصل العلم التجريبي، فليس هناك طريقة غير ذلك للوصول لاستنتاجات عامة من خلال عدد محدود من الملاحظات"[(١)].

فقوام العلم التجريبي على مسلمة صحة انضباط الكون وخطأ عبثية الإلحاد، إنه مبدأ مُسلّم به! ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل:٨٨].

فسبحان ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧].

معنى الأخلاق

لماذا يحاول كل إنسان أن يحيا في اتساقٍ مع ضميره؟

لماذا يعاني الإنسان وخز الضمير الأخلاقي؟

---

(١) http://courses.washington.edu/ess٤٠٨/Gould١٩٦٥.pdf

لماذا صراع الواجب والمصلحة في كل موقف يمر بك من لحظة بلوغك -واستيعابك الشر والخير- إلى لحظة وفاتك؟

الإجابة تكمن في معنى التكليف الإلهي والذي لا يستطيع إنسان أن ينفك عنه حتى ولو ادعى أنه أشرس الناس إلحادًا وكفرًا بالله!

إن معنى وجودك كله لا يوجد داخل هذا العالم المادي ما يبرره أو يحلله.

وأعظم ما تحرص عليه من قيمٍ وأخلاقٍ وصلاح لا يعتمد شيءٌ منها على جسدك المادي أو غددك أو هرموناتك!

تأتي هذه المقدمة التي يؤمن بها كل إنسان -يؤمن بمعنى القيمة والصلاح والأخلاق-، لتُثبت أن الدين والتكليف الإلهي حقائق يصدح بها داخلك قبل أن تأتيك من خارجك وحيًا ونبوة!

ماء زمزم آية إسلامية وعلمية

-هذه الآية قرأت عنها كثيرًا لكن أنقل لكم فائدة جميلة وقعت عليها في أحد الكتب-

من معجزات بئر زمزم تلك البئر الصغيرة بجانب الكعبة أنها متدفقة ويشرب منها عشرات المليارت من البشر على مدى ١٤٠٠ سنة بدون أن تجف ؟!

هذا النوع من الآبار لا يمكن أن يصمد ((ساعة واحدة)) في ظل الاستهلاك الحالي الهائل

لكن زمزم يشرب منها الملايين يوميا ولم يتغير فيها شيء !

في مكة وفي ضواحيها كلها الآن آبار جافة ولا يوجد إلا الآبار الحديثة التي بها ماء.

وحتى الابار الحديثة تجف من فترة إلى اخرى رغم أن كمية الاستهلاك منها بسيطة جدا مقارنةً ببئر زمزم ولا يكون فيها ماء إلا حين هطول الامطار.

أما داخل مكة فالمياه الجوفية لا تستفيد من مياه الأمطار بسبب البناء وتوسع العمران وانغلاق الاودية.

والعجيب أن أي بئر موجودة الآن في المنطقة مخزونها لا يفي ولو بنسبة ضئيلة ممّا يؤخذ ويُسحب من بئر زمزم يوميًا، حيث كانت أقل كمية تُضخ تساوي ٨٠٠٠ لتر في الدقيقة بواسطة عدد من المضخات المركزية هذا بالإضافة إلى أكثر من ٤٠٠ الف متر مكعب من مياه زمزم يذهب في صهاريج إلى المدينة المنورة !!

وأيضًا خمسة ملايين لتر يوميًا لمشروع "سُقيا" والذي يعبأ منه مبدئيًا ٢٠٠ الف عبوة يوميًا!!

هذا غير الاستهلاك الهائل من زوار المسجد الحرام!

فأي بئر طبيعية تلك التي يمكن أن تصل طاقتها الإنتاجية إلى هذه الارقام ؟

«**لا تنزف أبدًا ولا تذم**» رواه الدار قطني، وصححه الألباني، وهذا الأثر رؤيا رآها عبد المطلب.

وهذا دليل أن الله سبحانه وتعالى الذي يعلم الغيب هو من أخبر عبد المطلب في رؤيا رآها بهذا الخبر الذي لا يمكن أن يتنبأ به بشر من تلقاء نفسه !

الفصل السابع

سؤال الحضارة

-هذا الفصل من وحي كتب الباحث إبراهيم السكران حفظه الله-.

خاصةً كتابيه "مآلات الخطاب المدني"، و"سلطة الثقافة الغالبة".

قوام التكليف تقابل إرادتين: إرادة الله، وإرادة البشر

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَاخِرَةَ ﴾ [الأنفال:٦٧]

ويكاد يكون مرد الصراع في القرآن كله حول هاتين الإرادتين!

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]

سؤال الحضارة

-السؤال الأخطر في الملف الإلحادي-.

الافتتان بالمظهر المادي

ربما يكون سؤال الحضارة هو أصل الإلحاد العربي على الإطلاق.

لماذا نحن متخلفون ماديًا وغيرنا متقدم؟

لماذا نحن في القاع وغيرنا في القمة؟

لماذا تأخرنا بينما سبقنا غيرنا بقرونٍ ثقافية؟

هذا هو سؤال الحضارة!

إنه السؤال الأصعب في تاريخ الدعوة.

بل كم عانى الأنبياء في مواجهة هذا السؤال.

وكم تفّلت الأتباع وكم بخعت أنفس الرسل حزنًا على كثرة تفّلت أممهم.

فسؤال الحضارة هو أصل كفر الأمم عبر العصور.

وقد فصّلنا في المقال السابق مباشرةً كيف أن المظهر المادي للكافر والتقدم التقاني يفتن الناس عن اتباع الحق.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم:٧٣] .

يقول الباحث إبراهيم السكران -حفظه الله-: "حين استلم قوم عاد زمام الخلافة في الأرض كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف:٦٩].

فعمروا جنوب الجزيرة العربية في منطقة الأحقاف وإرم، وكانوا يتمتعون بقوةٍ ماديةٍ مذهلةٍ فكانت لهم بنية جسدية استثنائية، وكثافة سكانية، مكنتهم من الترف المعيشي وفنون العمارة، والانفراد بالجبروت العسكري على العالم، وهذه القوة المادية ورطتهم في الغرور وصرفتهم عن

الإيمان بلقاء الله والاستسلام للوحي، كما يحكي تعالى عن قوتهم الجسدية في سورة الأعراف: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٖ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةٗۖ﴾ [الأعراف:٦٩].

ويؤكد تعالى بنيتهم الجسدية الاستثنائية في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٦-٨].

ويصف القرآن قصورهم ومنشآتهم الضخمة وبطشهم العسكري في سورة الشعراء فيقول سبحانه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٠].

هذه المظاهر المادية حجبت عيونهم بعصابة الزهو، حتى تساءلوا أمام نبي الله ذلك السؤال المنتفش بالغرور المجوف فقالوا بكل غطرسةٍ سياسية: "من أشد منا قوة؟"

كما حكى الله سبحانه مقالتهم هذه: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت:١٥].

بالله عليك.. أعد التأمل في تساؤلهم المغرور: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾، ثم انظر إلى جواب جبار السموات والأرض بعظمته الإلهية إذ يرد عليهم قائلًا سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةٗۖ﴾ [فصلت:١٥].

إمكانياتهم المادية طاشت بهم فوق طواويس الغرور، فألقو رزانة الإيمان وكذبوا بلقاء الله بكل بجاحة، وقالوا مستهترين: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٦].

وكانت "الطبقة المترفة" في قوم عاد -كما هو قانون التاريخ- أشد المعارضين لدعوة الوحي، كما قال تعالى عنهم في سورة المؤمنون: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون:٣٣].

ولم تغرب شمس عاد في كارثة أعاصيرها المعروفة التي دامت أسبوعًا، إلا وكانت حضارة المدائن في الحجر شمال الجزيرة العربية قد بزغت، وأعادت مسلسل الغرور بمظاهر القوة المدنية المادية.

فقد تمتعت ثمود أيضًا بالخلافة في الأرض بعد قوم عاد، وأوغلوا هم أيضًا في فنون النحت والعمارة، وبعض آثارهم الباقية اليوم شاهدة بما غاب من مدنيتهم، وقد قال تعالى عن خلافتهم وقصورهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف:٧٤].

وقال تعالى في سورة الشعراء واصفًا رفاههم ونحتهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٩].

وكان إبداعهم في نحت الجبال يوفر لهم استقرارًا أمنيًا كما أشار تعالى في سورة الحجر بقوله: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر:٨٢].

وقال تعالى مشيرًا إلى عمارتهم للدنيا: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [هود:٦١].

فغرتهم إمكانياتهم المادية، وتفوقهم المدني على مجايليهم، ونظروا بمعيار المظاهر، فجحدوا الوحي الذي أتى به نبي الله صالح عليه السلام، واستنكروا أصلًا أن يختص من لم يتميز بمظهر مادي بالوحي والنبوة، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥].

ولكن.. وكما هي السنة الكونية وقانون التاريخ، فقد كان المتبنون لمضايقة نبي الله صالح هم الكبراء وأصحاب المظاهر المادية، وكان أنصاره ضعفاء الناس، كما ينقل الله لنا هذا الحوار في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ

ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦]"[١] .

فما ابتلي البشر عبر العصور وعبر تاريخ النبوات ببلاءٍ أكثر من الافتتان بالقوة المادية للمنافس.

إن سؤال الحضارة جوابه معنى التكليف.

ومقتضاه انفكاك الجهة بين المبدأ الديني وبين الرصيد البنكي.

فلا يلزم من زيادة رصيدك البنكي أو انتفاخ كرشك أنك على الحق.

ولا يلزم من نحافة خصمك أنه على الباطل!

لكن هكذا تتصرف العقول وهكذا تتخيل.

بل إن الدين ينظر إلى العالم المادي وتكدس الثروات والتقدم التقاني باعتبارهم وسائل لا غايات.

وما قام الدين إلا لتحويل سؤال الحضارة من غاية إلى وسيلة.

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد:٢٦]

فالإسلام يحذر بانتظام من الركون إلى الحياة الدنيا والاطمئنان إليها والفرح بما عندنا.

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤].

وما كان الانبهار بالعالم المادي والزهد في الوحي إلا أصل كفر الكافرين عبر العصور.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف:٧] .

---

(١) من وحي كتاب مآلات الخطاب المدني، إبراهيم السكران، بتصرف.

بل إن المؤمن الحق هو الذي يترك الربح المادي والاقتصاد لمجرد سماع نداء الصلاة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة:٩].

فما الدنيا كلها إلا كشاةٍ أسك ليس لها عند الله ثمن -كما ورد في الحديث-.

وهنا يتضائل سؤال الحضارة ويخبت، والعاقل مَن أوقف المادة لنفع دينه وتركها في غير ذلك!

مؤمنٌ وكافر

مشكلة سؤال الحضارة أنه قسّم البشر في غايتهم الوجودية إلى قسمين متمايزين منذ البدء.

فقِسمٌ منهما غايته الدنيوية المادية -مركزية المادة والحضارة وعمارة الأرض-، وقِسمٌ آخر غايته العبودية والتزكية الإيمانية -مركزية الآخرة-.

وكل قِسمٍ صار يُطوع معطيات القِسم الآخر لمركزيته هو.

فالدنيويون يطوِّعون النصوص الشرعية ويحاربون التراث ويقاضون الأصوليين، ويصرخون صباح مساء أن الدين ما جاء إلا لعمارة الأرض ويُكثرون من حديث: "لو قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرعها".

أما القسم الآخر فيُطوع المادة لعبودية الله. ولا يبتغي منها إلا ما يُصلح هذه العبودية، وكل ما خرج عن العبودية فهو دائرٌ بين الترف والحرام!

فهرم الأولويات عند المؤمن هو عمارة النفوس بالله، بتألهه والتعلق به، والتجرد لمراده.

أما هرم الأولويات عند المادي هو إشباع الشهوات وتحقيق أقصى استغلال ممكن للموارد.

يقول الباحث إبراهيم السكران حفظه الله: " ما هي وظيفة الإنسان؟ هذا هو السؤال/ المدخل الذي تعود إليه الاختلافات الجوهرية للاتجاهات الفكرية، وهناك اتجاهان رئيسيان في الجواب على هذا السؤال:

أولهما هو "الاتجاه المدني" ويرى أن وظيفة خلق الإنسان هي "العمارة" وكل ماسوى ذلك وسيلة لها.

فالوحي والشرائع والعبادات إنما هي وسائل لتحقيق العمارة والحضارة والمدنية، فالعمارة هي الغاية الجوهرية والأولوية الرئيسية للإنسان، وانبنى على ذلك أن اشتغل هذا الخطاب بقضية التمدن وتوجيه كافة المعطيات الأخرى إليها والتسامح في كل ماسواها، ومن ثم تقييم المجتمعات والثقافات والشخصيات بحسب منزلتها في هذه "المدنية" الدنيوية.

و"المدنية" بحسب هذا الاتجاه مفهوم شامل يدخل فيها كل ما يدفع باتجاه تحقيق الرفاه البشري وسعادة الجنس الإنساني في كافة ميادين الحياة الدنيوية، والتقدم في العلوم الفلسفية والإنسانية والطبيعية والفنون، ونحوها.

أما الاتجاه الثاني وهو "الاتجاه الشرعي" فيرى أن وظيفة الإنسان هي "العبودية" بمعنى أن الله خلق الإنسان وأرسل الرسل وأنزل الكتب لتدل الناس على الله وعبادته، وبيان دقائق ما ينبغي له سبحانه وما لا ينبغي في معاملته جل وعلا، وبيان قواعد تنظيم حقوق العباد، وأن كل ما في هذه الدنيا إنما هو متاع ولعب ولهو، فيجب أن يستعان بها يحتاج منها على عبودية الله، وكل ما لم يعن على عبودية الله ولم يؤد إلى هذا الغرض فهو دائرٌ بين مرتبتين لا ثالث لهما: إما محرم يجب الكف عنه، وإما فضول يشرع الزهد فيه.

فالعمارة والحضارة والمدنية مجرد وسيلة لإظهار الدين وإقامة الشعائر والشرائع، فلا يحمد من هذه المدنية إلا ما حقق هذه الغاية.

وحين تكلّم الإمام ابن تيمية عن "وظيفة الدولة" حسب التصور الإسلامي في كتابه "السياسة الشرعية" قدم تلخيصًا هامًا يكشف وسيلية المدنية وكونها مرتبطة بالغاية الدينية، كما يقول الإمام ابن تيمية:

(**فالمقصود الواجب بالولايات**:

١- إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسرانًا مبينًا، ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا.

٢-إصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم).

و"العبودية" بحسب هذا الاتجاه نظام من الشُّعَب التدريجية الشاملة أعلاها قول لاإله الا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، فتبتدئ بإفراد الله وتجريد القلب له ويليها الفرائض العينية ثم الفروض الكفائية التي يتحقق بها نفع الناس في مصالحهم العامة.

واذا تزاحمت شعبتان من شعب العبودية فلا يقدم مايتعلق بالشأن المدني مطلقًا، بل ثمة قواعد شرعية دقيقة في المفاضلة والموازنة بين مراتب الاهتمامات والأعمال والشؤون العامة، ككون رعاية الفضيلة مقدمة على الحرية الفنية، وتقديم الفرض العيني على الكفائي، وتقديم النفع المتعدي على النفع الخاص، وتقديم الواجب على المندوب، ونحو ذلك.

ولذلك فإن جمهور الأعمال العبادية المحضة تندرج في "الأحكام التكليفية" باعتبارها الصورة النهائية للمراد الإلهي، وجمهور الأعمال المدنية الدنيوية تندرج في "الأحكام الوضعية" كالسبب والعلة والشرط والمانع باعتبارها وسيلة للحكم التكليفي.

ومن ثم ينبني على هذه الرؤية تقييم المجتمعات والثقافات والشخصيات بحسب منزلتها في هذه "العبودية".

وتفريعًا على اختلاف هذين الاتجاهين في تحديد الوسيلة والغاية انبنت أكثر الفروق الهائلة والتفاصيل اللانهائية من الآثار، واستتبع ذلك تفاوتًا كبيرًا في المواقف، فكل قضيةٍ فكريةٍ يختلف فيها الناس تجد فريقًا لحظ أثر هذا الموقف على العبودية والفضيلة فاتخذ موقفا معينا، بينما الفريق الآخر لحظ علاقة هذه القضية بالحضارة والمدنية فاتخذ موقفًا مغايرًا، فكل فريقٍ معني بغايته ومقصده النهائي".

وهنا للمرء أن يتسائل: يا ترى مع أي فريقٍ تأتي نصوص الوحي وتنحاز؟

وأي إجابةٍ هي الصحيح الآكد؟

هل عمارة الأرض هي الغاية والعبودية جائت لضبط السلوك الاجتماعي أم أن العبودية هي الغاية وعمارة الارض هي وسيلة لا أكثر؟

يجيب إبراهيم السكران قائلًا: "الحقيقة أن كتاب الله سبحانه وتعالى لم يجعل هذه القضية عائمة أو محتملة أو نسبية، بل حسمها بشكلٍ يقينيٍ واضحٍ صريح. وكشف الغاية من خلق الإنسان بلغةٍ حاصرةٍ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦]. وبيّن سبحانه أنه إنما بدأ خلق الإنسان في هذه الدنيا ثم بعثه بعد موته ليحاسبه على هذه الغاية، وهي القيام بالعبودية كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس:٤].

وفي كثيرٍ من المواضع ينبه سبحانه وتعالى بين ثنايا الآيات على أن وظيفة الخلق وغايته إنما هي ابتلاء الناس في هذه العبودية كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك:٢]. وحسن العمل في هذه الآية ونظائرها هو الإيمان والعمل الصالح على حسب درجاته الشرعية.

ولو كانت عمارة الأرض بالحضارة والتمدن والعلوم الدنيوية هي المقصود الأولوي بحسن العمل لما أرسل الله الرسل في التاريخ البشري أصلًا، لأن الله سبحانه قد أثبت تميز تلك الأمم أصلًا في عمارة الأرض وعمق علمها بالدنيا، كما قال تعالى عن الأمم السابقة: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم:٩]. وقال عن علمهم المدني: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الروم:٧].

وبيّن سبحانه وتعالى وظيفة النبوات والكتب السماوية والشرائع وأنها كلها تهدف لتأكيد عبادة الله والاستعداد للحياة المستقبلية بعد الموت، وليست المنافسة العالمية في المدنية والحضارة الدنيوية، كما قال تعالى عن وظيفة الرسل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾

[النحل:٣٦]

وذكر سبحانه السؤال الإلهي عن تحقيق هذه الغاية فقال سبحانه: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ﴾ [الأنعام:١٣٠].

وقال سبحانه مبينًا وظيفة الشرائع: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البينة:٥].

وغير ذلك كثيرٌ من محكمات الوحي التي كشفت بشكلٍ حاسمٍ غاية خلق الإنسان، والذي يعنينا هاهنا ذكر بعض الشواهد لا استقراؤها".

ويستطرد إبراهيم السكران في توضيح انفكاك الجهة بين التقدم المدني والغاية الشرعية فيقول: " الله تعالى ضرب لنا المثل بأممٍ كثيرةٍ أبدعت في "العمارة المادية" ومع ذلك عرض الله تعالى أخبارها في سياق الذم لما أفلست في "العمارة الإيمانية" كما قال تعالى:﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم:٩].

وحين أرسل الله موسى إلى المجتمع المصري المتقدم لم يقل له أيقظ قومك ليستفيدوا من الحضارة المصرية، بل أرسله لينورّهم بالوحي من ظلمات حضارتهم، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم:٥].

بل إن الله سبحانه وتعالى فضّل بني اسرائيل بما معهم من العلوم الإلهية على الفراعنة بما معهم من الحضارة، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية:١٦].

فإذا تأمل القارئ هذا الموضع وكيف كان سبب تفضيل بني إسرائيل أنوار النبوة والكتاب، وكيف لم تفلح حضارة الفراعنة في إخراجهم من الظلمات، استبان له "الميزان الإلهي" لتقييم المجتمعات والثقافات والشخصيات والحضارات والمدنيات، وميزان المسلم تبعٌ لميزان الله جل وعلا.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- بعث إلى الناس وفي عصره أربع إمبراطوريات اقتسمت

العالم: الرومانية والفارسية والهندية والصينية، فالأولى امتدت لأوروبا والثانية حاضرة في الشرق الأدنى، والأخريان شبه معزولتين، وكانت معاهد العلوم فيها شامخة، فضلًا عن مخزونٍ حضاريٍ متراكمٍ من الحضارة الإغريقية والمصرية.

بل إن العلوم المدنية قبيل مبعثه -صلى الله عليه وسلم- بلغت شأوًا عاليًا في دقائق المعقولات كقوانين العقل الجوهرية كقانون الهوية والتناقض والثالث المرفوع، ونظرية الدولة وتقسيم أشكال اسناد السلطة، ودقائق الهندسة وحساب الدوال الرياضية، وفنون العمارة والمسرح والشعر والأدب، وأصول الطب، والمسافات الفلكية، وغيرها كثير وإنما هذه نماذج تكشف مستويات البحث المدني.

ومع ذلك كله فإن الله سبحانه وتعالى لما بعث نبيه في جزيرة العرب لم يبعثه ليقول للناس: يا معشر العرب أنتم تعانون من التخلف المدني ويجب عليكم أن تتجاوزوا جفوة عروبتكم وتتعلموا من الأمم المتقدمة، ولم يقل لهم: يجب عليكم أولًا أن تقفوا موقف التلميذ أمام علوم المنطق والطب والفلك والفلسفة ونحوها ثم تدعوا الناس،، ولم يقل لهم: اعرفوا قدر أنفسكم أمام الحضارات الأخرى، ولم يقل لهم: يجب أن تشاركوا الأسرة الدولية في سعادة الجنس الإنساني عبر الإبداع الابستمولوجي!

بل إن الله أخبر نبيه بعكس ذلك تمامًا، فقد أخبر نبيه عن القيمة المنحطة في ميزان الله لكل تلك المدنيات التي عاصرت بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ووصفها القرآن بالضلال بكل ماتضمنته قوتهم وعلومهم وفنونهم ومدنيتهم، بل وأخبرنا تعالى أنه يبغضهم ويمقتهم ويكرههم سبحانه وتعالى، سواءً كانوا أدباء العرب، أم فلاسفة أثينا، أم أطباء الصين، أم حكماء الهند، أم غيرهم.

كما روى الإمام مسلمٌ في صحيحه من حديث عياض المجاشعي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال ذات يومٍ في خطبته: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا**

بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك».

فمع كل مايوجد على هذه الأرض من العلوم المدنية والفلاسفة والأدباء فإنهم لا وزن لهم في ميزان الله سبحانه وتعالى سواءٌ في ذلك عربهم وعجمهم، ولم يستثن إلا طائفةً قليلةً من الناس بسبب ما كان لديهم من بقايا النبوات وبعض من أثارة الوحي. فبقايا النبوات وما تضمنته من العلوم والمعارف الإلهية هي نوافذ التنوير الحقيقي في الأرض، وليس التنوير هو الإغراق الفلسفي والمدني، وشاهدُ هذه الخطبة النبوية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١] .

فحَكم الله تعالى على كل البشرية قبيل مبعثه -صلى الله عليه وسلم- بأنها في "ظلمات" وأن التنوير الذي تحتاجه هو "نور الوحي" كما يقول تعالى في موضعٍ آخر: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الحديد:٩].

وأكّد تعالى في موضعٍ آخر أن التنوير الحقيقي هو نور الوحي كما قال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [المائدة:١٦].

وسيبقى من أعرض عن هذا الوحي مرتكسًا في ظلماته مهما أوتي من العلوم المدنية، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام:٣٩].

والى هذا التنوير المستمد من الوحي أشار الامام ابن تيمية في قوله: «وعند المسلمين من "العلوم الإلهية" الموروثة عن خاتم المرسلين ما ملأ العالم نورًا وهدىً»[(١)].

وقد نفخ النبي -صلى الله عليه وسلم- في أصحابه الشموخ بـ"العلوم الإلهية" فوق المدنيات الصغيرة بالنسبة لجلال المعرفة الإلهية، ونبّه أصحابه إلى التنوير الحقيقي وهو نور الوحي، وربى أصحابه على أن تلك المجتمعات المتمدنة يحتاجونكم أضعاف ما تحتاجونهم، فهم إنما يملكون

---

(١) الفتاوى ٢/ ٨٤.

الوسائل وأنتم تعرفون الغايات، وشتان بين منزلة الوسيلة والغاية".

ومن أجل ذلك لم ينبهر الصحابة بالحضارات التي كانت في وقتهم!

بل كانوا يقولون مرارًا وتكرارًا أنهم جاؤوا لإنقاذ هذه الحضارات من جاهليتها.

انظر إلى الصحابي الجليل ربعي بن عامر -رضي الله عنه- حين دخل على رستم قائد الفرس وقد زيَّنوا مجلسه بالنَّمارق المذهَّبة، والزَّرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحُه ودرعه وبيضتُه على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك فقال: إني لم آتِكم وإنّما جئتكم حين دعوتموني، فإنما تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: إئذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النَّمارق فخرَّق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإِسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه.

انظر إلى احتقاره لزينة الكافر وبهرجه

انظر إلى اعتزازه بجواب الأسئلة الوجودية الكبرى التي يحملها.

والتي تنخرق أمامها كل زينة الدنيا ومتعها!

فنجاح الصحابة الآكد أنهم لم يكونوا يعانون من عقدة النقص التي يعاني منها المعاصرون -إلا مَن رحم ربي-، بل كانت عزتهم في امتلاكهم أجوبة الأسئلة الوجودية الكبرى، وتأكيدهم على تفاهة الحياة الدنيا وحقارتها مقارنةً بالنعيم الأبدي!

فلا يفرح الكافر بأكثر من أن يُبهرك بنمارقه المذهبة وزينته العظيمة، فالانكسار لفتنته يُنهي المعركة قبل أن تبدأ!

ولذلك لم يفت ربعي بن عامر جهل رستم بأعظم مطلوب وهو الله سبحانه فتحولت كل زينته إلى صورةٍ بهيميةٍ بلا قيمةٍ ولا غايةٍ كما يصف القرآن الكريم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ [محمد:١٢].

فإجابة الأسئلة الوجودية الكبرى ترقى بمالكها وتسقط بمفتقدها.

وعند هذه النقطة لابد من إلماحةٍ هامة ذكرها إبراهيم السكران وهي أن: "هذا الانتقاص والاستعلاء الشرعي على المنجزات الحضارية والفنية قبيل مبعثه -صلى الله عليه وسلم- ليس ذمًا لتلك المنجزات لذاتها، وإنما لأن أصحابها لم يتزكوا ويتنوروا بالوحي والعلوم الإلهية، فلم يصلوا إلى الرقي والسمو الحقيقي وهو مرتبة العبودية، وإنما بقوا في حضيض المنافسة الدنيوية.

هذا الموقف النبوي من أدق ما يبين أن الانتفاع بما لدى الغير لا يقتضي الانبهار بهم، وأن الذم لواقعهم لا يتعارض مع الاستفادة من الحكمة التي هي ضالة المؤمن".

وهنا قد يطفو على السطح سؤالٌ جوهري يحمل إلماحةً أهم وهو: ما علاقة هذا الطرح ككل بالملف الإلحادي عمومًا؟

فهذا الطرح قد يُجدي في الملف العلماني أو ملف العولمة!

وجواب ذلك أن: الإيمان بمركزية القيم الغربية وعالمية مُثُلهَم هو أصل شبهات الملحدين وأصل استشكالاتهم.

ولبيان ذلك نقول أنه: قد تتعارض نصوص التراث الإسلامي مع نصوص الدفن مثلًا لدى الهندوس ومع نصوص الزفاف لدى بعض البلدان الأفريقية، ومع نصوص التطهر أو الغذاء ونوعيته مثلًا لدى المدن الآسيوية الساحلية، لكن أحدًا من هذه التعارضات لن يلقى مشكلةً لدى الداخل الإلحادي.

المشكلة هي أن تتعارض نصوص التراث الإسلامي مع أيٍ من معطيات الغرب العلماني. هنا تصير المشكلة وهنا تدار المنتديات والمحاضرات ويُقدم هذا معذرته وذاك تأويله وهؤلاء منتجهم الفكري الذي يعالج هذه الشبهة الإشكالية.

لماذا يا ترى حين تعارض النص مع المعطى الغربي صارت مشكلة؟

لماذا يا ترى هنا وهنا فقط يتبجح الملحد ويعتبرها شبهته ويبدأ في إدارة رحى طاحون كهنوته التبشيري بالإلحاد، ويبدأ في المقارنة بين التراث الإسلامي والواقع الغربي؟

هنا القضية ليست في وجود تعارض، فالتعارض حتمي وإلا ما جائت الشرائع للتصحيح والضبط.

لكن القضية هي في اعتبار أن الغرب هو المركز وأن المركزية هي الغرب وأن قيمه لابد أن تكون عالمية، وتراثه لابد أن يكون أصلًا وغيره تبع!

إنها ببساطة ثقافة الغالب لا أكثر!

فإذا انزاح الغرب عن المركز كما كان حاله قبل قرنٍ ونصف من الزمان أصبحت قيمه موضع تندر لا تتبع وتسخيف لا إمعية وتحوير!

فالقضية هي انكسار الشباب بطبيعته للغالب واستسلامه لمعطى الآخر طالما كان أقوى.

يذكر الإعلامي السوري فيصل القاسم في برنامجه "الاتجاه المعاكس" أن الشرطة الفرنسية نما إلى علمها قيام أحد المسلمين في فرنسا بالجمع بين زوجتين في آنٍ واحد، وهذا مُحرم في الدستور الفرنسي فما كان من الشرطة إلا أن تتوجه للقبض على الزوج في شقته وبالفعل وجدوا الزوجتين، لكن الرجل المسلم أخبرهم أن الأولى زوجته والثانية عشيقته وهنا أُسقط في أيديهم واعتذروا له وتركوه وذهبوا.

إن هذه القصة تُنبيء عن تناقض عقلي في قمة السخف فأن تقبل بتعدد العشيقات والزنا بهن وترفض الزواج الطاهر بامرأةٍ ثانية، وتجعل من ذلك دستورًا وتشريعًا يسير الناس عليه ويرتضونه بينهم لهو جاهلية وسخف عقلي لا يُتصور.

هذا السخف لو كان في ثقافةٍ هنديةٍ مثلًا لقام الملحد بتسخيفه أي قيام، لكن أن يصدر عن

المركز فحتمًا سيتنحنح الملحد ويبتلع شيئًا من ريقه حتى يُعد رده ودفاعه عن المركز الذي هو الغرب، ويُقدم في ذلك المعالجات تلو المعالجات، ويبدأ في تشغيل جهاز التأويل لديه.

فحقيقة الأمر أن الملحد يميل إلى التفهم قدر الإمكان إلى كل إشكالات الغرب.

فهو يعيش لحظة انكسار لسحر القوالب الفكرية الليبرالية في التفكير والتعاطي مع الآخر!

وما أعجب ما وصفهم الإمام الغزالي رحمه الله (توفي ٥٠٥ هجرية) حين قال: " أما بعد فإني رأيت طائفةً يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء، بمزيد الفطنة والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات، وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسامي هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم، وإطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم في وصف عقولهم، وحسن أصولهم، ودقة علومهم الهندسية، والمنطقية، والطبيعية، والإلهية، واستبدادهم لفرط الذكاء والفطنة، باستخراج تلك الأمور الخفية. وحكايتهم عنهم أنهم مع رزانة عقلهم، وغزارة فضلهم، منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة، وحيل مزخرفة.

فلما قرع ذلك سمعهم، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم، تجملوا باعتقاد الكفر، تحيزًا إلى غمار الفضلاء بزعمهم، وانخراطًا في سلكهم، وترفعًا عن مساعدة الجماهير والدهماء"[1].

فالقضية هي انبهار بالآخر وانكسار لتسلطه الفكري.

ومن صور التبعية التامة للغرب والإصابة بالفيروس الغربي كما يسميها جورج طرابيشي، أن الملحد بل والعلماني عمومًا يُسخّف شريعة إنكار المنكر، لأن الغرب يعتبرها وصاية وإقصاء!

والغرب يمتدح التعبير عن الرأي مهما كان شططه أو سوء أدبه مع الله أو رسله، في حين لا يقبل الغرب التعدي باليد على هؤلاء المعبرين عن آرائهم، فالغرب يقرر أن التعبير عن الرأي حق أما التعدي باليد فهو عدوان، والملحد بالتبعية لا يقرر غير ذلك. وهنا ملمح خطير إذ صار الحق

---

(١) تهافت الفلاسفة ص٤١.

الشخصي أعظم من الله ورسله ، فالعلماني الغربي المسكين لا يُعظم إلا نفسه ويتجاهل أعظم مطالب وجوده على الإطلاق وهي أنه عبدٌ لله، لكن باستثناء ذلك فعقليًا قد تكون الكلمة أخطر من التعدي باليد، بل هذا هو الأغلب والأشمل. وما يضل البشر لأفعال منحرفة بقدر ضلالهم لآراء منحرفة تسوِّغ لهم الباطل وتزينه وتقدمه على أطباقٍ من ذهب!

وهذا من دلالات جاهلية المعاصرين. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والمحاربة باللسان في باب الدين قد تكون أنكى من المحاربة باليد"[١].

من الصور الأخرى أيضًا: أن الغربي يقبل التمييز بين الناس على أساس الأرض وحدود جغرافيا الوطن سواءً في الخدمات الحكومية أو الولاء القلبي!

فلا غضاضة من تضييق الخناق على المهاجرين وتلقيبهم ب"مهاجرين غير شرعيين". ولا غضاضة من حرمانهم من الخدمات الحكومية وعدم مساواتهم بأبناء الوطن.

لكن أن تقول لنفس هذا الغربي لن نسوي بين الناس على أساس الدين، فهنا لايقبل ذلك منك الغربي مع أنه نفس الشخص الذي سلب هذه الحقوق من "المهاجر غير الشرعي" منذ لحظات.

فانتقل معقِد الولاء والبراء من الدين إلى الوطن ومن حب الله إلى حب حبة الرمل.

إنك لو جعلت الدين أصلًا في تعاملك لصرت أمام الغربي وبالتالي الملحد العربي رمزًا للإقصاء والتخلف والرجعية!

في حين لو جعلت الوطن أصلًا في تعاملك لصرت أمامهم وطنيٌ مخلصٌ شريف ابن الأرض الطيبة!

وهنا يصبح التمييز على أساس الوطن صلاحًا وإخلاصًا وعلى أساس الشريعة تخلفًا

---

(١) الصارم المسلول ٣/ ٧٣٥.

ورجعية!

إن هؤلاء لو أُشربوا حب الله لسما عندهم حب الله على حب الرمل والحدود الوهمية.

وطوال قرونٍ لم تكن ثمة إشكالية في عقوبة المرتد فلم يكن لدينا هذا الضغط على هذه النقطة وفجأة صارت هذه النقطة مشكلة ولابد لها من ردود!

وهذا لم يحدث إلا مع غلبة النموذج الليبرالي. وهنا عندما تقول للآخر أن الليبرالي يقبل بقتل الخائن والدساتير الغربية تقرر ذلك صراحةً، والمرتد يوزن بوزن الخائن لأمته فهو المفارِق لجماعته بلفظ الحديث.

ومحاربة المثل العلمانية في الغرب تؤدي الى السجن والعزل من الرئاسة والوظيفة، كما يحدث لمن يُنكر الهولوكوست.

فالغرب يُشرِّع قوانين تحمي القناعة السائدة لأغلب المواطنين في الدولة العلمانية، فقانون ضد منكري الهولوكوست Law against Holocaust denial، ينص على أن الذي ينكر محرقة اليهود على يد النازي يُعاقَب بالسجن المُشدد لمدة قد تصل إلى ٢٠ سنة كما في النمسا[(١)].

وفي التشيك تصل مدة الحبس إلى ثمان سنوات.

وهناك ١٤ دولة أوربية تُجِّرم التشكيك في جرائم النازي، وتحبس فورًا مَن يكتب كلمة واحدة تخالف القناعة السائدة لدى مواطنيها![(٢)].

فالتشكيك في السائد في الدول العلمانية أيها الملحد يُعد جريمة، وقد حُبس مؤرخين كبار في الغرب لمجرد كلمات تشكيكية في القناعات السائدة لدى قطاع كبير من الشعب، وخير مثال على ذلك ديفيد إيرفنج David Irving وجيمس كيجسترا James Keegstra

---

(١) http://www.nachkriegsjustiz.at/service/gesetze/gs_vg_٣_١٩٤٧.php

(٢) http://en.wikipedia.org/wiki/Laws_against_Holocaust_denial

وقد حُبس إرنست زوندل لسنوات لمجرد التشكيك في الرقم ٦ مليون[١].

وتضع الدول العلمانية أيها العلماني قوانين استثنائية لتعقب حتى مَن يفكر في التشكيك في السائد "lone wolves". -تخيل!-.

حين تُحدث الملحد بهذه النبرة يهدأ روعه وتنطفي جذوة شبهته لأنك عاقَلته بمركزية ما يراه مطلقا وهو الغرب!

فالملحد يميل إلى موافقة الغرب لا أكثر.

ولذا خلاصة الكلام كله وما نطالب به هو أن يكون الإنسان معتزًا بدينه يقر داخله تعظيم الله وتعظيم شريعته فالغرب امتلك الوسيلية لا الغاية وامتلك أجوبة ماذا نأكل لكن لم يمتلك أجوبة لماذا نأكل، ومن هنا فلا يرى المسلم الواعي أن للغرب الحق في أن يشاركه القرار في شيءٍ أو أن يتلمس منه حكمة شيءٍ!

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

انفكاك الجهة بين التمدن والتدين

يقول إبراهيم السكران: "كان عصر النبي -صلى الله عليه وسلم- عصرًا يتميز بالبساطة والمحدودية المدنية، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقلق على أصحابه أن يكون فارق

---

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/Ernst_Z%C٪٣BCndel

الإمكانيات المادية بين المجتمع المسلم والكافر مثار شبهةٍ على إيمانهم، وفي تلك القصة التي نقلها عمر بن الخطاب عن الأثاث الداخلي لبيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وموقف عمر منه ورد فعل النبي -صلى الله عليه- وسلم تجاه ذلك دلالاتٍ بليغةٍ في رسم المشهد، حيث روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب أنه قال: (رفعت رأسي في بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- فوالله ما رأيت فيه شيئًا يرد البصر إلا أُهبًا ثلاثة، فلما رأيت أثر الحصير في جنبه قلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى النبي جالسا ثم قال: «**أفي شكٍ أنت يا بن الخطاب؟! أولئك قومٌ عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**»)

وما أن انتهى عصر النبوة وبدأ عصر الخلافة الراشدة إلا وفُتحت الفتوح ومصرت الأمصار وانهالت الأموال وازداد تنظيم الدولة المسلمة، واستحدثت الأجهزة الإدارية كالدواوين ونحوها.

وبعد عصر الخلافة الراشدة وتدشين الملك الأموي والملك العباسي انفجرت المعارف والعلوم العقلية والفلسفية والتجريبية، وازدهرت حركة الترجمة وبنيت لها المعاهد المتخصصة، وتنافست المؤسسات السياسية في اقتناء الكتب وعقد مجالس العلوم والمناظرات وتقريب المبدعين، وصنفت الموسوعات الكبرى في شتى الفنون والتي لا زالت مرجعًا إلى اليوم.

وهكذا فإن القارئ لتاريخ الإسلام المبكر يلاحظ كيف كان التقدم المدني يزداد مع تقدم التاريخ، فالملك العباسي أكثر تمدنًا ماديًا من الملك الأموي، والملك الأموي أكثر تمدنًا ماديًا من عصر الخلافة الراشدة، وعصر الخلافة الراشدة أكثر تمدنًا ماديًا من عصر النبوة.

فإذا جئنا نقارن هذه الصورة المتنامية في قيمتها المدنية -بحسب الواقع التاريخي- بالقيمة الدينية -بحسب الميزان الشرعي- وجدنا أن هذه المعادلة التاريخية بعكس الميزان الشرعي تمامًا، فهناك تناقض جدلي بين معدل المدنية ومعدل الخيرية، فبينما الخط البياني لمنسوب المدنية يتصاعد فإن الخط البياني لمنسوب الخيرية يتناقص.

وتراجع الخيرية كمعطىً يدخل في "محكمات الشريعة" حيث ثبت عن النبي صلى الله عليه

وسلم ثبوتًا قطعيًا لايتطرق إليه الظن أن خير القرون قرون النبي- صلى الله عليه وسلم- وهو حديثٌ متواتر.

ومن ذلك مارواه الشيخان أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**خيرُ أُمتي القرنُ الذي بعثتُ فيه، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يَلونهم**».

والشاهد من ذلك كله أن البرهان التاريخي قد أثبت لنا أن المدنية تتصاعد، والبرهان الشرعي قد أثبت لنا أن الخيرية تتناقص، وهذه المعادلة الدقيقة من أعظم البراهين على أن الحضارة والمدنية المادية ليست هي المقياس الإلهي لقيمة المجتمعات والأمم، إذ لو كانت الحضارة -بمعناها الشائع- هي المقصد الأساسي للشريعة لكان العصر العباسي الذي ازدهرت فيه العلوم العقلية والتجريبية أفضل من عصر الصحابة، ولكان عصر الصحابة الذي توسعت فيه الدولة ونظمها خيرٌ من عصر النبوة التي كانت فيها حياة محمدٍ وخاصةِ أصحابِه قوتًا كفافًا.

يهمنا التذكير هاهنا بأن هذه المعادلة التي أشرنا إليها لا نعني أنها قانون كوني مطرد، بمعنى أنه ليس كل تطورٍ مدنيٍ ينبني عليه تراجعٍ شرعي، بل هي واقعة عين تاريخية أردنا استكشاف دلالاتها، والدرس الجوهري فيها بالنسبة لنا هو أنه طبقًا لتصوراتنا الإسلامية الخاصة فإن الخيرية مرتبطة بالجوهر الإيماني والأخلاقي، وليس المظاهر المدنية والمادية".

التمييز بين الحضارة كغاية والحضارة كوسيلة

يقول الباحث إبراهيم السكران: "الموقف الإسلامي المعاصر من الحضارة والمثاقفة عمومًا والحضارة الغربية خصوصًا، يقوم على ثلاث ركائز منهجيةٍ كالتالي:

الركيزة الأولى: التمييز بين الحضارة كغاية والحضارة كوسيلة:

فالحضارة عند غلاة المدنية مطلب مطلق يريدون منها أن تهب رياحها وتبحر في كل اتجاهٍ بلا شروط تفرض من الخارج في ظل الحرية الشخصية إلى درجة غياب المعنى وغموض الغاية،

أما الحضارة في التصور الشرعي فهي حضارة موجهة بهدف "تحقيق العبودية" بما تتضمنه من إظهار الدين والقيام بالشعائر والشرائع، فالحضارة المنشودة هي الحضارة المنضبطة بقيود الشريعة والهادفة لنصر الإسلام وتحقيق قيمه ومضامينه، وتأخذ قضايا وجزئيات الحضارة قيمتها التفصيلية بحسب مؤداها إلى هذه الغاية.

ولذلك فإن الشارع لم يوظف مفهوم الحضارة ولا المدنية وإنما وظف مفهوم "القوة" و"العلو" كقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] وقوله صلى الله عليه وسلم (ألا إن القوة الرمي) وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**». ومن المعلوم أن الطاقة التخييلية التي تتضمنها ايحاءات مفهوم الحضارة والمدنية ليست كالدلالات التي يضخها مفهوم القوة، فالقوة مفهوم خادم للمبدأ ومرتبط به، أما الحضارة فمفهوم موحي بالمتعة والرفاه.

والمراد من ذلك أن الحضارة والتمدن عند الإسلاميين "مطلب" لكنها ليست هي المطلب الرئيس ولا المطلب الجوهري لهذه الحياة، بل هي مجرد وسيلة لتحقيق الغاية الحقيقية التي هي العبودية.

الركيزة الثانية: التمييز بين الوجه العلمي والفلسفي والسياسي:

غلاة المدنية يدعون إلى الإقبال الشغوف واحتضان المنجز الغربي بكامل صوره وكأنه معطىً مصمت لا يتفاوت، ويتضايقون من الصرامة في الفحص والاختبار ويعدونها لونًا من التعنت، ولذلك يدعون عمليًا إلى التسامح والتغاضي عن الثغرات، أو يلتمسون لها المعاذير والتسويغات وينبشون لها الآراء الشاذة لتتكئ عليها، أما الإسلاميون فيفرقون بشكلٍ واضحٍ بين الوجوه الثلاثة الرئيسية للحضارة الغربية، فيتفاوت تقييمهم وصرامتهم وتدقيقهم في الاختبار والفحص بحسبها.

فأما **الوجه الأول فهو "الوجه العلمي"** المحض بما يدخل فيه من منتجاتٍ تجريبيةٍ وعلومٍ طبيعيةٍ وتصنيعٍ وتكنولوجيا ونظم اتصال وحوسبة، ونحوها من المنتجات التي يغلب عليها أن

تكون "أدوات" أو "وسائل" محضة بحيث تستطيع كل ثقافة أن توجهها بحسب قيمها، فهذه حكمة مشتركة، وصواب الفكر الغربي فيها أكثر من ضلاله.

بل إن المجتمع الغربي اليوم لم ينفرد بها فهناك أمم أخرى تشارك في هذا الانتاج التقني إن لم تكن أكثر تفوقًا، وعلى وجه الخصوص اليابان والصين والهند، وتعتبر ظاهرة التلزيم (outsourcing) من أهم الظواهر التي كشفت تحولات التركز في الخبرة التقنية العالمية، بحيث صارت تعهدات التصنيع الخارجي في مناطق العمالة الرخيصة تخلق أقطاب خبرة تكنولوجية جديدة ليست في العواصم الغربية.

ووجه أغلبية الصواب في هذا الباب أن هذه المنتجات مستمدة من القوانين الكونية المحضة التي أودعها الله الطبيعة، فهي حظ مشترك لاتتفاوت كثيرًا بسبب الخلفية الدينية.

والواقع أن الإسلاميين بجميع أطيافهم سبقوا غيرهم من الطبقات الثقافية إلى الانتفاع بها، بل وكتب كثير من السلفيين أن حقائق العلوم الطبيعية حقائق شرعية، بل لايوجد علم من العلوم المعاصرة على وجه العالم اليوم خدمه أصحابه برمجيًا مثل العلوم الشرعية، وصورة الشاب المتدين في كليات الطب والهندسة والحاسوب ونحوها ليست صورة طبيعية فقط بل هي صورة نمطية راسخة في الوعي الشعبي، حتى أن الفرانكفوني المتطرف محمد أركون أشار إلى ذلك في غير موضع من دراساته، فلا أدري ما وجه المزايدة على الإسلاميين والقول بأنهم ضد المثاقفة والاستفادة من المنجزات؟

وأما **الوجه الثاني فهو "الوجه الفلسفي"** للحضارة الغربية بما يتضمنه من تصورات عن الأسئلة الأنطولوجية والإكسيولوجية والإبستمولوجية وما بعدها من حقول الفلسفة الكبرى، كحقيقة الحياة، ومفهوم السعادة، ووظيفة الدنيا، وكنه الإنسان، ومستقبل البشرية بعد فنائها، والعالم العلوي، ومرجعية الأخلاق، وإطلاقيتها ونسبيتها، ومصادر المعرفة والتي هي البنية التحتية للفلسفة، ونحوها.

فهذا الوجه ضلال الفكر الغربي فيه أكثر من صوابه، خصوصًا في الأسئلة الكبرى، أما التفاصيل والجزئيات فقد يكون بعضها مشتركًا وبعضها متناقضًا مع الوحي.

الركيزة الثالثة: التمييز بين الانتفاع والانبهار:

غلاة المدنية يتوهمون أن هناك تلازم بين الانتفاع والانبهار، وأنه لكي نستفيد من الحضارة الغربية يجب أن تمتلئ أشداقنا بتأوهات التعجب، وأن نفغر أفواهنا ونحن نسوق فلسفتهم، وأن نحوط أسماءهم وأعلامهم بهالة التعبيرات الخارقة، ولذلك يطلق بعضهم عبارة "المعجزة الغربية" أو "معجزة الحداثة" ونحوها.

وتفريعًا على ذلك ينظرون إلى أي ذم أو انتقاص لواقع الحضارة الغربية على أنه رفض للانتفاع بما لديها من صواب! ويتبرمون بأي تعبير ديني في توصيف الحضارة الغربية كوصفها بالضلال والفجور والفواحش والكفر وأمثالها من التعبيرات الشرعية، ذلك أن هذه المفاهيم وأمثالها مشبعة بحمولة دينية وهم يريدون التعامل بلغة مدنية تستبعد المحتوى الديني من التقييم.

والواقع أن عدم فهم غلاة المدنية للموقف الشرعي إزاء الحضارات هو سبب عدم فهمهم للموقف الإسلامي المعاصر من الحضارة الغربية، فليس في الشريعة تلازم مطلق بين الانتفاع من الآخر والانبهار به، بل الموقف الشرعي بخلاف ذلك أصلًا.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- استفاد من الحضارة المعاصرة له في الخندق ومشروعية الغيلة والتبادل التجاري وافتدى الأسير الكافر بتعليم المسلمين وراسلهم، واتخذ خاتمًا لمراسلته كما هي عادتهم، وقبل هداياهم كما قبل هدية ملك أيلة والقبط، وأكل من طعامهم ولبس من منسوجاتهم وشارك يهود خيبر في نخيلهم، وغير ذلك من أوجه التواصل الشرعي، لكنه مع ذلك كله بيّن ضلالهم وانحطاطهم وظلاميتهم بسبب إعراضهم عن نور الوحي، كما قال -صلى الله عليه وسلم- عن الفترة التي سبقت بعثته: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب**». رواه مسلم.

وقال تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ﴾

[إبراهيم:١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾ [الحديد:٩].

فبيّن سبحانه أن هذه الأمم التي عاصرته كلهم في ظلمات، وأنهم هم الظلاميون الذي يحتاجون التنوير الحقيقي الذي هو نور الوحي.

هذه التمييزات المنهجية الثلاثة وهي: التمييز بين الحضارة كغاية والحضارة كوسيلة، والتمييز بين الوجه العلمي والفلسفي والسياسي للحضارة المعاصرة، والتمييز بين الانتفاع والانبهار، هي المفتاح الرئيس لفهم موقف الإسلاميين المعاصرين من الحضارة المعاصرة، ومن استوعبها علم قطعًا جهل من يقول أن الإسلاميين ضد الحضارة والمثاقفة والتحديث، واستبان له أن لدى الإسلاميين موقفًا تفصيليًا منظمًا مستمدًا من خلاصة توازنات نصوص الشريعة.

أما كثرة تذمر غلاة المدنية وشكواهم من الارتياب الاجتماعي ضد الثقافة الغربية وضعف الثقة بدعاتها وتشنج بعض الناس ضد المنتج الغربي فالمسؤول الحقيقي عنه ليس الإسلاميين وانما النزق التغريبي الذي تبناه بعض غلاة المدنية".

مشكلة الحضارة

الوجه القيمي للغرب مربك للغاية فالغرب يعد في جانب القيم من أجهل الأمم على الإطلاق، فترى قطاع اللذة قد تضخم على أشده. ومظاهرات الشواذ حققت نتائجها، والعاهرات تقنن أوضاعهن المعيشية خلف فاترينات الزجاج. ولا حد للمعشوقات ولا للزنا عندهم فلو زنا رجل بألف امرأة ما وَجد في دساتيرهم له لومًا في حين لو تزوج امرأتين يُحبس فورًا.

ولا مانع من شذوذ الرجال مع الرجال ويحاولون الآن تقنين شذوذ الرجال مع الأطفال الصغار كما في جماعة "رجال يحبون أطفال man boy love NAMBLA " في حين يُمنع تمامًا الزواج الشريف بين رجل وفتاة تحت ١٨ سنة.

إنها جاهلية كبرى في مجال القيم والأخلاقيات والإنسانيات تودي بكل حضارتهم في أية لحظة.

يقول الباحث إبراهيم السكران: "ويتبع انهيار الأخلاق عندهم الوجه السياسي الكالح فالمؤسسة السياسية الغربية مؤسسة إمبريالية استعمارية تمتص ثروات الأمم الأخرى، وليس لديها أية حواجز أخلاقية أمام مصالحها.

والمؤسسة السياسية الغربية هي التي خلقت أبشع النماذج الدموية في التاريخ، وهي المسؤولة عن تطوير أدوات الابادة البشرية الشاملة، وقصف المدن الكاملة بما فيها من المدنيين، كيف تبرأ تلك الحضارة من عقدة الذنب وهي تتذكر عصر العنصريات والقوميات والنازية وهيروشيما ونجازاكي واستعمار الدول العربية وغوانتنامو وأبو غريب، والأسلحة النووية والغازات السامة، وإيقاف تحقيقات الفساد لأجل مصالح قومية عليا، بل وسن تشريعات حرمان المسلمة من حجابها، ورعاية مؤسسات صحفية تسخر بنبي يؤمن به شطر العالم.

فالمجتمع الغربي يتطور تقنيًا بصورة جيدة ويرتد فلسفيًا وأخلاقيًا بصورة مزعجة وهذا التفاوت في الاتجاه سيولد عواصف ارتداد مدمرة.

على مثل سنتها هلكت أمم وحضارات كانت ملأ السمع والعين.

فالمجتمع الغربي كقصر فخم المظاهر لكن أساساته مهددة بالانهيار، فهل من العقلانية أن نستغرق في جمال مظاهره ونستنفر الناس لدخوله، أم أن نحذر الناس من انهياره الوشيك؟

ومما يكشف ذلك أن الثقافة الغربية تعاني من اضطراب حاد على صعيد الالهيات، فغالب الناس في ذلك المجتمع يعاني من تشوش عميق في هذا الأساس الجوهري، أما أغلب النخب المثقفة فهي إما لائكية أو أن قضية الدين عندها قضية مؤجلة غير محسومة، فالعالم الغربي نتيجة عدم تشرفه بالإيمان بنبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- لايزال محرومًا من التصورات الصحيحة الدقيقة عن الله والمعاد والنبوات، والعالم العلوي والمستقبل بعد الموت، ونحوها من المطالب العالية.

فهذا السؤال الجوهري وهو: ماذا خسر الغرب حين كفر بنبوة محمد؟ لايزال غائبًا عن كثير من المثقفين المسلمين وللأسف.

فالمجتمع الغربي حين كفر بنبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- خسر تحقيق مستقبل جيد بعد فناء البشرية وأصبح مهددًا بمخاطر كارثة جهنم، وخسر التعرف على محتوى الوحي، وهي تلك المعلومات الثمينة التي حملها آخر رسول أرسله خالق الكون الينا.

إن المجتمع الغربي يعاني من "ظاهرة الوثنية" التي هي أحط مستويات التخلف، وكثير من غلاة المدنية لايتنبه لظاهرة الوثنية في المجتمع الغربي نتيجة كونه يعتقد أن الوثنية هي السجود لصنم فقط، بينما مفهوم الوثنية في القرآن أوسع من ذلك نتيجة سعة مفهوم العبودية، فإن الانصياع التام للهوى الشخصي واللذة الخاصة عبادة للهوى، ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣].

وتبعًا لتأليه الهوى فان الإنسان الخاضع لمتطلبات المادة خضوعًا تامًا جعله النبي –صلى الله عليه وسلم– عبدًا للمال، فقال كما في الصحيح: «**تعس عبدالدينار، تعس عبدالدرهم**».

أيضًا المجتمع الغربي لم يهتد لكثيرٍ من أصول وتفاصيل العدل التي كشفها الوحي، فلم يهتد الى كارثية الربا والميسر والمسكرات والفواحش، ولم تتطور عقليته التشريعية إلى معرفة كثيرٍ من تفاصيل نظام الإثبات والقضاء وقواعد العلاقات الأسرية التي دل عليها الوحي.

فما زالوا حتى الساعة يبيحون تعدد العشيقات إلى ما لا حد له ويحرمون الزوجة الثانية.

ويبيحون شذوذ الرجال مع الرجال ويحرمون التشكيك في عالمية مُثُلهم.

وأحد موجبات الغضب الإلهي العام تحليل محرمات كالشذوذ – وما أهلك الله قرى سدوم وعمورة إلا لانتشار المثليين فيها– أو خيانة في المعاملة كتطفيف الميزان.

ولم يناهض ظاهرة المثلية في المجتمع الغربي إلا المؤسسة الكنسية نتيجة ماتبقى لديها من نور النبوات".

مشكلة سؤال الحضارة هي إفلاس الغاية!

سؤال الغاية في النموذج المادي بلا جواب ولا شبهة جواب.

يقول الباحث إبراهيم السكران: " كل الثروات المكدسة لدى الغرب لم تجب ولو بنفخة يسيرة عن الحيرة الفلسفية في المطالب الكبرى في الإيمان بالله والاطمئنان بقدره، وظهر بدلا من ذلك تبدد السكينة بجهل أصل الحياة ومآلها.

القارئ المسلم لايكاد يجد -في النموذج المادي- نتائج مبرهنة يسعد بها ويحملها كرسالة اجتماعية، بل كل فيلسوف ينقض ما قاله سابقه، وغاية القارئ في هذه الأبواب ليس أن يبني تصوراته وعقيدته بشكل صحيح فتكون له إضافة في ذاته، بل غايته أن يحصل له مران ذهني ودربة على السجال والجدل والرد والتفنيد، في مقابل أن يخسر فضيلة الحسم واليقين والتي هي من أهم أسباب الإمامة في الدين كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

فيمتلئ القارئ بالارتياب والحيرة واللاحسم في كل شئ، حتى يصل إلى مرحلة عدمية لا يستطيع فيها أن يجزم بشئ من معطيات الشريعة، وهذه ظاهرة مشاهدة، والارتياب والحيرة والتردد في الأصول الكبرى من شعب النفاق والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة:٤٥].

ولذلك تجد عامة غلاة المدنية الذين اقتربوا من هذه الدراسات الفلسفية يرددون "الأهم هو طرح الأسئلة وليس الإجابات" أو قولهم "إلى المزيد من طرح الأسئلة" ونحو هذه العبارات التي هي كالمخدر يسلون به أنفسهم عن عدم الوصول لنتيجة، حتى أصبح شائعًا لدى المؤرخين للفلسفة قولهم "الفلسفة تقدم الأسئلة بما يفوق تقديم الإجابات".

وهذه الحالة متسربة من روح الشك الفلسفة حتى قال الامام ابن تيمية في نقد ذات الفكرة:

"وإنما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل"[(١)].

وسبب ذلك أن المضامين الرئيسية المكتوبة في هذه الحقول إما لائكية محضة وهو الأكثر، وإما كتابية محرفة وهو الأقل، بل هو النادر، على أن من ورث فيهم شيئًا من الكتابية المحرفة خير ممن بقي على اللائكية الخالصة، فإن بركة بقايا النبوات وما فيها من النور خير من العمى التام، فالمتمسك بالمسيحية المحرفة أشرف وأرفع في ميزان الله من الكافر المحض، فنصوص الوحي متضافرة على تفضيل الكتابيين على الدهرية الملاحدة، وهذا من بركة بقايا النبوات التي بأيديهم، فالكتابي خيرٌ من المجوسي، والمجوسي خيرٌ من الملحد، لأن المجوسي معه شبهة كتاب والملحد لا كتاب له، ولذلك قال الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: (أضل أهل الملل مثل جهال النصارى وسامرة اليهود: أعلم من الفلاسفة، وأهدى وأحكم، وأتبع للحق).

وقال الإمام ابن تيمية أيضًا: (ومن المعلوم أن المشرك إذا تمجَّس، والمجوسي إذا تهوَّد، حسنت حاله بالنسبة إلى ما كان فيه قبل ذلك).

ومما يجدر الإشارة إليه أن هذا الوجه الفلسفي ليس هو الوجه المتقدم في الحضارة الغربية أصلًا، بل هو الوجه الظلامي المتخلف المنحط، برغم محاولات كثير من غلاة المدنية الزعم بأن التطور الغربي انعكاس لفلسفته، وهذا مجرد أمنية تاريخية.

والواقع أن التفوق المدني الغربي اليوم عائد للثورة الصناعية في المرحلة السابقة، ثم الثورة التكنولوجية ونظم الاتصال والمعلوماتية حاليًا، وهذه كلها نتاج عرق المعامل والتمويلات السياسية الضخمة لمراكز البحوث، وغاية الفلسفة أن تكون تفسيرًا استرجاعيًا لما حدث، فهي دومًا تفسير لاحق للأحداث تحاول اعطاءها المعنى بعد أن تقع، فأفضل حالاتها أن تكون "حكيم بعد الحادث"، وهذا سبب تراجع أهميتها المعرفية.

ولذا قال ابن تيمية منبهًا على أن الفلسفة لا تدير المجتمعات: " وهل رأيت فيلسوفًا أقام

---

(١) مجموع الفتاوى ٤-٢٧.

مصلحة قرية من القرى، فضلًا عن مدينة من المدائن؟"[١].

بل إن من أسباب تراجع أهميتها المعرفية عدم قدرتها على خلق "قوانين مطردة" تحقق لها العلمية، ولذلك فهي تعاني من عقدة نقص تاريخية قديمة أمام العلوم الطبيعية التي تفرض احترامها المعرفي بسبب ما تحمله من القوانين العلمية المنظمة، ولذلك كثرت الصيحات الغربية في الفترة الأخيرة بإعلان موت الفلسفة، وصعد نجم العلوم الامبريقية.

وسبب هذا الوهم حول عظمة الفلسفة أن كثيرًا من مثقفي غلاة المدنية تأثروا بالكتابات التعليمية عن "قصة الفلسفة" والتي صورت التاريخ البشري كنتاج مباشر لأفكار بضعة عشر فيلسوفًا على مر التاريخ، وكأن التاريخ الإنساني عمومًا والتاريخ الأوروبي خصوصًا مركبة يتربع في كابينتها طائفة من الفلاسفة يخلف بعضهم بعضًا يشيرون للمجتمعات أن تذهب يمنة أو يسرة!

والواقع أن الكتب الفلسفية ذات الطابع التعليمي عبثت بتفكير غلاة المدنية كثيرًا، فهذه الصورة المرتسمة في أذهانهم وهْم طريف يغيِّب دور العوامل التاريخية الجوهرية في صناعة الماضي والحاضر، كدور القيادات السياسية والخبراء والأعمال الأدبية الكبرى والعواطف الشعبية، فضلًا عن دور الإعلام الحديث ونظم الاتصال وتوازنات القوى والشركات المتعددة الجنسيات ومتغيرات الموارد ونحوها".

(١) درء تعارض العقل والنقل ٥-٦٥.

دور النبوات في تشكيل التاريخ

يقول الباحث إبراهيم السكران: "دور النبوات في تشكيل التاريخ حقيقة لا ينفصل عنها الباحث في تاريخ الأمم والحضارات. ولذلك تنبه المؤرخ الشهير أرنولد توينبي (ت:١٩٧٥م.) وهو المتخصص في تاريخ الحضارات، إلى دور النبوات كعاملٍ رئيس في صناعة التاريخ فقال: "العقيدة الدينية جزء من نظام الاستيلاد الحضاري"[(١)].

أما التاريخ الإنجليزي الذي هو أخبر به من غيره فيقول: "التحول الديني كان حقيقة مبدأ كل شيء في التاريخ الانكليزي"[(٢)].

بل إن توينبي يرى أن الدين هو "الحوض الحامل" الذي ينقل الحضارة من طورٍ إلى طور، لذا استعار لها وصف "Chrysalis" وهو الغلاف الذي يكسو الفراشة في انتقالها من طورٍ إلى طور.

فقال: "الأديان بمثابة حاضن لجميع الحضارات، بل إن بقايا كل الحضارات البائدة ظلت إلى اليوم محفوظة في لحاء ديني"[(٣)].

ومثل هذا التحليل لا يصدر من مفكر ثانوي في الفكر الغربي، بل هو نموذج في سياق تخصصه، وموسوعته تقع في اثني عشر مجلدًا.

وقبل توينبي نبه على هذه العامل الحاسم ابن خلدون في مواضع كثيرة من المقدمة ومنها قوله: (الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين، إما من نبوة أو دعوة حق)[(٤)].

وقال الإمام ابن تيمية في الصارم المسلول: (ليس في الأرض مملكة قائمة إلا بنبوة أو آثار

---

(١) أرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد شبل، المركز القومي للترجمة، ٣-١٥٢.

(٢) م. س. ١-٥.

(٣) م.س. ٣-١٥٣.

(٤) المقدمة، ص١٦٧.

نبوة، وإن كل خير في الأرض فمن آثار النبوات، ولا يستريبن العاقل في هذا)[(١)].

بل إن ابن تيمية له ملاحظات دقيقة في مسألة احتضان الدين للحضارات فهو يقول مثلا: "كل أمة ليس لها كتاب ليس في لغتها أيام الأسبوع"[(٢)].

وقال ابن القيم: "لولا النبوات لم يكن في العالم علم نافع البتة، ولا صلاح في معيشته ولا قوام لمملكة"[(٣)]. ". انتهى كلام إبراهيم السكران -حفظه الله-.

فالنبوات توفر أجوبة الغاية وتعطي ردودًا شافية في المسائل الوجودية الكبرى.

في مقابل الفلسفات التي لديها حوله معلومات مشوهة في أبواب كباب الإلهيات، وما يتضمنه من معرفة الله وما ينبغي له معرفة صحيحة، والعوالم الغيبية وتقدير كل شئ في اللوح المحفوظ، وجريان السنن الطبيعية بغايات إلهية، وأثر العبادة في النواميس الكونية، وحركة القلب بالتزكية كالتوكل والافتقار والضراعة، ونحو هذه المعاني التي هي التنوير الحقيقي، كما قال تعالى في هذه المقارنة بين تنوير الوحي وظلامية ما يعارضه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

---

(١) الصارم المسلول ٢-٤٥٧.

(٢) لأن الأسبوع هو نص كتابي يحدد مدة خلق السماوات والأرض في ستة أيام وهذا لا يُعرف إلا بالنبوات. مجموع الفتاوى ٧-٩٥.

(٣) مفتاح دار السعادة ٢-١١٥٥.

وماذا عن قيم العدل واحترام الوقت عند الغرب؟

أليست هذه موروثات حضارية؟

صراحةً ما يشيعه دعاة العلمانية في بلادنا العربية من تشبع المجتمع الغربي بأخلاقيات الصدق والأمانة في العمل التجاري، فإن بعض ذلك موجود حقيقةً كما هو موجودٌ في غيرهم من الأمم، ولكن كثيرًا منه ليس صدقًا وأمانةً يُبتغى بها وجه الله، وليس نابعًا من الإخلاص لخالق الكون سبحانه، بقدر ما أنها "مصداقية تسويقية" مدفوعة بحسابات الربح والخسارة المادية ومهارات "الماركيتنج".

ويكشف ذلك إحصائيات حجم الاختلاسات والسطو المنظم وفنون الجريمة في المجتمع الغربي، والذي تعرضه دومًا الدراسات الاجتماعية بإسهابٍ، وتقتبس منه الصحافة أحيانًا بعض النماذج، وهذا مما يؤكد أيضًا حاجة الغرب الى العلوم الالهية لتصحيح الدوافع.

ولذا فأكثر دول العالم جريمة على الإطلاق هي حصريا الدول الغربية.

فمثلا أكبر معدلات اغتصاب على الإطلاق حصرية بأكثر دول العالم تقانة[١].

وخمس مواطني الدول الغربية يمارسون نوعًا من الشذوذ الجنسي، ويطالب بحرية الشذوذ أكثر من أربعة أخماس مجتمعاتهم[٢].

إن حضارة آدم سميث جعلتنا مُهددين بانتحار كوكبي.

أما في مجال المخدرات فيتساوى ماليًا حجم تجارة المخدرات مع حجم تجارة السيارات داخل الولايات المتحدة.

والحربان العالميتان اللتان أبادتا حوالي ٥٪ من سكان العالم كانتا نزاع أوربي- أوربي، وإبادة

---

(١) http://www.worldblaze.in/top-١٠-countries-with-highest-rape-crime-in-the-world-٢٠١٥/

(٢)http://www.pewglobal.org/٢٠١٣/٠٦/٠٤/the-global-divide-on-homosexuality

ملايين السكـان في أوربا، مثل يهود أوربا، ومزارعي روسيا (الكولاج)، وغجر ألمانيا، والسلاف، والأقليات الأثنية؛ هذه الإبادة الشمولية لم توفرها سوى الحضارة الغربيـة .

واستئصال طبقة كاملة من الناس هذا الاستئصال ما كان ليحدث لولا الحداثة الغربية، فقد اعتبر الليبراليون الأوائل أن إبادة الهنود الحمر نوع من الدفاع الشرعي وكأن الهنود هم الذين يغزون أوروبا ، وقد تقلص عدد الهنود الحمر من ١٠ مليون إلى ٢٠٠ ألف نسمة خلال سنوات قليلة؛ ولذا يقول سيمون بوليفار محرر أمريكا اللاتينية : "يبدو أن الولايات المتحدة تسعى لتعذيب وتقييد القارة باسم الحرية "[١] .

فالإمبريالية والحروب الحضارية كانتا دائمًا نتاج المجتمعات الأرستوقراطية الديموقراطية الليبرالية، وأشد الحروب ضراوةً لم تظهر إلا بعد ظهور الديموقراطية اللليبرالية في الغرب.

إن التاريخ الأسود لصراع الحضارة في الغرب في قرن واحد شيءٌ مروع وهذه بعض المذابح التي جرت بينهم :-

U.S.S.R.: ٢٠ million deaths

China: ٦٥ million deaths

Vietnam: ١ million deaths

North Korea: ٢ million deaths

Cambodia: ٢ million deaths

Eastern Europe: ١ million deaths

---

(١) ناعوم تشومسكي الأيديولوجية والاقتصاد ص٦.

Latin America: ١٥٠ , ٠٠٠ deaths

Africa: ١ , ٧ million deaths

Afghanistan: ١ , ٥ million deaths

The international Communist movement and Communist parties not in power: about ١٠ , ٠٠٠ deaths

.The total approaches ١٠٠ million people killed

Source: Stéphane Courtois, Nicolas Werth, Jean-Louis Panné, Andrzej Paczkowski, Karel Bartosek, Jean-Louis Margolin, The Black Book of Communism, Harvard University Press, ١٩٩٩, p. ٤(١).

وبعد مرور ٥٠٠ عام من الاستعمار و٥٠ عام من صندوق النقد الدولي نعيش في عالم مُحطم مُشوَّهٍ ربعُ شبابه عاطلون عن العمل يتحكم الشمال في ٨٠٪ من الثروات مع أن تعداد سكانه لا يتجاوز ٢٠٪ من سكان العالم، و منذ الغزو الحضاري المعاصر لكوكب الأرض أصبحت نهاية التاريخ أمرًا مقبولًا حرفيًا، وتراكم لدى البشر أسلحةٌ تكفي لتدمير الأرض عشرين مرة مع أن مرة واحدة فقط هي التي ستحدث، لقد أدت الحضارة الحديثة إلى نهـاية الحيـاة نظريـًا!

وأغلب دعاة العلمانية لا يعرفون شيئًا عن هذه الدراسات ولم يطالعوا إلا منشورات تكريزية يروجها سدنتهم الملحدين.

أنظر ما كتبه أنتوني غدنز في كتاب "علم الاجتماع" وهو الكتاب المعتمد في الأكاديميات الغربية اليوم عن تجذر الجريمة بما لا يقارن عبر كل العصور في المناخ الغربي المعاصر.

كهنة العلمانية العرب يعانون من الفشل في الشعور بالاستقلال وتكوين رأي أمام المحتوى التقاني المرتفع لدى الغرب، فتراهم يطلبون منك بانتظام تقليد الغرب والتغافل عن سلبياته.

---

(١)http://www.harunyahya.com/disasters٠٤.php

فانكشف تفكيرهم المهزوم ووهنهم البحثي وشلل قدرتهم على التحليل الكامل للظاهرة.

إن كهنة العلمانية العرب يعانون من الشلل العقلي في نقد الغرب وبيان كفره لمجرد انبهارهم بمنتوجه المادي.

كهنة العلمانية العرب يضطرون إلى تعميم التفوق فيعممون التفوق التقني والاقتصادي الغربي إلى تفوق فلسفي وأخلاقي فصاروا ملوكيون أكثر من الملك.

فأصيب هؤلاء الكهنة العرب بفصام حاد أفقدهم القدرة على الفصل والتمييز بين المعطيات.

إن ما يقوم به كهنة العلمانية العرب في بلادنا من ترويجٍ لبضاعة الغرب التقنية وإجبارنا على غض النظر عن ردته القيمية والمعرفية والأخلاقية يذكرنا بحاشية المجنون الثري الذين يصرخون في الأسواق لثراء سيدهم وما أن يتحدث أحد الباعة عن جنونه إلا ويغلقون فمه بالقوة.

إن المطلوب وببساطة التخلص من الغرب كمقولة مرجعية وتحويله إلى موضوع دراسة لا مصدر تلقي.

الولاء والبراء

يقول الباحث إبراهيم السكران: "من أهم المقولات عند غلاة المدنية قولهم (يجب أن نعمل للإنسان بما هو إنسان، بغض النظر عن هويته وعقيدته ودينه) ويرددون كثيرا لفظ "الإنسان" بصيغة مطلقة بدون إضافات تقيد أو تخصص، ويحمل بعضهم شعار "الأخوة الإنسانية" او "الآدمية المشتركة" أو "المذهب الإنساني" ونحوها من اللافتات التي تدور حول هذا المعنى.

والواقع أن هذه الدعوة -وإن كان البعض يرددها بحسن نية- إلا أنها تضمر سلخ الأوصاف القرآنية القطعية التي ميّز الله على أساسها بين الناس وفاوت في العلاقات طبقًا للتفاوت فيها، كوصف المؤمن والمسلم والفاسق والكافر والمشرك والمنافق، ووضع هؤلاء جميعًا في مرتبةٍ واحدةٍ بناءً على اشتراكهم في الإنسانية، ليصبح المسلم واليهودي والوثني على حدٍ سواء لا فرق بينهم طالما أنهم يعملون لسعادة الإنسانية والسلام البشري!

يا ترى كم من الآيات يجب أن ننزعها من المصحف ليمكن للمرء تقبل هذه الدعوة؟ إن مجرد التأمل في هذه الدعوة وتصور مآلاتها ومؤداها كافٍ لردع المسلم -الذي يقدر الله حق قدره- عنها والتبرؤ منها.

لقد بين كتاب الله بشكلٍ جلي واضحٍ أن الإنسان إذا أعرض عن الإسلام والوحي فقد تكريمه الفطري الكوني الذي ذكره تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠] وأصبح مهانًا منحطًا في نظر الله ونظر أهل الإيمان، ولذلك لم تأت الشريعة بالمدح والتعظيم المطلق لـ"الإنسان" كما يتوهم بعض غلاة المدنية، بل إن القرآن بيّن في مواضع كثيرة ذم "الإنسان" إذا فقد شرف الإيمان ومن ذلك قوله تعالى:﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧]، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦].

ومَن تدبر المواضع القرآنية التي ورد فيها مفهوم "الإنسان" وجد أن الله سبحانه وتعالى يذم جنس الإنسان بمذام متنوعة ثم يستثني من عموم هذا الذم أهل الإيمان.

ومن ذلك أن الله تعالى أقسم بالزمان على أن الإنسان في خسارةٍ تامةٍ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ

﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر: ١-٢].

ثم أتبعها باستثناء أهل الإيمان من هذه الخسارة فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر:٣] .

وذم الله جنس الإنسان بصفة القنوط والجحود والبطر ثم استثنى أهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ٩-١١].

وهذا المعنى المتضمن ذم جنس "الانسان" ثم استثناء أهل الايمان له نظائر كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- بل إن الله هدّد الإنسان تهديدًا مدويًا بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار:٦] .

ولذلك لما سمع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رجلًا يقرأ هذه الآية قال: (غره والله جهله) والذي يبدوا أن عمر استنبط هذا المعنى من الآيات التي وصفت "الانسان" بالجهل كما سبقت الاشارة لبعض تلك الآيات.

فكيف يقال بعد ذلك أن الله كرّم "الإنسان" وفضّل "الإنسان" بغض النظر عن هويته الدينية، وأن الأديان لا تؤثر في كرامة الإنسان إيجابًا ولا سلبًا، وأننا يجب أن نعمل لمفهوم "الإنسان" بغض النظر عن عقيدته، أو قول بعضهم لا تجعلوا الرأي الشخصي يفرق بين أبناء آدم، أليس في ذلك مشاقة لكلام الله سبحانه وتعالى الصريح؟

ومن الإنصاف أن نقول أن بعض الكتاب الذين يرددون هذه المقولة لم يتنبهوا لمضامينها المصادمة للميزان الإلهي، ولم تخطر ببالهم الآيات القرآنية في ذم الإنسان إذا فقد الإيمان.

ثم لو نظرنا إلى التقييم الحضاري للإنسان في الدول الحضارية الحديثة، فإننا نجد أنه لا يوجد

أصلًا دولة من الدول اليوم شرقيها وغربيها تعمل للإنسان المطلق، بل تجدها تميز في الجنس الإنساني إما على أساس وطني أو قومي أو عرقي أو غير ذلك من المقاييس، فكيف نتقبل تمييز هذه الأمم بين المواطن وغير المواطن، ولا نقبل تمييز الله بين المسلم والكافر؟!

ثم إن الإنسان بالمنظور المادي من حيث هو إنسان ليس أكثر من نسق طبيعي يخضع لقوانين الطبيعة وحتمياتها، مجرد نفاية نجمية!

وبالتالي فمِن أين لداعية الحضارة أن يمنع التعرض للإنسان بأذىً؟

فالذي لا يؤمن بالدين لا يكون في المركز وإنما هو مجرد شيء من بين الأشياء!

ولذا فالقرآن الكريم يطرح هذه المسالة ويبين أنه لا شرف للإنسان من حيث هو إنسان! وإنما شرفه وقيمته لا يستمدها إلا من كونه عبدًا لله!

فشرف الإنسان لا يكون إلا من خلال عبوديته لله سبحانه!

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

فالإنسان هو المركز والطبيعة هي الهامش.

ويبتعد الإنسان عن سموه في هذا العالم بقدر ابتعاده عن الله ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر:١٩].

ومن رأى أولئك الكفار لاهثين في لجام الملاذ، منكبّين على الموائد، لايبالون مأتاها ومخرجها، ولا يرفعون رأسًا بطيباتها من خبائثها، ويتضاحكون عاليًا في ليلةٍ غاب عنها القمر، ولم يستعدوا للقاء الله طرفة عين، فسيفريه العجب فريًا وهو ينظر إليهم ويتذكر قوله وتعالى في سورة محمد: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [محمد:١٢].

فعلًا والله.. ألا ما أعظم هذا التشبيه الإلهي، أرأيت كيف تغيب رؤوس الأنعام في قلال العشب لا ترفع أعناقها إلا لتعود مرةً أخرى، ليست مهمومةً بلقاء الله، ولاتفكر في خالقٍ ولا نبيٍ ولا وحيٍ ولا عبادةٍ ولا بعثٍ ولا حسابٍ ولا عذابٍ ولا مستقبلٍ أخروي حتى يفجؤها يومٌ

يقتص فيه للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، فتلك حياة الكافر.

وانظر إلى كتاب الله كيف يعيد سبحانه هذا التصوير والتشبيه بالأنعام مرةً أخرى، مشيرًا إلى علة ذلك وهي استغراق هؤلاء المساكين عقولهم وحواسهم في تدبير معاشهم الحاضر والإعراض عن الاستدلال بها على الله والاستعداد للقائه في الحياة المستقبلية القريبة، بل جعلهم هذه المرة في مرتبة أحط من مرتبة الأنعام كما قال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

ويأتي سبحانه مرةً ثالثةً بذات التشبيه، وذات التعليل، وذات المرتبة، فيقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

وضرب الله سبحانه مثلًا آخر أشد بشاعة لنوعٍ آخر من الكفار وهم الذين بلغوا مرتبةً من العلوم ولكنها لم تقدهم إلى الإيمان بالله، فشبههم بما هو أقبح من كل ماسبق، فقال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٧٦].

فكل من أعرض عن الإسلام ونور الوحي فهو في هذه المرتبة المنحطة، ولذلك وصفهم الله بالرجس لما تبرمت صدورهم عن قبول الإسلام، كما قال سبحانه في سورة الأنعام: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وذكر الله عنهم هذا الرجس أيضًا في سورة يونس أيضًا فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٠٠].

فيالله العجب، كيف صار كثيرٌ من الأذكياء في مرتبة الأنعام والدواب في المعيار الإلهي؟! بل جعل بعض هذه أحيانًا أشرف منهم! آيات قرآنية كأنها ضربٌ من الخيال في عصر الأنثربولوجيا الفرانكفونية، لكنها حقائق الوحي..

هذه مرتبة الكافر في المعايير الإلهية، فكم هو شعور عاصف بالألم حين يكتشف الإنسان أن معاييره غير تابعة للمعيار الإلهي، فيتفاجأ بمشاعره وأحاسيسه الداخلية تعظِّم من قد حطَّ الله منزلته، وتستهين بمن رفع الله شأنه!

يتيبس الذهول في نظرات المرء حين يرتطم بكارثة معاييره وموازينه الشخصية وهي تتعارض مع معايير وموازين جبار السموات والأرض.

هذه حقائق الوحي، وهذا حكم الله وقراره، وهذا قضاء جبار السموات والأرض، إن كنا فعلًا نؤمن بالله، ونفخر بمضامين كلامه سبحانه، ونلتزم بمقرراته، ونقدره حق قدره".

سنة الاستدراج

يقول الباحث إبراهيم السكران: "الواقع أن من أظهر قوانين التاريخ التي سطرها لنا الوحي "قانون الإملاء والاستدراج الإلهي"، فالقوة المادية وتعملق الإمكانيات التي بأيدي الكفار هي نوع من ذلك كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وقال تعالى عمن يكذب بهذا الوحي:﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [القلم:٤٤].

وقد قصّ الله علينا طرفًا من ألوان هذا الإملاء والاستدراج الذي ترتجف له قلوب المؤمنين، فقال تعالى:﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:٥٥].

بل تأمل في هذا المشهد المخيف حين يخبر تعالى بأنه يزيد للمعرض كل شئ ثم يباغته بالعقوبة، كما قال تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ [الأنعام:٤٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الرعد:٣٢].

والاستخفاف بوعيد الله للمكذبين والكافرين من شعب النفاق الخطيرة على الإيمان، ولا سيما أن وعد الله ووعيده كثيرًا ما يتحقق في اللحظات الحرجة أو في المشهد الأخير حين يستكمل الله سبحانه وتعالى سنة الابتلاء والتمحيص ويمر المؤمن بساعات الشدة كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾ [يوسف:١١٠].

ونبه سبحانه على أن المؤمن قد يمد الله في حياته حتى يشاهد العاقبة بكاملها وقد يتوفاه الله قبل ذلك لكن الله لا يخلف وعده كما نبه تعالى على ذلك في ثلاثة مواضع من كتابه فقال: ﴿ فَٱصۡبِرۡ

إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [غافر:٧٧].

فينبغي على المسلم دائمًا أن يتفقه أحوال الأمم بمجملها وبشمولها لا بحلقةٍ من حلقاتها".

ملخص سؤال الحضارة وجوابه

كيف يا تُرى نُقنع العلماني بخبوت سِحر العالم المادي، وبريق الآخرة؛ رغم أن أحدًا منّا لم يفلت من ضيق حدقته ولمعان عينه أمام هذا السِحر؟

السؤال الذي نطرحه هنا أمام العلماني هو سؤال عقلي ومنطقي وتحليلي في المقام الأول يعتمد جوابه على عقله هو وتحريره هو.

والسؤال كالتالي:

هل المكسب المادي ومركزيته غاية في ذاته؟

فإن كان جواب العلماني –المتوقَّع– نعم!

فيكون الرد:

مِن أين لك بذلك؟ وبأي دليلٍ من خارجنا استقيت هذا المعنى؟

وما الفرق في الإطار المادي بعد الموت بين الذين عمروها وتركوها؟

ولماذا لم تحقق فكرة مركزية العالم المادي استقرار النفس واطمئنانها طالما أنها كانت هي الغاية؟

أليست مفاهيم الاغتراب وما بعد الحداثة والعدمية منبتها جميعًا الأمم التي اعتنقت فكرة" مركزية العالم المادي" ؟

أليست العبثية هي ثمرة أكثر البلاد تقدمًا؟

أليست كلمة "عدمية" هي كلمة حصرية بالحداثة وما بعدها؟

For some examples of the view that postmodernity is a nihilistic epoch see Toynbee, Arnold (١٩٦٣) A Study of History vols. VIII and IX; Mills, C. Wright (١٩٥٩) The Sociological Imagination.

For examples of the view that postmodernism is a nihilistic mode of thought, see Rose, Gillian (١٩٨٤) Dialectic of Nihilism; Carr, Karen L. (١٩٨٨) The Banalization of Nihilism

ألا يوحي هذا ولو للباحث المتجرد لتفحص أحوال الأمم إلى تأكيد أن: الإنسان ليس مُفصلًا على طراز مركزية المادة؟

إذ لا يوجد إلى اليوم تفسيرٌ مادي واحدٌ للقاعدة التي تقول أن: عدد حالات الانتحار والأمراض النفسية يتناسب تناسبًا طرديًا مع مستوى الحضارة .

ثم أيها العلماني الدنيوي المؤمن بمركزية العالم المادي! كيف تُحلل في نطاق إيمانك بغائية المادة أن: نِصْفَ الأَسِرَّة بالمستشفيات في أمريكا –أكثر دول العالم تقانة– يشغلها المصابون بالأمراض النفسية؟

كيف تُحلل حقيقة أنّ: أكبر نسبة من عدد الأطباء النفسيين في العالم كله توجد بهوليود ؟

وأكبر معدلات اكتئاب على الإطلاق تقترن حصريًا بالمقاطعات الأكثر ثراءً.

وتحتفظ دول مثل: إيطاليا وأسبانيا وبلجيكا بأعلى معدلات اكتئاب بين سكانها، لكن تأتي في المقدمة كالعادة أمريكا بأكبر نسبة اكتئاب في العالم.

North America having amajor depressive episode

Murphy JM, Laird NM, Monson RR, Sobol AM, Leighton AH. A ٤٠-year perspective on the prevalence of depression: The Stirling County Study. Archives of General Psychiatry. ٢٠٠٠;٥٧(٣):٢٠٩–١٥.

كيف تُحلل حقيقة أنْ: تنفرد الدول العلمانية عالية التقانة بأعلى معدلات انتحار على الإطلاق، بينما تحتفظ الدول الإسلامية بأدنى المعدلات على الإطلاق وتأتي دول كالسعودية

وسوريا والكويت ولبنان وعمان في آخر ذيل القائمة؟[١].

قد كانت هذه الإحصائيات مرعبة بالقدر الذي دعا روجر رويل Roger Revelle مدير مركز هارفارد للبحوث إلى إنشاء لجنة خاصة في مجلس الشيوخ الأمريكي للبحث في تأثير التكنولوجيا على الإنسان والمجتمع![٢].

لقد تبين أن مصروف جيب وغذاء وكساء ومتع مادية مكتظة ليس عزاءً كافيًا لإنسان يعلم أنه وُلد ليموت!

فقد وصلت مركزية المادة إلى مرحلة القنوط في مواجهة الأمراض الاجتماعية!

فها هي الفنون تشير في أكثر بلاد العالم رفاهةً بانكسار وحسرة إلى الضياع الإنساني والبؤس الفكري والأخلاقي والخواء النفسي المُخيف!

وها هي نتائج الأمراض الأخلاقية تؤتي ثمارها المخيفة في كل جانب

فالعلاقات غير الشرعية تتجاوز ال٥٠٪ بعد الزواج -نصف المتزوجين خونة- وتقترب من حاجز ال١٠٠٪ قبل الزواج[٣].

وتحتفظ دول الجنوب في أوربا بأقل معدلات خيانة حيث تصل نسبة الخيانة بين الأزواج في إيطاليا إلى ٣٨٪ فقط من عدد المتزوجين وفي فرنسا ٣٦٪ بحسب المصدر السابق.

وهناك مليون طفل يتم إجهاضهم -وأدهم- في أمريكا وحدها سنويًا طبقًا للوثائق

---

(١)https://en.wikipedia.org/wiki/List_of_countries_by_suicide_rate

(٢) http://www.hup.harvard.edu/catalog.php?isbn=٩٧٨٠٦٧٤٧٩٤٨٣٢

(٣) http://news.bbc.co.uk/٢/hi/uk_news/١٧٧٣٣٣.stm

الحكومية الرسمية[١].

وآلاف النساء اللاتي يُقتلن سنويًا على أيدي أزواجهن -أكثر من ١٣٠٠ امرأة تقتل في أمريكا سنويًا على يد الزوج[٢].

وأعلى دول العالم رفاهة، هي أعلى دول العالم احتقارً للمرأة: فتصنف السويد على أنها أكثر دول العالم إساءةً للمرأة[٣].

وأكثر دول العالم إباحة جنسية على الإطلاق هي أكثرها وأعلاها في معدلات الاغتصاب على الإطلاق.

وأعلى معدلات اغتصاب على الإطلاق توجد في:

فرنسا

ألمانيا

روسيا

السويد[٤].

وحالات الإجهاض في أمريكا منذ العام ١٩٧٩ إلى الآن بلغ ٥٦ مليون حالة -العدد يفوق عدد دول مجلس التعاون الخليجي الستة مجتمعةً- إنهم يدفنون شعوبًا كاملةً تحت الأقدام[٥].

وفي أوج الحضارة البريطانية والمدارس البريطانية عالية التربية والتنشئة كان الجنود

---

(١) http://www.cdc.gov/mmwr/preview/mmwrhtml/ss٥٥١١a١.htm

(٢) http://www.ncjrs.gov/pdffiles١/nij/١٩٩٧٠١_sectionI.pdf

(٣) http://www.thelocal.se/٢٠١٤٠٣٠٥/sweden-out-top-in-eu-domestic-violence-league

(٤) http://www.nationmaster.com/graph/cri_rap-crime-rapes

(٥) http://gopthedailydose.com/٢٠١٤/٠١/١٢/٥٦٦٦٢١٦٩-abortions-america-since-roe-vs-wade-١٩٧٣/

البريطانيون يستخدمون فيلقًا هنديًا كاملًا في صحراء العلمين ليُفجروا الألغام بأجسادهم إلى أن ماتوا عن آخرهم، وكانت الصور تُظهر البريطاني وهو يصعد على ظهر الهندي كي يمتطي جواده.

إذا كانت هذه المعطيات والنتائج دليلًا جازمًا وقاطعًا على خطأ التحليل المادي لغاية الوجود الإنساني، فحتمًا على الجميع أن يضع لافتة: "الطريق ليس من هنا". بشرط أن يشير سهم اللافتة إلى كوكب الأرض!

فلا تنخدع بانشغال الدهماء بالسحر المادي، فالدهماء إذا ظهرت صولة الباطل واختبئت صولة الحق تعلقوا بالوارد لظهوره وبناء حجته وجلده في الدفاع عن باطله ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ ﴾ [المنافقون:٤].

ولأصحاب الجاه والسلطان والتقدم التقاني والمادي جلبة في القلوب وهيبة في النفوس تجعل الناس تستوحش الحق مع يقينهم بصحة باطنه وكذب ظاهر وباطن الهوى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم:٧٣].

فتميل العقول إلى الفريق الأعلى مقامًا والأزخم ناديًا ولو كان لا يملك من الحق شيئًا.

وما رفض قوم نوحٍ دعوته إلا بسبب قلة تابعيه وضعفهم ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٣].

وما كان عناد فرعون إلا في هذا الباب، فقد قال الله تعالى حاكيًا قول فرعون عن موسى وأتباعه ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء:٥٤].

وأفكار الفقراء والحق الذي يحملونه عند فقراء القلوب فقراء الحق فقيرة.

ونداء الحق من الأفواه الفقيرة خافت وغير واضح ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود:٩١].

بيان انحطاط الكافر.

من أكبر المهام التي تواجه سؤال الحضارة "بيان انحطاط الكافر"، وأنه في منزلة الأنعام والدواب وإن صعد القمر وفتّت الذرّة ونقَل الصوت والصورة، فالمقياس الديني لصيغ العلاقات بين المؤمن والكافر وعقد ألوية الولاء والبراء، وبيان مركزية الآخرة واعتبار كل علوم الكافر علومًا ظاهرية هذا هو أصل سؤال الحضارة الذي يجب بيانه.

ولم ينفصل الكفر في القرآن الكريم وما يتبعه من انحطاط القيمة لمجرد عمارة الأرض أو التقدم المعرفي أو الإنساني ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم:٩].

فعمارة الأرض لا تغني عن الإيمان والعبودية، بل لا قيمة لها أصلًا بدون الإيمان، ولو صاحَبها كل تقدمٍ ومعرفةٍ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر:٨٢].

ومَن تدّبر كتاب الله عز وجل وجد أن الإنسان إذا أعرض عن الإسلام والوحي فقَدَ تكريمه الإلهي وأصبح مهانًا منحطًا في نظر الله ونظر أهل الإيمان ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس:١٧].

والإنسان إذا هوى دينه فإنه يُقاد من بطنه وفرجه أكثر مما يُقاد من عقله وضميره، ويستوي في ذلك عوام الكفار وعباقرتهم.

ولو تبصّرت أحوال الكفار وسيّرهم ما تعجبت.

أنظر إلى عبقري الفيزياء في القرن العشرين ريتشارد فاينمان Richard Feynman والذي كان يُصنف ندًا لأينشتاين كيف كان حاله الأخلاقي وكيف كان عربديًا منغمسًا في الفواحش لا يخشى موتًا ولا نشورًا! [١].

وانظر إلى غالبية مظاهرات الغربيين وكيف أن موضوعها الأساس زيادة في التفسخ الجنسي،

---

(١) http://galileospendulum.org/١٣/٠٧/٢٠١٤/the-problem-of-richard-feynman/

ومطالبةً للتعري، بل ووصل بهم الحال إلى التظاهر وتنظيم الفاعليات الكبرى للسماح لهم بممارسة ليس الشذوذ الجنسي فهذا حالهم وديدنهم وليس تقنين أوضاع الشواذ جنسيًا فإلى ذلك اتجهت الآن أغلب دول الغرب، وإنما يطالبون بالسماح لهم بالشذوذ الجنسي مع الأطفال الصغار، راجع في ذلك تنظيم رجال يحبون الأطفال NAMBLA.
(North American Man/Boy Love) [(١)].

وسويسرا الآن بصدد الموافقة على مشروع السماح بزنا المحارم[(٢)].

وفي السويد تمت الموافقة رسميًا على الاستمناء في الأماكن العامة[(٣)].

وأكبر معدلات اغتصاب على الإطلاق حصرية بأكثر دول العالم تقانة –أعلاهم على الإطلاق بلجيكا وروسيا والسويد وألمانيا وكندا وتحتفظ أمريكا بالمرتبة الأولى–[(٤)].

وخمس مواطني الدول الغربية يمارسون نوعًا من الشذوذ الجنسي. ويطالب أكثر من أربعة

---

(١)https://en.wikipedia.org/wiki/North_American_Man/Boy_Love_Association

(٢) https://www.youtube.com/watch?v=rlH٣٣btuhdM

http://www.dailymail.co.uk/news/article-٢٤٢٤٤١٦/Swedish-court-rules-IS-legal-masturbate-public-directed-specific.html

(٣) http://www.dailymail.co.uk/news/article-٢٤٢٤٤١٦/Swedish-court-rules-IS-legal-masturbate-public-directed-specific.html

– في أحيانٍ كثيرة نتوقف عن توثيق ما هو أشد بشاعةً لما بالروابط التوثيقية من صورٍ خادشة، لكن فيما يوّثق ما يُغني عما نتغافل–

(٤) http://www.worldblaze.in/top-١٠-countries-with-highest-rape-crime-in-the-world-٢٠١٥/

أخماس المجتمع الغربي بحرية ممارسة الشذوذ الجنسي[(١)] .

وعدد حالات الإجهاض في أمريكا وحدها تصل رسميًا إلى مليون حالة إجهاض سنويًا[(٢)] .

تخيل!

والذي يُجاور الغربيين ويعرف مأكلهم ومشربهم ومنكحهم يدرك تمامًا مدى تعلقهم بالمال ومركزية الدنيا عندهم، في مقابل الانعدام التام للتزكية الإيمانية. مما يقطع أنهم يعيشون كالدواب والأنعام لا فرق.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [محمد:١٢].

وستتجلى الصورة التي رسمها القرآن عن شخصية الكافر بوضوحٍ.

فبسبب بعدهم عن الإيمان يلهثون في اسطبلات الملذات، ويركضون خلف كل شاذٍ وغريب، ولا يبالون بالحرام في المأكل والمنكح ولا يميزون بين الطيب والخبيث.

ولا يهتمون لحظةً بيومٍ تقشعر له الأبدان وتشيب له الولدان.

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

فلا يستغرق هؤلاء الجهلة إلا في تدبير أمر دنياهم فصارت المركزية هي مركزية الحياة الدنيا وصارت المصلحة هي مصلحة المادة، وصارت الغاية هي الدنيوية ولا غير.

فما الفرق بين مَن هذا حاله وبين الأنعام والدواب؟

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤].

فكل مَن لم يعقل غاية وجوده وعبوديته لخالقه سبحانه، ويستعد ليوم رحيله فهو جاهلٌ يحيا

---

(١) http://www.pewglobal.org/٢٠١٣/٠٦/٠٤/the-global-divide-on-homosexuality/

(٢) http://www.cdc.gov/mmwr/preview/mmwrhtml/ss٥٥١١a١.htm

كالدواب، ولو فتّت البوزونات bosons ورصد الهيجزات Higgs boson وحصد أعلى الشهادات، ولو كان ذا منجزٍ معرفيٍ مهما علا شأن منجزه أو نزعةٍ سلمية مهما كان رونقها فسيظل بميزان الوحي جاهلًا يغشاه الرجس.

﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٠٠].

فالإعراض عن الإنصياع التام لحكم الوحي ليس له مسمىً إلا الكفر، ولا يقابل الكفر إلا البغض ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤].

لكن هل كل عمل الكافر في الدنيا هباء منثور؟

يقول الشيخ عبد العزيز الزنداني حفظه الله: "الذين لا يؤمنون بالله ولا يرجون ثوابه، ولا يخافون عقابه يعملون أعمالهم وهم لا يريدون بها وجه الله، ولا يبتغون رضاه ولا يهمهم هل عملوا حلالًا أم حرامًا، فهم بهذا لا يستحقون الثواب على العمل وإن كان صالحًا، لأنهم كفارٌ لم يقصدوا به أن ينالوا ثواب ربهم، ولا ابتغوا به رضا خالقهم. والكافر مُعاقبٌ على كفره وضلاله ؛ لأنه لم يبحث عن دين الله ولم يحاول الاستماع إلى البيان الإلهي الذي جاء به المرسلون، زيادةً على ذلك فهو إذا سمع آيات الله تُتلى عليه، اتخذها هزوًا، لذلك فعمله مردودٌ وهو معاقبٌ على كفره ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم:١٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور:٣٩]"[١] .

إن القضية ليست فعل الخير وإنما القضية الآكد هي: لمن تفعل الخير؟

---

(١) التوحيد، عبد المجيد الزنداني، ص٩.

وهل تفعله اتفاقًا وتفعله لمصلحتك الشخصية كمزيد سعادةٍ أو تسميعٍ في الدنيا، أم انكسارًا لله ورضًا بعبوديته؟

فهذا عبد الله بن جُدعان ملأ جزيرة العرب أعمالًا إنسانيةً محضة قبل مبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لكن كل هذا لم ينفعه لأنه لم يفعل ذلك انكسارًا لله سبحانه، فكما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم أنه: «**لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**».

وليس لكرم حاتم الطائي وزنٌ في ميزان الله تعالى طالما لم يؤمن بنبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وقد جاءت ابنة حاتم الطائي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقص عليه خبر أبيها وكرمه فقال صلى الله عليه وسلم: «لو كان مسلمًا لترحمنا عليه»[1].

فكل مَن كفر بنبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، واعترض على بعثة الله له فعمله من الخير مردودٌ عليه ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٥٤].

وهو مأخوذٌ بكفره ﴿ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة:٨٠].

وليس أكفر من الذي يرد على الله وحيه ويعترض نبوة نبيه وينكر رسالته ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [محمد:٩].

والأعمال حتى لو كانت محمودة في ذاتها، فإنها تُرد على صاحبها لفوات شرط القبول ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم:١٨].

(١) دلائل النبوة للبيهقي.

لكن إذا كان الكافر بهذا الانحطاط فما معنى تقدمه المعاصر؟

لماذا هو منتصر تقانيًا وسياسيًا وعسكريًا بما لا يخفى على متابع!؟

في البداية لابد أن نقرر أن تقدم المادة في الغرب ناتج عن أخذ بالأسباب، والعلم قرينٌ بمن يُموِّل...

فإذا نظرت إلى المعطيات التالية:

١- في العالم الإسلامي كله، هناك (٥٠٠ جامعة)

في الولايات المتحدة الأمريكية هناك (٥٧٥٨ جامعة).

٢- تنفق إسرائيل ١٣٪ من دخلها القومي على الأبحاث والتطوير

في حين تُنفق مصر ٠,٠٠٠١٪ من دخلها القومي على الأبحاث والتطوير.

٣- ميزانية البحث العلمي في جامعة هارفارد تفوق ميزانية البحث العلمي في جميع الدول العربية بما فيها دول الخليج.

فإن النتيجة البديهية هي:

فوز ١٨٠ يهودي بجائزة نوبل-خلال ال١٠٥ سنة الماضية-

وفاز في الفترة ذاتها ٣ مسلمين بالجائزة[(١)].

الدروس المستفادة: البحث العلمي قرين بمن يدفع أكثر، مَن يُموِّل!

فلا تطلب أكثر لمجرد كونك مُسلم!

ولا تطلب إهلاك القرى لمجرد أنها كافرة ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود:١١٧].

---

(١)في بناء الوعي، د.خالد صقر، مركز تفكر، ص٢٢-٢٣ بتصرف.

هذه هي القضية.

فالذي يتوقع أن ننتصر بما نحن فيه من بلادةٍ فقط لأننا مسلمون، وأن يُهزم الغرب بما هم فيه من مثابرة وجدٍ فقط لأنهم كافرون هو أبعد الناس عن فهم سنن الله في كونه، وآياته في كتابه، فقد دلت نصوص الكتاب العزيز أن إهلاك الظالمين إنّما يكون بالعدل والقسط لا بالظّلم والجور ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ [المؤمنون:٤١]، أي بالعدل لا بالظّلم.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩].

فنزّه الله تعالى ذاته المقدّسة عن الظّلم ؛ لكمال عدله في أخذه وعقابه؛ فلا يصيب بعذابه إلاّ من عتا وتمرّد وظلم.

ومن أجل ذلك فقد ذهب القرطبي في تفسيره إلى أنّ الشّرك لا يكون وحده سببًا لإهلاك الأمم حتّى يقترن به إفسادٌ في الأرض، أو تظالمٌ بين العباد؛ لقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود:١١٧].

هذه سنة الله في كونه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولو وعيت ما عجبت!

الفَصْلُ الثَّامِنُ

سؤال العلمانية

"الله فقط يمكن أن ينقذنا"

الوجودي مارتن هايدجر

حدود العلم المادي التجريبي

تعريف العلم هو: رصد الظاهرة ثم تحليلها بغية تفسيرها والاستفادة منها!

ومنذ اكتشف عالِم الفيزياء الألماني هايزنبرجWerner Heisenberg مبدأ عدم اليقين أو مبدأ الريبة uncertainty principle، تبين أننا سنظل محرومين للأبد من معرفة الحقيقة الكلية باستخدام العلم وحده!

ويَنُص مبدأ عدم اليقين على أنه: "يستحيل تحديد موقع وسُرعة أي جسيم في وقتٍ واحد "، فنحن ممنوعون من معرفة موقع وسُرعة الجسيم في آنٍ واحد، وليس لنا أنْ نختار إلا نِصف الحقيقة، أما الحقيقة الكاملة فنحن ممنوعون من معرفتها.

يُعَدُّ مبدأ عدم اليقين قانونًا صارمًا من قوانين الطبيعة، ولا يرتبط بأي شكل من الأشكال ببعض القصور الموجود في أجهزتنا، أو بقدراتنا على الرصد، بل هو قانون كوني.

ولذا فهذا المبدأ من أعظم المبادئ أثرًا في تاريخ العلم الحديث، حيث أنه يضع حدًا لقُدرة الإنسان على قياس الأشياء، وكان لهذا المبدأ تأثيرٌ فلسفيٌّ عميقُ الأثر على العقل العِلمي، يقول الفيزيائي النمساوي شرودينجر:Schrödinger "لقد تم الحصول على صورة معتدلة لهذا العالم، بتكاليف باهظة".

والغريب أن هذا النصف المُتاح لنا معرفته محفوفٌ أيضًا بجدران بلانك التي لا نستطيع تجاوزها علميًا.

فنحن مثلًا لن نعرف ما قبل الثانية ١٠ أس -٤٦ من عمر الكون.

فالعلم لا يقبل أن يكون الحَكَمَ الأخيرَ على القضية الكُلية في الوجود، لأنه بذلك يكون مثل لابس ثوبي زور، وكالمُتلبس بما لم يُعط.

ولم تمر على الجنس البشري إلا عقود قليلة بعد صدمة مبدأ عدم اليقين، حتى ظهرت في ستينيات القرن الماضي نظرية جديدة، تدمر كل ما بقي لنا من أمل في تحصيل معرفة موضوعية متكاملة عن هذا النصف من العالم الخارجي، إنها نظرية تأثير الفراشة Butterfly Effect والتي

لنا معها منشور قادم إن شاء الله!

وقبلها كانت مبرهنة جودل Gödel Incompleteness Theorem التي تؤكد أنه لا يوجد نظام رياضي متكامل.

فالعلم لا يُغطي إلا جانب ضيق جدًا من حقل المعرفة، وهو ليس موضوعي وإنما ذاتي يخضع للرؤية البشرية وتحلله القدرة البشرية، والعلم لن يقترب من أسئلة الوجود الكبرى مثل: لماذا نحن هنا، وإلى أين نحن ذاهبون؟

ولذا لما سألت دير شبيغل هايدغر عما إذا كان في مقدرة الانسان الوصول للأفضل والأكمل عبر مساعيه وأبحاثه قال :" **الله فقط يمكن أن ينقذنا**".

Only God Can Save Us, Heidegger, The Man and The Thinker, p.٤٥

نُقطة انتهى.

العلم قرين بما هو مادي

لن يحلل العلم سبب ترفعك عن المعصية!

لن يجيب العلم عن مصدر القيمة أو معنى الأخلاق أو غائية التحشم!

يقول أينشتاين: "لا توجد أُسس علمية للأخلاق، لقد فشلت وستفشل كل محاولات إخضاع الأخلاق لقوانين العلم ومعادلاته، فلن يكون العلم مصدرًا للأخلاق"[١].

والماضي التطوري الذي تفترضه نظرية التطور مثلًا، لا علاقة لهذا الماضي بما يحمله من صراعٍ وانتخابٍ للأصلح بحاضرنا الأخلاقي الذي نتطلع أن يسود.

فالتطور الدارويني لا يُنتج إلا أمثال هتلر، والمجتمع الدارويني لا يكون إلا مجتمع فاشستي ينتشر فيه التعصب العنصري والتصفية العرقية، كما يعترف ريتشارد داوكينز[٢].

فالقيم الأخلاقية المطلقة لا يمكن التاسيس لها إلا في إطار الدين[٣].

والإجابة الوحيدة التي تتيحها المواقع العلمية عن كيفية تنظيف السوط الجلدي، إذا علقت به دماء أثناء ممارسة السادية المازوكية -أحد أنواع الشذوذ الجنسي-، هي: هيدروجين بيروكسيد!

في هذا الإطار يمكن استيعاب أن يظل العلم داخل معمله، وأن يمارس الناس قيمهم وأخلاقياتهم وفق نسق آخر بعيد عن الطرح العلمي، فالعلم للمادة ولجواب أسئلة كيف.

مثل: كيف نأكل وكيف نلبس وكيف نشرب.

أما أسئلة لماذا.

مثل لماذا نعيش ولماذا نعتنق الأخلاق ولماذا نبحث عن غائية وجودنا و...

---

(١) Max Jammer, Einstein and religion, p.٦٩.

(٢) Selfish Gene, p.٢, ٣.

(٣) ريتشارد داوكينز A Devil`s Chaplain, p.٩٣

فهذه أسئلة أجوبتها حصرية داخل ميدان الإيمان فقط.

وهكذا يعيش الإنسان متكامل البنيان النفسي والبدني والروحي. ولا توجد ثمة مشكلة!

لكن أن يظهر لك كهنة العلمانية العرب فجأةً ويقومون بالتبشير بكهنوتهم العلماني، ويعتبرون الرؤية العلمانية هي التفسير الأصلح للإنسان فهذا ما يثير حفيظة كل حُر.

إذ كيف تطلب مني أن أتبنى رؤيتك العلمانية للوجود، وهي رؤية تفتت القيم الأخلاقية وتصمها بالنسبية، وهي رؤية تُضعف قيمة الإيمان في القلوب وتقلص تطبيقات الإيمان والتزكية الروحية في الحياة العملية.

فتظهر التعاقدية في التعاملات بدلًا من التراحمية.

وتظهر المصلحية المادية عوضًا عن الإيثار والتوّاد.

ويُطلب منك بانتظام ألا يتمعر وجهك إذا رأيت منكرًا وإلا فأنت لست متفتحًا!

ويُطلب منك بانتظام أن تغض الطرف عن القيم المبتذلة والأفكار الوضيعة والأغاني الهابطة.

ويُطلب منك أن تقوم بإحلال الولاء لحدود الوطن بدلًا من الولاء لإخوانك المسلمين.

ويُطلب منك أن تنسى تاريخ أمتك الإسلامية وتُركز فقط على القومية التي أنت تابعٌ لها!

والراصد لحال العلمانيين العرب في بلادنا يلحظ قفزاتهم المتتالية نحو الكهنوتية والتبشير بالعلمانية، وصار التنفير من الآخر والإقصاء المُتعمد لكل ما هو إسلامي سمة كل علماني عربي، وصار حظ العلماني العربي من العلمانية هو بمقدار انخداش علاقته بالإسلام والمسلمين.

وقد قامت العلمانية العربية عبر البرامج التلفازية والقنوات الإعلامية التي تبث أفكارها من خلالها قامت باستبدال المرجعية التأويلية بمرجعية الشرع.

ويقول الباحث إبراهيم السكران متحدثًا عن تطورات العلمانية في بلادنا أنها: " تحولت من

كونها مهمومة بتنمية الخطاب الإسلامي إلى الوشاية السياسية ضده، والتعليق خلف كل حدث أمني بلغة تحريضية ضد كل ماهو "إسلامي"، وغدت مولعة بالربط الجائر بين أحداث العنف والمؤسسات الدعوية، وبالغت في الاستخفاف بكل منجز تراثي".

وصار نقد الأمة وبيان كل مثالبها وإخفاء كل خيرٍ فيها هدفًا في ذاته لدى العلمانيين العرب!

ولا تخطيء عينك حال العلماني العربي حال ظهوره على التلفاز فهو الذي اعتاد اللمز في مرويات السنة النبوية.

والعلماني هو الذي يطير فرحًا بخبرٍ مدفونٍ في أحد كتب التاريخ - أجمع أفاضل الأمة ومحدثيها على نكارته ووضعه- ويتجاهل في الوقت ذاته صحيح الأحاديث والأخبار التي تعارض ذاك النقل. كل هذا أملًا من العلماني في تشكيك الأمة في ثوابتها وفضل سلفها!

وفي مقابل كل هذا الإجحاف في التعامل مع كتب التراث والكذب على التاريخ وتسخيف خير القرون وغمزهم ولمزهم، تجد اللغةَ الناعمةَ البشوشة في التعامل مع خصوم الحل الإسلامي، وحقهم في الحرية والتعبير، والتفهمَ الودودَ للدراسات التجديفية والروايات العبثية الكفرية، والتصفيقَ المستمرَّ لكل ماهو "غربي" بطريقة لايفعلها الغربي ذاته -والكلام هنا للباحث إبراهيم السكران- وعَرْضَ الأعلام الغربية بلغةٍ تفخيمية وقورةٍ، وإسقاطَ التجارب العلمانية في التاريخ الأوروبي على مجتمعنا بشكل لايليق بشاب مسلم -كصراع الكنيسة مع العلم والثورة الفرنسية وعصر الأنوار ونحوها-.

وأكثر ما يؤكد خبث العلماني في هذه المرحلة من التبشير الكهنوتي بعلمانيته أنه يقوم بالتركيز على أخطاء المقاومة أكثر من أخطاء المحتل، والمطالبة المستمرة بمواجهة المشروع العسكري الغربي بورود السلام الغاندية.. إلى آخر سلسلة التطورات الموجعة من التبعية التامة للآخر كائنًا مَن كان طالما أنه ليس مسلم ولا يحمل هَم المسلمين!

وحتى لو كانت عبادة بقر فهي مقبولة من العلماني ويمكنه التعايش معها، أما القيم الإسلامية والسنن الظاهرة كاللحية والنقاب فهي تُسبب له حكةً واشمئزازًا.

ولا مانع لدى العلماني من إسلام الدروشة، والإسلام الذي لا يتجاوز حيز المسجد. أما الإسلام الذي جاء به محمد ابن عبد الله- صلى الله عليه وسلم- إسلام التحرر والاستقلال، إسلام القيم والشمولية فإن هذا الإسلام لدى العلماني مرفوضٌ مرفوضٌ مرفوض .

مشكلتنا مع العلمانية

ما لا يفهمه كهنة العلمانية في بلادنا العربية أن أحكام الشريعة كما هي قيدٌ عليهم، فكذلك أحكام العلمانية قيدٌ علينا، فإذا تلا شخصٌ مسلم المصحف فقرأ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]، يعلم أنه مُكلف أن يصوم. أما ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ [البقرة:١٧٨] فلا ؟؟ !!

وإذا كان الله ورسوله قد حرم الزنا وحظر الربا ومنع الخمور وحارب الميسر، وجاءت العلمانية لتحمي الزاني وتتبيح الخمور وتنظم القمار، فكيف يكون موقف المسلم بينهما أيطيع الله ورسوله أم يطيع العلمانية ؟

فالذي يريد فصل الدين عن الدولة يريد إلغاء ٦٠٠ آية من القرآن الكريم وهي: آيات الأحكام ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة:٢٧٥] هل هذه آيات للدنيا أم للمحراب ؟؟

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ [البقرة:١٧٨] وهذا قانون جنائي .

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦] هذا قانون دولي.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة:٢٨٢] هذا قانون إثبات لحكم الدنيا والمحاكم أم آيات تعبد ومحراب ؟

في الإسلام الأمرُ كله لله، وقيصر وما ملك عبدٌ لله وإن أبى، وكما يقول العلماء: إنما الدنيا موضوع الدين [١] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- : "والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرَّم الحلال المجمع عليه ، أو بدَّلَ الشرع المجمع عليه كان كافرًا مرتدًا باتفاق الفقهاء"[٢] .

ويقول: "هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، فهم فقط تابعوهم على التبديل ، واعتقدوا تحليل ما حرم

---

(١) التيار الإسلامي والليبرالية . مناظرة بين دكتور عمرو حمزاوي وأستاذ صبحي صالح.

(٢) مجموع الفتاوى ٣-٢٦٧.

الله وتحريم ما أحل الله اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا مع أنهم لم يكونوا يُصلون لهم أو يسجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركًا مثل هؤلاء "(١).

أليس كهنة العلمانية من جملة الذين يطلبون منّا أن نطيعهم في تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحل؟

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله-: " إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحكم به بين العالمين، والرد إليه عند تنازع المتنازعين، مناقضةً ومعاندةً لقول الله عز وجل: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩]. فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الإيمان في قلب عبدٍ أصلًا، بل أحدهما ينافي الآخر".

فالثقافة الإسلامية لا تقبل المفاهيم الليبرالية العلمانية مهما غيرت من شكلها ، وهي في تعارضٍ تامٍ معها.

فمثلًا مقولة "الدين لله والوطن للجميع"!

قال العلامة بكر أبو زيد -رحمه الله-: "وهذه المقالة -أي الدين لله والوطن للجميع- توجب الردة". المصدر: مناقشة كتاب الإسلام واصول الحكم.

بل يعترف العلماني العربي الشهير أركون أن مقولة الدين لله والوطن للجميع مقولةٌ غبية إلى حدٍ كبير، فالدين للشعوب تمارسه في الشارع كما في البيت في معاملاتها في كل شيء.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧-٧٠.

ففي الإسلام الأمرُ كله لله، وقيصر وما ملك عبدٌ لله وإن أبَى، وكما يقول العلماء: إنما الدنيا موضوع الدين.

يقول صامويل هنتنجتون -الذي فِهم الإسلام أكثر مما فهمه كهنة العلمانية العرب- : "والدولة الإسلامية ليست رفضا للحداثة وإنما رفضٌ للغرب ورفضٌ للثقافة العلمانية النسبية المرتبطة به ،إنها رفضٌ لما يُطلق عليه التسمم بالغرب الذي يصيب المجتمعات غير الغربية، إنه إعلان كله كبرياء يقول سنكون حداثيين- سنتقدم - لكن لن نكون أنتم "[١] .

(١) صدام الحضارات،صامويل هنتنجتون، ترجمة :طلعت الشايب الطبعة الثانية ١٩٩٩ ص١٦٨ .

الولاء والبراء العلماني

أصل العلمانية الغربية التمييز بين الناس على أساس الأرض وحدود جغرافيا الوطن سواءً في الخدمات الحكومية أو الولاء القلبي!

فلا غضاضة عندهم من تضييق الخناق على المهاجرين وتلقيبهم ب"مهاجرين غير شرعيين".

ولا غضاضة من حرمانهم من الخدمات الحكومية بل وعدم مساواتهم بأبناء الوطن.

لكن أن تقول لنفس هؤلاء العلمانيين نحن لن نُسوي بين الناس على أساس الدين، فيكون للمسلم حقوق داخل الدولة غير حقوق الكافر؛ فهنا سينتفض العلماني ويرتعد ويحْمّر وجهه ويبِح صوته من هول الصدمة، مع أنه نفس الشخص الذي قبل لحظات قرّر أن يسلب أكثر من هذه الحقوق من "غير أبناء الوطن".

فقد انتقل معقد الولاء والبراء في قلب كهنة العلمانية من الدين إلى الوطن ومن حب الله إلى حب حبة الرمل.

فالعلماني وبسبب علمانيته ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٦].

فقوام العلمانية ربطك بالأرض لا بالسماء واكتفاء بالعاجلة وصرف نظرك عن الآخرة ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [التوبة:٣٨].

فحين انهارت العقيدة في النفوس وتشبعت القلوب بالإخلاد إلى الأرض لم تحتمل أن يكون الكافر عدوًا لله، ولم تحتمل الحب في الله والبغض في الله.

مع أن : "أوثق عرى الإيمان أن تُحب في الله وتُبغض في الله". أخرجه أحمد في مسنده!

ولذا فأنت لو جعلت الدين أصلًا في تعاملك لصرت أمام كهنة العلمانية رمزًا للإقصاء والتخلف والرجعية!

في حين لو جعلت الوطن أصلًا في تعاملك لصرت أمامهم وطني مخلص شريف ابن الأرض الطيبة!

وهنا يصبح التمييز على أساس الوطن صلاحًا وإخلاصًا وعلى أساس الشريعة تخلفًا ورجعية!

إن هؤلاء لو أُشربوا حب الله لسما عندهم حب الله على حب الرمل!

إن أصل علمانية هؤلاء هي صيانه أنفسهم ومنافعهم المادية أكثر من صيانة دينهم، فصاروا يلبسون لامة الحرب لمن يتعرض لوطنهم بكلمة تبخيس أو تحقير بينما يبتسمون في وجه من يسب شرع الله ويسخر منه!

إن أمثال هؤلاء لو لم يراجعوا منزلة الله في قلوبهم قبل الموت لهلكوا!

فما أعسر على العقل العلماني من العداوة القلبية لأعداء الله من الكفار والمنافقين، ولو كمل حب الله في القلب لاستحال أن يحب الله وعدو الله في آن!

ومن صور الولاء والبراء بصيغته العلمانية ما جرى حين اشتد صراخ كاهنة العلمانية **"فاطمة ناعوت"**، في مناظرتها مع الشيخ محمد الفزازي لمجرد المساس في ظنها بموقف حدث بأحد ميادين مصر.

فالدولة في النموذج العلماني موضع تقديس والشعب مصدر تشريع، ومحاولة محاكمة الشعب حتى طبقًا للمنظومة القيمية أمر غير مقبول.

فتصبح الدولة حِجر محجور، ويمتنع المساس بسمعتها، ويتعلم الأطفال منذ نعومة أظفارهم كيف يتقنون الانحناء لقطعة قماش -العَلَم- وكيف يقَبِّلون تلك القطعة ويرفعونها ويُعظمونها لأنها تشير إلى دولتهم هم فقط وليس دولة أخرى من دول الأغيار، ولو كان هؤلاء الأغيار أطهر منهم وأنقى!

ويُعقد لواء الولاء والبراء حصريًا للدولة في الإطار العلماني.

وكان اختفاء المرجعية المطلقة والقيمة المتجاوزة داخل النسق العلماني سببًا اضطر العلمانيين

إلى البحث عن مرجعية أخرى يُعقد لها الولاء والبراء فأصبحت الدولة هي تلك المرجعية المطلقة والقيمة الأسمى.

في المقابل يصبح الخوض في بقية الدول والشعوب أمرًا مُستباحًا، وقد خاضت بالفعل الكاهنة فاطمة ناعوت في أفغانستان وكيف أن أفغانستان تستحوذ أعلى نسبة تحرش في العالم، مع أن هذه أحد أشهر أكاذيب العلمانيين العرب.

لكن الشاهد من الكلام ليس كذب الادعاء من عدمه وإنما الشاهد أن تُجعل الدولة حرمًا مُصانًا ويصبح غيرها كلًا مُستباحًا.

إنه النظام العلماني الكهنوتي القومجي الجديد، الذي لا تعنيه القيمة ولا مع مَن الحق بقدر ما تعنيه حدود سايكس بيكو.

ولا يدري كهنة العلمانية العرب أنه بدعوتهم لهذه الأفكار القومية يروجون لأفكارٍ كانت سببًا مباشرًا في نشوب الحربين العالميتين الأولى والثانية، فقد قامت الحربان العالميتان بسبب دعاوى القومية والشعب العضوي.

فالقومية العلمانية المجنونة كانت سببًا مباشرًا في مقتل ٥٪ من سكان العالم على يد هتلر، فقد كان نموذج هتلر هو نموذج القومية الإلمانية بحثًا عن الرايخ الثالث الذي يسوده الشعب الألماني فحسب. ومؤسسة الإبادة في الدولة النازية كانت تُسمى مؤسسة تدعيم القومية الألمانية.

بل إن كل الأيديولوجيات التي تحاربت طوال القرن العشرين من فاشية إلى ماوية إلى ستالينية كانت من نتاج العلمانية القومية، والحرب العالمية الأولى سببها رصاصة أحد القوميين الصرب عندما اغتال وليَّ عهد الإمبراطوية النمساوية، فالقومية هي شكل غير عقلاني من الأشكال التي تطالب الغير بالاعتراف بقيمة متجاوزة لأُمة من الأمم ومن أجل هذه القومية أُبيدت دول بأكملها.

يقول أرنست جلنر:" القومية ليست لها جذورٌ عميقة في النفس البشرية ، وقومية عبد الناصر انتهت بنهايته، وأقوى القوميات في العالم هي مصدر أشنع الحروب كالقومية النازية في ألمانيا والقومية الفاشية في إيطاليا، وانهارت الإمبراطورية العثمانية تحت وطأة القومية التي دعا لها أتاتورك، والقومية تعمل على تصفية الداخل من الأغيار والتلذذ بالحياة في مجتمع قومي صافي كما فعلت ألمانيا مع اليهود والغجر –والسلاف والأقزام والمرضى والمعاقين–"[(١)] .

والقومية هي محاولة خبيثة لتغيير التاريخ وإبعاد الناس عن الدين ؛ ولذا يقول المستشار طارق البشري : "فمن يريد أن يؤكد على مصرية مصر وينفي عروبتها وإسلاميتها ما عليه إلا أن يجمع وقائع التاريخ التي حدثت في مصر ويُلم بكل ما قيل عن مصر ويقيم منه بناءًا منفصلًا عن غيره من الأحداث المحيطة، ولا يهم إذا كان أهل مصر راضين بانتمائهم لأمة الإسلام ". فالمهم هو تمرير القومية على السُذج من الناس! [(٢)] .

فالقومية نبات شيطاني تهدف لتقويض المشروع الديني.

ولن تمحو الأيام مجازر القوميين الصرب بحق المسلمين، حين كانت صربيا تدعو لصربيا الكبرى والكروات يريدون كرواتيا الكبرى، ولن ينسى العالم كيف أن علماني صربي قومي مجرم مثل راتكو ميلاديتش Ratko Mladić قتل في عملية واحدة ٨ آلاف مسلم في محيط مدينة شربنيتشا يوم١٣ يوليو ١٩٩٥ Srebrenica massacre وكيف أن عبارات قومية مثل الموت للألبان وعاشت صربيا " Albanians Long live Serbia—death to " التي روّج لها العلماني القومي المجرم سلوبودان ميلوسوفيتش Slobodan Milošević كانت سببًا في أكبر مجازر يشهدها العالم منذ الحرب العالمية الثانية.

ومن أجل ذلك نحن نحذر وبشدة من كهنة العلمانية العرب الذين يُروجون للقومية

---

(١) نهاية التاريخ وخاتم البشر، فرانسيس فوكوياما، ترجمة : حسين أحمد أمين الطبعة الأولى ١٩٩٣ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ص٢٣٦.

(٢) الحوار الإسلامي العلماني، المستشار طارق البشري، الطبعة الأولى ١٩٩٦، دار الشروق ص٤٧.

والنعرات الجاهلية في بلادنا فبذرة نشأة علماني قومي هي بذرة نشأة هتلر جديد وموسوليني جديد وميلوسوفيتش جديد وراتكو ميلادتيش جديد!

وسينادي العلماني القومي المصري بالقومية الفرعونية حتى يتاح له في مرحلة لاحقة إفناء المسلمين واستئصال شأفتهم.

وسينادي العلماني القومي الجزائري بالقومية الأمازيغية حتى يثير الأحقاد ويخرج الضغائن ويهلك البلاد!

وستظهر قوميات في كل مكان، وعندنا أعداد من الأغرار والمغيبين والسذج ما تكفي تمامًا لملء أي حشد ولتضخيم أية فكرة ولمتابعة أية دعوى مهما كانت هذه الدعوى حقيرة أو إرهابية أو شاذة، والشباب الصغار يغريهم الشاذ ويتلقفون الغريب ويهتمون بالخارج عن النسق.

ودعوى القومية ستقوض أركان المجتمع بدعوى التنقية العرقية، والذي يستنكر ذلك سيصبح عبء على الأمة القومية والشعب العضوي.

وعندما يظهر قوميون علمانيون في أية دولة عربية فإنهم بداهةً يريدون تصفية الدين لحساب أفكار ونعرات تفتيتية منحازة.

في الصين هناك قول شهير لكل من يريد أن يتغرب ويترك القيم الصينية، يُقال له: "اذهب وانظر إلى المرآه"، والاتجاه الذي ساد في الهند وقادها نحو الصدارة في العقد الماضي هو رفض كل ما هو غربي وتهنيد السياسة والاقتصاد، وأقرت اليابان مشروع سياسة الابتعاد عن أمريكا وهكذا يحدث التقدم.

وقد صرح صحافي ياباني بارز : "لقد ولَّت تلك الأيام عندما كانت أمريكا تعطس فتصاب آسيا بالزكام"[١].

---

(١) صدام الحضارات، صامويل هنتنجتون، ترجمة :طلعت الشايب الطبعة الثانية ١٩٩٩ ص١٧٧.

فما يقوم به كهنة العلمانية العرب في بلادنا من محاولات تغريب هي خيانة بمقياس الدول العلمانية ذاتها!

يقول شيمون بيريز :"عندما أشتري سلعة يابانية فأنا انتخب اليابان "مقال على الجيروزاليم بوست.

ولذلك يقرر صامويل هانتنجتون أنه : "إذا كانت المجتمعات غير الغربية تريد التحديث فلابد أن يكون على طريقتها وأن تحاكي اليابان في ذلك وليس على الطريقة الأوروبية، فعندما يحاول القادة السياسيون تغريب مجتمعاتهم لابد أن يفشلوا، إن الفيروس الغربي - الليبرالية - بمجرد أن يسكن مجتمعًا آخر يصبح من المستحيل استئصاله، فالفيروس يبقى ولكنه غير قاتل؛ يظل المريض على قيد الحياة ولكنه يبقى مريضًا، فبمحاولة التغريب يصنعون دولًا ممزقة ولا يصنعون مجتمعات غربية وستُصاب بلادهم بفصام ثقافي مزمن"[(١)] .

فكهنة العلمانية في بلادنا يحاولون تفريغ أُمة بأكملها من ثقافتها وتاريخها، فالذين ينادون بالعلمانية في بلادنا خسروا المعركة قبل أن تبدأ وتركوا الساحة سريعًا واعترفوا بفشل أمتهم ومهدوا الطريق للغرب .

ولذا يقول جمال الدين الافغاني واصفًا حال العلمانيين والليبراليين في بلادنا : " لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم". فالليبراليون هم مارينز العرب[(٢)] .

ويقول الشيخ الغزالي- رحمه الله- واصفـًا هؤلاء : "ما هؤلاء الناس ؟ إنهم ليسوا عربًا ولا عجمًا ولا روس ولا أمريكان !! إنهم مسخٌ غريبُ الأطوار صفيق الصياح بُليت بهم هذه البلاد

---

(١) صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، صامويل هنتنجتون، ترجمة :طلعت الشايب الطبعة الثانية ١٩٩٩ ص٢٥٢.

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني ص١٩٦.

إثر ما صنعه الغرب بها وترك بذوره في مشاعرها وأفكارها .فهم – كما جاء في الحديث – من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا – بيد أنهم عَدُوٌّ لتاريخنا وحضارتنا ، وعبءٌ على كفاحنا ونهضتنا . وعونٌ للحاقدين على ديننا والضانين بحق الحياة له ولمن اعتنقه، إن هؤلاء –ونقولها جازمين– لا يصلحون لحمل أعباء ولا لمخاصمة أعداء ".

وبينما يتشكك الآن الغربيون في عالمية مُثُلهم نجد من يريدون منَّا الاستسلام الصراح لهم، ومشكلة العلماني العربي أنه يقبل أية صياغة عدا تاريخ أمته وعدا ثقافتها، فهو عبء على الأمة، ولذا تلاحظ أن اشتراكيو الستينيات في بلادنا العربية هم ليبراليو الألفية الجديدة، فكثير من المثقفين الاشتراكيين في بلادنا العربية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وجدوا أنفسهم بلا أرضية ولا قضية، فبدءوا البحث عن مبرر وجيه للتوجه نحو السفارة الأمريكية بأن يعلنوا أنهم ليبراليون رأسماليون وبالفعل لجئوا لأمريكا بحجة الوقوف بجانبهم في مواجهة الإرهاب، مع أن أمريكا هي التي ساندت كل الدول الإرهابية عبر الخمسين عامًا الماضية .

ومشكلتنا مع العلمانية الغربية أنها فرّغت المعنى قبل أن تمنحك الترانزستور، وأسقطت القيمة والحس الخلقي أثناء إغرائك بأحدث الباقات، وضيّعت الغاية قبل أن تجوجل أول أبحاثك، مع أنك من السهولة بمكان أن تحصل على الترانزستور والفضائيات وجوجل وتطورّهم دون أن يهتز شيء من ضميرك!

فالمعرفة التقنية قرينة بالبحث العلمي لا بالعلمانية، وما أكثر الدول المتقدمة تقنيًا وهي تحارب العلمانية بشراسة، وما أكثر الدول المتخلفة تقنيًا وهي علمانية شرسة، وأقل دول العالم تقانة على الإطلاق هي دول علمانية عتيقة –ليبريا وموريشيوس وجامبيا وناميبيا– لكن من بقايا خبث العلمانيين العرب أنهم دائمًا يوهمونك بحتمية الحل العلماني!

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: "مخاوفنا من العصر الحديث تنبع من معرفتنا لا بسيناريو التحديث وحسب وإنما بعواقبه أيضًا، فنحن نقرأ الصحافة الغربية وندرس المجتمع

الغربي وغير المتخصصين يسمعون عن المخدرات والجريمة ، والمتخصصون يقرءون عن أزمة المعنى في الغرب ؛ ولذا حينما نتحرك في العصر الحديث فإننا لا نتحرك بتفاؤل شديد إذ أن معرفتنا المأساوية بما حدث هناك وبالثمن الفادح الذي سيُدفع يقلل من حماستنا بعض الشيء.

إن أول ماكينة معاصرة واجهتنها هي المدفع الذي حمله الجندي الغربي الذي جاء إلى بلادنا منذ قرنين من الزمان لا ليجلب النور والاستنارة وإنما لينهب الوطن ، إننا إذا طبقنا المقولات الغربية بحذافيرها كما يتغنى الليبراليون والعلمانيون العرب دوما، هذه المقولات التي أفرزت المخدرات والعدمية والانسحاق الروحي ونصف الشعب غير الشرعي - ٥٠٪ من أطفال الغرب غير شرعيين .- فإذا سرنا في نفس الطريق وارتكبنا نفس الأخطاء وانتهينا نفس النهاية فلن نكون أبطالًا ولا مأساويين، وإنما سنكون مهرجين لا نستحق أي عطف أو رثاء إن هذا الموقف سيجعلنا بشرًا من الدرجة الثالثة للأبد"[١] .

وبحمد الله سيجد هؤلاء العلمانيون كل حزم من مثقفي أمتنا المحترمين الذين يُفرِّغون مقولاتهم ويُسفهون أباطيلهم، ولذلك يعترف فؤاد عجمي قائلًا: "الذين يكتبون عن الليبرالية في العالم العربي كتبوا شهادة وفاة لأنفسهم لأنهم اختاروا المستحيل".

(١) عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، دار الشروق الطبعة الرابعة فبراير ٢٠٠٩ ص٤٤٢.

مثال آخر من أمثلة كهنوت العلمانيين العرب في بلادنا!

في أواخر العام ٢٠١٢ نشرت مجلة ال Scientific American العلمية العملاقة بحثًا بعنوان: "الصوم المتقطع يطيل العمر ويُحسن الصحة".

وأوضحت المجلة أن الصوم يحافظ على خلايا المخ ويمنع من السكتات الدماغية القاتلة طبقًا لأبحاث ماتسون Mattson وآخرون.

intermittent fasting protects against stroke damage

فالخلايا الدماغية للصائم يزيد بها معدل بروتين brain-derived neurotrophic factor والذي يقي الخلايا الدماغية من الموت.

أضف إلى ذلك أن الصوم يُحسن كفاءة الجهاز التنفسي، ويقلل من نوبات الربو.

In ٢٠٠٧ Johnson, Mattson and their colleagues published a clinical study showing a rapid, significant alleviation of asthma symptoms and various signs of inflammation in nine overweight asthmatics who near-fasted every other day for two months[١].

ويوضح البحث أن الصوم المتواصل – الوصال في الصوم الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم – long-term intermittent fasting قد يضر الإنسان كما في دراسة برازيلية جرت في العام ٢٠١١ على الفئران!

هذا كلام علمي لا إشكال فيه، لكن عندما يأتي كاهن علماني عربي آخر وهو "خالد منتصر"، ويهاجم فوائد الصوم بدافع الرد الكهنوتي على ما يسميه هو "وهم الاعجاز العلمي"

---

(١)http://www.scientificamerican.com/article/how-intermittent-fasting-might-help-you-live-longer-healthier-life/

فهو هنا يحارب العلم لا وهم الاعجاز العلمي، ويعارض أدلة علمية موثقة ومحكمة فقط ليُمرر مشروعه العلماني المتخلف.

فمشكلة العلماني العربي أنه يعيش وهم التبشير الكهنوتي بعلمانيته، ويعقد من أجل ذلك الندوات ولا تتوقف الزيارات الدعوية للتبشير بالكهنوت العلماني الجديد!

وخير مثال على ذلك هذه الندوة التي حاضر فيها نيافة العلماني خالد منتصر!

مشكلة العلماني العربي عمومًا أنه يعاني هلاوس ذهنية مرتبطة بكل ما هو ديني، فتنشأ عن هذه الهلاوس ردود أفعال غير متزنة، فتتحول المنظومة العلمانية على يده إلى كهنوت تبشيري!

لكن لا يدري العلماني العربي لجهله بأسس علمانيته أن الغرب الذي هو علماني يُشرِّع قوانين تحمي القناعة السائدة لأغلب المواطنين في الدولة العلمانية، فمثلًا هناك ما يُعرف بقانون ضد منكري الهولوكوست Law against Holocaust denial، فالذي ينكر محرقة اليهود على يد النازي يُعاقَب بالسجن المُشدد لمدة قد تصل إلى ٢٠ سنة كما في النمسا[١].

وفي التشيك تصل مدة الحبس إلى ثمان سنوات.

وهناك ١٤ دولة أوربية تُجِّرم التشكيك في جرائم النازي، وتحبس فورًا مَن يكتب كلمة واحدة تخالف القناعة السائدة لدى مواطنيها! [٢].

فالتشكيك في السائد في الدول العلمانية أيها العلماني يُعد جريمة.

وقد فصّلنا في هذه النقطة في فصلٍ سابق، بما يغني عن الإعادة.

غاية ما نقوله أن الغرب لا يقبل منك التشكيك بقيمه العلمانية، والعلماني العربي يريد أن يطعن في قيمنا لمجرد الترويج لكهنوت علماني؟

وقد تحدث الكاهن خالد منتصر في نفس ندوته تلك عن نظافة الخنزير في الدول الغربية،

---

(١)http://www.nachkriegsjustiz.at/service/gesetze/gs_vg_٣_١٩٤٧.php

(٢)http://en.wikipedia.org/wiki/Laws_against_Holocaust_denial

ويبدو أنه جاهل بأسس علوم الأمراض، فمشكلة الخنزير ليست في النظافة ولا حتى في الديدان -وبالمناسبة هو جاهل حتى بهذه المعلومة فالخنزير لا يحتوي فقط على Taenia solium كما زعم بل يحتوي على كافة أنواع الديدان بدءًا من pork tapeworm إلى trichinosis مرورًا بكافة طوائف الديدان مثل roundworms و pinworms و hookworms- فمشكلة لحم الخنزير من ناحية مرَضية أصلًا أنه يحمل الحامض الدهني المشبع من نوع -omega٦ والذي ما زلنا نكتشف أضراره يومًا بعد يوم، وليس دودة الـTaenia solium!

ولذا في المقال المنشور على موقع psychology today وتحت عنوان: "هل ما زال لحم الخنزير خطيرًا" وكان الجواب: "نعم" فلحم الخنزير هو أخطر انواع اللحوم على الإنسان[١].

القضية مع أمثال هؤلاء الكهنة العلمانيين ليست علمية، ولا فكرية، ولا معرفية، القضية أننا أمام كهنة يحاولون التبشير بكهنوتهم والتدليس على ضعاف النفوس والمنهزمين فكريًا من شبابنا، ولا يُفلح مع هؤلاء بيان جهلهم في كل مرة فما أسرع ما يتقافزون بين الأحبال، فقضيتهم هي التشكيك في الثوابت ولو بالكذب على العلم، ولا أنجع معهم إلا تطبيق قوانين البلاد العلمانية عليهم!

وياليت الحكومات العربية تطبق على العلمانيين العرب، ما تطبقه الدول العلمانية على مَن يخالف السائد لديها!

---

(١)https://www.psychologytoday.com/blog/perfect-health-diet/٢٠١٢٠٢/is-pork-still-dangerous

ومثال ثالث على أساليب الدجل العلمانية

بفضل الله أنني مُقل من تلقي جرعات التكريز -التبشير- العلمانية التي تلقيها أبواق الإعلام العربي صباح مساء، والمحسوب وجوده في بلادٍ إسلامية.

لكني ذات يوم وقع نظري في إحدى القنوات التليفزيونية عند أحد الفواصل الإعلانية -فاصل أقوال مأثورة- وجاء في هذا الفاصل ما يلي: "الحجاب واللحية والسُنن الظاهرة كلها مجرد قشور، والدين ليس كذلك!"

وهذا الخطاب يحتوي على جملة مغالطات منطقية وشرعية؛

أولها: لو افترضنا أن هذه قشور وأن المهم هو اللُب فهل يحيا لُب بغير قشور؟

ثانيها: هذه النظرة للعلاقة بين القشور واللُب تنطوي على إهدار شئ من معطيات الوحي، فهذه النظرة تحولت إلى آلية منظمة لابتلاع المفردات الشرعية وتغييبها باسم العناية باللُب.

يقول إبراهيم السكران -حفظه الله- : "ومن أهم أوجه الخلل في هذه الرؤية -رؤية دعاة المدنية - أنها غيبت دور الجزئي -القشور -في حفظ الكلي -اللُب-، فافترضت أن الجزئي نقيض للكلي، والواقع أن الجزئي هو التحقق الواقعي للكلي، فكل تطبيق واقعي يحمل في مضامينه معنى الكلي، إذ الكلي انما هو القدر المشترك المستخلص من استبعاد العارض والطارئ وإبقاء المعنى المشترك.

فإذا عظمنا الكلي وغيبنا تطبيقاته تحول هذا التعظيم إلى تعظيم نظري شكلي لا حقيقة له، ولنضرب على ذلك مثلًا، فإنك تجد بعض الكتاب يقول لك يجب أن نهتم بالفضيلة كقيمة كلية كبرى لا أن نهتم بتطبيقاتها الجزئية، ثم يفتت كل الآليات التي تعزز هذه القيمة ويتسامح في فتح كل الذرائع التي تعارض هذه القيمة، ويدعي بعد ذلك أنه ينظر إلى "الفضيلة" كقيمة لا كتطبيقات، فهذا إنما حفاظه على كلي الفضيلة حفاظ نظري شكلاني غير حقيقي.

ومن ادعى تعظيم كلي "الدعوة والبلاغ" ولكنه استهان بقيمة أفراد وآحاد وسائل الدعوة الشرعية، فهذا إنما تعظيمه للدعوة تعظيم نظري غير حقيقي.

وعليه فكلما كان الإنسان أكثر تعظيمًا لجزئيات الشريعة كان أكثر تعظيمًا للكليات الضمنية فيها، وكلما كان الإنسان مستهينًا بجزئيات الشريعة كان أكثر استهانة بالكلي المتضمن فيها، فلا طريق لتعظيم الكلي إلا بتعظيم جزئياته وتطبيقاته، وبذلك يتبين أن دعاوى تعظيم الكلي التي يرددها غلاة المدنية إنما هي وسيلة لتفريغ الكلي من محتواه باسم تعظيمه.

وقد شرح الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات "دور الجزئي في إقامة الكلي" وذلك في فصل خاص عقده لهذه المسألة وساق فيه الأدلة، ومن ذلك قوله رحمه الله: «فالجزئيات مقصودة معتبرة في إقامة الكلي..، وحين كان ذلك كذلك: دل على أن الجزئيات داخلة مدخل الكليات في الطلب والمحافظة عليها»[(١)].

ثم أشار الشاطبي إلى كون الكلي إنما هو مجرد "مفهوم نظري" ولذلك كان جمهور المناطقة يؤكدون أن الكلي إنما يوجد في الذهن أما ما هو خارج الذهن فإنما هو تطبيقاته، وهذا يعني أن من عظم الكلي دون تطبيقاته فإنما عظم مفهومًا نظريًا ذهنيًا محضًا لا واقع فعليًا له، كما يقول الشاطبي في الاستدلال لهذه القضية: «ومنها: أن الجزئيات لو لم تكن معتبرة مقصودة في إقامة الكلي لم يصح الأمر بالكلي من أصله، لأن الكلي من حيث هو كلي لا يصح القصد في التكليف إليه، لأنه راجع لأمر معقول لا يحصل في الخارج إلا في ضمن الجزئيات، فتوجُّه القصد إليه من حيث التكليف به توجه إلى تكليف ما لا يطاق، وذلك ممنوع الوقوع، فإذا كان لا يحصل إلا بحصول الجزئيات فالقصد الشرعي متوجه إلى الجزئيات، وأيضا: فإن المقصود بالكلي هنا أن تجرى أمور الخلق على ترتيب ونظام واحد لا تفاوت فيه ولا اختلاف، وإهمال القصد في الجزئيات يرجع إلى إهمال القصد في الكلي، فإنه مع الإهمال لا يجري كليًا».

ومن وجهٍ آخر فإن المتأمل في أخبار أهل الكتاب التي ساقها الله في القرآن يلاحظ أن أهل

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ١-٣٨٠.

الكتاب كانوا يعظمون ويقدسون كتبهم السماوية، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى ذمهم وعابهم، لأن تعظيمهم وتقديسهم لتلك الكتب السماوية إنما كان تقديسًا نظريًا وتعظيمًا شكلانيًا لا حقيقة له ولا أثر تطبيقي فعلي، فلم ينفعهم ذلك.

فليس المراد إذن "تقديس النص" شكليًا، أو تقديس المفاهيم نظريًا، وإنما إقامة الحقائق والمعاني واقعًا حيًا معاشًا.

ولذلك روى أحمد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لأصحابه: «**يوشك أن يرفع العلم**»، قال له زياد بن لبيد: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقْرئه أبناءنا، ويُقْرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ثكلتك أمك يا ابن لبيد! إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة، أوليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله، ثم قرأ: وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ**».

فكشف النبي صلى الله عليه وسلم للصحابي الجليل زياد بن لبيد -وهو أنصاري مهاجري- أن القضية ليست في وجود النص وحفظ ألفاظه، وإنما في إقامته واقعًا حيًا معاشًا على الأرض، وإقامته لا تكون إلا بإقامة تفاصيله وتطبيقاته.

والمقصود أن مراعاة الجزئي هي الطريق لإقامة الكلي، وإنما يعاب الجزئي إذا صادم الكلي، أما إذا لم يصادمه ولم يعارضه فإن إهدارَه إهدارٌ للكلي كما سبق بيانه"[١]. انتهى كلامه حفظه الله

---

(١) مآلات الخطاب المدني، إبراهيم السكران، ص٢٢٣-٢٢٦.

ومثال أخير عن العلمانية مع الكاهنة "نوال السعداوي"

أدمغة العلمانيين لا تتجاوز نقاب امرأة وقطعة ختان طفل.

وفي الوقت الذي يحاربون فيه النقاب تخرج علينا نوال السعداوي لتقرر أن معدل تأثر المرأة بالرجل شهوانيًا، هو نفس المعدل بالنسبة لعلاقة الرجل بالمرأة. وبناءً على هذا الفرض فقد طالبت بأن يتحجب الرجال!

وردًا على ذلك نقول أن: هذا الفرض لا يصدر إلا نتيجةً لما تروج له المواقع الشعبية، وثقافة البوب ساينس، والمجلات الإباحية وأفلام المقاولات العربية، حيث تركز كل هذه القنوات على فكرة الهوس الجنسي عند المرأة، وأن المرأة مهووسة بالجنس كالرجل إلى الحد الذي قد تصدق معه بعض النساء الأمر، كما هو الحال مع الكاهنة نوال السعداوي.

لكن ألف باء طب نفسي أن: ميول الرجل الجنسية تفوق بأضعاف مضاعفة وعشرات الأفدنة وبما لا يقارن بميول المرأة الجنسية -يعرف ذلك أي رجل متزوج بالمناسبة-.

بل إن المواقع الطبية الكبرى على الشبكة العنكبوتية تتحدث عن الأمر كبديهة مُسلمة[١].

فالمرأة طبقًا لموقع ويب ميد قضيتها مع الملف الجنسي قضية عاطفية. -الحنان يكفيها تمامًا.

وتتعلق المرأة بهمسات الرجل أكثر مما تتعلق حتى بملامحه.

فلو كانت نوال السعداوي تريد إسكات شهوة المرأة لطالبت لا بحجاب الرجل وإنما بغلق فمه!

---

(١)http://www.webmd.com/sex/features/sex-drive-how-do-men-women-compare

بل إن موقع الطب النفسي اليوم[(١)].

يؤكد أن المرأة قد لا تهتم بالملف الجنسي ربما لسنوات. لكن الرجل في المقابل لا يصبر لأيامٍ قليلة.

وقد قرات قبل ذلك في أحد الابحاث أن الرجل الغربي يفكر في الجنس كل ست دقائق.

والنظر هو محور الشهوة الرئيسي لدى الرجل، فالرجل تفتنه المرأة المتبرجة، ولذا تُركز الإعلانات على ربط المرأة بالمنتَج لجذب الرجل.

في المقابل النظرة لا تمثل محورًا في شهوة المرأة، وهي لا تهتم كثيرًا بصورة الرجل المتبرج –إذا جاز التعبير–، ولم نلحظ من قبل في أحد الإعلانات إغراءً للمرأة بسيقان رجل!

ولو قام أحدهم بعمل إعلان بهذه الصورة فسيصبح مدعاة للسخرية من الجميع!

فكيف تقارن الرجل بالمرأة في هذا الباب؟

ولو دققت في نسبة تفكر المرأة بالجنس وتلك النسبة لدى الرجل لأدركت مدى تكافؤ نسبة العورة لدى الرجل بتلك التي لدى المرأة.

ثم بعيدًا عن كل ذلك.

مَن قال أن غلق جميع أبواب الشهوات أو الشبهات هي من مرادات الشرع؟

أما علمت أن وجه المرأة الذي تغزل في جواهره البشر عبر التاريخ عند بعض أئمتنا المجتهدين ليس بعورة ولا يلزمها تغطيته؟

أما علمت أن الفتاة قبل البلوغ لا يلزمها ستر البالغة؟

بل إن حرمة –تخيل حرمة– تغطية وجه المراة في الطواف له عند العلماء توجيه بديع وهو لتقريب الفتنة من المتعبدين للتمحيص!

---

(١)https://www.psychologytoday.com/blog/cultural-animal/٢٠١٠١٢/the-reality-the-male-sex-drive

فلو تدّبرت معنى التكليف وتبصّرت حِكم عوارض القلب وضوابط الشرع التي لا تُلزم بغلق جميع الأبواب لترى مكان وقوفك من الباب وخائنة عينك لانفتحت لك معانٍ جلية.

لكن ما أبعد العلماني عن تدبر شيءٍ من ذلك!

مذبحة الأرمن في ظل الخلافة الإسلامية!

يعرف التاريخ أن العلمانيين هم أصحاب الحروب العالمية حصريًا، وهم دعاة تفريغ القارات من البشر – استراليا والأمريكتين نموذجًا–.

ونظرًا لذلك هم يحاولون ذر الرماد في العيون فيقولون: والحضارة العثمانية أبادت الأرمن عام ١٩١٥ م.

ولم يعرف الملاحدة أن آخر خليفة عثماني عبد الحميد الثاني İkinci Abdülhamit تم عزله رسميًا عام ١٩٠٨ عن الحكم العثماني!

حيث قامت حركة تركيا الفتاة Jön Türkler ذات التوجه العلماني والتي ستتسع لاحقًا لتصبح جمعية الاتحاد والترقي İttihat ve Terakki Cemiyeti بعزل آخر خليفة مسلم عام ١٩٠٨ في حين أن مذبحة الأرمن جرت عام ١٩١٥ إبان الحرب العالمية الأولى!

وكان المفكر التنظيري لحركة تركيا الفتاة هو المجرم الملحد عبد الله جودت Abdullah_Cevdet أو عدو الله Aduvullah كما كان يُسمى في تركيا[١].

والقيادة العسكرية لحركة تركيا الفتاة والتي كانت مسئولة مسئولية مباشرة عن تنفيذ مذابح الأرمن كانت من نصيب أنور باشا Enver Paşa وزير الحربية.

وكانت تركيا تُسمى في ذلك الوقت "أرض أنور Enverland "[٢].

ومن البلايا التي قامت بها حركة تركيا الفتاة –جمعية الاتحاد والترقي– بعد عزل الخليفة أنها انضمت إلى ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، مع أن هذه حرب لا تعني الأمة الإسلامية في شيء، وبسببها هلك الجيش العثماني وضاعت هيبة الدولة العثمانية!

فقد دخل المسلمون في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل!

---

(١)http://en.wikipedia.org/wiki/Abdullah_Cevdet

(٢) http://en.wikipedia.org/wiki/Enver_Pasha

ومن غريب ما قام به أنور باشا في ذلك الوقت أنه أرسل جيشًا -قرابة ٩٠ ألف مقاتل- لمحاربة روسيا في معركة ساركاميش Battle of Sarikamish وكان أغلب الجنود بلا سلاح ولا أحذية وهلك الآلاف منهم بسبب موجات الثلوج والبرد القارص، وكانت هذه المهزلة أحد أبرز نتائج الحرب العالمية الأولى! [(١)].

وأثناء صراعه مع روسيا في الحرب العالمية الأولى لاحظ أنور باشا خيانة حقيقية من الأرمن القاطنين في الحدود الشمالية للبلاد وتسهيلهم الانتصارات المتتالية للروس وتخريبهم لقرى الأتراك، وبناءًا عليه فقد اعتبرهم أنور باشا طابورًا خامسًا وبدأ في ترحيلهم قسريًا من مناطق الحدود إلى مدن أخرى في الأناضول.

فقد كان الأرمن أشد إجرامًا على الأتراك وأكثر ترويعًا لهم على طول الحدود مع روسيا، ولذا ينكر كثير من كبار المفكرين الغربيين شيء اسمه "مذبحة الأرمن"، ومن هؤلاء: الكاتب الغربي المتحامل على الإسلام برنارد لويس Bernard Lewis وجاستين ماكارثي Justin McCarthy والمؤرخ الأمريكي مايكل جنتر Michael M. Gunter وغيرهم الكثير.

Poole, Steven. Unspeak: How Words Become Weapons, How Weapons Become a Message, and How That Message Becomes Reality, Grove Press, ٢٠٠٧, p.٩٥[(٢)].

وبغض النظر عن أحداث فترة ١٩١٥ و١٩١٦ فإن الخلافة العثمانية لم يكن لها وجود أصلًا في ذلك التوقيت.

ومن عجيب ما يُقال هنا أن نفي الأرمن وترحيلهم استمر أيضًا أيام العلماني المحارب

---

(١)http://en.wikipedia.org/wiki/Battle_of_Sarikamish

(٢)https://www.youtube.com/watch?v=-bmopgezqjI.

للخلافة الإسلامية مصطفى كمال أتاتورك! [(١)].

فإذا أردت أن تتهم أحدًا بمذبحة الأرمن فاذهب إلى الملحد المجرم عبد الله جودت وإلى العلماني الخبيث مصطفى كمال أتاتورك!

ولا تنس أن الأرمن عاشوا في دولة الخلافة قرونًا طويلة وكان منهم الوزراء!

وما أن سقطت الخلافة إلا وقد حان وقت رحيل كل الأثنيات العرقية كالأرمن واليونانيين والأكراد!

---

(١)Documents on British Foreign Policy, vol. vii, p. ٣٠٣.

المرأة بين الإسلام والعلمانية

مشكلة المؤسسات العلمانية مع المرأة ليس تحريرها وإنما تثوير لها في مقابل الرجل وعزلها عنه، فالهدف من حركات تحرير المرأة ليس تحقيق مكاسب للمرأة وإنما توسيع لرقعة الخلاف بينها وبين الذكور .

فقد تحولت العلاقة بين الأنثى والذكر من علاقة حميمة يحيطها دفء المشاعر والحنو إلى علاقة فتاكة كلٌّ منهما يتربص بالآخر ليفتك به ويُثبت تقدمه البيولوجي عليه.

والمرأة في الواقع الإلحادي وضعها أشد مرارة من الواقع العلماني.

فالمرأة طبقًا لأدبيات الإلحاد لها تصنيف في السلسلة الحيوانية مستقل تمامًا عن تصنيف الرجل، فالمرأة تندرج تحت تصنيف Homo parietalis بينما الرجل تحت تصنيف Homo frontalis فدراسة حجم الجمجمة أثبتت وجود فرق جوهري في حجم المخ لصالح الرجل بمقدار ١٢- ١٩ ٪ .

يقول التطوري اللاأدري الشهير ستيفن جاي جولد نقلًا عن بروكا: " بشكل عام، الدماغ أكبر في البالغين مما هو عليه في كبار السن، في الرجال عنه في النساء، في الرجال المتفوقين عنه في الرجال المتواضعين، في الأعراق الأرقى عنه في الأعراق الأدنى".

In general, the brain is larger in mature adults than in the elderly, in men than in women, in eminent men than in men of mediocre talent, in superior races than in inferior races[1].

---

(١) Gould, The Mismeasure of Man, p. ٨٣

Gould, Stephen Jay. ١٩٨١. The Mismeasure of Man. New York: W. W. Norton & Company.

فالمرأة أدنى من الرجل من منظور تطوري

women were intellectually inferior(١).

بل وطبقًا لنفس المصدر فإن المرأة تطابق الغوريلا، فعدد كبير من النساء أدمغتهن تكاد تطابق تلك الخاصة بالغوريلا مقارنةً بالرجال البالغين، إن دونية المرأة –نعم دونية المرأة– هي حقيقة لا يمكن لأحد أن يعترض عليها للحظة، فقط يمكن النقاش في درجة تلك الدونية!

large number of women whose brains are closer in size to those of gorillas than to the most developed male brains. This inferiority is so obvious that no one can contest it for a moment; only its degree is worth discussion(٢).

فالمرأة طبقًا للإلحاد تمثل أدنى مراحل التطور البشري .

represent the most inferior forms of human evolution

وهي في ذلك تطابق الأطفال والهمج أكثر من مطابقتها للرجال البالغين والمتحضرين.

are closer to children and savages than to an adult, , civilized man.

ولا تتفوق المرأة إلا في التقلب والتناقض وغياب الفكر والمنطق.

They excel in fickleness, inconsistency, absence of thought and logic, and incapacity to reason

وإن كان ستيفن جاي جولد يرد على بعض تلك النقاط، لكن تبقى ردوده غير متسقة مع الرؤية المادية الداروينية للمرأة، وإنما هي من باب حقوق المرأة وهذه دعوى ميتافزيقية لا دعوى علمية ولا مادية ولا دارويينة.

خلاصة ما في الأمر أن هذا المستوى من التعامل مع المرأة يحدث داخل المنظومة الإلحادية

---

(١)Gould, The Mismeasure of Man, p.١٠٤.

(٢)Gould, The Mismeasure of Man, p.١٠٤,١٠٥

الداروينية المادية بينما نلاحظ أن الإسلام يُمجـد المرأة بدون النظر لهذه الدواعي الفتاكة، فقد جعلها رمزًا وسرًا وكائنـًا مُقدسـًا، وجعل الجنة تحت أقدامهـا .. وجعل العلاقة بينها وبين الرجل علاقة مقدسة، وأخذ من الرجل ميثاقًا غليظـًا على ذلك ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:٢١] وقال رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»[١].

بينما نجحت كل المؤسسـات التي نادت بتحرير المرأة في تحويل المرأة من كائن إنساني مُميـز إلى حيوان جميل ! وهذا نلاحظه بشدة في طوابير الموديلات. ففي مؤسسات تحرير المرأة هنـاك افتخـار دائم بعدد النسـاء اللاتي نزعتهن من الأُسـرة.

كتب الملحد الشهير شوبنهاور يقول: "المرأة مُهيئة مبُاشرةً لأعمال التمريض والتعليم في طفولتنا المبكرة، ففي الواقع المرأة تركيبتها صبيانية وتافهة وقصيرة النظر".

"Women are directly fitted for acting as the nurses and teachers of our early childhood by the fact that they are themselves childish, frivolous and short-sighted"[٢].

إن الإلحـاد بطبيعته المادية الفجة القاصرة يدخر كُل المجاملة للأقوياء والأرقى تطوريًا من وجهة نظره، وكُل السخرية للضعفاء.

فإذا لم تكن توجد أرواح إنسانية فإن الضعفاء هم أقل شيء نحتـاج إليه في هذا العالم.

المهم! من ترّصد أقوال العلمانيين وأحوالهم لخرج ببلايا ورزايا كان فيما ذكرنا تنويهًا وتحليلًا لما تركنا، فما خلّينا لعدم المتابعة أعطينا وجهة نظرنا فيما رصدنا أُسه.

---

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ.

(٢)http://insomnia.ac/essays/on_women/.

هل تقبل برئيس نصراني أو ملحد؟

لكن يا ترى لو قال لك علماني: هل تقبل برئيس نصراني أو ملحد؟

فبماذا ستجيبه؟

إذا قلت له: لا أقبل؛ فسيقول لك وأين التعايش والحرية و و و

أما إذا قلت له: أنت كاهن علماني تجهل أبجديات العلمانية، فشرط الرئاسة في كثير من الدول العلمانية هو عدم انتخاب رئيس يخالف السائد في تلك الدول، ولذا تراها تشترط في دساتيرها ليس ديانة الرئيس بل ومذهبه أيضًا -بل وفرع المذهب-.

تشترط مثلًا الدنمارك: " يجب أن يكون الملك عضوًا في الكنيسة الإنجيلية اللوثرية".

الدستور الدنماركي الجزء الثاني، الفقرة السادسة.

The King shall be a member of the Evangelical Lutheran Church. [١]

بل وينص الدستور رسميًا أن: "الكنيسة الإنجيلية اللوثرية هي كنيسة الدولة، ويجب أن تدعمها الدولة".

The Evangelical Lutheran Church shall be the Established Church of Denmark, and as such shall be supported by the State[٢].

أما بريطانيا فلا يكون ملكًا لها إلا رئيس كنيسة بروتستانتية، ولا يكون رئيسًا لوزرائها إلا من داخل الكنيسة البروتستانتية[٣].

والدول العلمانية تضع في قوانينها ما يمنع من وصول بعض أصحاب المذاهب لدرجات

---

(١)THE CONSTITUTIONAL ACT OF DENMARK, PART II, §٦

(٢) THE CONSTITUTIONAL ACT OF DENMARK, PART I, §٤

http://www.stm.dk/_p_١٠٩٩٢.html

(٣)http://web.archive.org/web/٢٠٠٨٠٣٠٧٠٠٣٤١٣/www.royalinsight.gov.uk/output/Page٤٧٠٨.asp

إدراية عليا في الدولة فضلًا عن الرئاسة.

فالملحد مثلًا يُصنف كأحقر أقلية على الإطلاق، في دولة كأمريكا ويفوق في ذلك مدمني المخدرات والشواذ جنسيًا[١].

ويعترف ريتشارد داوكينز باستحالة أن يصل ملحد للكونجرس.

بل إن الملحد في الدول العلمانية محروم من أن يكون مُدرسًا في مدرسة –لأنه سيُفسد القيم– كما في المثال الأيرلندي[٢].

بل إن أحد أسس دستور الولايات الأمريكية ألا يتولى الملحد أي منصبٍ على الإطلاق – فكيف يتولى الرئاسة؟

مثلًا: طبقًا لدستور ولاية أركنساس الفصل التاسع عشر المادة الأولى: "لا يحق لأي ملحد تولي أي منصب إداري في الولاية، ولا يكون أهلًا للشهادة في المحكمة"[٣].

ودستور ولاية نورث كارولينا ينص في الفصل السادس المادة الثامنة أن الملحد فاقد للأهلية! [٤].

"Disqualifications of office. The following persons shall be disqualified for office: First, any person who shall deny the being of Almighty God".

وهو نفس ما ينص عليه دستور ولاية بنسلفانيا وولاية ساوث كارولينا وولاية تينيسي

---

(١)http://newsjunkiepost.com/١٩/٠٩/٢٠٠٩/research-finds-that-atheists-are-most-hated-and-distrusted-minority/

(٢)http://www.irishtimes.com/premium/loginpage?destination=http://www.irishtimes.com/debate/why-must-agnostics-be-obliged-to-teach-faith-١,٦١٦٥٨٠

(٣)Arkansas State Constitution, Article ١٩ Section ١ Miscellaneous Provisions

(٤)North Carolina's State Constitution, Article ٦ Section ٨

ودستور ولاية تكساس الفصل الأول الفقرة الرابعة أن الإيمان بالله شرط بديهي للثقة وتولي منصب إداري.

بل الملحد ممنوع في قلب الدول العلمانية من الاشتراك في فرق الكشافة -كما في أمريكا-.

فكيف يُتخيل أن يصبح ملحد رئيسًا لدولة علمانية؟

بعد هذه الأدلة سيخرس الكاهن العلماني العربي، وسينزوي سريعًا!

لكن في واقع الأمر أنت لم تُقدم لهذا الكاهن العلماني إجابة؛ أنت فقط أحلته إلى نموذج علماني ولو لم يكن هذا النموذج العلماني موجودًا -لو لم تكن هذه النصوص الدستورية البريطانيه والدنماركية موجودة مثلًا- لما استقامت لك حُجة معه!

وهنا شاهد هام جدًا؛ وهو أنك لا تجعل هذا الكاهن العلماني يستخفك بشبهاته، بل كن ثابتًا على مبادئك الدينية، سواءً ثمة ما يُلجم هذا الكاهن أو لم يكن تحت يدك ما يُلجمه.

فالكاهن العلماني بطبيعته لا يملك سوى التشغيب عليك والسفسطة على مسلماتك الدينية بفرضياته الحمقاء، ولو وُجد في الدول العلمانية أية فكرة مهما كانت سخافتها أو جنونها فالكاهن العلماني العربي مستعد لتقبلها والتبرير لها، فاجعل أنت لعلاقتك بدينك عِزة ولا تنساق خلف فروض وسفسطات هؤلاء الكهنة ولا تجعلهم يستخفون بعقلك.

فهؤلاء الكهنة كانوا يبررون للنظم العلمانية حين أتت بهتلر وموسوليني، وهم اليوم يبررون لكون نصف أطفال تلك الدول غير شرعيين، وسيبررون غدًا لها حين تُعيد هذه الدول العلمانية أنظمة الإبادة العرقية والسحق الشمولي.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

لا تجعلهم يسفسطون بديهياتك ويستخفون بعقلك

الفصل التاسع

أين حقوق الملحدين العرب؟

"فأمريكا أقوى دولة علمية في العالم ما زالت تصنف الملاحدة على أنهم غير مقبولين في المجتمع الأمريكي".

أين حقوق الملحدين في البلاد العربية؟

إذا كنت من المهتمين بالملف الإلحادي، ففي الغالب ستتعرض لقضية حقوق الملحدين في البلاد العربية!

ولماذا هؤلاء الملحدين يعانون من التهميش المُتعمد بعكس دول الغرب وأمريكا؟

ولماذا لا تُفتح لهم النوافذ الإعلامية مثل غيرهم من أصحاب الأفكار المستقلة؟

وإلى متى سيظل الملحد العربي تحت مقصلة الاحتقار والاستهجان؟

ربما هذه الأسئلة هي أشهر الأسئلة التي يُكثر الملحدين العرب من ترديدها في الفترة الأخيرة خاصةً الذين ظهروا منهم على بعض الشاشات.

وطبعًا المستمع العربي لا يعرف أبعاد القضية، ولا يعرف كيف ينظر الغرب أو أمريكا للملحدين.

ومن أجل ذلك يأتي هذا المقال لبيان موقف الغرب الحقيقي من الملحدين.

وإظهار الدجل والكذب الذي يمارسه الملحد العربي طوال الوقت على المستمعين والمتابعين.

نشرت المجلة العلمية العملاقة "الأمريكي العلمي Scientific American " بحثًا عن مدى كراهية المواطن الأمريكي للملحدين، وكان عنوان البحث يشي بالأمر فعنونت المجلة بحثها بالتالي: " نحن لا نثق في الملحدين In Atheists We Distrust ".

وبينت المجلة أن أغلب الشعب الأمريكي لا يطيق الملحدين ولا يقبل أن يكونوا حتى معلمين لأبنائهم! [١].

وتحرّت المجلة كيف أن استهجان المواطن الأمريكي للملحدين هو الموقف السائد سواءً أُعلن في قراراتٍ رسمية -كما سيأتي بيانه- أو أُضمر في قلب الشعب الأمريكي!

وفي تقريرٍ منفصل قامت به جريدة الواشنطون بوست Washington Post في العام ٢٠١١

---

(١)http://www.scientificamerican.com/article/in-atheists-we-distrust/

وفي رصد لأكثر طائفة مكروهة في أمريكا على الإطلاق، تبيّن أن الملحد يتبنى المرتبة الأعلى في الكراهية من بين جموع الشعب الأمريكي حصريًا وبلا منازع[١].

وقبل هذا التقرير بفترة قصيرة كانت جامعة مانيسوتا الأمريكية University of *Minnesota* قد أجرت بحثًا مستقلًا على مدار سنتين عن المسلمين المتطرفين والشواذ جنسيًا والملحدين، ومَن بين هؤلاء يخشاه المواطن الأمريكي على نفسه؟

وتبين أن المسلم المتطرف والشاذ جنسيًا أقرب للأمريكي من الملحد[٢].

قد تكون هذه التقارير البحثية مدهشة للكثيرين، والأكثر داهشية أن تكون لهذه التقارير سندًا على أرض الواقع في صورة قوانين تؤكد رسميًا احتقار الملحد في الدول الغربية وازدراؤه.

فأحد أسس دساتير الولايات الأمريكية ألا يتولى الملحد أي منصبٍ على الإطلاق، لأن الذي ينكر وجود الله لا قيمة لعهده ولا ضمان لأمانته كما يقول جون لوك John Locke مؤسس الدولة المدنية في رسالته في التسامح: "لا يمكن التسامح على الإطلاق مع الذين ينكرون وجود الله، فالوعد والعهد والقسم من حيث هي روابط المجتمع البشري ليس لها قيمة بالنسبة الى الملحد، فإنكار الله حتى لو كان بالفكر فقط يفكك جميع الأشياء "[٣].

وإذا كانت هذه نظرة مؤسس الدولة المدنية في الغرب، فكيف بجموع الشعب؟

إن نظرة أولية إلى دساتير الولايات الأمريكية تعطي صدمة لكل ملحد عربي يتبجح بطلب

---

(١)http://www.washingtonpost.com/opinions/why-do-americans-still-dislike-atheists/١٨/٠٢/٢٠١١/AFqgnwGF_story_١.html

(٢)http://newsjunkiepost.com/١٩/٠٩/٢٠٠٩/research-finds-that-atheists-are-most-hated-and-distrusted-minority/

(٣) جون لوك، رسالة في التسامح ص٥٧.

حقوقه في بلادنا العربية، إن رصد مواد الدساتير الغربية تعكس مدى إدراك هؤلاء لخطر الملحدين ومحاولة استبعادهم قدر الإمكان عن الحياة العامة.

وقد ذكرت في الفصل السابق شيئًا من دساتير الولايات الأمريكية وكيف تنظر للملحد، فكما ذكرنا في دستور ولاية أركنساس Arkansas State Constitution الفصل التاسع عشر المادة الأولى: "لا يحق لأي ملحد تولي أي منصب إداري في الولاية، ولا يكون أهلًا للشهادة في المحكمة"[١].

تخيل!!!

تخيل يا مَن تطالب بحقوقك في بلادنا العربية!

تخيل يا مَن ترغب في الاعتراف بك، والدول العلمانية الليبرالية الديموقراطية لا تطيقك ولا تقبلك لسابق عهدها بك وبطبيعة إلحادك وبمنتهى غرسك!

ثم قلِّب في دستور ولاية نورث كارولينا North Carolina's State Constitution لتتبين كيف أنه ينص في الفصل السادس المادة الثامنة أن الملحد فاقد للأهلية![٢].

إنهم يتعاطون معك كطائفة أدنى من البشر فما الذي استقر في أذهانهم من تاريخ علاقتك بهم حتى أوصْلتهم إلى تقرير ذلك في دساتيرهم؟

ثم ارجع الطرف إلى دستور ولاية بنسلفانيا Pennsylvania's State Constitution في الفصل الأول مادة أربعة لترى كيف أن الملحد ليس أهلًا للثقة وعليه فلا يحق له إنشاء أية مؤسسة

---

(١)Arkansas State Constitution, Article ١٩ Section ١ Miscellaneous Provisions.

No person who denies the being of a God shall hold any office in the civil departments of this State, nor be competent to testify as a witness in any court.

(٢) North Carolina's State Constitution, Article ٦ Section ٨

"Disqualifications of office. The following persons shall be disqualified for office: First, any person who shall deny the being of Almighty God''.

ربحية[١].

أرأيتم إلى أي حدٍ يقبلكم الناس في الغرب ويفتحون لكم النوافذ!!!

إنهم لا يطيقون حتى أن تتربحوا أو تكون لكم أهلية أو أن تجلسوا على كرسي إداري!!!

ثم تأتون إلى بلادنا وتطالبون بحقوقكم؟

بل وتكذبون على الغرب؟

إن الدساتير الغربية طافحة بالمواد الدستورية الرصينة التي تلعنكم وتلعن تواجدكم بينهم؛ انظروا إلى دستور ولاية ساوث كارولينا *South Carolina* الفصل السادس المادة الثانية، ودستور ولاية تينيسي *Tennessee* الفصل التاسع الفقرة الثانية، ودستور ولاية تكساس *Texas* الفصل الأول الفقرة الرابعة وكلها تشترط أن الإيمان بالله شرط بديهي للثقة وتولي منصبٍ إداري.

فأمريكا أقوى دولة علمية في العالم ما زالت تصنف الملاحدة على أنهم غير مقبولين في المجتمع الأمريكي، وكان هذا واضحًا جدًا بصفة رسمية في الكلمة التي قالها جورج بوش الأب حين سألة صحفي أمريكي في عام ١٩٨٧ " هل يمكن اعتبار الملحد الأمريكي متساويًا في الجنسية والمواطنة مع غيره من الأمريكان؟

وأصبح رد بوش مشهورًا في ذلك الوقت حين قال: " لا أعرف إذا كان من الممكن اعتبار أن الملحدين مواطنون أو حتى اعتبارهم محبين للوطن؛ هذه أمة موحدة تحت راية الله "[٢].

فالإلحاد شذوذ فكري طاريء لا تقبله النفوس ولا العقول!

كما قلنا دساتير الولايات الأمريكية طافحة بالمواد الدستورية الرصينة التي تحرم الملحد من

---

(١) Pennsylvania's State Constitution, Article ١ Section ٤

"No person who acknowledges the being of a God and a future state of rewards and punishments shall, on account of his religious sentiments, be disqualified to hold any office or place of trust or profit under this Commonwealth''.

(٢)Atheist cannot be considered as patriotic citizen.

تولي أي منصبٍ إداري أو حتى إنشاء مؤسسة ربحية، وأن الملحد يُعامَل في أمريكا كشخص فاقد للأهلية طبقًا للدساتير التي تعمل بها المحاكم.

وهذا يفنِّد الأكذوبة التي يروج لها الملحدون العرب في بلادنا من أنهم مُعترفٌ بهم في الغرب.

وإذا جلت بناظريك في شرق العالم وغربيه فلن تتجاوز النتيجة التي قرّرناها من أن الملحد شخص غير مقبول ولا يمكن التعامل أو التعايش معه بأمان.

ففي البرازيل مثلًا يُعامل الملحد بنفس درجة مدمني المخدرات، ويُصنف طبقًا للصحافة الرسمية البرازيلية كأحقر أقلية[١].

أما في دولة علمانية ديموقراطية عريقة مثل أيرلندا، فإن الملحد ممنوع من التدريس في المدارس الحكومية[٢].

فلا يُؤتمن ملحد على الأطفال الصغار، ولا يوثق به ولا بالمحتوى الذي سيُلقنه للأجيال. تخيل!!!

وفي اليونان دولة الفلاسفة القدامي وأيقونة الفكر في أوربا، فإنه يتم رسميًا اعتقال أي ملحد ومحاكمته[٣].

والملحد في الجملة محرومٌ في أمريكا من حضانة الطفل، بل ومن الالتحاق بفرق الكشافة – تنص منظمة الكشافة الأمريكية Boy Scouts of America (BSA) على منع الملحدين

---

(١) http://www.paulopes.com.br/٠٥/٢٠٠٩/ateus-e-usuarios-de-drogas-sao-os-mais.html#.VCNTNBYZQQs.

(٢)http://www.irishtimes.com/premium/loginpage?destination=http://www.irishtimes.com/debate/why-must-agnostics-be-obliged-to-teach-faith-١,٦١٦٥٨٠.

(٣)http://en.wikipedia.org/wiki/Elder_Pastitsios.

واللاأدريين من الالتحاق بها-[١].

وفي وسائل الإعلام من النادر ظهور شخصية الملحد إلا في إطار المختل عقليًا أو الشاذ جنسيًا.

فما يفعله الملحد العربي هو عار وكذب وافتراء على البشر، حين يزعم أن للملحدين قيمة في الغرب.

ولا يدري الملحد العربي لجهله بالغرب وبنظم الدساتير الغربية، أن الغرب الذي هو علماني يُشرِّع قوانين تحمي القناعة السائدة لأغلب المواطنين في تلك الدول، فمثلًا هناك ما يُعرف ب "قانون ضد منكري الهولوكوست Law against Holocaust denial "، فالذي ينكر محرقة اليهود على يد النازي يُعاقَب بالسجن المُشدد لمدٍ قد تصل إلى عشرين عامًا كما في النمسا[٢].

وفي التشيك تصل مدة الحبس إلى ثمان سنوات.

وهناك ١٤ دولة أوربية تُجرِّم التشكيك في مذابح النازي، وتحبس فورًا مَن يكتب كلمة واحدة تخالف القناعة السائدة لدى مواطنيها! [٣].

فالتشكيك في السائد في الدول العلمانية أيها الملحد يُعد جريمة، فما بالك بالتشكيك في قيّمنا الدينية في بلادنا العربية؟

هل تريد أن نُطبق عليك ما تطبقه الدول العلمانية على الذين يُشكِّكون في السائد لديها؟

لقد حُبس مؤرخون كبار في الغرب لمجرد كلمات تشكيكية في القناعات السائدة لدى قطاعٍ

---

(١)https://en.wikipedia.org/wiki/Boy_Scouts_of_America_membership_controversies

(٢)http://www.nachkriegsjustiz.at/service/gesetze/gs_vg_٣_١٩٤٧.php.

(٣) http://en.wikipedia.org/wiki/Laws_against_Holocaust_denial

كبيرٍ من الشعب، وخير مثال على ذلك ديفيد إيرفنج David Irving وجيمس كيجسترا James Keegstra

وقد حُبس إرنست زوندل Ernst Zündel لسنوات لمجرد التشكيك في الرقم ٦ مليون – الخاص بمذبحة اليهود على يد النازي–[١].

بل إن الدول العلمانية أيها الملحد العربي تضع قوانين استثنائية لتعّقب حتى مَن يفكر في التشكيك في السائد لديها" (lone wolves)[٢].

تخيل!

وتترصد الدول العلمانية لمن يعبث في أفكار مواطنيها، وتُجيز الحكومات التنصت على التليفونات وتتبع مَن يرافق مَن تشك فيه –وليس فقط مَن تشك فيه–.

وما شُرع القانون الوطني Patriot Act في أمريكا إلا لتتبع مَن يعبث في عقول مواطني الدول العلمانية[٣].

فما بالنا بمن يطعن في مسلماتنا الدينية وأصولنا وقواعدنا ثم لا يريد أن يفر بشنيعة كفره فحسب، بل ويطالبنا بمنتهى الصفاقة أن نحترمه، وأن نفتح له النوافذ ليبث سمومه!

ربما إلى هنا لا نكون قد أضفنا جديدًا على ما فصّلناه في مقالنا السابق سوى سرد المزيد من دلائل عدم تقّبل الغرب للملحدين.

لكن يبقى السؤال المفصلي والجوهري في مقالنا هذا وهو: لماذا الغرب يتعامل مع الملحدين بهذه الصورة؟

ولماذا يخشاهم على نفسه وعلى أبنائه وذريته؟

---

(١)http://en.wikipedia.org/wiki/Ernst_Z%C٪٣BCndel

(٢)http://articles.latimes.com/٢٠١١/may/٢٧/nation/la-na-patriot-act-٢٠١١٠٥٢٧.

(٣) https://en.wikipedia.org/wiki/Patriot_Act.

في واقع الأمر إنّ ما ينطوي عليه العقل الغربي وما استقر في ذهنه بشأن الملحدين هو تاريخ غير مشرِّف ولا نظيف ليُروى، فقد خَبِر هؤلاء شأن الملحدين وعقولهم وتحليلاتهم للأمور وتبينوا أن الخراب والفساد كل الفساد في بيئات الملاحدة وفي طريقة تعاطيهم مع الأمور فحذّروا منهم وأطبقوا على إلجامهم.

وفولتير *Voltaire* أشهر ملحد ربوبي عبر كل العصور كان يشرح فلسفته الإلحادية لزملائه، وفي نفس الوقت كان يشرح الأخلاق في إطار الدين لخدّامه، ويخشى على خدامه من الإلحاد، وكان يدفعهم إلى الإيمان بالأخلاق في إطار ديني، وكان يقول كلمته الشهيرة :" لو لم يكن هناك إله لخانتني زوجتي وسرقني خادمي".، بل وقام في أواخر حياته ببناء كنيسة بالقرب من قصره نقش على مدخلها: "يا رب اذكر عبدك فولتير".

وادعى أنها الكنيسة الوحيدة المخصصة لله وحده على هذه الأرض، أما الكنائس الأخرى فهي مخصصة للقديسين، وكان يرسل خدمه إلى الكنيسة بانتظام ويدفع أجور تعليم أبنائهم قواعد الديانة[(١)] .

إن فولتير عاش دهرًا من الزمن ٨٤ سنة، كان في شبابه ملحدًا حاقدًا على كل دين، ومع الوقت اكتشف أنه لا رادع للبشر إلا الأخلاق في إطار ديني واكتشف مصائب الإلحاد .

فالإلحاد قارب أن يجعل من الإنسان أحقر حيوان - والكلام للملحد اللاأدري ول ديورانت في موسوعته قصة الحضارة - ، وفولتير عانى من إلحاده خاصةً خلال علاقته الطويلة بمدام دي شاتيليه De Châtelet، وكانت علاقته بابنة أخته شائنة مخزية– وهذه حقيقة الإلحاد بلا مكياج –.

فكل فئةٍ من البشر خالطت الملحدين وعاشرتهم، وصلت إلى ما وصلت إليه من لزوم

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، المجلد ٣٨ صفحة ٢١٤ .

تحجيم شرِّهم، وإبعادهم عن المرأة والطفل!

ثم ماذا عن الماركيز دي ساد The Marquis de Sade ؟

لقد أوضح دي ساد أنه لو لم يكن هناك إله لكان كل شيءٍ مباحًا ، فلو لم يكن هناك جنة ونار فليس ثمة معنىً في أن نكون طيبين فنُسيء إلى ملذاتنا.

وإذا لم يكن هناك إله فليس هناك خير ولا شر بل هناك فقط ضعفاء وأقوياء والضعف هو الشر[(١)].

إن الإلحاد هو طوفان فاجر في أزمان الكفر وأرضه، ونهايته الحتمية هي تقويض أركان النظام الأخلاقي وانهيار الأمم.

فمن أجل ذلك وجب على العقلاء في كل أمة وفي كل ثقافة التحذير من الملحدين وإلجامهم وإلجام مساوئهم عن العوام!

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، المجلد ٣٨ صفحة ٢٧٥-٢٧٦.

الفصل العاشر

نظرية التطور والبحث عن منجم الذهب المفقود

خلاصة ما توصلت إليه أن مفهوم التطور ليس نظرية علمية قابلة للاختبار، بل هو برنامج ميتافيزيقي.

كارل بوبر

نظرية التطور والبحث عن منجم الذهب المفقود

منذ أن وضع تشارلز داورين Charles Darwin (١٨٠٩-١٨٨٢) نظريته بشأن تطور الأنواع عبر الانتخاب الطبيعي في كتابه أصل الأنواع On the Origin of Species عام ١٨٥٩، والجدل لم يتوقف يومًا بشأن النظرية.

فالنظرية تمثل تحليلًا لغويًا وفلسفيًا وفكريًا جميلًا لظهور الحياة عبر تطور وظيفي للكائنات الحية مع الزمن ينقلها إلى كائناتٍ أخرى!

لكن المشكلة ليست في التحليل اللغوي ولا الضبط الفلسفي وإنما ميدان العلم مشكلته مع البرهان والدليل لا اللعب بالألفاظ!

ونحن اليوم في العام ٢٠١٦ وقد مضى أكثر من قرن ونصف من الزمان على النظرية وما زلنا نتجادل ونتحاور بشأنها!

وعلى الرغم من عمل أكاديميات وجامعات عملاقة تحت مظلة التسليم بصحة النظرية إلا أن دليلًا واحدًا مباشرًا على انتقال نوع من الكائنات الحية إلى نوعٍ آخر لم نحصل عليه حتى الساعة، وإلا لكنّا توقفنا عن الجدال ولاستغللنا هذه المساحة من الورقات في شيءٍ آخر نافع ومفيد!

قد يظن البعض أن الجدال بشأن النظرية هي جدال ديني – علمي، وهذا خطأ محض!

فالجدال في الأساس بين نظرية التطور وبين العلم المادي التجريبي.

وليس الهجوم على نظرية التطور مِن قِبل المناوئين للنظرية كما يبدو -وكما يزعم الملاحدة- وإنما مِن قِبل المنتظمين في سِلكها أيضًا.

يقول التطوري إدوارد وايلي Edward O. Wiley أن آخر ما وصلت إليه النظرية بشأن ظهور الأنواع – الإنتواع speciation – ما يلي: "لقد قُتِلت هذه العملية -أي: الانتواع- بحثًا،

والحق أنَّ إشكالَ ما هو النوع، وإشكال كيف ظهرت الأنواع، بعيدان عن الحل"[١].

أما الانتخاب الطبيعي عمدة التطور وقوام النظرية وأصل الداروينية الكلاسيكية والداروينية الجديدة فلم يدخل حتى الساعة دائرة العلم التجريبي ولا العلم الرصدي وإنما تخمينات أركيولوجية – أحفورية– لا أكثر.

يقول عالم البيولوجيا التطورية والوراثة السكانية الأمريكي الشهير ويليام بروفاين Provine :"الانتخاب الطبيعي لا يعمل على أي شيء. فلا هو ينتخبُ لصالح شيء أو ضده، ولا هو يقهر، ولا يُكثّر، ولا يخلق، ولا يعدّل، ولا يُشكّل، ولا يشغّل، ولا يقود، ولا يصطفي، ولا يحافظ على شيء ما، ولا يدفَع، ولا يكيّف. الانتخاب الطبيعي لا يقومُ بشيء"[٢].

وهي نفس النتيجة التي توّصل إليها الداروينيَيْن الملحدَين جيري فودور Jerry Fodor

وماسيمو بياتيلي بالماريني Massimo Piattelli-Palmarini ، حيث لم يجدا بدًا من تخطئة داروين رأسًا، وصنَّفا في تهافت مفهوم الانتخاب الطبيعي كتابهما: "الأمر الذي أخطأ فيه داروين What Darwin Got Wrong". وكان مما صدّرا به كتابهما ما يلي: "هذا ليس كتابًا عن الله، ولا عن التصميم الذكي، ولا عن الخلق. ليس أيًا من أحدنا متورطٌ في شيءٍ من ذلك. لقد ارتأينا أنه من المستحسن أن نوضح هذا منذ البداية، لأن رأينا الأساسي فيما سيأتي يقضي بأن هناك خطأ ما – وربما خطأ لدرجة قاتلة – في نظرية الانتخاب الطبيعي"[٣].

---

(١) Wiley, E.O. (١٩٩٢) the Evolutionary Species Concept Reconsidered, p.٧٩ (من مقدمة كتاب تصميم الحياة، دار الكاتب، ص٩).

(٢) Provine, W.B. (٢٠٠١) the Origins of Theoretical Population Genetics, p.١٩٩.

(٣)Fodor, J. & Piattelli Palmarini, M. (٢٠١١) What Darwin Got Wrong, p.١٥ (من مقدمة كتاب تصميم الحياة، دار الكاتب، ص١٠).

فنظرية التطور باختصار هي: أمل يكافح بقوة ضد البيانات التجريبية والرصدية.

ومشكلة التطور أنه اليوم وهو في قمة مجده لا يملك نموذج واحد مفصل لظهور جزيء وظيفي واحد داخل الخلية، فضلًا عن تفسير ظهور خلية واحدة طبقًا لآليات الانتخاب الطبيعي أو الطفرات العشوائية، فضلًا عن ظهور نوع جديد من الكائنات الحية!

ولو أردنا تفصيل وضبط إشكالات النظرية فلن تسعفنا ورقاتٍ محدودة، فهذا له مكانه وقد كتبت فصلًا كاملًا في إشكالات النظرية العلمية في كتابي الأخير: "الإلحاد يُسمم كل شيء".

لذا ليس غرضنا هنا التأصيل للنقد، وإنما محاولة إدخال آلية النقد العلمي لعقل القاريء حتى يتسنى له تحرير مواطن الخلل سريعًا، ويستطيع بسهولة كشف الأساليب الغير سليمة في الترويج للنظرية!

ومن أمثلة ذلك أنك لو قلت للتطوري كيف ظهرت مثلًا العين البشرية المعقدة فإنه سيخبرك أن هناك عيونًا أقل تعقيدًا وهناك خلايا حساسة للضوء فقط.

وهذا الجواب هو لُب الإشكال التطوري!

فما معنى خلية حساسة للضوء؟

ولماذا تحسست للضوء؟

وكيف يتحول التحسس للضوء إلى نبضات كهربية؟

وكيف تتحول النبضة الكهربية إلى وعي ورؤية لما أمامك؟

إن القضية منقوصة من البدء!

وهذا شبيه بقولك لنفس التطوري: هل تستطيع الطبيعة أن تُنشيء صينية كنافة طازجة بالجبن الكريمي؟

سيقول لك التطوري بنفس منطقه ورؤيته: هذا بسيط جدًا فالقمح موجود في الطبيعة وسقوط النيازك قد يتسبب في طحن القمح في أحد الأزمنة السحيقة ليتحول إلى دقيق، ومع قليل

من المطر يتحول الدقيق إلى عجين، وعلى طرف أحد صخور الأفران البركانية سيكون مكانًا رائعًا للطهي السريع، وقصب السكر موجود في كل مكان لإضافة مذاق الكنافة وينابيع الماء الساخن كثيرة لإذابة قصب السكر و ....

إلى هنا قد تشعر بسخافة الطرح فالقضية ليست في توافر المواد الأولية، وإنما القضية في المعرفة the Know How التي تنتج صينية الكنافة بالجبن الكريمي!

فأنت لو انتظرت لملايين الأعوام لن تتشكل صينية كنافة واحدة لأن القضية معرفة Know How وليس مواد أولية.

القضية منقوصة أصلًا من البدء.

وافتراض أن وجود المواد الأولية كافٍ هو افتراض قد يصلح للأطفال قبل النوم، لكن لا يصلح كمعطى علمي يُرصد!

كذلك الحياة لا يمكن تحليلها في إطار الرؤية المادية التطورية، لأن معنى الحياة شيء مستقل عن الوجود المادي بأكمله.

كذلك الوظائف البيولوجية كذلك الأنظمة المعقدة في هذا الوجود!

التطور لا يفسر شيئًا إلا بنفس مستوى تحليل ظهور صينية الكنافة.

إن التطوري يضيف أنظمة معقدة إلى أنظمة معقدة ويسمي هذا تفسيرًا.

كل ما يفعله التطوري أنه يُفكك في عقله أجزاء النظام البيولوجي الذي أمامه، ثم يقول بإعادة تجميعه من أماكن مختلفة. وكأننا نلعب لعبة البازل *Puzzle* Games.

والمشكلة الأكبر أن أسلاف الجزيئات الحيوية في المنظومة التطورية هي أسلاف تخيلية لا أسلاف مادية كما يتصور البعض!

فالتطوريون أشبه ما يكون بمن يزعم أن البندقية هي سلف تطوري لمصيدة الفئران لمجرد

اشتراكهما بنجاح في التخلص من الفأر!

فنظرية التطور تحمل الكثير من الأحلام والأفكار الخلابة لكنها في النهاية لا تصلح إلا لدغدغة خيالات مراهق!

فالخيال خصب.

وموهبة توليد الحكايا قد يمتلكها البعض.

لكن على المستوى الجزيئي كل التفاصيل مهمة ونقطة نيوكليوتيدية واحدة تفسد نظام يتكون من مليون نيوكلويتيدة، وأنت بداخل كل خلية من خلاياك يوجد ثلاثة مليارات نيوكليوتيدة، كل بضعة آلاف منها تؤدي وظيفة حياتية متقنة.

فلا تحاول تغطية إعجاز بيوكيميائي مذهل في كل جزئية داخل خلاياك بحيل لغوية.

أيضًا كل كائن حي مهما كان صغره يتمتع بما دبّره الله له من أمر معاشه ليتعامل مع بيئته.

فمثلًا نموذج الخنفساءُ المِدْفَعيَّةُ الذي طرحه عالم الكيمياء الحيوية مايكل بيهي في كتابه: "صندوق داروين الأسود" يوضح كيف أن تعقيدًا مدهشًا يمتلكه كل كائن.

ودعونا نلقي نظرة على نوع هذا التعقيد بالتفصيل الذي سرده الكاتب: "الخنفساء المدفعية هي عبارةٌ عنْ حشرةٍ ذاتِ مظْهَرٍ بسيطٍ يُقاربُ طولُها الواحدَ ونصْف بوصة. عندما تُهدّد من قِبَلِ حشرةٍ أخرى فإنَّ للخنفساءِ طريقةً خاصَّةً للدفاع عن نفْسِها وهي رش محلول ساخن مغليٍّ على العدُوِّ مِنْ ثُقْبٍ موجودٍ في القسم الخلفي للخنفساء، يحرقُ السائلُ الساخنُ الحشرَةَ المستهدفةَ مِمَّا يغيِّرُ عادةً من الخطط المعدّة للعشاء؛ لكنْ كيف تُحاكُ هذه الحيلة؟

تبيَّنَ أنَّ الخنفساءَ المدفعيةَ تستخدمُ الكيمياء. فقبْلَ المعركةِ تصْنَعُ بُنًى متخصصةٌ تُدْعى (الفصوص الإفرازية) مزيجًا مركزًا جدًّا من مادَّتَيْن كيميائيَّتَيْن هما (بيروكسيد الهيدروجين والهيدروكينون). بيروكسيد الهيدروجين هو المادةُ ذاتُها التي نسْتطيعُ شراءَها من الصيدلية -ماء الأوكسجين-، أمَّا الهيدروكينون فيستخْدمُ في التحميض الفوتوغرافي. يُرسل المزيجُ إلى حجرة تخزين تُدعى الحويصلة الجامعة.

تتصل الحويصلةُ الجامعةُ بحجرة ثانية ولكنها معزولة عنها عادةً تُدعى حجرة التفجير.

تبقى الحجرتان منفصلتان عن بعضيْهما بواسطةِ قناةٍ ذاتِ عضلة عاصرة.

وتَّصِلُ بحجرة التفجير العديدُ من العُقَدِ الصغيرةِ، والتي تفرز إنزيمًا محفزًا إلى حجرة التفجير.

عندما تشْعُرُ الخنفساءُ بالتهديد فإنَّها تعْتَصر العضلاتِ المحيطةَ بحجرة التخزين بينما وبشكل متزامن ترخي العضلة العاصرة. مما يُجْبِرُ محلولَ بيروكسيد الهيدروجين والهيدروكينون على دخول حجرة التفجير، حيث يمتزجُ المحلولُ مع الأنزيم المحفز.

ستصبح الأمورُ الآن مثيرةً للاهتمام من الناحية الكيميائية. يتفكَّكُ بيروكسيد الهيدروجين بشكْلٍ سريعٍ إلى ماءٍ عاديٍّ وأكسجين كما هو الحال تمامًا بالنسبة لزجاجة بيروكسيد الهيدروجين التي تُباع في المتاجر والتي سوف تتفكك مع مرور الوقت إذا تُركتْ مفتوحة.

يتفاعل الأكسجين مع الهيدروكينون مانحًا المزيدَ من الماء بالإضافة إلى مادة كيميائية مهيجة بشدة تُدعى كينون.

تُحرر هذه التفاعلات كميةً كبيرةً من الحرارة ومن ثَمَّ ترْتفعُ درجةُ حرارة المحلول إلى نقطة الغليان. الآن وعِنْدَ إغلاقِ العضلة العاصرة تسْمحُ قناةٌ وحيدةٌ مؤديةٌ إلى خارج جسم الخنفساء للمزيج المغلي بالخروج.

كما تسمح عضلاتٌ محيطةٌ بالقناة بتوجيه نافورةِ البخار على مصدر الخطر.

وتكونُ النتيجةُ النهائيةُ هي إحراقُ عدُوِّ الخنفساء بواسطة محلولٍ بخاريٍّ من المادة الكيميائية السامة الكينون"[١].

هذا نموذج من آلاف النماذج المعقدة التي تملكها الخنفساء والتي يملكها كل كائن حي.

---

(١) صندوق داروين الأسود، تأليف: د.مايكل بيهي، ترجمة: د. مؤمن الحسن وآخرون، دار الكاتب للنشر، ص٥١.

ومَن هذا الذي بإمكانه حصر نعم الله في خلقه؟

ومَن هذا الذي بإمكانه رصد عجائب الخلق؟

لكن لمحة تغني عن سرد، وومضة تُنبيء بوجود نجم!

لكن هنا قد يقول أحد التطوريين: "لنفترض أن نظرية التطور وهم وخداع وكذب، فما هو البديل؟"

مشكلة دعاة التطور أنهم يرفضون مسألة الخلق الإلهي لمجرد كونها غيب، والغيب لا يمكن رصده داخل المعمل. لكنهم في المقابل يُسلمون بالفرض الخاطيء!

هل مجرد عدم معرفتك بالبديل تستسلم لفرض خاطيء؟

فالتطوريون مثل مجموعة من المنقبين عن كنز من الذهب ويبحثون ليل نهار في طبقات الأرض المختلفة ويحفرون ويكسرون أطنان الصخور والكوارتز ويجرفون رمالًا لا حصر لها، مع أن هناك قبو مكتوب عليه "الصنع الإلهي المتقن" أمام أعينهم كل لحظة، لكنهم يتجاهلون هذا القبو لأنهم ينطلقون من مقدمة أن منجم الذهب لابد أن يكون تحت الأرض!

إن مقدمة الخلق الإلهي المتقن هي معطى مادي نابع من تدّبر أنظمة الحياة ذاتها.

إنها معطى منطقي وعقلي وعلمي واستدلالي بديهي نرصده من خلال تبّصر الأنظمة البيولوجية المعقدة والحياة ذاتها، والبنى الخلوية والدقائق الوظيفية والمهام الحياتية والوعي والإدراك والتنسيق الهرموني، وما لا حصر له من الوظيفيات التي نتمتع بها، إن محاولة إغماض العين عن القبو والاستمرار في الحفر هي ضرر شديد على العلم وتأخير لفروع كبيرة من العلم وتضييع لمنافع كان أولى أن نستخدمها في منحىً آخر!

ولا يكتفي هؤلاء بكل هذا العناء بلا نتيجة، بل إنهم يضطرون إلى افتراض عدم التصميم لأن هذه أحد مسلمات نظرية التطور، وهذا بذاته معضلة علمية تقضي على العلم، فاعتبارك عدم التصميم في عضو من الأعضاء هذا يعني أنك لن تبحث أكثر، فما معنى أن تبحث عن وظيفة هذا العضو واحتمالية كبرى أن يكون موجود بلا هدف؟

ما معنى أن تتبحر داخل الخلية تجاويف الخلية وأنت تجزم أن القضية هراء وعبث وأخطاء طبيعة ونفايات نجمية ورماد بركاني ووحل بيولوجي أنتجا كل صور الحياة حولك؟

إن تصور عدم التصميم يقضي على أي أملٍ في تفسير العالم، ويسمم العلم والبحث والتجربة!

ويجعل الرصد والبحث سخف لا طائل ورائه، فلو اكتشفت فائدة لعضو ستظل بقية الأعضاء بلا فائدة!

لكن في واقع الأمر

وبعيدًا عن هذا التشاؤم...

وانتقالًا عن هذه الفروض الإلحادية السخيفة إلى الواقع الرصدي البيولوجي العلمي الحقيقي فإن لكل منظومة بيولوجية مهما كان صغرها وظيفة وغاية وهدف، ويسارع العلماء في فتح كشوف كل بنية دون خلوية لرصد عجائب صنعها ودقة وظيفيتها ثم ينالون الجوائز بناءً على ما توصلوا إليه من عجيب ما أودع الله في خلقه!

والمتدبر في شأن الخلق يجد أنه لا تخلو منظومة على الإطلاق من قدرٍ من التعقيد، وهنا يجبُ على العقل العملُ مع الدليل المتوافر -الخلق الإلهي-، فهو الطريق الأقصر والأنسب لتحليل ظاهرة التعقيد!

فليس من العقل في شيءٍ الاحتكام إلى أسباب مادية غير معروفةٍ أو طرق غير مكتشفة لمنع تقسير الظاهرة في إطارها الدلالي على الخالق.

إنّ هذا محض تحكم لا أكثر، وتعطيل لوظيفة العقل، وإذا كنّا عند هذه المرحلة ومع هذه المعطيات الساطعة نعاند الإيمان بالخالق فعند أي مرحلةٍ نُسَّلِّم له؟

وتحت أي بندٍ نخلع عن أنفسنا ربقة الكفر به؟

هل عند خلو المُعارِض؟

إن الكفار يُعلِّقون المُعارِض بالمستقبل الذي لن نكون فيه أملًا في تحليل هذا التعقيد الوظيفي للكائنات الحية، وكفار ذلك المستقبل سيُعلِّقون المُعارِض أيضًا بمستقبلٍ آخر. وإنك لن تجد بين المتفكهين مَن يتفكه كما يتفكه المستقبل بهؤلاء!

﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

وها نحن ندعو إلى الدفع بالعلم باتجاه تحرير قضية الصنع المتقن، وإن كنّا ندرك أن دعاة المادية وإن صادفتهم هذه الدعوة فلن يعيروها اهتمامًا، لأن مقدماتهم الاعتقادية تأبى عليهم ذلك، ولأنهم كما قلنا منذ البداية يريدونها "مادية" ولذا لن يقبلوا بالبديل، وإن كان أقوى حجةً وأرسخ قدمًا وأثبت أدلة.

فلله الأمر من قبل ومن بعد!

﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [النمل: ٥٩-٦٨].

كما اتفقنا ليس في العلم الرصدي ما يدفع للاعتقاد بمصداقية التطور كنظرية علمية لها

أُطرها الميثودولوجية Methodological –الطرائقية– التي يمكن من خلالها رصد التطور وإثبات صحته والتيقن من حدوثه.

وليس في البحث الإمبريقي Empirical – التجريبي– ما يعضد موقف التطور ويحسم الجدل بشأنه–فأحد شروط النظرية العلمية أن تكون قابلة للاختبار والتجربة، وفق معايير الإمبريقية التي وضعها فلاسفة العلوم–، لكن مثل هذا البحث التجريبي لا مكان له في نظرية التطور!

وليس في السجل الأحفوري دليل واحد على الإطلاق قائم بذاته يُثبت وقوع التطور، فلا يوجد أب واحد موثق علميًا لل٣ مليون نوع من الكائنات الحية على وجه الأرض الآن.

ولم يثبت علميًا حتى الساعة حدوث تطور نوعي واحد macro-evolution –إنتقال من نوع إلى نوع –، مع أن قوام نظرية التطور ككل على حدوث هذا التطور النوعي بلا توقف.

لكن يا ترى بماذا يحتج دعاة التطور؟

أصل أدلتهم تقوم على مغالطة الاستدلال الدائري: بما أنه يوجد كائنان متشابهان إلى حدٍ بعيد في الشكل المورفولوجي Morphology –الإطار الشكلي والبنائي– والتشريحي والوظيفي إذن لهما أبٍ واحد common archetype، هذا أصل مغالطة الإستدلال الدائري، لكن الأصح عند المناطقة رصد التفريع من الأب أولًا، أما ما يحدث هنا فهو استدلال دائري وفلسفة تأويلية افتراضية.

وكما يقول البيولوجي والملحد السابق جوناثان ويلزJonathan Wells –الذي سيأتي ذكره بشيءٍ من التفصيل–: "هل تشابه السحاب والآيس كريم يعني أن لهما سلف مُشترك ؟"

لكن هنا قد يحتج أحد التطوريين ويقول: التطور عملية بطيئة تتطلب آلاف السنين؛

حسنًا: لكن نحن عندنا أكثر من ثلاثة ملايين نوع من الكائنات الحية المستقلة هذا بخلاف

المنقرضة، وبحساب عدد الأنواع في المتوسط عبر التاريخ على المعدل الزمني لظهورها، ستكون النتيجة أنه لابد أن يظهر كائنٌ حيٌ مستقلٌ جديدٌ كلَّ بضعة ساعات، وآلاف الكائنات المتحورة كل دقيقة، هذا في الرصد التجريبي المباشر، ونفس الكلام يُقال عن الرصد الأحفوري؛ فما الحال ونحن لا نعرف إلى الآن أبًا واحدًا مباشرًا لأي كائن حي على وجه الأرض، ولم نرصد أي تطور نوعي على الإطلاق حتى الساعة!

فضلًا عن أننا لا نعرف الأب المباشر للإنسان مع أنه أعظم الكائنات وأرقاها وأقدرها على البقاء، ولا يتفوق عليه إلا الإنسان المُعاصر!

يعترف كولين باترسون Colin Patterson أحد أكبر علماء الحفريات، والذي عمل في مجال التطور طيلة عشرين سنة بهذه الورطة فيقول: " لقد استيقظت ذات يوم واكتشفت أنني بعد عشرين عامًا من العمل في التطور لا أجد دليلًا عليه سوى تخمينات اعتباطية".

وقال: " نعم أتفق معكم تمامًا، لا توجد أحفورة واحدة نستطيع أن نجادل بشانها".

"I fully agree with your comments on the lack of direct illustration of evolutionary transitions in my book. If I knew of any, fossil or living, I would certainly have included them. . .I will lay it on the line, There is not one such fossil for which one might make a watertight argument"[١].

وهي نفس النتيجة التي قدّم لها ليونارد هاريسون Leonard Harrison Matthews أستاذ علوم الحيوان البريطاني، في مقدمة طبعة عام ١٩٧١ لكتاب أصل الأنواع Origin of Species لتشارلز داروين حين قال ما يلي: "حقيقة أن التطور هو العمود الفقري لعلم الأحياء biology ومن المدهش أن يكون العمود الفقري لعلم الأحياء نظرية غير مثبتة an unproved theory ، هل هذا علم أم إيمان؟ في حقيقة الأمر: لا يختلف الإيمان بالتطور عن الإيمان بالخلق المباشر!"

"The fact of evolution is the backbone of biology, and biology is thus in

---

(١)Colin Patterson, (Creation Science Foundation, Revised Quote Book, ١٩٩٠).

the peculiar position of being a science founded on an unproved theory -- is it then a science or faith? Belief in the theory of evolution is thus exactly parallel to belief in special creation"[(١)].

يقول عالم الفيزياء النظرية –والحاصل على الدكتوراة في فيزياء الكم النظرية– أميت جوسوامي Amit Goswami أن: "أنصار نظرية التطور يعاندون اليوم أي اكتشاف يُغير أو يناقض مباديء نظرية التطور وآليتها، بأن يقوموا بتعديلات لا نهائية للنظرية الأُم لتواكب تلك الاكتشافات، فكان المفترض لو أن الأمر كما يزعمون أن تتحقق توقعات النظرية في كل كشف أحفوري جديد لكن الحاصل أنه لا شيء يتحقق البتة، بل إن كل كشف جديد يتطلب رسم دوائر جديدة لا أكثر، وصارت النظرية حبلى بالدوائر عاجزة عن التنبؤ بشيء ولا يقدم الكشف الأحفوري إلا إضافة دوائر جديدة حول النظرية".

ويقول في موضع آخر على موقعه الرسمي أن الجميع يعلمون الآن بشأن الفجوات الأحفورية، وخلافًا لتوقعات عدد كبير من علماء الأحياء، لم تمتليء الفجوات الأحفورية يومًا ما، حتى مع آلاف آلاف الحلقات الوسيطة المتوقعة!

إذن ما هو الدليل–على النظرية–؟

ما الذي يحاول هؤلاء إثباته بالضبط؟

Everybody is by now familiar with the fossil gaps. Contrary to a great number of biologists' expectations starting with Darwin, the fossil gaps have never filled up with the thousands upon thousands of predicted intermediates.

---

(١)Dr. L. Harrison Matthews, in the introduction to the ١٩٧١ edition of Darwin's "Origin of Species.

The vast majority of the gaps are real; about this there is no doubt. So what do they signify? What do they prove.

Neo-Darwinists, and the majority of biologists, fall into a dogmatic worldview insisting that the fossil gaps mean nothing. They are sold on a promissory evolutionism—faithfully believing that eventually the gaps will fill up(١).

وهنا: قد يقرر أحد التطوريون أن التطور مثبت على المستوى الصغير micro-evolution؟

في حقيقة الأمر هذا ليس تطورًا بالمفهوم الاصطلاحي للتطور، بل هو أقرب إلى الانتكاسة Devolution منه إلى التطور Evolution ، ففي مقاومة الباكتريا للمضادات الحيوية ما يحدث هو الانتقال الأفقي للجينات Horizontal Gene Transfer والمقصود به هو انتقال الجينات المسئولة عن مقاومة الباكتيريا ضد المضاد الحيوي من خليةٍ إلى خليةٍ أخرى، وهي خاصية شائعة في الباكتيريا، و انتقال جين المقاومة من خلية بكتيرية إلى خلية بكتيرية أخرى يؤدي إلى اكتساب هذه الأخيرة لصفة جديدة لم تكن موجودة فيها من قبل.

نضيف إلى هذا حقيقة هامة؛ وهي أن الباكتيريا التي تكتسب جينات المقاومة ضد المضادات الحيوية (أو أية جينات أخرى) تظل كما هي حاملة لكل الصفات والسمات الطبيعية والبيولوجية لنوعها وفصيلتها، ولا تتحول إلى كائن مختلف، فالباكتيريا المسببة لمرض معين في الإنسان مثلًا تظل كما هي تسبب نفس المرض وأعراضه وعلاماته وتسلك نفس السلوك، الفرق الوحيد يكمن في مقاومتها للمضادات الحيوية التي تحمل جينات مناعية ضدها(٢).

---

(١)http://www.amitgoswami.org/٠٥/١١/٢٠١٤/darwins-mistake/

(٢)Bjِrkholm, B., I. Nagaev, O.G. Berg, D. Hughes, and D.I. Andersson. ٢٠٠٠. Effects of environment on compensatory mutations to ameliorate costs of antibiotic resistance. Science ٢٨٧:١٤٧٩-١٤٨٢.

لكن لماذا هي انتكاسة وليست تطورًا؟

لأن مقاومة المضاد الحيوي في الغالب تتم من خلال التضحية بأجزاء من الشفرة الوراثية بحيث لا يتعرف عليها المضاد الحيوي، وتقوم الباكتريا بعد ذلك بنقل هذا الجين المبتور إلى الخلايا الجرثومية المجاورة، فالمناعة التي تكتسبها الميكروبات نتيجة عمليات تكسير وليس بناء .

وبعد أن يختفي المضاد الحيوي تبدأ السلالات التي لم تفقد أي جزءٍ من شفرتها الوراثية في التكاثر مجددًا، حيث تصبح أقوى من السلالة التي قاومت المضاد الحيوي وفقدت جزءًا من شفرتها.

وخير مثالٍ على ذلك: "عقار الكلوروكوين Chloroquine" المضاد لطفيل الملاريا Malaria؛ حيث تم تطوير هذا العقار في ثلاثينيات القرن الماضي وظل العقار فعالًا طيلة خمسين عامًا، وفجأةً وبحلول الثمانينيات أصبحت تقريبًا كل سلالات الملاريا لديها مقاومة لهذا العقار، فتوقف الأطباء عن وصفه للمرضى. وبعدها مباشرةً ماتت السلالات المقاومة للعقار وحلت محلها الطفيليات الغير مقاومة للعقار؛ إذن فالسلالات المقاومة لم تكن نسخة أكثر صلاحية وإنما سادت المشهد لفترةٍ قصيرة.

وقد رصدت مجلة الأمراض الوبائية The Journal of Infectious Diseases الصادرة عن أوكسفورد Oxford Journals دراسة خاصة بهذا الشأن خرجت منها بنتيجة أن: طفيل الملاريا المقاوم لعقار الكلوروكوين حدثت له طفرات وتحورات تضمنت فقدان للوظيفة الأصلية لأحد الجينات داخل الملاريا، فالطفرة التي تمنح المقاومة هي أقل صلاحية من النمط العادي[(١)] .

(من مقال للدكتور هشام عزمي -أخصائي التخدير والعناية المركزة بمعهد ناصر للبحوث والعلاج- على منتدى التوحيد)

(١)http://jid.oxfordjournals.org/content/١٨٤/٦/٧٧٠.long

أضف إلى ما سبق أن: هذه الطفرات تحدث داخل نفس النوع ولم يثبت أبدًا أن مثل هذه الطفرات خلّقت مثلًا مادة وراثية جديدة داخل DNA بل لم تُخلِّق حتى موقع ربط واحد بين بروتين وبروتين في غشاء الخلية البكتيرية. تخّيل إلى أي حد وصل الوضع؟[(١)] .

وخلال عقود من صراع الإنسان مع الفيروسات نشأت ١٠أس ٢٠ سلالة فيروسية جديدة –وهو رقم يعادل نصف عدد الكائنات الحية التي وجدت على الارض منذ بدء الخليقة– دون تكوين بروتين واحد جديد.

والخلاصة: لا تُنتج تغيرات الهندسة الوراثية أبنية جديدة داخل الخلايا، ولا تزيد المعلومة الجينية، ولا التعقيد البيولوجي؛ وبالتالي يستحيل أن تحلل الطفرات تطور النوع نحو الأفضل فضلًا عن ظهور أنواع جديدة لديها كومة عملاقة منضبطة من القواعد النيتروجينية مشفرة لوظائف جديدة ستظهر في كائن جديد!

وقد نشرت مجلة علم الأحياء النمائي Developmental Biology التطورية مقالًا اشترك فيه مجموعة من علماء الأحياء وانتهى إلى أن: "التغيرات في مجالات الهندسة الوراثية قد تؤدي إلى التكيف مع البيئة لكن هذا لا يعني ظهور الأصلح، ويبدو أن أصل الأنواع –مشكلة داروين– يبْقى مشكلةً غير محلولة".

Scott F. Gilbert, John M. Opitz, Rudolf A. Raff, Resynthesizing Evolutionary and Developmental Biology , Developmental Biology Magazine, Vol ١٧٣, P.٣٥٧-٣٧٢.

وفي اعترافٍ غير مسبوقٍ –ربما–؛ اجتمع أكثر من مائة وخمسون باحثًا في ملف التطور حول العالم في أحد المؤتمرات بجامعة شيكاغو University of Chicago لبحث آليات ظهور الأنواع، وكان السؤال المحوري في المؤتمر حول ما إذا كانت تغيرات الهندسة الوراثية وطفرات الجراثيم كافية لشرح ظواهر التطور الكبير –ظهور الأنواع الجديدة– وكانت الإجابة الواضحة

---

(١)Michael J. Behe, Darwin’s Black Box

هي: "لا"[١].

إنّ عجزنا عن رصد تطور أولي طيلة عقود من التجارب والاختبارات مع كائنات أولية ومعقدة يعني أن قضية التطور برُمتها خارج إطار العلم التجريبي والرصدي حتى الساعة، وهذا يدفعنا إلى التعامل مع التطور كفرضية قد تبدو مبهجة لبعض أصحاب الأيديولوجيات المادية لكنها تظل عصّية على التثبت فضلًا عن الجزم بصحتها!

(١)http://www.sciencemag.org/content/٨٨٣ /٤٤٧٢ /٢١٠.extract

العلماء الذين تراجعوا عن دعم نظرية التطور على أثر الفتوح العلمية الحديثة:

نظرًا لكل ما سبق يتراجع كثير من عتاة التطوريين عن دعم النظرية، وسنعرض هنا شيئًا من السِير الذاتية لبعض هؤلاء، مع سرد شيءٍ من الأسباب العلمية لتغير موقفهم من النظرية!

وسنكتشف أنه لم يكن رفض النظرية بسبب تحيزات دينية في جميع الأحوال كما يزعم دعاة التطور وكهنة الإلحاد المعاصرين، بل إن هناك دواعٍ علمية رصينة بالفعل، ربما أهمها قصور الأدلة التي ترتقى بنظرية التطور لتصبح في مصاف النظريات العلمية.

مع ملاحظة أن بعض هؤلاء ما زالوا يؤيدون نظرية التطور لكن ليس بالشكل الذي يُنظِّر له دعاة الإلحاد في العالم.

١) ديفيد بيرلنسكي (١٩٤٢):

ديفيد بيرلنسكي David Berlinski مؤلف ورياضي أمريكي شهير، وهو شخص لا أدري agnostic –لا يؤمن بالديانات السماوية– ويرفض نظرية التطور من منطلق علمي ورياضي بحت.

ويَعتبر ديفيد بيرلنسكي أن كل النظريات التي تفترض أطروحات لتفسير أصل الحياة the origins of life –النشوء– هي مجرد خيال علمي لا أكثر! [(١)].

فنشأة الحياة كانت وما زالت قاصمة ظهر التطور!

فسؤال كيف بدأت الحياة على الأرض باتفاق كل مَن يُعتد برأيه من البيولوجين وعلماء الكيمياء الحيوية بلا إجابة.

وإذا كان السؤال الأول في الداروينية بلا إجابة فكيف نتطلع إلى القطع بما بعده ؟

وقد ظهرت رؤية ديفيد بيرلنسكي لخرافية نظرية التطور أثناء عمله كمساعد باحث في

(١)https://web.archive.org/web/٢٠٠٨٠٤٢٠٠٨٢٨٠٢/http://www.slate.com/id/٢١٨٩١٧٨/entry/٢١٨٩١٧٩/

البيولوجيا الجزيئية molecular biology بجامعة كولومبيا Columbia University [(١)].

ويرى ديفيد بيرلنسكي أن نظرية التطور تُفقد العلم هيبته بسبب إصرار المؤسسات العلمية الشديد على هذه النظرية.

It'd be nice to see the scientific establishment lose some of its prestige and power...Above all, it'd be nice to have a real spirit of self-criticism penetrating the sciences (أطلق ديفيد بيرلنسكي هذا التصريح في أثناء حواره مع بين شتاين Ben Stein في الفيلم الوثائقي الشهير "المطرودون Expelled: No Intelligence Allowed(

فنظرية التطور نظرية معيبة طبقًا لبيرلنسكي، ويحلل أسباب ذلك بناءً على ما يلي:

أولًا: الظهور المفاجيء "at once appearance" لعدد ضخم ومدهش من الهياكل والكائنات الحية الجديدة دفعةً واحدة في انفجار الكامبري العظيم the Cambrian explosion.

وانفجار الكامبري يعني الظهور المفاجيء للكائنات الحية على وجه الأرض في عصر الكامبري Cambrian Period ، وقد أحدث انفجار الكامبري هزة كبرى في عقول التطوريين.

وكان اكتشاف هذا الانفجار على يد العالم "والكوت Walcott" في ألاسكا Alaska لكنه أخفى أبحاثه التي استغرقت أربع سنوات وشملت ٨٠ ألف حفرية، ويعلق جيرالد سكرويدر Gerald Schroeder على إخفاء والكوت لنتائج الأبحاث كما يلي: "لو أراد والكوت ذلك لجاء بجيش من الطلاب من أجل بحث الحفريات ودراستها، لكنه فضّل ألا يتسبب في إغراق سفينة التطور، أما اليوم فقد اكتشفت حفريات تعود إلى العصر الكامبري في الصين و أفريقيا و الجزر الإنجليزية والسويد بالإضافة إلى جرين لاند، وصار الانفجار (الذي حدث في العصر الكامبري)

---

(١)http://www.jstor.org/discover/٢٠٢٤٧٧٦/١٠,٢٣٠٧?uid=٣٧٣٧٩٢٨&uid=٢&uid=٤&sid=٢١١٠٤٨٤٩٦٩٥٠١١

قضية مُعاشة في العالم بأسره، ولكن المعلومات تم إخفاؤها قبل أن يكون ممكنًا مناقشة طبيعة هذا الانفجار الخارق للعادة".

Gerald Schroeder, "Evolution: Rationality vs. Randomness[١].

وقد ظهرت الأجهزة والأعضاء في كل الكائنات الحية في انفجار الكامبري دفعةً واحدة، على أعلى قدر من التعقيد، ولم يعد بالإمكان تحليل هذا الإنفجار في ضوء نظرية التطور كما تقول مجلة اتجاهات علم الوراثةTrends in Genetics العلمية المتخصصة في عددها الصادر في شهر شباط فبراير عام ١٩٩٩.

ثانيًا: عدم وجود الحفريات الإنتقالية الكبرى major transitional fossils التي من المفترض أن تكون وبكثافة لا حصر لها طبقًا لافتراضات نظرية التطور.

ثالثًا: ظهور سمك القرش sharks المفاجيء، ويرى بيرلنسكي أن كل تحليلات التطور لظهور سمك القرش هي تحليلات سخيفة وفروض لا تنهض بتحليل حقيقي!

رابعًا: تطور العين المعجز the evolution of the eye .

والقضية ليست بالسذاجة التي تحللها الرؤية التطورية لظهور العين، فالعين تحتوي على أنقى وأدق عدسة في الوجود، وشبكية العين بها ١٣٠ مليون عُصية ومخروط -١٣٠ مليون مستقبل ضوئي -، وحجمها ملليمتر وربع الملليمتر، للتمييز بين ٨ مليون لون.

خامسًا: فشل البيولوجيا التطورية evolutionary biology في شرح مجموعة كبرى ومتنوعة من الظواهر الحياتية البيولوجية، مثل: لماذا تأكل أنثى العنكبوت السوداء redback spiders زوجها بعد أول جماع، أليس هذا منافٍ تمامًا للمصلحة البيولوجية التطورية والحفاظ على الأنواع؟

وقد تطرّق ديفيد بيرلنسكي للعديد من الأسباب الأخرى التي دفعته لرفض نظرية التطور،

---

(١)http://www.geraldschroeder.com/evolution.htm

وقد طرح هذه الأسباب مجتمعةً في مقاله الشهير The Deniable Darwin[(١)].

مشكلة نظرية التطور أنها تقوم على فروض مزعجة ومربكة للعقل. فمثلًا تفترض نظرية التطور أن البقرة يجب أن تتحول إلى حوت حيث التصقت أرجلها الخلفية يومـًا ما وارتفع أنفها إلى أعلى وعامت تحت الماء.

The whale's ascendancy to sovereign size apparently began sixty million years ago when hairy, four-legged mammals, in search of food or sanctuary, ventured into water. As eons passed, changes slowly occurred. Hind legs disappeared, front legs changed into flippers, hair gave way to a thick smooth blanket of blubber, nostrils moved to the top of the head, the tail broadened into flukes, and in the buoyant water world the body became enormous[(٢)].

طبقا لديفيد بيرلنسكي فإنه عندما تقرر البقرة أن تتحول إلى حوت فإنها بحاجة إلى ٥٠ ألف تغير جسدي بها، يسبقها ٥٠ ألف تغير جذري في المنظومة الجينية، وتغير منظومة المخيخ والعين والجلد والتنفس وما لا حصر له من المنظومات الوظيفية لتتوائم مع البيئة المائية. ولا بد أن تكون هذا التغيرات متزامنه، ولابد أيضًا من وجود ملايين الكائنات المشوهة الوسيطة في كل تغير، والنتيجة التي نعرفها جميعًا أنه لا وجود لهذه الكائنات الوسيطة. وفي النهاية يبقى السؤال: مَن هو الموجِّه لهذا التغير؟[(٣)].

---

(١)http://www.discovery.org/a/١٣٠

(٢)Victor B. Scheffer, "Exploring the Lives of Whales," National Geographic, Vol. ٥٠, p. ٧٥٢.

(٣)http://www.youtube.com/watch?v=OMw٣OzQfVvI.

٢) جوناثان ويلز (١٩٤٢):

جوناثان ويلز Jonathan Wells عالم البيولوجيا الجزيئية molecular biologist الأمريكي، الحاصل على الدكتوراه في البيولوجيا الجزيئية والخلوية PhD in molecular and cellular biology في العام ١٩٩٤ والباحث في البيولوجيا في جامعة بيركلي Berkeley .

كان جوناثان ويلز ملحدًا.

by the time Wells was halfway through college he considered himself to be an atheist(١).

لكن مع الوقت بدأ جوناثان ويلز يُتقن البيولوجيا الجزيئية ليعود عن إلحاده ويؤمن بالخلق المبدع العظيم.

ويقرر جوناثان ويلز في هذه اللحظة أن يحارب التطور بكل ما أوتي من قوة ، أو بمعنى أدق "يُدمر الداروينية destroying Darwinism " كما أخبر عن ذلك في كتابه الأشهر "أيقونات التطور: علم أم خرافة؟ Icons of Evolution: Science or Myth؟ " (٢).

وقد نشر جوناثان ويلز العديد من المقالات العلمية في مجلات كبرى عالمية Journals Peer-Reviewed (٣).

لكن شهرة جوناثان ويلز الحقيقية ارتبطت بكتابه "أيقونات التطور: علم أم خرافة؟ Icons of Evolution: Science or Myth؟ " والمنشور في العام ٢٠٠٠ م.

---

(١)Lee Strobel, The Case for a Creator, Chapter ٣, p.٣٣.

(٢)http://ncse.com/creationism/analysis/icon-٤-haeckels-embryos

(٣)dev.biologists.org/content/١٢٨١ /٤ /١٢٢.full.pdf

http://www.pnas.org/content/٩٤/٤/١٢٢٤.long

http://www.sciencedirect.com/science/article/pii/٠٣٠٣٢٦٤٧٨٥٩٠٠٤٦٢

والكتاب يمثل نقلة نوعية كبرى في تنبيه المؤسسات التعليمية على سخافات تطورية يتم تدريسها للطلاب، مع أنها لا تستند إلى أي دليلٍ علمي!

وينقسم كتاب أيقونات التطور إلى عشرة فصول، يتعرض كل فصلٍ منها لأيقونة كبرى من أيقونات التطور التي يجادل بها التطوريون كثيرًا، ثم يبين ويلز بحجج عقلية وعلمية وفي أحيانٍ أخرى فلسفية خطأ الاستدلال وسخافة الأيقونة!

ففي الفصل الأول من الكتاب، وهو الخاص بأيقونة تجربة يوري- ميلر Miller–Urey experiment والتي يستخدمها التطوريون كثيرًا كمستند متكرر لهم؛ يوضح جوناثان ويلز أن تجربة يوري–ميلر لم تعد تحظى بسند علمي كما يتوهم التطوريون، فالغلاف الجوى الذى تمت محاكاته فى تجربة يوري–ميلر يقرر أن نسبة الهيدروجين في جو الأرض الأول كانت بمعدل ٧٢٪ حتى يسمح بظهور الحمض الأميني الأول وهذا مستحيل، لأن الهيدروجين غاز نادر يصعد للفضاء الخارجي فور تكونه، أيضًا وجود بخار ماء بكثافة في جو الأرض الأول كما تفترض التجربة هو خطأ جوهري لحدوث انحلال ضوئي له في بيئة الأرض الأولى فور تكونه .

وقد ركّزت تجارب يوري–ميلر على أن جو الأرض الأول كان يتكون من غاز الميثان، والأمونيا، ومستويات عالية من الهيدروجين، ويُجمع العلماء الآن على رفض هذا السيناريو، فالغلاف الجوي للأرض لم يكن يحتوي على هذه المكونات، والحقيقة أن الغلاف الجوي للأرض في وقتٍ مبكر كان مختلفًا جدًا عما يفترض ميلر، ولا أحد يعرف على أى أساس استند ميلر فى تقدير تلك المكونات على أنها محاكاه فعليه لجو الأرض وقتها.

ويتفق العلماء على أن المصدر الرئيسي للغازات هو البراكين، والبراكين ينبعث منها أول اكسيد الكربون CO، وثانى اكسيد الكربون ٢CO، والنيتروجين N٢ [١].

---

(١)http://www.sciencenews.org/sn_arc١/٩٩_٩_٩٩/bob١.htm.

وهي نفس النتيجة التي توصل إليها ديفيد ديمر D W Deamer والذي يؤكد أن تجربة يوري–ميلر كانت تجربة مضللة إلى أبعد حد، وقد نشر ديفيد ديمر بحثه هذا في مجلة البيولوجيا الجزيئية المتخصصة Microbiology and Molecular Biology Reviews .

This optimistic picture began to change in the late ١٩٧٠s, when it became increasingly clear that the early atmosphere was probably volcanic in origin and composition, composed largely of carbon dioxide and nitrogen rather than the mixture of reducing gases assumed by the Miller-Urey model. Carbon dioxide does not support the rich array of synthetic pathways leading to possible monomers[١].

وقد حسمت الجيولوجيا سخافة تجربة يوري–ميلر تمامًا الآن، حيث تم العثوربواسطة الجيولوجين فى طبقات الأرض القديمة على المعادن المؤكسدة في وقتٍ مبكر قبل ٣,٨ مليار سنة كدليل لا يقبل التشكيك على وجود الأوكسجين بمعدلات مرتفعه جدًا كما هى الان.

ثم توالت التأكيدات العلميه لكشوف تؤكد وجود الأوكسجين الحر فى غلاف الأرض بعد وقتٍ قريبٍ جدًا من تشكلها، حيث تم اكتشاف وجود نطاقات واسعه من الكائنات الحيه المعتمده على التمثيل الضوئى لحياتها photosynthetic organisms.

ولكن تجربة يوري–ميلر لايمكن أن تتم فى مجال مؤكسد يحتوى على الأوكسجين كما أكد ميلر ذلك بنفسه.

فالجو المؤكسد يمنع حدوث التفاعلات الكيميائية التي يشترطها يوري–ميلر في التجربة.

فالمحاكاة التي قام بها العالمان يوري–ميلر لا يمكن الاستدلال بها فضلًا عن اعتبارها أيقونة

---

(١)http://mmbr.asm.org/content/٢٣٩ /٢ /٦١.abstract.

لدى دعاة التطور.

ثم إذا سلمنّا بجدلية اختفاء الأوكسجين في بيئة الأرض الأولى فإن هذا يعني عدم ظهور طبقة الأوزون بعد، وبالتالي عدم تشكل حماية من الأشعة فوق البنفسجية التى تدمر المواد الكيميائية الحيوية المتكونه فى الحساء البدائى المزعوم! [(١)].

وبعيدًا عن كل هذا فما علاقة تجربة يوري-ميلر أو حتى ظهور كتل من الأحماض الأمينية بحجم المجموعة الشمسية بظهور الحياة أو بانتقال بقرة إلى حوت؟

فالحياة شيء منفصل تمامًا عن تلال الأحماض الأمينية، والبروتين الذي هو بنية أولية لأية منظومة حياتية لابد أن تكون معلومة ظهوره مشفرة داخل الجينوم. فما علاقة كل هذا بتشكل حمض أميني من عدمه!

وفي فصل تشابه الأطراف Homology in vertebrate limbs"الفصل الثالث من الكتاب" يرى جوناثان ويلز أن حجة تشابه أطراف الفقاريات هي أحد الأيقونات التي يحتج بها التطوريون كثيرًا، حيث يقررون أن تناظر الأطراف "اليد في الانسان والجناح في الطائر والزعنفة في الدولفين وهكذا"، أي تشابهها في التشكيل العظمي دليل سلف مشترك وهذا يسمى بالاستدلال الدائري وهو استدلال مغلوط منطقيًا لأنك المفترض أن تكتشف أولًا السلف المشترك ثم تتبنى من خلال فحصه رؤيتك لما يتفرع من أحفاده، أما أن تستخدم تشابه الأحفاد كدليل على الجد الواحد فهذا استدلال دائري غير منضبط منطقيًا .

فنحن هنا لا نعبر عن فرضيه علمية إنما عن إيمان مسبق بصحة التطور، حيث أننا مقتنعون

---

(١)http://link.springer.com/article/٢٪١٠,١٠٠٧FBF٠٢١٠٥٨٠٩

https://www.sciencemag.org/content/٢٧٠ /٥٢٤٤ /١٩٢٥.summary

http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC٢٨٦٩٥٢٥/

جدًا أن تفسيراتنا صحيحة، وهذا النوع من المحاولات الإيمانية dogmatic endeavors يجب أن يغادر مملكة العلم –والكلام لجوناثان ويلز-.

أيضًا التشابه في شكل الجينات هو مراوغ مثل التطابق في شكل الأعضاء والأصل هو أن نحدد السلف المشترك مسبقًا بطريقه مستقله وهذا يعيد نفس المغالطه المنطقيه- الإستدلال الدائري- التي من المفترض أن نتجنبها، **فهل معنى تشابه السيارات في تركيبها الخارجي أنها من سلف مشترك ؟ أم الأقرب منطقيًا أن نقول أنها مصنوعة على نظامٍ مُعين .**

فما الذي يمنع من أن تكون الكائنات الحية مخلوقة على نظام معين creation by design .

ومما يؤكد خطأ التطوريين في أيقونة تناظر الأطراف، أن الصفات التي تتحكم فيها جينات متشابهة ليست بالضرورة متناظرة والأجزاء المتناظرة ليست بالضرورة يتحكم فيها جينات متشابهة، فمثلًا لا يمكن أن يُنسب إلي هوية الجينات تكوُّن التقاسيم التي تظهر منفصلة علي ظهر الحشرات segment formation in insects حيث تعتمد أجنحة ذباب الفاكهة مثلًا علي الجين المسمي Even-skipped في تطوير تقاسيم ظهرها بشكلٍ سليم، لكن هناك حشرات أخري مثل الجراد والدبورالذي يمتلك نفس تلك التقاسيم لا يستخدم ذلك الجين.

ومن الأمثلة الأخري جين يسمي sex-lethal وهذا الجين يعمل علي تحديد الجنس في ذبابة الفاكهة، لكن هذا الجين غير موجود في الحشرات، والتي –أي الحشرات- تتمايز إلي ذكور وإناث بغيره !

وفي الجهة المقابلة نجد وبصفه مثيرة ومنتشرة أنه توجد تراكيب غير متناظرة- غير متشابهة- تنشأ من جينات متطابقة .فهاهم علماء الجينات يكتشفون أن هناك جينات عديدة من التي تحتاجها ذبابة الفاكهة من أجل نموها بشكلٍ سليم مشابهة تمامًا لجينات في الفئران، وفي قنفد البحر.

فإذا كانت الجينات هي المتحكمة في تركيب الجسم، وإذا كانت الجينات الخاصه بالنمو في الفئران وذباب الفاكهة شبيهة جدًا ببعضها .فلماذا إذن لا ينمو جنين الفأر ليصير ذبابه؟

ولماذا لا ينمو جنين الذبابة ليصير فأرًا؟

إذن كيف تمدنا أطراف الفقاريات بدليل علي التطور الدارويني؟

لكن طلاب البيولوجي من المحتمل ألا يروا شيئًا مما سبق في مراجعهم، فتقريبًا معظم المراجع الجامعية البيولوجية تستخدم أطراف الفقاريات كمثال تشرح عليه التناظر، ثم تُصرح بأن التناظر هو دليل علي السلف المشترك. وهكذا يتم الترويج لهذا المعتقد في أدمغة النشء!

ويتعمق جوناثان ويلز في تفصيل كل أيقونة وبيان مدى سخافتها، وفي واقع الأمر فإن كتاب أيقونات التطور في الجملة من الأفضل ألا نُغفل منه صفحة فضلًا عن فصل، لكن منهج عملنا في هذا الكتاب لا يتيح لنا التوسع في السرد، لكن فيما ذكرنا تنويه عن أهمية ما أغفلناه، وعن قيمة الكتاب في الجملة، وقد قام مركز براهين بترجمة الكتاب ونشره عبر دار الكاتب للنشر والتوزيع فجزاهم الله خيرًا!

أما عن رؤية جوناثان ويلز لشجرة تطور داروين المزعومة فإنه يفسرها على النحو التالي: " تخيل نفسك على أرض ملعب كرة قدم، عندما تقف على أحد خطي المرمى، هذا الخط يمثل بداية ظهور الحياة على الأرض -طبقًا للداروينية ذاتها-، والآن ابدأ السير في أرض الملعب، قم بتخطي خط العشرين ياردة ثم الأربعين ياردة ثم منتصف الملعب، وتكون بذلك قد اقتربت من خط المرمى الآخر، وقبل خط المرمى بخطوة واحدة يحدث الانفجار الكامبري الكبير، وتظهر كافة أشكال الكائنات الحية والحيوانات.

في واقع الأمر الداروينية ليست شجرة كما يصورونها؛ إنها مجموعة حشائش مستقلة حيث تظهر الكائنات فجأةً منفصلةً عن بعضها البعض"[(١)].

وفي عام ٢٠٠٥ وفي اجتماع علماء كنساس المهتمين بملف التطور the Kansas evolution hearings أعلن جوناثان ويلز قائلًا: " لقد أصبحت على قناعة تامةً بأن الداروينية نظرية زائفة،

---

(١) كتاب القضية الخالق، ول ستروبل، ص٥٧-٥٨.

لأنها غير مدعومة بأدلة".

I became convinced that the Darwinian theory is false because it conflicts with the evidence[١].

٣) كارل بوبر (١٩٠٢-١٩٩٤):

كارل بوبر Sir Karl Raimund Popper فيلسوف العلوم الأشهر على الإطلاق عبر التاريخ-على حد تعبير بيتر ميدور Peter Medawar الحائز على نوبل في الطب-.

فهو الفيلسوف البريطاني قائد فلسفة العلوم في القرن العشرين، والمحارب من أجل التأسيس لفلسفة علم منضبطة[٢].

رفض كارل بوبر بشدة النزوعات الشكية التي كانت سائدة بين الفلاسفة والتي أفسدت كثيرًا فلسفة العلوم، وجادل بقوة من أجل التأسيس لضبط النظرية العلمية، وابتدأ من الصفر فقام بتحرير مقدمات أولية ضرورية مثل أن العالم موجود، وأن المعرفة العلمية هي بالأساس معرفة هذا العالم.

وهنا ابتدأ كارل بوبر في تحديد المنهج العلمي كونه منهجًا قائمًا ليس على الملاحظة كما تدعي المدرسة الاستقرائية وإنما قوام المنهج العلمي على الفرضية؛ والاشتغال المعرفي هو في جوهره طرح لفرضيات ومحاولة تفنيدها وتخطئتها للوصول إلى الفرضية التي تقاوم التفنيد والنقض فتصير متبناة، ولكنها تبقى أيضًا محل درس من أجل تفنيدها لبلوغ فرضية أفضل في فهم الواقع.

ومن ثم فالنظرية لا تكون علمية إلا إذا كانت قابلة لإنجاز اختبار لتفنيدها وهنا ظهر مصطلح القابلية للنفي أو القابلية للتفنيد falsifiability في فلسفة العلم والذي صكه كارل بوبر، وصار المصطلح أساسًا في ضبط النظرية العلمية، ولتوضيح هذا المصطلح نذكر المثال الذي

---

(١)http://www.talkorigins.org/faqs/kansas/kangaroo٢.html#p٦٨١.

(٢)http://plato.stanford.edu/archives/sum٢٠٠٩/entries/popper/.

أورده كارل بوبر في فلسفته وهو مثال طائر البجع، فعندما نقول جميع طيور البجع بيضاء فهذا قانون كلي مستخلص من ملاحظات، لكن هل رأينا حقًا كل الطيور؟

بالتأكيد لا، فمهما تعددت ملاحظاتنا تبقى ملاحظات لعدد محدود من طيور البجع لا لكلها، ومن ثم فلا معنى للقول أن التجربة تثبت لنا أن كل البجع أبيض، ولا معنى لأن يصطاد العالِم طائر بجع آخر فيقول هذا أيضًا أبيض، وبالتالي فالنظرية التي تقول أن: "كل البجع أبيض"، تظل نظرية صحيحة إلى أن يتم تفنيدها بظهور طائر بجع ولو واحد غير أبيض؛ ومن ثم فالنظرية تبقى صالحة ما دامت لم تُفند، وليس لأنها متحققة تجريبيًا!

وهذا ما قاله أينشتاين نفسه يومًا ما حين قال :" لا يمكن لأي عدد من التجارب أن يثبت أنني على صواب، ولكن تجربة واحدة تستطيع أن تثبت أنني مخطيء".

No amount of experimentation can ever prove me right, a single experiment can prove me wrong.

فالنسبية العامة لأينشتاين تم إثباتها على يد آرثر إدنجتون حيث تم رصد تحدب شعاع الضوء، لكن يوم أن نكتشف خطأ الرصد أو خطأ القياس ستصبح النسبية العامة خرافة، لأنها قابلة للنفي في أي لحظة، ولذا فالنسبية العامة نظرية علمية محترمة لأنها لم تُفند حتى اللحظة، وفي نفس الوقت قابلة للتفنيد، وهذا هو أصل النظرية العلمية.

والآن وبعد هذه المقدمة التبسيطية لفلسفة العلم عند كارل بوبر، هل يمكن اعتبار التطور نظرية علمية محترمة لها قيمتها؟

اختصارًا للتحليل والتحرير للإجابة، ننقل مباشرةً رأي صاحب الشأن نفسه وهو كارل بوبر!

يرى كارل بوبر أن نظرية التطور ليست نظرية علمية بل هي رؤية ميتافيزيقية لم تتجاوز هذا

الإطار منذ أيام داروين وحتى الساعة، يقول بوبر: "خلاصة ما توصلت إليه أن مفهوم التطور ليس نظرية علمية قابلة للاختبار، بل هو برنامج ميتافيزيقي ".

"I have come to the conclusion that Darwinism is not a testable scientific theory, but a metaphysical research programme[١].

فأُسس التطور الكبرى مثل الانتخاب الطبيعي Natural Selection هي أسس ميتافيزيقية وليست أسسًا علمية، فالانتخاب الطبيعي خارج أطر العلوم المادية بالكلية لأنه لا يخضع لمبدأ قابلية النفي falsifiability فما هي اللحظة التي نستطيع فيها أن نقول أن الانتخاب الطبيعي خاطيء ؟

هذا غير موجود في الإطار العلمي لأن الانتخاب الطبيعي كما يقرر أنصاره لا يمكن إثباته إمبريقيًا –تجريبيًا– أو رصده، ولا يوجد عليه دليل واحد مباشر حتى الآن ولا نطمع أن نجد هذا الدليل يومًا ما، وإنما هو مُعطى ميتافيزيقي تصوري لا أكثر، لا نستطيع نفيه لأننا لا نملك أدوات رصده، وبذلك يكون الانتخاب الطبيعي خارج إطار النظرية العلمية بالكلية لعدم قابليته للنفي.

أيضًا عبارة مثل "البقاء للأصلح survival of the fittest " هي عبارة حشوية بلا معنى –والكلام لكارل بوبر–، فما معنى قولك أن الأصلح هو الذي سيبقى، هذه عبارة لا يمكن إخضاعها لمبدأ القابلية للنفي، لأن ما سيبقى هو طبقًا لنظريتك سيكون الأصلح، وهذا التفاف على الإستدلال لا يمكن ضبطه ولا التأكد من صحته![٢].

---

(١) Karl Popper, “Darwinism as a Metaphysical Research Programme” Methodology and Science, p.١١٩-١٠٣.

(٢)The argument regarding "survival of the fittest" is that the only way one can usually tell who the fittest are is to see who survives. But then survival of the fittest becomes "almost a tautology" and hence untestable (Popper, ١٩٧٢, p. ٦٩; ١٩٦٣a, p. ٩٦٤).

وهنا لابد أن ننوه ومن باب الإنصاف، أن التطوريين المعاصرين يزعمون أن بوبر تراجع عن رؤيته هذه واعترف بأن الانتخاب الطبيعي نظرية قابلة للاختبار، وهنا لابد أن نرصد حقيقة يرغمنا عليها إنصافنا في هذا الكتاب، وهي أن كارل بوبر بالفعل تحدث عن بعض المراجعات لرؤيته لكنه وفي نفس الوقت أثبت أن النظرية ستظل ميتافيزيقيا.

وننقل هنا من باب الإنصاف التام آخر أقواله في الانتخاب الطبيعي.

يقول كارل بوبر: " نظرية الانتخاب الطبيعي من الممكن أن تبتعد عن الحشوية –العلم الزائف– وفي هذه الحال يمكن أن تكون قابلة للاختبار، ولكنها تظل ليست بالنظرية الصحيحة تمامًا، يبدو أن هناك استثناءات كما هو الحال مع النظريات البيولوجية، خاصةً مع الأخذ في الاعتبار اتساع القاعدة التي يتم تطبيق الانتخاب الطبيعي عليها وتنوعها، وهنا يكون حدوث الاستثناءات ليس أمرًا مفاجئًا، وبالتالي يمكن التصريح بأنه ليست كل مظاهر التطور يتم شرحها بالانتخاب الطبيعي وحده، ففي كل حالة نجد تحدي لبرنامج بحثي"[(١)].

وفي نفس المصدر السابق والذي تحدث فيه بوبر عن مراجعاته قال بالحرف نقلًا عن أحد عظام الداروينية –على حد تعبيره– وهو (كارل هال وادينجتون C. H. Waddington) قوله: "يتضح أن الانتخاب الطبيعي طاوطولوجيا".

وطاطولوجيا يعني تكرارية حشوية لا يمكن أن تنضبط بأدلة!

فالطاطولوجيا مصطلح فلسفي يؤكد عبء نظرية التطور.

بل ويؤكد بوبر أن: "نفس كلام وادينجتون يوجد لدى داروينيون عظام من أمثال: (رونالد فيشر Ronald Fisher) عالم الإحصاء والأحياء التطورية، أحد مؤسسي الداروينية الحديثة.

---

(١)Evolutionary Epistemology, Rationality, and the Sociology of Knowledge, with Contributions by Sir Karl Popper (١٩٩٣), Edited by Gerard Radnitzky, p.١٤٥

ورونالد فيشر لمن لا يعرفه هو واضع الأسس الرياضياتية والإحصائية للبيولوجيا ووحّد بين الانتخاب الطبيعي والوراثة المندلية. وشهرته ومكانته في الداروينية تظهر لدى ريتشارد دوكينز والذي حينما سأل عن أعظم بيولوجي من بعد داروين، قال إنه يرشح لهذا المنصب (رونالد فيشر).

أيضًا هناك (جون هالدِن J. B. S. Haldane) عالم الوراثة والأحياء التطورية البريطاني، وشريك فيشر في تأسيس الوراثة السكانية وفي تطوير التركيبة الداروينية الحديثة Modern Evolutionary Synthesis.

أضف إليهم (جورج سيمسون George Gaylord Simpson) عالم الحفريات الأمريكي الأكثر تأثيرًا، حيث عمل أكثر من ثلاثين عامًا في إدارة متحف التاريخ الطبيعي في أمريكا، وساهم إسهامات عديدة في علم تصنيف الحفريات. وكان أيضا من أهم المشاركين في تأسيس التركيبة الداروينية الحديثة مع فيشر وهالدِن.

كل هؤلاء يؤكدون أن التطور طاطولوجيا –والكلام لكارل بوبر–".

هؤلاء هم أعمدة نظرية التطور حول العالم، وهم أنفسهم الذين يؤكدون أن التطور أزمة فلسفية.

فمفهوم الانتخاب الطبيعي مفهوم فلسفي –طاوطولجيا–؛ كأن تقول كل الطاولات طاولات، وليس مفهومًا علميًا، فمتى نقرر أن الكائن الحي الذي ظل حيًا تم انتخابه طبيعيًا؟

هل لمجرد أنه ظل حيًا؟

ما مبرر قولنا أن ما جرى انتخابًا؟

لماذا لا يكون شيء آخر أبقى على هذا الكائن؟

وبالمناسبة نقد كارل بوبر للانتخاب الطبيعي هو نقد للتطور ذاته لأنه كثيرًا ما يخلط بينهما كما ذكر ذلك بالحرف في نفس الكتاب.

When speaking here of Darwinism, I shall speak always of today's theory

— that is Darwin's own theory of natural selection supported by the Mendelian theory of heredity, by the theory of the mutation and recombination of genes in a gene pool, and by the decoded genetic code. This is an immensely impressive and powerful theory.

فموقف بوبر من نظرية التطور معقد بتعقيد النظرية ذاتها، يقول بوبر: "حقيقة أن نظرية الانتخاب الطبيعي صعبة الاختبار قاد بعض الناس -معادين الداروينية وحتى بعض الداروينيون العظام- للادعاء بأنها طاوطولوجيا. طاوطولوجيا مثل "كل الطاولات طاولات" ليست بالطبع قابلة للاختبار، وليس لها أية قوة تفسيرية".

"The fact that the theory of natural selection is difficult to test has led some people, anti-Darwinists and even some great Darwinists, to claim that it is a tautology. A tautology like "All tables are tables" is not, of course, testable; nor has it any explanatory power".

فطالما أن هناك انتخاب طبيعي لما هو "أصلح" وليس هناك ثمة بيان واضح محدد لمعيار "الصلاح" الذي على أساسه ستتطور الكائنات، ففكرة داروين هي حشو لا معنى له وغير قابل للاختبار، فالذي سيبقى هو الأصلح، والذي بقي ونجا من صراع الحياة هو الأصلح، أي أن الأصلح هو الأصلح، والذي بقى هو الذي بقى!

هذه مسألة لا يمكن التأكد من صحتها، ولا ضبطها اختباريًا، وإذا سقطت سقط التطور!

هذه هي ورطة بوبر مع نظرية التطور وأنا أعتبرها أكبر ورطة فلسفية يمكن أن تؤثر على نظرية علمية.

ووضحنا قبل قليل أن هذا الرأي هو رأي فطاحلة في الملف الدارويني...

إذن مراجعات كارل بوبر كانت مراجعات صورية لفظية، بل أنا أزعم أنها مراجعات لإرضاء الجو الغاضب من تصريحاته بشأن النظرية لا أكثر.

ولذلك فطبقًا للScientific American فإن كارل بوبر حين سُئل في آخر حياته عن النظرية قال أنه ما زال غير راضٍ عنها.

Popper took them back. But when I interviewed him in ١٩٩٢, he blurted out that he still found Darwin's theory dissatisfying[١].

ومن نافلة القول؛ فإن كارل بوبر هو شخص لا أدري agnostic وبالتالي فرفضه لكون نظرية التطور نظرية علمية لا يخضع لأية تحيزات اعتقادية.

ولاأدرية كارل بوبر مثبتة في مقدمة كتاب" الذات والمخ التابع لها The Self and Its Brain " والذي اشترك فيه العالمان جون إكلز John C. Eccles –الحائز على نوبل في الطب– وكارل بوبر!

"One of us (Eccles) is a believer in God and the supernatural, while the other (Popper) may be described as agnostic".

٤) فريد هويل (١٩١٥-٢٠٠١):

فريد هويل Sir Fred Hoyle عالم الفلك البريطاني الأشهر، وزميل الجمعية الملكية، والملحد العنيد طبقًا لتصريحاته الرسمية في كتبه.

According to Hoyle: "I am an atheist, but as far as blowing up the world

---

(١)http://blogs.scientificamerican.com/cross-check/dubitable-darwin-why-some-smart-nonreligious-people-doubt-the-theory-of-evolution/

in a nuclear war goes, I tell them not to worry"[١].

وللعلم فريد هويل يؤمن بنظرية التطور، لكن الذي دفعنا لضمه إلى هذه القائمة هو رؤيته العلمية الرياضية بشأن نشأة الحياة على الأرض.

حيث يقرر فريد هويل أن فرضيات نشأة الحياة على الأرض كما يزعم التطوريون هي جنون عقلي لا يُطاق، وقد قدّم فريد هويل في عام ١٩٨٢ كتابه "التطور من الفضاء Evolution from Space " كمحاضرة للمعهد الملكي، بعد النظر إلى ما اعتبره الاحتمال الضئيل لنشوء الحياة على الأرض وقال: "لو تابعنا بشكل مباشر ومستقيم في هذه المسألة، ودون أن نبالي بالخوف من مخالفة الرأي العلمي السائد، نصل إلى استنتاج مفاده أن المواد البيولوجية بما تحويه من قياس ونظام يجب أن تكون ثمرة تصميم ذكي، ولا توجد أية احتمالية أخرى يمكنني التفكير بها"[٢].

فطبقًا لحسابات فريد هويل، فإن فرصة الحصول على فقط مجموعة الإنزيمات لأبسط خلية حية تصل إلى ١٠ أس ٠٠٠ , ٤٠ مع أن عدد الذرات في الكون كله لا تتجاوز ١٠ أس ٨٠.

the chance of obtaining the required set of enzymes for even the simplest living cell without panspermia was one in $١٠^{٤٠,٠٠٠}$. Since the number of atoms in the known universe is infinitesimally tiny by comparison ($١٠^{٨٠}$).

وفي هذه اللحظة يستنتج فريد هويل التالي: "فكرة أنه ليس فقط البوليمر الحيوي biopolymer بل مجرد البرنامج المنظم للخلية الحية، يمكن أن يظهر بالمصادفة في الحساء البدئي

---

(١)Jane Gregory (٢٠٠٥). "Fighting for space". Fred Hoyle's Universe. Oxford University Press. p. ١٤٣.

(٢)Hoyle, Fred, Evolution from Space, Omni Lecture, Royal Institution, London, ١٢ January ١٩٨٢; Evolution from Space (١٩٨٢) pp. ٢٧–٢٨.

لبيئة الأرض الأولى، من الواضح أنه نوع من الهراء على أعلى مستوى ممكن".

The notion that not only the biopolymer but the operating program of a living cell could be arrived at by chance in a primordial organic soup here on the Earth is evidently nonsense of a high order(١).

ويعترف هنا فريد هويل أن هذا الاستنتاج الذي يقود إلى الاعتراف بتدخل خارجي-إلهي- جعله يهتز بشدة "greatly shaken".

وقد دفعت تصريحات فريد هويل هذه أحد علماء التصميم الذكي وهو الفريد راسل Alfred Russel إلى اعتبار أن فريد هويل هو ملحد من أجل التصميم الذكي "an atheist for ID"!(٢).

ويقرر فريد هويل أن احتمالية الظهور العشوائي لأبسط خلية خلية ممكنة، هو نفس القدر من احتمالية تشكيل طائرة بوينج ٧٤٧ بعد إعصار يجتاح كومة من الخردة.

لكن طالما أن الأمر بهذا التعقيد المدهش، وطالما أن التدخل الإلهي ظاهر على كل المستويات، في الآفاق وفي الأنفس، طالما أن الأمر بهذا الوضوح، كيف ظل فريد هويل على إلحاده؟

في واقع الأمر فإن فريد هويل اعترف بسذاجة فرضيات التطوريين بشأن نشأة الحياة على الأرض، وقد اضطر أمام الحقائق التي تتجلى له كل يوم إلى الاعتراف بأن هناك تصميم خارجي وراء نشأة الحياة على الأرض.

لكن هويل افترض أن هذا التصميم جرى عبر كائنات فضائية فيما يُسمى بفرضية البانسبرميا Panspermia والبانسبرميا هي فرضية تزعم أن الحياة جائت إلى الأرض من الفضاء

---

(١)Sir Fredrick Hoyle and Chandra Wickramasinghe, Evolution from Space (New York: Simon & Schuster, ١٩٨٤), p. ١٤٨.

(٢)http://www.uncommondescent.com/intelligent-design/fred-hoyle-an-atheist-for-id/

الخارجي!

وحقيقةً مع أن تحرير ضبط لهذه السخافات خارج مجال الكتاب لكن أجدني مضطرًا إلى توضيح الخلل المعرفي والمنطقي في هذا النوع من السفسطات العقلية.

في البداية علينا أن نعلم أن البانسبرميا Panspermia هي فرض عقلي حتى اللحظة، ولم تحصل على سند علمي أو رصدي واحد على الإطلاق، ولذا تصنف في قائمة العلوم الزائفة غير الحقيقية pseudo-science حتى الساعة[١].

لكن قبل تحرير الخلل المنطقي في هذه الفروض السخيفة نذكر المثال التالي للتوضيح: سأل الإعلامي الأمريكي بين شتاين Ben Stein الملحد الشهير ريتشارد داوكينز Richard Dawkins عما إذا كان يرى مانعًا من أن يكون أصل الخلية الحية الأُولى تصميمًا ذكيًا من عمل بعض كائنات اليوفو UFO –كائنات حية في الفضاء الخارجي – في زمان سحيق، فقرر داوكينز أنه لا يرى ما يمنع ذلك، بل إنها تعد- على حد قوله- جديرة بالاهتمام!

لهذا لم يجد شتاين إلا أن عقَّب على جواب داوكينز بتلقائية وفطرية تامة قائلًا: " إذن هو لا مانع عنده من قبول فكرة التصميم الذكي عمومًا، وإنما يعترض على نسبتها إلى الخالق تحديدًا!"[٢].

أما الخلل المنطقي في البانسبرميا فهو أن هذا الافتراض يفتح تسلسلًا – مَن الذي خلق تلك الكائنات الذكية؟ وهكذا – ولا يجيب عن السؤال !

ثم كيف لصاحب افتراض كهذا أن يَعيب على الجواب الديني، بل إن الجواب الديني أكثر منطقية وتناسقًا مع نفسه، ويمتلك دعمًا نقليًا مباشرًا – النص المُقدس–، ويمتلك مستند عدم

---

(١)http://www.ideacenter.org/contentmgr/showdetails.php/id/٨٤٩.

(٢)http://www.youtube.com/watch?v=٩M_ZF٨r٥e٧w.

المعارِض- حيث لم تترك لنا تلك الكائنات تلك الدعوى العريضة، التي تُثبت قيامها بذلك -، أيضًا الجواب الديني أكثر عقلانية لعدم وجود التسلسل اللانهائي بداخله والذي هو مستحيل عقلًا، فالتسلسل اللانهائي تضطر فرضية اليوفو للتسليم به أو العودة للقول بالخالق الأبدي المستقل عن حدود الزمان والمكان.

يقول أبو الفداء بن مسعود: "فرضية مُصمم ذكي أنشأ الحياة على الأرض، هذا ليس جوابًا في حد ذاته وإنما هو إرجاء المطلب المعرفي الذي يرومه السائل إلى درجة من درجات تسلسل لا نهائي لا يوصلنا إلى جواب البتة!

فما فعل المُلحد بهذا في الحقيقة إلا أن أضاف في الطريق إلى إثبات العلة الأُولى الفاعلة- الله -، افتراضًا متهافتًا لعلةٍ وسيطة لا يجد العقلاء من القرائن ما يوحي- ولو من بعيد - بوجودها أصلًا!

لكنه الهروب من التكليف الديني إلى دين بلا قيود ولا إلزامات، إنه دين اليوفو دين الملاحدة الجديد!" [(١)].

ويقول أيضًا في هذه النقطة: "ثم إن من مسلمات مُعطياتنا عن حدث الخلق الأول سواءً للكون أو الحياة؛ أن منظومة الخلق تلك جاءت بنواميس وقوانين كونية حتمية، فكيف يُقال أن أولئك الغرباء الذين هم داخلون في جملة تلك النواميس وخاضعين لها، قاموا بكسر تلك النواميس والقوانين وأوجدوا عندنا حياة ؟ "[(٢)].

لكن يبدو أن الإلحاد مضطر إلى التسليم بفرضيات من هذا القبيل، لأنها الوحيدة المتاحة في مقابل الدين!

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ

(١) آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين، أبو الفداء ابن مسعود، دار الإمام مسلم للنشر، ص ٣٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٦.

إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر:٤٥].

إن هذه الفرضيات هي فقط ترحيل للمشكلة إلى حيث نكون غير موجودين وانتهى الأمر على ذلك !

ثم إن عملية إبداع مصمم بهذا الذكاء هي عملية مدهشة للغاية، وتحتاج إلى قوانين خاصة هي الأخرى، وبالتالي ربما نكتشف أن الذين افترضوا هذه الفرضيات سيجابَهون يومًا ما بإلزامات ماورائية أعظم بكثير مما لو كانوا تخلَّوا عن تلك الفكرة.

إننا ننتقل خطوة ما ورائية أعلى وأكثر عمقًا بهذه الفرضيات!

ومن العجيب أن فرانسيس كريك Francis Crick مكتشف الDNA يقرر في كتابه "الحياة ذاتها Life Itself" أن نشأة حياة على الأرض شيء مستحيل تلقائيًا، فقد قرّر أن نشأة بروتين واحد وظيفي بسيط بالصدفة هو ضرب من الاستحالة يكاد يفوق ١٠ أس ٢٦٠ مع أن عدد ذرات الكون ككل كما قلنا لا تتجاوز ١٠ أس ٨٠، هذا في بروتين وظيفي بسيط مع أن أدنى الكائنات به آلاف البروتينات، وفي النهاية يعترف فرانسيس كريك قائلًا: "كرجل منصف، ومُسلح بالعلم المتاح لنا الآن، أستطيع أن أُقرر بشيءٍ من المنطق، أن نشأة الحياة معجزة".

"If a particular amino acid sequence was selected by chance, how rare an event would this be?

"This is an easy exercise in combinatorials. Suppose the chain is about two hundred amino acids long; this is, if anything rather less than the average length of proteins of all types. Since we have just twenty possibilities at each place, the number of possibilities is twenty multiplied by itself some two hundred times. This is conveniently written $٢٠^{٢٠٠}$ and is approximately equal

to ١٠٢٦٠, that is, a one followed by ٢٦٠ zeros.

" Moreover, we have only considered a polypeptide chain of rather modest length. Had we considered longer ones as well, the figure would have been even more immense. The great majority of sequences can never have been synthesized at all, at any time". pp. ٥٢-٥١

"An honest man, armed with all the knowledge available to us now, could only state that in some sense, the origin of life appears at the moment to be almost a miracle, so many are the conditions which would have had to have been satisfied to get it going". p. ٨٨

من الملف للنظر أن فرانسيس كريك أيضًا كان يقرر فرضية البانسبرميا كمخرج من الإيمان الديني.

٥) مايكل دانتون (١٩٤٣):

مايكل دانتون Michael John Denton عالم الكيمياء الحيوية البريطاني الشهير، حصل على الدكتوراة في الكيمياء الحيوية من الكلية الملكية بلندن King's College London عام ١٩٧٣ وتفرغ للبحث في الكيمياء الحيوية والجينات في جامعات كثيرة، لكن شهرته الرئيسية اقترنت بالكتاب الذي أصدره في العام ١٩٨٥ وهو كتاب: "التطور: نظرية في أزمة Evolution: A Theory in Crisis".

ومايكل دانتون هو شخص لا أدري agnostic -ليست لديه أية تحيزات دينية-، وهو يرى أن التطور وهم وخرافة.

Denton describes himself as an agnostic, and his book was released by a

secular publishing house[١].

يقدم مايكل دانتون في كتابه "التطور نظرية في أزمة" نقد منهجي علمي رصين للتطور –الداروينية الجديدة neo-darwinism–، بدءًا من علوم المتحجرات paleontology إلى دراسة الحفريات fossils إلى التماثل بين الكائنات الحية homology إلى البيولوجيا الجزيئية molecular biology إلى علوم الجينات والكيمياء الحيوية genetics and biochemistry، ويرى مايكل دانتون أن آثار التصميم في الطبيعة والكائنات الحية لا تُخطئها عين، وأن وجود الحياة هو قضية تصميم the existence of life is a matter of design[٢].

يقول دانتون في كتابه: "كي نفهم حقيقة الحياة على النحو الذي كشفه علم الأحياء الجزيئية علينا أن نُكبر الخلية ألف مليون ضعف، وبهذا ستبدو الخلية كمنطاد عملاق بحيث يستطيع أن يغطي مدينة كبيرة مثل نيويروك أو لندن، وإذا اقتربنا من الخلية وتفحصناها نجد عليها ملايين البوابات الصغيرة، وإذا تسنى لنا دخول أحد هذه البوابات سنجد أنفسنا في عالم من التكنولوجيا المدهشة والتعقيد الفائق"[٣].

أما نقد التماثل بين الكائنات الحية homology في كتابه والذي يستخدمه دعاة التطور، فإن مايكل دانتون يقرر أن الاختلاف بين نوعين مختلفين من الزواحف يفوق الاختلاف بين الطيور والأسماك أو بين السمك وحيوان ثديي، والاختلاف الجزيئي بين بعض الطيور يفوق الاختلاف الجزيئي بين نفس هذه الطيور والثدييات، والاختلاف بين جزيئات البكتيريا التي تبدو شديدة التشابه يفوق الاختلاف بين الثدييات والبرمائيات أو بين الثدييات والحشرات.

---

(١)Evolution in the Antipodes: Charles Darwin and Australia, Tom Frame, p.٢٩١

(٢)http://www.michaeljdenton.com/cgi-sys/suspendedpage.cgi?p=١.

(٣)P.٢٤٢ Theory in Crisis.

وقد استخدم مايكل دانتون حُجة دقيقة ورصينة للتأكيد على سخافة التطور وهي حُجة السيتوكروم سي Cytochrome c، والسيتوكروم سي هو بروتين صغير يوجد في الجدار الداخلي للميتوكوندريا-أحد عضيات الخلية الحية-، ما أشار إليه دانتون بالضبط هو أن الاختلاف في تتابع الأحماض الأمينية للسيتوكروم سي الخاص بالأسماك وذاك الخاص بالضفادع والسلحفاة والدجاج والأرانب والحصان هو ثابت جدًا عند ١٣-١٤٪، وبالمثل فإن الاختلاف الخاص بالسيتوكروم سي في الباكتريا والخميرة والقمح والعث والتونة واليمام والحصان يتراوح فقط بين ٦٤-٦٩٪، وهنا يقرر دانتون أن هذه البيانات تقوض فكرة أن الأسماك كانت أجدادًا للضفادع والتي كانت أجدادًا للزواحف والتي كانت أجدادًا للطيور والثدييات-كما تزعم الداروينية-، فإذا كان الأمر كذلك فكان من المفترض ألا يزيد الاختلاف في السيتوكروم سي من الأسماك إلى الضفادع إلى الثدييات إلى الزواحف!

كيف لتتابع الأحماض الأمينية للسيتوكروم سي لهذه الكائنات المتباعدة جدًا أن يكون قصيرًا وعلى مسافة واحدة equidistant بالمقارنة بالتتابع الخاص بالباكتريا.

كان لهذا التحليل الدقيق أثره الشديد على دعاة التطور، وقد افترضوا للخروج من المأزق أنه بتقادم الزمان لم يعد السمك هو الجد المباشر للضفدع فقد أصبحوا الآن في علاقة أبناء العم وليس الجد والحفيد-وهذه إجابة افتراضية جدلية ككل أجوبة وأدلة التطور-، لكن كانت إجابة دانتون أن افتراض أن الساعة الجزيئية molecular clock تعيد ضبط هذه الأمور في هذا التنوع الشاسع من الكائنات الحية شيء غير مقبول وغير مفهوم![١].

ويعلق مايكل دانتون على التشابه الجيني الجزيئي فيقول: "إن كل نوع من الأحياء يُعَد -على المستوى الجزيئي- فريدًا ووحيدًا وغير مرتبط بوسطاء. ومن ثَم فقد عجزت الجزيئات -شأنها شأن المتحجرات- عن تقديم الوسطاء الذين يبحث عنهم علماء الأحياء من دعاة التطور منذ

---

(١)Vuletic, Mark I. (١٩٩٦). "Review of Michael Denton's Evolution: A Theory in Crisis".

زمنٍ طويل؛ فعلى المستوى الجزيئي، لا يوجد كائن هو جد مشترك أعلى أو كائن بدائي أو راقٍ مقارنةً بأقربائه... **ولا يكاد يوجد شك في أنه لو كان هذا الدليل الجزيئي متاحًا قبل قرنٍ من اليوم فربما لم تكن فكرة التطور العضوي لتجد أي قبول على الإطلاق"**[١].

خلاصة ما ينتهي إليه مايكل دانتون في كتابه أن الداروينية بقيت كما كانت وقت داروين مجرد فرضية تخمينية من دون دعم مباشر بالحقائق وبعيدة عن أدي دليل توثيقي[٢].

يُصنف كتاب "التطور: نظرية في أزمة" باعتباره أحد المنشورات العلمية العالية الضبط Peer-Reviewed التي تؤكد زائفية التطور وخروجها بعيدًا عن دائرة العلم.

A Theory in Crisis as one of the "Peer-Reviewed & Peer-Edited Scientific Publications[٣].

ومن عجيب ما يُذكر هنا أن: فيليب جونسون Phillip E. Johnson أستاذ القانون بجامعة كاليفورنيا –والأب الروحي لمدرسة التصميم الذكي–، ومايكل بيهي Michael J. Behe عالم الكيمياء الحيوية الأمريكي الأشهر، قد تركا نظرية التطور بعد قرائتهما لكتاب مايكل دانتون.

Berkeley’s Radical: An Interview with Phillip E. Johnson, Touchstone Magazine, ٢٠٠٢.

The Evolution of a Skeptic: An Interview with Dr. Michael Behe, biochemist and author of recent best-seller, Darwin's Black Box, ١٩٩٦.

ويرى دانتون أن العشوائية يستحيل أن تُفرز أنظمة بيولوجية في الكائن الحي، وأن وجود

---

(١) Theory in Crisis, p.٢٩١-٢٩٠.

(٢)Theory in Crisis, p.٧٧.

(٣)http://www.discovery.org/a/٢٦٤٠.

أبسط الأنظمة البيولوجية يؤكد الإعداد بعناية والحدود الحرجة الأولية، والمعايرة الدقيقة fine-tuning لحظة الخلق الأولى، ويقرر دانتون أن إعداد عالمنا بعناية هو نتيجة أولية لأبسط رصد بيولوجي أو كيميائي للكائنات الحية، ومن أجل ذلك وضع دانتون كتابه الثاني قَدَر الطبيعة Nature's Destiny في عام ١٩٩٨ والذي يناقش فيه بإسهاب المعايرة الدقيقة للوجود البيولوجي، وقد وضع لهذا الكتاب عنوان جانبي يشي بالمضمون وهو: "قَدَر الطبيعة: كيف توحي قوانين البيولوجيا بالغائية في هذا العالم Nature's Destiny: How the Laws of Biology Reveal Purpose in the Universe ".

٦) أنتوني فلو (١٩٢٣-٢٠١٠):

أنتوني فلو Antony Garrard Newton Flew الفيلسوف الإنجليزي الأشهر، وصاحب الدراسات المتعمقة في الدين، اقترنت شهرته الواسعة بدفاعه العنيف عن الإلحاد، وكانت كتاباته جدول أعمال الفكر الإلحادي طوال النصف الثاني من القرن العشرين.

وبعد أن بلغ أنتوني فلو الثمانين من العمر فاجأ العالم في ٩ ديسمبر عام ٢٠٠٤ أنه صار مؤمنًا بالله!

وقد أذاعت الأسوشيتد برس الخبر على النحو التالي: "الملحد الشهير يعود للإيمان بالله بدافع من الشواهد العلمية".

Leading atheist now believes in God based on scientific evidence..[١]

بل وأصدر أنتوني فلو في عام ٢٠٠٧ كتابه الشهير: "هناك إله: كيف عَدَل أشرس ملحد عن الإلحاد".

There is a God: How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind.

---

(١)Associated Press, vol. ١٠ December ٢٠٠٤.

وكانت مراجعات أنتوني فلو تدريجية ففي العام ١٩٩٢ كتب اعترافه الشهير الذي يقول فيه: "يقولون أن الاعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية وأنا سأُدلي باعترافي، إن ظهور هذا العالم من اللازمان واللامكان شيءٌ محرجٌ جدًا بالنسبة للملحدين، ذلك لأن العلم أثبت فكرة طالما دافعت عنها الكتب الدينية "! [١].

وكانت بداية التحول الحقيقي نحو الإيمان بالخالق في يناير عام ٢٠٠٤ حين أعلن أنتوني فلو أثناء حواره مع الفيلسوف جاري هابرماس Gary Habermas في جامعة كاليفورنيا بوليتكنيك California Polytechnic State University أنه يفكر بعمق في الإيمان لأن الإلحاد بالفعل يعاني من إشكالات ضخمة وتتعلق به علامات استفهام عملاقة.

Atheism standing in tension with several huge question marks

وفي ٩ ديسمبر من نفس العام أعلن أنتوني فلو رسميًا أنه مؤمن بالله، وقال: " إن الحجج الأكثر إثارة للإعجاب على وجود الله هي المدعومة بالاكتشافات العلمية الحديثة، وتلك الحجج الخاصة بالتصميم الذكي أقوى بكثير عما كنت قد رصدتها من قبل".

Habermas, Gary R. (٩ December ٢٠٠٤), "My Pilgrimage from Atheism to Theism: An Exclusive Interview with Former British Atheist Professor Antony Flew"

وقال: "السؤال الفلسفي الذي لم تتم الإجابة عليه حتى الآن بشأن نشأة الحياة هو: كيف للكون الذي يتشكل من مادة عمياء بلا عقل أن يُنتج كينونات تحكمها الغائية، والمقدرة على التكاثر والكيمياء المشفرة، إننا الآن لا نتعامل مع بيولوجيا إنها فئة مختلفة تمامًا من المشكلة".

---

(١)Henry Margentau, Roy A. Vargesse. Cosmos, Bios, Theos. La Salle Il: Open Court Publishing, ١٩٩٢, ٢٤١.

"The philosophical question that has not been answered in origin-of-life studies is this: How can a universe of mindless matter produce beings with intrinsic ends, self-replication capabilities, and 'coded chemistry'? Here we are not dealing with biology, but an entirely different category of problem".

There is a God: How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind, New York: Harper One, p. ١٢٤

وفي خطابه إلى مجلة الفلسفة الجديدة Philosophy Now magazine عدد أغسطس-سبتمبر ٢٠٠٤ أوضح أنتوني فلو أن نظرية التطور من خلال الانتخاب الطبيعي لا علاقة لها بقضية نشأة الحياة.

. theory of evolution by natural selection does not account for the origin of life

وأن داروين نفسه ربما يؤمن أن الحياة قد نُفخ فيها بإعجاز مِن قبل الخالق-وهي الكلمة الشهيرة لداروين في آخر كتابه أصل الأنواع The Origin of Species في طبعاته الأولى-.

وبعد اكتشاف جزيء الDNA على يد واطسون وكريك في خمسينيات القرن الماضي، أصبح من الصعب بمكان -والكلام لأنتوني فلو- أن تبدأ في التفكير في بناء نظرية التطور الطبيعية بدءًا من الكائن الأول.

It has become inordinately difficult even to begin to think about constructing a naturalistic theory of the evolution of that first reproducing organism[١].

مشكلة نظرية التطور الأساسية مع أنتوني فلو أنها كما يعترف داروين نفسه في كتابه أصل

---

(١)https://philosophynow.org/issues/٤٧/Letter_from_Antony_Flew_on_Darwinism_and_Theology.

الأنواع الفصل الرابع عشر والأخير، أن الداروينية لا تبدأ إلا من كائن حي قادر على التكاثر- وليس من جسيمات غير حية-، ويبدو لي أن أبحاث الخمسين عام الماضية في الـDNA تعطي مادة قوية لإثبات التصميم -والكلام لأنتوني فلو-.

It seems to me that Richard Dawkins constantly overlooks the fact that Darwin himself, in the fourteenth chapter of The Origin of Species, pointed out that his whole argument began with a being which already possessed reproductive powers. This is the creature the evolution of which a truly comprehensive theory of evolution must give some account. Darwin himself was well aware that he had not produced such an account. It now seems to me that the finding of more than fifty years of DNA research have provided materials for a new and enormously powerful argument to design

Flew, 'My Pilgrimage from Atheism to Theism: An Exclusive Interview with Former British Atheist Professor Antony Flew′,

فالداروينية طبقًا لأنتوني فلو لا تستطيع أن تُفسر نشأة الحياة، ثم إن رصد الذكاء المدهش في التصميم سهل جدًا لمن تتبع جزيء الـDNA .

research into DNA had shown, by the almost unbelievable complexity of the arrangements which are needed to produce life, that intelligence must have been involved"[١].

---

(١)http://www.telegraph.co.uk/news/obituaries/culture-obituaries/books-obituaries/٧٥٨٦٩٢٩/Professor-Antony-Flew.html

وهكذا كانت عودة أنتوني فلو للإيمان بالخالق هي عودة من منطلق علمي مجرد، وهكذا كانت مآخذه على الإلحاد من شواهد التصميم والضبط وروعة الخلق ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت:٥٣].

٧) فرانسيس كولينز (١٩٥٠-):

فرانسيس كولينز Francis Sellers Collins عالم الجينات الأمريكي الأشهر، ومدير مشروع الجينوم البشري Human Genome Project، والحاصل على الوسام الرئاسي للحرية Presidential Medal of Freedom، والميدالية الوطنية للعلوم National Medal of Science.

عاش فرانسيس كولينز طيلة شبابه ملحدًا ماديًا تطوريًا إلى الحد الذي كان يُسمي نفسه "الملحد البغيض obnoxious atheist"[(١)].

لكنه اكتشف فجأةً وخلال عمله على الجينوم في جامعة ميتشجان University of Michigan

استحالة الصدفة والعشوائية في منظومات التشفير داخل الجينوم البشري DNA فكل كائن حي قبل ظهوره تتم برمجة جميع وظائفه، ولا معنى للكائن ولا وجود له بدون برمجة وتشفير مسبق، ولا معنى للبرمجة بدون تحولها من إشارات ورموز إلى منظومات وظيفية داخل هذا الكائن الحي!

وهنا أرى من الأفضل وحتى تتم الفائدة من الكتاب أن نعطي لمحة عن معجزة الجينوم: فالجينوم هو كتالوج -كتاب- يوجد داخل كل نواة خلية من خلايا جسدك، وبه مواصفاتك وبرمجة كاملة لمنظوماتك الوظيفية " طولك ولون عينيك ووظائف أعضائك، ونوع شعرك وكمية

---

(١)http://www.salon.com/٠٧/٠٨/٢٠٠٦/collins_٦/.

البروتين التي تحتاجها عضلاتك، والقوانين التي تحكم أجهزة جسدك وسرعة النبضة الكهربية في أعصابك، ومعدلات ضخ الدم في قلبك، ومعدلات إفراز الهرمونات في غددك؛ إلى جانب كل ذلك تفصيل دقيق لكل وظائفك الحيوية وطريقة تصنيع كرات دمك وأنظمة الهضم والإخراج والأيض، وكل ما يختص بالوظائف البيولوجية لجسدك و..إلخ.

ويوجد في الكتاب فصل كامل خاص بحالات الطواريء، مثل التعرض لنزيف حاد والذي يستدعي عمل جلطة تغلق مخارج الدم وانكماش شديد للطحال لضخ الدم المتخزن فيه لتعويض الفاقد، ومنظومة معقدة من عدة مراحل لعمل إنكماش في أوعيتك الدموية حتى لا يحدث هبوط قاتل لضغط الدم لحظة النزيف.

أيضًا يوجد في الكتاب -الكتالوج- فصل كامل يتعلق بالتجهيزات اللازمة لحظة التعرض لمخاطر كبرى مثل الأوبئة، فالكتاب يحتوي على طريقة تصنيع الجسم الدفاعي G أو IGG الذي يسمى "كتيبة المشاة والمدرعات والمدفعية"، وطريقة تصنيع الجسم الدفاعي A أو IGA صاحب المهام الخاصة، وكل شيء عن التنظيمات الدفاعية التي لن تظهر مهامها إلا لحظات الخطر.

أيضا الكتالوج يحدد متى تبدأ شرايينك التاجية في الضيق وعقلك في الهذيان وجلدك في التجعد وشعرك في المشيب، ويصف الكتاب بالضبط طريقة حدوث ذلك بمنتهى الدقة.

الكتاب ضخم ويحوي كل شيء عنك.

هذا الكتاب هو محتوى معلوماتي، لاحظ العبارة.

الكتاب محتوى معلوماتي يخزن معلوماتك كلها.

أضف إلى ذلك؛ أن هذه المعلومات توجد بنظام "ترميز" coding وحين يتم فك الترميز decode تظهر المعلومات السابقة.

والجينوم يملأ ١٠٠٠ مجلد بواقع ٥٠٠ صفحة لكل مجلد - ٣ مليار حرف - كلها موجودة

في مساحة ١ على ١٠٠٠ من الملليمتر مُلتف على نفسه ١٠٠ ألف لفة داخل نواة الخلية.

والجينوم الذي في حجم رأس الدبوس يحمل معلومات تفوق في سعتها بليون مرة فلاشة ٤ جيجا.

وجميع المعلومات داخل هذا الكتاب مُشفرة بنظام تشفير رباعي C G T A .

واضع المعلومات الرقمية- ٣ بليون معلومة بمنتهى الضبط والدقة-، التي ستُستخدم لاحقًا، خالق عليم قدير، هل هذه المعلومة بحاجة إلى ضبط عقلي لتحريرها؟

كلا! وهذه المعلومة البديهية هي التي أجبرت فرانسيس كولينز إلى العودة إلى الإيمان والاعتراف بالخالق، خاصةً خلال عمله على مشروع الجينوم البشري!

وإن كان كولينز لم ينكر نظرية التطور لكنه على الأقل أنكر التطور بصيغته الإلحادية.

وفي يونيو عام ٢٠٠٠ أعلن الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون مع فرانسيس كولينز عن خروج خريطة الجينوم البشري للنور، وقال فرانسيس كولينز معلقًا على الأمر: "من المذهل والرعب الملهم بالنسبة لي أن أدرك أننا استطعنا إدراك اللمحة الأولى من كتاب التعليمات الخاص بنا –الجينوم DNA – والذي يعرفه الله مسبقًا".

"It is humbling for me, and awe-inspiring to realize that we have caught the first glimpse of our own instruction book, previously known only to God"(١).

وفي عام ٢٠٠٦ وضع فرانسيس كولينز كتابه الأكثر مبيعًا " لغة الإله: عالِمٍ يعرض أدلة الإيمان The Language of God: A Scientist Presents Evidence for Belief ".

ويقرر من خلال كتابه أن الاكتشافات العلمية الأخيرة تعطيك فرصة كي تؤمن.

Scientific discoveries were an "opportunity to worship".

وفي المناظرة الشهيرة التي جرت بين فرانسيس كولينز وريتشارد داوكينز في عام ٢٠٠٦ قال

---

(١)http://articles.latimes.com/٢٠٠٦/aug/١٧/nation/na-collins٣ /١٧

كولينز أن: ثابت الجاذبية لو كان أقل مما هو عليه الآن بجزء من مائة مليون مليون جزء لأصبح تضخم الكون بعد ظهوره بصورة لا تسمح بظهور الحياة في مرحلةٍ لاحقة، عندما تنظر إلى هذا الدليل، يصبح من العسير عليك استيعاب الصدفة، ولكن عندما يكون لديك استعداد للنظر في إمكانية التصميم -مِن قبل الخالق- يصبح هذا تفسيرًا معقولًا، فالبديل غير مُحتمل للغاية- ولا يُفسر وجودنا-.

COLLINS: The gravitational constant, if it were off by one part in a hundred million million, then the expansion of the universe after the Big Bang would not have occurred in the fashion that was necessary for life to occur. When you look at that evidence, it is very difficult to adopt the view that this was just chance. But if you are willing to consider the possibility of a designer, this becomes a rather plausible explanation for what is otherwise an exceedingly improbable event--namely, our existence.

ورد الملحد ريتشارد داوكينز قائلًا: يوجد ربما شيء معجز بشكل لا يُصدق، لكنه غير مفهوم على نطاق وجودنا.

There could be something incredibly grand and incomprehensible and beyond our present understanding.

وهنا قاطعه فرانسيس كولينز قائلًا: إنه الله!

That's God[١].

أيضًا رفْض فرانسيس كولينز للتصورات المادية نابع من أنها لا تُفسر أي شيءٍ على الإطلاق

(١)http://inters.org/Dawkins-Collins-Cray-Science

وتأتي في صدام مباشر مع جميع تصرفات الإنسان وقيمه التي يحملها، وقد أوضح كولينز في هذا الإطار قصة قصيرة في كتابه السابق تُبين ذلك فقال: " التطور لا يكترث لأي شيء عدا القابلية الإنجابية. والقانون الأخلاقي يستدعي منا أن نفعل أشياء نحن لا نريد حقًا أن نفعلها .. ففي قصة ديرك ويليامز Dirk Willems حين كان سجينًا في أحد الأبراج بسبب إيمانه وحاول الهروب وأثناء هروبه تتبعه حارس وسقط الحارس في بركة ماء وكاد أن يغرق، وطلب مساعدة ديرك الذي لم يتردد وانقذ الحارس، لكن الحارس اقتاده إلى السجن مرةً ثانية وحُكم على ديرك بالإعدام.

عملية التطور تقول أن ديرك اتخذ قرار خاطيء، وكان عليه أن يستمر بالهروب لأنها الطريقة الوحيدة التي تضمن أن يمرر جيناته، إن عمل ديرك عمل نبيل ولكنه غير صحيح ".

وهنا يكمن الفرق بين التصور الإلحادي المادي التطوري وبين الإنسان! [(١)].

قام كولينز في عام ٢٠٠٧ بتأسيس ورئاسة مؤسسة الفطانة الحيوية-الخلق من خلال الكلمة الإلهية- The BioLogos Foundation والتي تُحفز تعزيز العلاقة بين الدين والعلم [(٢)].

وفي ٨ يوليو ٢٠٠٩ قام باراك أوباما رئيس الولايات المتحدة بترشيح فرانسيس كولينز لرئاسة المعاهد الوطنية الصحية في أمريكا the National Institutes of Health ، وقد وافق مجلس الشيوخ على القرار بالإجماع [(٣)].

٨) فيليب جونسون (Phillip E. Johnson ١٩٤٠-   ):

أستاذ القانون بجامعة كاليفورنيا، والأب الروحي لحركة التصميم الذكي.

كان فيليب جونسون ملحدًا، لكنه ترك الإلحاد على أثر قرائته لكتاب "التطور: نظرية في

---

(١)http://en.wikipedia.org/wiki/Dirk_Willems

(٢)http://en.wikipedia.org/wiki/The_BioLogos_Foundation

(٣)http://www.whitehouse.gov/the_press_office/President-Obama-Announces-Intent-to-Nominate-Francis-Collins-as-NIH-Director/

أزمة" لمايكل دانتون، والذي نُشر في العام ١٩٨٥م[١].

وقد شعر فيليب جونسون بواسطة حسه القانوني أن أسلوب الداروينيين غير مريح بالمرة، وأنهم يعتمدون الإثارة اللغوية بدلًا من الضبط العلمي فيما يُقدمونه، وكأن هناك شيء ما يريدون إخفاؤه!

"Something about the Darwinists' rhetorical style, made me think they had something to hide."

- Dembski, William A., ed. (٢٠٠٦). *Darwin's Nemesis: Phillip Johnson and the Intelligent Design Movement*. Foreword by Rick Santorum. Downers Grove, IL: IVP Academic.

ولم تمض سنوات قليلة حتى نشر فيليب جونسون كتابه الأشهر "محاكمة داروين" في العام ١٩٩١م.

Darwin on Trial a ١٩٩١ book

والذي كان نواة حركة التصميم الذكي في أمريكا.

Forrest, Barbara (٢٠٠١). "The Wedge at Work: How Intelligent Design Creationism Is Wedging Its Way into the Cultural and Academic Mainstream". In Pennock, Robert T. *Intelligent Design Creationism and Its Critics: Philosophical, Theological, and Scientific Perspectives*. Cambridge, MA: MIT Press.

ويرى فيليب جونسون أن تمسك العلماء بالداروينية الآن ليس لأنها نظرية صحيحة بل فقط لرغبتهم في أن تكون صحيحة، فقال: "العلماء يتمسكون بالداروينية على الرغم من هشاشة الفكرة خوفًا على وجاهتهم ومستقبلهم الوظيفي، ولن ينالوا دعمًا لبحوثهم وسيصبحون عُرضة للطرد، أيضا مشكلة أيديولوجية كبرى فالعلماء عندما يقولون الداروينية غير صحيحة إذن ما هو

---

(١)Berkeley's Radical: An Interview with Phillip E. Johnson, Touchstone Magazine, ٢٠٠٢.

الصحيح في تفسير نشأة الحياة ؟ ... هم يتمسكون بنظرية خاطئة، إذا كان البديل عدم وجود نظرية أُخرى وهذا بالضبط الحاصل الآن "(١) .

فالداروينية طبقًا لفيليب جونسون ديانة مادية جديدة لا أكثر(٢) .

٩) مايكل بيهي (Michael Behe ١٩٥٢-):

عالم الكيمياء الحيوية الأمريكي، وأستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة ليهاي Lehigh University في بنسلفانيا.

كان مايكل بيهي ملحدًا معتنقًا للتطور لكنه تحول عن الإلحاد والتطور بالكلية بعد أن قرأ كتاب "التطور: نظرية في أزمة" لمايكل دانتون(٣) .

وازدادت شكوك مايكل بيهي في الداروينية مع الوقت خاصةً خلال دراسات ما بعد الدكتوراة التي كان أجراها في تخصص النظام المعلوماتي للحياة المعروف بالحمض النووي DNA.

واستطاع مايكل بيهي أن يرصد أنظمة حيوية عالية التعقيد خلال دراسته مثل: آلية "تجلط –تخثر– الدم" والتي بدون هذه الآلية يهلك الإنسان –الجنين والأم– فور ولادته!

وتعتمد هذه الآلية على عشر خطوات تستخدم عشرين مركب حيوي شديد التعقيد، أيضًا هذه الآلية ترتبط بالزمان والمكان فلا يعقل أن يتخثر الدم في مكان غير مكان النزف أو في وقت متأخر عن الطبيعي –وهذا تعقيد إضافي على الآلية–.

أيضًا هذه الآلية تحتاج لتناغم فوري وسريع بين الكبد والأوعية الدموية ونخاع العظم

---

(١)https://www.youtube.com/watch?v=gwj٩h٩Zx٦Mw

(٢)https://www.youtube.com/watch?v=ZZqxR٧Taq_M

(٣)The Evolution of a Skeptic: An Interview with Dr. Michael Behe, biochemist and author of recent best-seller, Darwin's Black Box, ١٩٩٦

والمخ.

كما استطاع مايكل بيهي خلال دراساته أن يرصد التعقيد المدهش في السوط البكتيري، وكيف أن هذا السوط البكتيري الدقيق للغاية يتكون من مائتي جزيء بروتين بالغ التعقيد، إذا جاء أحدها مكان الآخر أو اختفى أحدها، فلن تظهر منظومة السوط البكتيري بالكلية!

ويتحرك السوط البكتيري بمعدل عشرة آلاف حركة في الدقيقة، وهو قادر على عكس اتجاه حركته في جزء من أربعين ألف جزء من الثانية، وحجم الموتور المُحرك للسوط هو واحد على مائة ألف من البوصة، ولم يستطع الإنسان صناعة موتور بحجمه ولا أن يقترب من كفاءته، إلى الحد الذي دفع هاورد بيرج Howard Berg عالم البيولوجيا بجامعة هارفارد إلى اعتبار أن السوط البكتيري أكفأ آلة في الكون، وقام الرياضيون بحساب نشأة هذا السوط بالصدفة فوجدوا أن الاحتمالية تصل إلى واحد في ١٠ أس ١١٧٠ مع أن ذرات الكون كله لا تتجاوز ١٠ أس ٨٠ ذرة.

كل هذه المعطيات المدهشة عالية التعقيد أوحت لمايكل بيهي بضبط حجته التي اشتهر بها والتي تُدعى حجة " التعقيد الغير قابل للاختزال" وهذه الحجة تقوم على أن بعض الأنظمة الحيوية –مثل: تخثر الدم والسوط البكتيري– هي من التعقيد بحيث لا يمكن تفسيرها على نحوٍ كافٍ من قبل آليات التطورية المعروفة و بالتالي فهي نتيجة مصمم ذكي.

وبناءً على ما تقدم: أصدر مايكل بيهي كتابه الأشهر "صندوق داروين الأسود" في العام ١٩٩٦.

Darwin's Black Box

والذي يسرد من خلاله أنظمة حيوية كثيرة بالغة التعقيد لا يستطيع التطور أن يُفسرها، فهذه الأنظمة الحيوية إما أن تظهر دفعةً واحدة أو لا تظهر!

وقد انتصر في كتابه لمصطلح التعقيد الغير قابل للاختزال، وأفرد الفصل السادس من الكتاب لمعضلة تجلط الدم -سابقة الذكر- وكونها تؤكد عدم إمكان استيعاب هذه الآلية ضمن أُطر التطور.

وهكذا يقود العلم ويقود الرصد المنصف ملحد آخر إلى التخلي عن إلحاده وعن التطور بالكلية!

شعبية نظرية التطور

منذ فترة قصيرة تراجعت مجموعة علماء altenberg عن دعم التصور التقليدي لنظرية التطور وتراجعت عن فكرة شجرة الحياة والسلف المشترك، وفكرة أبناء العمومة مع القردة واعتبرت أن هذا تهريج بإسم العلم!

ومنذ أعوام أعلن ستيفن جاي جولد -قبل وفاته- وهو أنا أعتبره أكبر علماء التطور في القرن العشرين، أعلن أن شجرة الحياة والسلف المشترك في وضع محرج وأصبحت تقليد في الجامعات لا أكثر!

وهنا يطفو سؤال على السطح: ما الذي يدعو علماء التطور إلى الاطمئنان على شعبية النظرية كل فينة والأخرى إلا لو كان الأمر خارج دائرة الرصد العلمي؟

هل العلماء يطمئنون على شعبية كروية الأرض؟

ما الذي يدعو علماء تطور ملحدين أمثال جيري فودور Jerry Fodor وماسيمو بياتيلي بالماريني Massimo Piattelli-Palmarini ، إلى تخطئة داروين رأسًا، وصنَّفا في تهافت التطور كتابهما: "الأمر الذي أخطأ فيه داروين What Darwin Got Wrong". وكان مما صدّرا به كتابهما ما يلي: "هذا ليس كتابًا عن الله، ولا عن التصميم الذكي، ولا عن الخلق. ليس أيًا من أحدنا متورطٌ في شيءٍ من ذلك. لقد ارتأينا أنه من المستحسن أن نوضح هذا منذ البداية، لأن رأينا الأساسي فيما سيأتي يقضي بأن هناك خطأ ما - وربما خطأ لدرجة قاتلة - في نظرية الانتخاب الطبيعي".

المقصود مما سبق: أن معطياتنا العلمية هي التي دفعت العلماء إلى اعتبار أن التطور بالفعل نظرية في أزمة، وأن الإنسان العاقل حين تتاح أمامه كل هذه المعطيات ثم يُصر على فرضية العشوائية، فإنه في تلك الحالة يقرر قدرًا من السذاجة إذا استطاع ابتلاعه ابتلع بعد ذلك أي شيء!

ما نرغب في تقريره هنا أن حيدة العلماء عن التطور كانت بدافع علمي، والكثير من الكتب التي تظهر كل عام في تفنيد سخافة التطور كان يمكن الرد عليها لو ظهر دليل واحد قطعي يجزم بصحة النظرية، لكن المشكلة التي يعرفها الجميع أن التطور لا يملك أدلة ولا يستند على أسس علمية كتلك الأسس التي تنضبط بها بقية النظريات.

ولذا سيبقى التطور -إلى أن يشاء الله- داخل دوامة الأخذ والرد، لأنه عقيدة وأيديولوجية وليس علم!

وسقوطه يعني انهيار مؤسسات وأكاديميات عملاقة تنفق ببذخ من صناديق البحث العلمي، وفوق كل ذلك فإن سقوط التطور يعني سقوط الإلحاد وكل الفلسفات المادية، وهذا ما لا يقبل به للأسف كثيرون!

دعم نظرية التطور في الأوساط العلمية

يرتكز دعاة نظرية التطور في عالمنا العربي على ارتفاع مستوى دعم النظرية في الأوساط العلمية الغربية مما يؤكد وثوقيتها.

لكن هذه الحجة تحمل مغالطة منطقية شهيرة وهي مغالطة الاحتكام إلى السلطة appeal to authority حيث تُسلم زمام معرفتك إلى غيرك بحجة قوته العلمية.

لكن بنفس القياس علم النفس يتم تدريسه في كل جامعات العالم فهل تؤمن بالنفس أيها الملحد؟

وعلم اللاهوت يتم تدريسه في مؤسسات جامعية عملاقة فهل هذا يقطع بصحة دينٍ ما؟

ونظرية الأوتار الفائقة تلقى قبولًا علميًا كبيرًا ولها أقسام علمية مستقلة داخل الجامعات الكبرى ولا تكاد توجد جامعة إلا وتقوم بتدريسها، مع أن النظرية لم تنضبط بدليل إمبريقي تجريبي رصدي واحد على الإطلاق حتى الآن.

ولا يعرف دعاة الإلحاد العرب أن إطار التدريس الجامعي هو إطار تدريس مُعطيات لا مُسلمات!

فمشكلة صراعنا مع دعاة التطور العرب أن الغالبية الساحقة منهم لا تجيد ألف باء أدبيات التطور، وأجزم من خلال معرفتي لكثيرين منهم أنهم لا يعرفون مثلًا الفرق بين ال orders وال classes وال phyla .

فإذا جهِل الملحد العربي هذه الأبجديات فمن البديهي أن يجهل أن التطور لم يثبت كقضية علمية رصدية وإنما ما زال التطور منذ أيام داروين وحتى يومنا هذا مجرد فلسفة تأويلية لتنوع الكائنات الحية.

ملحوظة جانبية للمهتمين بالملف التطوري!

مصطلح التصميم الذكي Intelligent Design مشكِل من جهة إيحاءاته العقدية. نعم للبعض أنْ يتَسمَّح ويقول: إنَّ ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، وهذا صحيح، ولكن على شيء من التحفّظ هنا. وأيًّا ما كان الأمر، متى أمكن الاستغناء عن اللفظ الحادث بلفظ شرعي صحيح تعيّن ذلك.

وكان مما خطر لي، واستشرت فيه بعض الفضلاء فوافقني عليه وأيدني فيه، استعمال تعبير (الصُنْع المتقَن) بدلا من (التصميم الذكي)؛

أولًا: لأصله القرآني.

وثانيًا: لما فيه من الاستغناء عن الإيحاءات المشكلة للتعبير الأجنبي وما يترتب عليها من ضرورة التحوط والتحرز.

فإنْ كان هذا مما يوافقني عليه القراء فالحمد لله، وأدعوهم لاستعماله وإشاعته وإشهاره، وإنْ كان مما لا يوافقوني عليه، فشأن العبد الضعيف، ويسرُّني استقبال أيّ تعديل أو تصويب[(١)].

(١) عبد الله الشهري من مقدمة كتاب تصميم الحياة، دار الكاتب، ص١٢.

أشهر حجج التطوريون الجدد مع الرد عليها

هذه أشهر حُجج التطوريون الجدد مع الرد عليها:

١) فيروس النسخ العكسي retrovirus ERV

الحجة: فيروس النسخ العكسي retrovirus ERV يوجد في نفس المكان تقريبًا من جينوم الإنسان والشمبانزي وبالتالي السلف المشترك حتمًا أُصيب بالفيروس ونقله للأحفاد والذين هم الإنسان والشمبانزي.

الرد: هذه المقدمة هي ربما أشهر أطروحة للتطوريين الجدد بعد فشل الأطروحات القديمة أو ضعف سياقها التأويلي.

لكن دعونا نحلل هذه الأطروحة بشيءٍ من الهدوء!

أولًا: فيروسات النسخ العكسي ليست فيروسات مرضية كما يبدو وإنما هي تسلسلات وظيفية داخل جينوم الكائنات الحية، فهي تعطي شيفرات لعشرات الآلاف من المحفزات النشطة encode tens-of-thousands of active promoters .

وهذا يعني أنها شيفرات وظيفية وليست إرثًا تطوريًا أو شيئًا ظهر نتيجة إصابة مرضية عشوائية بلا وظيفة كما يُروج كهنة التطور الجدد! [١].

بل إن تسلسلات فيروسات النسخ العكسي تساعد الجين P٥٣ في عملية تنظيم الجينوم ككل، وهذا الجين مهم جدًا إلى الدرجة التي يؤدي أي خلل في وظيفته إلى الإصابة بالسرطان – عافانا الله وإياكم–.

بل إن ٥٠٪ من إصابات السرطان سببها المباشر خلل في الجين P٥٣.

---

(١)Conley, A.B., Piriyapongsa, J. and Jordan, I.K., Reference ١.

retroviruses ... helped a gene called p٥٣ become an important "master gene regulator"

فتصديقك لدعاة التطور يؤدي إلى إصابتك بالسرطان.

نظرية التطور تُسرطن الجنس البشري –ابتسامة–!

We report that human ERVs actively shape the p٥٣ transcriptional network in a species-specific manner[(١)].

فشيفرات فيروسات النسخ العكسي تسلك كجينات طبيعية تمامًا وتؤدي وظيفتها باقتدار وليست إصابة ولا يتعامل معها الجينوم كإصابة مرضية أصلًا!

بل إن تجاهل تلك التشفيرات كان أحد أكبر أخطاء الأحياء الجزيئية.

The failure to recognize the full implications of this - particularly the possibility that the intervening noncoding sequences may be transmitting parallel information ... may well go down as one of the biggest mistakes in the history of molecular biology[(٢)].

Wolfgang Seifarth, Oliver Frank, Udo Zeilfelder, Birgit Spiess, Alex D

ثانيًا: أحد أُسس علوم الأوبئة أن الخلية المصابة بفيروس –مثل الإصابة بفيروس النسخ العكسي– فإنها تموت –الموت المبرمج للخلايا بعد الإصابة بالفيروس Apoptosis – هذا فضلًا عن أن تظل حيةً فضلًا عن أن تكون هذه الخلية هي النطفة التي ينشأ منها الجنين والتي في العادة تكون من أنقى وأصلح الخلايا على الإطلاق، فضلًا عن أن تظل شيفرة العدوى ملايين السنين تنتقل بين الأجيال!

---

(١)ScienceDaily, University of California - Santa Cruz, Nov. ١٥, ٢٠٠٧.

(٢)Journal of Virology, January ٢٠٠٥ vol. ٧٩ no. ١ ٣٥٢-٣٤١.

فشيفرات النسخ العكسي لم تأت عبر عدوى بفيروس النسخ العكسي لأحد الأجداد وإنما هي شيفرات وظيفية داخل الجينوم!

ثالثًا: الزعم بأن شيفرة فيروس النسخ العكسي توجد في نفس المكان لدى الإنسان والشمبانزي كدلالة على السلف المشترك هي فكرة في منتهى السخافة، لوجود نفس الشيفرة في نفس المكان لكائنات حية سلكت طرقًا تطورية مختلفة بحسب شجرة التطور نفسها!

two closely related ERV genomes are found in a carnivore (fox) and a ruminant (sheep)[١].

بل إن شيفرة الفيروس العكسي توجد اليوم تمامًا لدى قردة البابون والقطط، الأمر الذي حيّر علماء التطور وجعلهم يتخيلون سيناريوهات عجيبة لتبرير ذلك فافترضوا أن القطط تغذت على مشيمة قردة البابون المصابة بنفس الفيروس!

Robin A Weiss, "The discovery of endogenous retroviruses," Retrovirology, ٢٠٠٦; ٣: ٦٧. Published online ٢٠٠٦ October ٣.

فغاية ما في هذه الفروض أنها أوهام وتأملات!

رابعًا: لو استخدمنا نفس منهج دعاة التطور فإن شيفرة فيروس النسخ العكسي تهدم نظرية التطور وتقلب شجرة التطور المزعومة رأسًا على عقب!

حيث أن هناك شيفرة فيروس نسخ عكسي موجودة في الشمبانزي والغوريلا والقردة الأفريقية وقردة العالم القديم ولا توجد في الإنسان وهذا هو الفيروس PTERV١، وبما أنه وطبقًا لأدبيات التطور فإن السلف المشترك للإنسان والشمبانزي قد انفصل عن الغوريلا قبل انفصال الإنسان والشمبانزي وبالتالي فلو وُجدت شيفرة فيروس نسخ عكسي في الغوريلا والشمبانزي

---

(١)http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC١٦١٧١٢٠/.

في نفس المكان، إذن حتمًا ولابد أن توجد في الإنسان، وإلا فشجرة التطور وهم!

وما حدث أنه فعلًا توجد شيفرة فيروس النسخ العكسي من نوع PTERV١ في الغوريلا والشمبانزي ولا توجد في الإنسان وهذا يُسقط التطور ككل بنفس أدوات احتجاج التطوريين![١].

٢) اندماج الكروموسوم الثاني في الإنسان

الحجة: يزعم التطوريون أن الشمبانزي يحتوي على ٤٨ كروموسوم والإنسان ٤٦ كروموسوم إذن لابد أن هناك التحام جرى بين كروموسومين، وهو ما رصدوه في كروموسوم رقم ٢ في الإنسان.

الرد: موضوع الاندماج الكروموسومي في حد ذاته أكبر دليل على فلسفية التطور وأنه لا علاقة له بالعلم. دعنا نُفصِّل في الأمر:

أولًا: ما علاقة عدد الكروموسومات بتقارب الأسلاف أو تباعدها حتى يصِّح الافتراض من الأساس؟

فمثلًا: نبات البطاطا يحتوي على ٤٨ كروسوم -بالضبط مثل الشمبانزي- فلماذا الشمبانزي وليس البطاطا

ما علاقة العدد بالموضوع؟

لماذا البطاطا خطأ والشمبانزي صح، إذا كانت المسألة عدد كروموسومات؟

ثانيًا: هناك نوع من الظباء يدعى الظبي السمورSable antelope يحتوي على ٤٦ كروموسوم بالتمام والكمال كالإنسان، إذن المفترض أن الإنسان أقرب لظبي سابل من الشمبانزي أليس كذلك؟

أيضًا أسماك الزينة من نوع جوبي Guppy تحتوي على نفس العدد تمامًا ٤٦ كروموسوم فلماذا

---

(١)http://www.sciencedaily.com/releases/٢٠٠٥/٠٣/٠٥٠٣٢٨١٧٤٨٢٦.htm.

الشمبانزي وليس جوبي؟

ثالثًا: القضية في حقيقتها هي افتراض مسبق في أذهان التطوريون الجدد -إنسان وشمبانزي من سلف مشترك- ثم جعل كل المعطيات تصب في هذا الافتراض، في حين أنك لو وضعت أي افتراض آخر كائنًا ما كان ستجد داخل العالم ما يدعمه!

رابعًا: سنفترض أن آدم عليه السلام وأبناؤه كانوا يمتلكون ٤٨ كروموسوم، وفجأةً جاء أحد الأحفاد وحدث له اندماج بين كروموسومين، ثم جائت الذرية البشرية المعاصرة من هذا الحفيد، هل ثمة خطأ في هذا السيناريو ؟

هل تستطيع علميًا أن تثبت صحة سيناريو التطوريون الجدد أو خطأ هذا السيناريو؟

بل إن هذا السيناريو أقرب منطقًا وعقلًا من فروض التطوريون الجدد لأنه يقلل عدد الفروض وبالتالي فهو أصح علميًا طبقًا لنصل أوكام.

الذي أحاول أن أبيّنه أن هذه فلسفة وكل الاحتمالات قائمة طالما أننا داخل حلبة الفلسفة، وبالتالي حين تتحدث عن التطور فأنت لا تتحدث عن علم بل عن فلسفة!

خامسًا: وهو الأهم: موضوع اندماج الكروموسومين يتعرض الآن للتشكيك بشدة، بعد أن تبين أن منطقة الاندماج المزعومة في كروموسوم رقم٢ ليس بها ذلك التكرار المتوقع والموجود في نهاية أي كروموسوم Telomeric end ، حيث أن نهاية أي كروموسوم تحتوي على آلاف التكرارات من سلسلة TTAGGG لكن لا يوجد في منطقة الالتحام المزعومة إلا عدد محدود من التكرارات وكأنها منطقة كروموسومية عادية، مع أنه من المفترض أن تمتليء بآلاف التكرارات لأنها ليست نهاية كرموسوم واحد بل كروموسومين.

٢) العصب الحائر

الحجة: يزعم التطوريون الجدد أننا جئنا من الأسماك ولذا فإن فرع العصب الحائر عندنا

والذي هو Recurrent Laryngeal Nerve يستطيل بطريقة ليس لها فائدة -يدور حول الأورطى Arch of Aorta ثم يصعد نحو الحنجرة، والأولى أن يدخل للحنجرة مباشرةً-، فهذه الاستطالة الزائدة مجرد إرث تطوري!

الرد: هذه أحد المهازل التي روّج لها ريتشارد دوكينز، ففي دراستنا الأكاديمية لم يقولوا لنا يومًا أن لفة فرع العصب الحائر حول الأورطى بلا فائدة، فضلًا عن أن يقولوا لنا أنها ميراث تطوري!

ففرع العصب الحائر في دورانه حول الأورطى يعطي تغذية رئيسية للقلب deep cardiac plexus.

ولو لم تحدث هذه اللفة -التي من المفترض أنها بلا فائدة- فإن فرع العصب ساعتها سيوصف ب Non-Recurrent Laryngeal Nerve وهو الصورة المثالية التي يتوقعها ريتشارد داوكينز. أليس كذلك؟

لكن المصيبة أن هذه حالة مرضية خطيرة، حيث ينزل فيها فرع العصب الحائر إلى الحنجرة مباشرةً دون الدوران حول الأورطى فيتضخم الأورطى وتصبح حياة الإنسان ككل عرضة للخطر.

تخيل!

افتراض أن التطور صحيح يجعل حياتك في خطر ويتضخم شريان الأورطى الخاص بك!

افتراض أن كلام ريتشارد دوكينز صحيح يجعل قلبك مريض!

فلابد أن يدور فرع العصب الحائر حول الأورطى ويعطي تغذية عصبية للقلب! فلا تصدق التطوريين الجدد، لئلا يمرض قلبك[١].

---

(١) http://www.weloennig.de/LaryngealNerve.pdf.

٤) الزائدة الدودية:

الحجة: يزعم التطوريون الجدد أن الزائدة الدودية مجرد إرث تطوري ولا فائدة منها!

الرد: قرأت بالصدفة في كتاب الجراحة التشريحية والذي يدرسه طلبة الطب في بلادنا هذه العبارة:

Appendix is the tonsil of GIT

Surgical anatomy Dr.Elmatary MD Ain shams University p.١٨٧

الزائدة الدودية بالنسبة للجهاز الهضمي كاللوزتين بالنسبة للجهاز التنفسي، هذه قواعد طبية. فالعلم شيء وكهنوت هؤلاء شيء آخر تمامًا.

مشكلة الملحد في هذه القضايا أنه يضع إلحاده في مواجهة العلم فكلما توسعت مكتشفات العلم ضاق الخناق على الملحد وظهرت فوائد تلك الأعضاء فالزمن لا يحمل إلا مزيد عناء للملحد.

فالزائدة الدودية جزء من المنظومة المناعية.

لكن قد يقول قائل: إزالة الزائدة الدودية لا يُسبب مشاكل للإنسان!

الرد: وكذلك إزالة ثلاثة أرباع الكبد وسبعة أثمان الكلى لا يُسبب مشاكل للإنسان!

فنحن نرد على الذي يقول أنها إرث تطوري بلا فائدة.

٥) أجداد الإنسان:

الحجة: يزعم التطوريون وجود أجداد للإنسان الحالي منذ مئات الآف من السنين الماضية!

الرد: يقرر اللاأدري الشهير ول ديورانت في موسوعته قصة الحضارة مجلد ٣٩ صفحة ٧ أن: "أول قرية في التاريخ على الإطلاق لا يتجاوز عمرها ١٠ آلاف سنة".

ولا يوجد قبل هذا التاريخ أي دليل تاريخي على وجود الإنسان .

وظهرت سومر أول مدينة على الإطلاق، قبل ٥ آلاف عام فقط.

والكتابة التي تعتمد على الحروف ظهرت على يد الشعوب السامية والفينيقية قبل ٣٥٠٠ عام فقط، وجاءت اللاتينية من الفينيقية!

المصدر : أنا تتحدث عن نفسها ..د. عمرو شريف ص٢٥٦

وظهرت الحرب على الخيل لأول مرة قبل ٢٦٠٠ عام فقط من الآن.

وأول حضارة هي الفارسية ٥٠٠ ق.م، ثم الاسكندر ٣٢٣ق.م.، ثم الهان الصينية ٥٠ق.م.، ثم الرومانية ١١٧ ميلادية.

هذا هو تاريخ الإنسان الحقيقي على هذه الأرض، بعيدًا عن بقايا عظام التطوريون الجدد، وخيالات الواهمين، وأضراس الخنازير التي كانوا يتصورون أنها تنتمي لبشر ما قبل التاريخ وقاموا بعمل صور كاملة لهؤلاء البشر من خلال ضرس واحد، وتبين بعد عشرات السنين أنها أضراس خنازير برية لا أضراس بشر ما قبل التاريخ[١].

لكن قد يقول قائل فماذا عن هذه الأحافير الكثيرة لبشر ما قبل التاريخ؟

الرد: المعلومة التي تخفى على الكثيرين أن جميع أحافير أجداد البشر المزعومة لا تملأ شنطة سيارة-هذه حقيقة-!

فنحن حتى اليوم لم نرصد من الهومو اريكتس سوى عظمة فخذ وجزء من جمجمة مع قدر كبير جدًا من التخيل بطبيعة الحال، وتمت تسمية الحفرية بإسم إنسان جاوة، أيضًا هناك حفرية اخرى شبيهة تسمى إنسان بكين!

لكن هل بالفعل إنسان جاوة أو بكين أو Turkana Boy أو هومو إيرغاستر هم أسلاف البشر الحاليين كما يزعم أدباء التطور؟

البروفيسور ويليام لافلن Professor William Laughlin بجامعة كونيتيكت أجرى

---

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/Nebraska_Man

بحوثا مطولة حول الصفة التشريحية للإنسان المنتصب وبعض سكان الإسكيمو المعاصرين وسكان جزر أليوت وأشار إلى أن هؤلاء الناس يحملون تشابه وثيق ومدهش مع الإنسان المنتصب، وكان الاستنتاج أن الانسان المنتصب هو أحد الأجناس البشرية العادية جدًا وليس سلفًا تطوريًا.

When we consider the vast differences that exist between remote groups such as Eskimos and Bushmen, who are known to belong to the single species of Homo sapiens, it seems justifiable to conclude that Sinanthropus [an erectus specimen] belongs within this same diverse species [H. sapiens] (١).

فالإنسان منتصب القامة الهومو اريكتس يصنع القوارب واستخدم النار ودفن موتاه وعاش في بيوت بناها بنفسه وله طقوس خاصة بالدفن، كل هذا يعني أنه إنسان وجنس بشري من الأجناس البشرية العادية.

A. J. Kelso, Physical Anthropology, ١.b., ١٩٧٠, pp. ٢٢١; M. D. Leakey, Olduvai Gorge, Vol ٣, Cambridge: Cambridge University Press, ١٩٧١, p. ٢٧٢

فكل هؤلاء بشر عاديون من أجناس مختلفة لا أكثر، وحفرياتهم مطابقة للهيكل الإنساني والاختلافات الطفيفة هي اختلافات ما زالت توجد اليوم بين الأعراق البشرية المختلفة.

يقول عالم الحفريات ريتشارد ليكي: "الانسان المنتصب [هومواريكتس] والإنسان المعاصر نوع واحد، وهذه الاختلافات أقل من الاختلافات التي نراها اليوم بين أجناس منفصلة جغرافيًا من الإنسان الحديث ".

(١) Marvin Lubenow, Bones of Contention,p. ١٣٦. ١٥-٠٨-٢٠٠٩ ١٤:٤٥:٥٥

These differences are probably no more pronounced than we see today between the separate geographical races of modern humans(١).

لكن ماذا عن القرد الأفريقي الجنوبي – لوسي –؟

الرد: القرد الأفريقي الجنوبي australopithecus afarensis –وهو أحد أنواع القِردة المنقرضة – وله دور البطولة في نظرية التطور ، ظهرت حفرياته على يد ريموند دارت، ورسميًا لا يوجد فارق بين عظامه المكتشفة وعظام الشمبانزي.

لكن التطور ادعى أن القرد الأفريقي الجنوبي كان يمشي منتصبًا، إلى أن جاء علماء التشريح اللورد سالي زيكيرمان والبروفيسور تشارلز أوكسنارد، وفندًا هذا الإدعاء؛ وتبين أن القرد الأفريقي الجنوبي – لوسي – هو أحد أنواع القردة المنقرضة لا أكثر .

ويوجد ٦٥٠٠ نوع من القردة بعضهـا منقرض، من خلالها يسرح الدراونة بمخيلاتهم كما يشاؤون .. !!

ولذا في المجلة الفرنسية الشهيرة العلم والحياة science et vie عدد مايو ١٩٩٩ كتبت بالمانشيت العريض adieu lucy أي "الوداع يا لوسي"

وتنقل صفحة الباحثون المسلمون: IfDH٧https://goo.gl/g

قول الدكتور جيمي شيرفاس أن عظام لوسي تتفق مع القردة(٢) .

وفي مجلة أخبار العلوم نجد "سوزمان" عالمة الحفريات من جامعة نيويورك وبعد دراستها لهيكل لوسي ترجح أنه لقرد يتسلق الشجر لا أكثر ولا أقل(٣) .

وقد قام عالم تطوري يدعى أوين لوفجوي Owen Lovejoy في عمل خادع أكسبه الشهرة

---

(١) The making of mankind, london, sphere books, ١٩٨١, p.٦٢.

(٢) J. Cherfas, New Scientist, ٩٧:١٧٢, ١٩٨٢

(٣)Science Newsletter, ١٩٨٢, p. ٤.

بعد ذلك !! حيث قام بعملية (التلفيق) لتصبح عظمة الحوض للوسي مثل البشر القادرين على المشي منتصبي القامة بسهولة !

وهذا رابط الفيديو الذي يشرح فيه عمله في التشكيل والحفر الجديدين [١]:

وقد قدّمت د.كرستين بيرج Christine Berge في عام ٢٠١٠ محاكاة تختلف تمامًا عما قدّمه أوين لوفجوي لعظام حوض لوسي [٢].

أما عن أن الركبة التي تم وضعها للوسي؛ فهي أصلًا ركبة بشرية لأن لوسي ليس فيها عظمة ركبة وفي هذا الفيديو من ناشيونال جيوغرافيك اعتراف لوفجوي نفسه أنها (ركبة بشرية)!![٣].

والمضحك أن بعض عظام لوسي لا تنتمي للوسي أصلًا [٤]:

وفي النهاية وكما يقول هنري جي Henry Gee المحرر العلمي في مجلة الطبيعة Nature الشهيرة عن مسألة وجود نسب بين الإنسان والحيوان بناءً على الشكل الخارجي: " وكل ما في الأمر أنها مجرد حكاية أو حدوته من أحاجي منتصف الليل المسلية التي قد تكون مُوجِّهة أو مُرشدة للإنسان في كثيرٍ من الأحيان إلا أنها ومع ذلك لا تستند لأيّ أساسٍ علمي"[٥].

---

(١)https://www.youtube.com/watch?v=L_U٩SCyWw٤w.

(٢)Journal of Human Evolution ٥٨:٢٦٢–٢٧٢.

(٣) https://www.youtube.com/watch?v=pZyXRAetmVk.

(٤)https://www.newscientist.com/article/dn٢٧٣٢٥-baboon-bone-found-in-famous-lucy-skeleton/#.VSvhWvmsVqV

(٥)Henry Gee, In Search of Deep Time, New York, The Free Press, ١٩٩٩, p.١١٧–١١٦,

٦) التشابه بين الإنسان والشمبانزي في الجينوم بنسبة ٩٨,٧%:

الحجة: نسبة التشابه دليل على السلف المشترك.

الرد:

أولًا: مشكلة دراسة تراص القواعد النكليوتيدية والتي يبلغ عددها أكثر من ثلاثة مليارات قاعدة أمر عسير للغاية، وقد وصفت مجلة أبحاث الجينوم Genome Research العلمية المحكّمة المرموقة أن مقارنة جينوم الإنسان بذلك الخاص بالشمبانزي هو يشبه البحث عن إبرة في أكوامٍ من القش.

Comparing the human and chimpanzee genomes: Searching for needles in a haystack[١].

وتقرر المجلة أن نسبة تقارب الإنسان والشمبانزي ليست ٩٨٪ كما يزعمون، بل هي ٩٦٪.

ومؤخرًا النسبة تتروح بين ٩٣٪ و٩٥٪.

ثانيًا: التشابه في التراص بين القواعد النكليوتيدية ليس كل ما في الأمر، فالقضية "معلومات" مُشفرة لوظائف متخصصة ستظهر في الكائن الحي.

ثم إن مسألة التشابه في القواعد النكليوتيدية والتركيبية والوظيفية بين الكائنات الحية بديهة طبيعية لا تحتاج للتدليل عليها بالإثبات أو النفي!

فهي ضرورة حياتية لازمة للسلسلة الغذائية والهرم الغذائي، فما لا يريد أن يدركه دعاة التطور أن التشابه أمر حياتي حتمي، فمثلًا لنفترض أن ال DNA الذي يتكون من قواعد نيتروجينية وجزيئات سُكر خماسية في الإنسان هو مثلًا قواعد زرنيخية وجزيئات كوبلت في البقر، فساعتها لن تكتمل السلسلة الغذائية ولن يستفيد الإنسان من البقر وسيكون كل كائن حي بمثابة سُم للكائن الحي الآخر، وتنهار منظومة الأسباب التي خلق الله بها العالم وتتوقف الحياة.

---

(١)http://genome.cshlp.org/content/١٧٤٦/١٢/١٥.full.

فالتشابه ضرورة غذائية حتمية يعرفها الناس بالبداهة لاكتمال السلاسل الغذائية، وهو دليل على وحدة الصانع لو تدّبرنا!

ثالثًا: التشابه الشديد مع الإنسان ليس أمرًا حصريًا بالشمبانزي! لكن هم يريدون التركيز على ذلك لدعاوى أيديولوجية ومقدمات عقائدية معلومة.

وإلا فنسبة التشابه بين الإنسان والفأر ٩٩٪ ![١].

إذن المفترض أن الفأر أقرب للإنسان من الشمبانزي!

هم يركزون على دعاوى ومقدمات لديهم ثم يُخضعون المعطى العلمي لمقدماتهم ويتجاهلون بقية المعطيات!

ألسنا لو اعتمدنا أحجية التشابه الجيني تلك، يمكننا أن نسقط بها شجرة التطور ككل؟

أيضًا نسبة تشابه الجينوم الخاص بالإنسان مع ديدان النيماتود nematode يصل إلى ٧٥٪ وهذا حتمًا لا يعني أن ٧٥٪ من جسد الإنسان مطابق للديدان[٢].

ونسبة التشابه بين الإنسان وذبابة الفاكهة ٦٠٪[٣].

نسبة التشابه بين الإنسان ونبات الموز يزيد على ٥٠٪![٤].

وفي مجلة ساينتيفك أمريكان Scientific American التطورية الشهيرة عدد ديسمبر ٢٠٠٩ والتي تقوم بتعريبها مؤسسة الكويت للتقدم العلمي أخذت المجلة لها عنوانًا رئيسًا في ذلك العدد وهو: ما الذي يجعلنا بشرًا what makes us human؟، وقامت الباحثة كاتبة المقال

---

(١)http://www.nature.com/nature/journal/v٤٢٠/n٦٩١٥/full/٤٢٠٥٠٩a.html.

(٢)New Scientist, ١٥ May ١٩٩٩, p. ٢٧

(٣) Hürriyet daily, ٢٤ February ٢٠٠٠

(٤)http://seriousfacts.com/٥٠-of-human-dna-is-the-same-as-a-bananas/

بدراسة متتالية الـDNA في أحد الجينـات ويُطلق عليه HAR١ في كلٍ من الإنسان والشمبانزي والدجاج، واكتشفت أن المتتالية لل DNA بين الشمبانزي والدجاج تختلف في قاعدتين فقط من أصل ١١٨ قاعدة بينما يصل الاختلاف بين الإنسان والشمبانزي إلى ١٨ قاعدة(١).

وهذا يُشكك في دلالة DNA وقدرته على التمييز بين الكائنـات الحية المختلفة، وأن الأمر لا يعدو كونه مجرد متتاليات لقواعد نيتروجينية، وليس معنى أن مقاس حذاء الإنسان أقرب لمقاس حذاء التمساح من مقاس حذاء الفيل أننا والتماسيح من أصل واحد، فهذه سطحية في البحث.

ولذا يقول التطوري هنري جي Henry Gee المحرر العلمي في مجلة الطبيعة Nature الشهيرة عن مسألة وجود نسب بين الإنسان والحيوان بناءً على تراص القواعد النكليوتيدية عن أن الأمر لا يعدو مجرد حدوته فيقول: " وكل ما في الأمر أنها مجرد حكاية أو حدوته من أحاجي منتصف الليل المسلية التي قد تكون مُوَجِّهَةً أو مُرْشِدَةً للإنسان في كثيرٍ من الأحيان إلا أنها ومع ذلك لا تستند لأيّ أساسٍ علمي"(٢).

فمسألة النسب والقرابة بين الإنسان والحيوانات بناءً على تراص القواعد والمتتاليات وهم وخرافة؛ ونحن في حاجة ماسة وعاجلة إلى عدم الدفع بالعلم إلى دائرة الخرافة(٣).

والعلماء عليهم أن يكفوا عن أن يكونوا علماء أنســاب .

فالإنسان لا يمكن تصنيفه كالأشياء بمجرد دراسة مجموعة المتتاليات النكليوتيدية التي تُكون الجينوم الخاص به، أو بدراسة حجم الجمجمة أو بدراسة خطوط الكف!

الإنسان لا يمكن فهمه أو قولبته بدراسة متتالياته ومقارنتها بغيره، وإلا فلا نلوم على مَن يستخدم تفاصيل الوجه أو مقاس الجمجمة في تحديد الشخصية وتصنيف البشر، وهذه كلها

---

(١) مجلة Scientific American عدد ديسمبر ٢٠٠٩ تعريب مؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

(٢) Henry Gee, In Search of Deep Time, New York, The Free Press, ١٩٩٩, p.١١٧-١١٦.

(٣) John R. Durant, "The Myth of Human Evolution", New Universities Quarterly ٣٥

علوم زائفة Pseudo-science وحريٌّ بالعلم أن يتخطاها حتى يُبقى على احترامه!

بقي أن نقول أن: عدد القواعد النيتروجينية في كل الكائنات الحية أربعًا C G T A وبالتالي بنظرية الاحتمالات فإن هناك احتمالية تشابه بين أي كائن وآخر بمتوسط ٢٥٪ وبالتالي لو قالوا لك أن نسبة التشابه بين الإنسان وفيروس الملاريا بنسبة ٢٥٪ فهذا لا يعني إطلاقًا أن ٢٥٪ من جسد الإنسان يشبه الملاريا!

٧) تشابة الشكل العام والبنية العامة للكائنات الحية

الحجة: تشابه الشكل العام والبنية العامة للكائنات الحية دليل على سلف مشترك وعلى شجرة التطور!

الرد: تشابه الشكل العام والبنية العامة للكائنات الحية ليس حجة علمية تجريبية على أسلاف مشتركة وإنما هو فرض عقلي لا أكثر!

فهو حُجة اصطلاحية لغوية متعلقة بالتعريف الاصطلاحي لمعنى كلمة "تشابه"!

فمِن أين لنا أن التشابه دليل تقارب؟

ولم لا يُستخدم التشابه كدليل على وحدة الصانع –أليس في التشابه بين الكائنات الحية دليلًا مباشرًا للمؤمنين بالخالق الواحد–؟

ولِم يفيد التشابه التقارب التطوري؟

لِم لا يعني التشابه مثلًا: التماثل في الخلق والخِلقة حيث الكائنات الحية خلقت بنظامٍ متماثل ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام:٣٨].

ولم يفيد التشابه السلف المشترك ولا يفيد سير العالم بنسقٍ واحد ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك:٣] ؟

وما لا حصر له من الأسئلة!

فتشابه الهيكل المعدني للسيارات على اختلاف موديلاتها وأصنافها لا يعني بداهةً انحدارها من سلفٍ مشترك، بل هي مُصممة على نَسقٍ معين وليست منحدرة أحدها من الأخرى!

ولن تستطيع الأحفورة مهما كانت مكتملة ومُعبِّرة أن تثبت علاقتها بسلفٍ لها أو خلفٍ جاء بعدها!

كتب غاريث نيلسونGareth Nelson خبير الأحافير بالمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي كتب يقول: "فكرة الذهاب للسجل الأحفوري من أجل الحصول على استنتاج تجريبي لعلاقة السلف-الخلف بين الأنواع، والأجناس، والعائلات، أو كل ما كان، أو ما يمكن أن يكون، ما هو إلا وهمٌ خبيث"[١].

وإذا نظرنا في سجلات الكائنات الحية على وجه الأرض فمن الُملفت للانتباه أنَّنا نستطيع تصْنيف الكائنات الحيَّةِ لمجموعاتٍ منفصلة، كأنواعٍ وأجناسٍ وعائلاتٍ ورتبٍ وصفوفٍ وشعبٍ وممالك بمنتهى الضبط تمامًا!

ما لغز هذا التمايز الشديد وهذه الخنادق الضخمة الحقيقية بين ممالك الكائنات الحية لو كانت القضية سلف مشترك أوحد؟

ومن أجل ذلك وبسبب فقدان الأدلة، يضطر التطوريّون للاعتماد على التشابهات الخارجية بين الكائنات الحية من أجل بناء فرضيات التطور ورسم شجرة الأنساب، فلا يمتلكون داخل العلم ما يؤكد مزاعمهم فيستخدمون في النهاية تخمينات التشابه!

لكن حجة التشابه هذه التي يستخدمها التطوريون يمكن أن نستخدمها نحن بنفس القياس العقلي لإسقاط التطور!

فهل فكّرت يومًا في تشابه عين الأخطبوط وعين الإنسان؟ فقانون الإبصار يوجد بمثالية في الإنسان -أدق وأنقى عدسة على الإطلاق- وفي حيوان الأخطبوط!

ومع ذلك الإنسان والأخطبوط لم يسلكا نفس المسار التطوري!

فالتشابه الخارجي بين عين الأخطبوط وعين الإنسان لم يستطع أن يثبت أن ينفي تباين المسار

---

(١)Journal of Biogeography٣١ (٢٠٠٤), ٧٠٩ (تصميم الحياة، دار الكاتب)

التطوري بين الكائنين!

وإذا كان التشابه ليس دليلًا على التقارب فلِمَ نجزم أنه دليل على التقارب في صورٍ أخرى؟

أيضًا تكنولوجيا السونار توجد بمثالية تامة في الخفاش وطيور الزيت والدلافين والحيتان وجميع هذه الكائنات تتمتع بهذه التكنولوجيا بمثاليةٍ عالية، ومع ذلك هذه الكائنات سلكت مسارات تطورية متباينة تمامًا! فلم يكن تشابه أجهزة السونار الخاصة بها دليلًا على شيء متعلق بتقاربها أو تباعدها داخل شجرة التطور المزعومة.

أيضًا ظهر الطيران متكاملًا وبمنتهى الضبط وبشكل مستقل تمامًا ودون علاقة تقارب أربع مرات: في الطيور والحشرات والثدييات -الخفاش- والزاحف المجنح pterosaurs .

فلم تكن أجنحة هذه الكائنات دليل تقارب فلِمَ نزعم أن أنظمة أخرى هي أدلة تقارب؟

تطرح مثل هذه الحوادث -وهي كثيرة في الطبيعة- سؤالًا حول إمكانية اعتماد الصفات المتشابهة كأدلَّة معتمدة على العلاقات التطورية!

فهذه أمثلة بسيطة تثبت عجز التطور عن استيعاب وتحليل التشابه بين الكائنات الحية!

فمرةً يقرر التطوريون وجود تشابه ومرةً ينفون، ولا توجد قاعدة لإثبات التقارب لمجرد التشابه إلا التخمين، وعندما يختلف التركيب الداخلي مع وجود التشابه الخارجي ينفون سريعًا التقارب!

هذه تعويذة وليست علم، إنها مجرد تخمينات افتراضية!

أليس الأصح والأقرب أن تكون هذه خطة خلق؟

أليس الأدق عقليًا أن: نُسلِّم بوجود خالقٍ ضابطٍ للنظم ومتقن لها ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]!

خلقها سبحانه بحكمةٍ وقانونٍ داخلي كلي ذو علمٍ محيط يسيطر على نظم الكائنات الحية المختلفة!

فاعتماد التشابه كدليلٍ على السلف المشترك هو مغالطة فلسفية عقيمة، تسمى مغالطة

الاستدلال الدائري Circular Reasoning فليس معنى وجود كائنين متشابهين في الشكل المورفولوجي -الإطار الشكلي والبنائي- والتشريحي والوظيفي أن لهما أب واحد common archetype، هذه مغالطة. لأن الأصح رصد التفريع من الأب أولًا، أما ما يحدث هنا فهو استدلال دائري وفلسفة تأويلية افتراضية.

فهذا من باب وضع العربة قبل الحصان -كما يقول المثل الإنجليزي-.

ومن أجل ذلك فقد اقترح عالم الكيمياء الدقيقة والفيزياء الحيوية الأمريكي كارل ووس Carl Woese في عام ٢٠٠٢م أنَّ على علم الأحياء أنْ يتجاوزَ المبدأَ الداروينيَّ في السلف المشترك[(١)].

وكتب في عام ٢٠٠٤م أن: "جذورَ الشجرة التطورية الشاملة هي جذورٌ مصطنعةٌ وذلك ناتجٌ عن الالتزام بالشكل الشجري للحياة رغم كونه غيرَ مناسب"[(٢)].

إن الشيء الذي يبدو واضحًا هو فشل التطور كليًا في إثبات وجود سلف عالمي مشترك للحياة، كما فشل في تحديد تواريخ موثوقة لظهور الأنواع، كما فشل في تحديد العلاقات التطورية -إنْ كانتْ موجودةُ أصلًا- بين أشكال الحياة القائمة، وفشل أيضًا في إثبات ماهية السلف العالمي المشترك -إن كان موجودا أصلًا- بشكلٍ واضح.

الفشل ثم الإصرار على الفشل هو عنوان دعاة التطور في جميع مراحلهم!

---

(١)Carl Woese ،"On the Evolution of Cells," Proceedings of the National Academy of Sciences USA ٩٩ (٢٠٠٢): ٨٧٤٧-٨٧٤٢.

(٢)Carl R. Woese ،"A New Biology for a New Century," Microbiology and Molecular Biology Reviews ٦٨ (٢٠٠٤): ١٨٦-١٧٣. (تصميم الحياة ، دار الكاتب، ص١٨٦)

الفصل الحادي عشر

المبادئ الاجتماعية التي سوغتها نظرية التطور في الثقافة الغربية

لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها الطبيعية، في قلب ميزان الأخلاق رأسًا على عقب، ووفرت الأساس العلمي لهتلر وأتباعه، لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم، بأن أبشع الجرائم العالمية، كانت بالحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة[١].

هل يمكن أن نُثبت قيمة ومعنى ومعيارية أي شيء من منظور تطوري داروريني؟

---

(١)Richard Weikart ،from Darwin to Hitler ،p.٢١٥

هل يمكن أن يحيا الجنس البشري برؤية داروينية للوجود ؟

في الواقع هذا أمرٌ صعب؛ فالإنسان طبقًا للرؤية التطورية مُستَوعب تماما في الطبيعة، قوانين الطبيعة هي قوانينه، تسري عليه الحتمية المادية البيولوجية بمنتهى الأداتية المعرفية، فلا يمكن الاستقلال برؤية متجاوزة أو مغايرة لما تفرضه البيولوجيا، وإلا لاعتبرنا أن للإنسان أصل آخر ومقدمة أُخرى وبالتالي ينهار التطور.

وطبقًا للرؤية التطورية المادية الحتمية فإنه على الإنسان أن يتنازل عن مركزيته، فالإنسان من منظور تطوري ليس هو المركز بل المركز هو الطبيعة المادية وقوانينها وحتمياتها، وبالتالي سيحل محل مركزية الإنسان مركزية الطبيعة باعتبارها المُطلق الأول، وهذا يعني انهيار الإنسان، وبذا يُصفَّى الإنسان -على حد تعبير الدكتور عبد الوهاب المسيري - لحساب الطبيعة، ويتم استيعابه تمامًا ويسقط في هيمنة المادية البيولوجية، ويصبح أي حديث عن الإنسان أو قيمه أو مركزيته هو حديث ملوث ميتافيزيقيًا، ويتحول الإنسان إلى حيوان مادي مجرد ويعود للصراع التطوري الذي دخل به التاريخ!

وفي هذا الإطار المادي التجريدي يصبح الحديث عن الإنسان مجرد لغو فارغ، وتتحول الشعارات إلى سخافة لا معنى لها؛ فما معنى حماية المعاقين أو المرضى الوراثيين أو تقديم يد العون لهم ؟

إن محاولة من هذا القبيل تأتي ضد الإنتخاب الطبيعي Natural Selection والبقاء للأصلح Survival for the Fittest، وإذا كانت الرؤية التطورية هي الرؤية الصحيحة وكانت حتمياتها هي الأصل الثابت فلن يستوعب الإنسان أصلًا فكرة حماية المعاق أو تقديم يد العون للضعفاء، بل إن تعقيم المعاقين – منعهم من الإنجاب– هو الحل التطوري الأمثل والأوحد.

إن أية محاولة لمعاندة هذا الإطار المادي هي محاولة فاشلة؛ لأنها تأتي ضد التطور وضد قوانين الحتمية المادية التي تسري على الوجود.

يقول الدارويني جيمس هِلْ James J. Hill : "إن الثروات تُحدَد تبعًا لقانون البقاء

للأقوى"[١].

ويقول تايل Tille : "من الخطأ الشديد مجرد محاولة منع الفقر أو الإفلاس أو مساعدة الضعفاء أو محدودي الإنتاج، مجرد مساعدة هؤلاء خطأ جوهري في النظرية الدروينية، لأنه يتعارض أساسًا مع الإنتخاب الطبيعي وهو جوهر الداروينية "[٢].

وطبقًا لهربرت سبنسر Herbert Spencer فإن: "فكرة وسائل الوقاية الصحية وتدخل الدولة في الحماية الصحية لمواطنيها وتلقيحهم تعارض أبسط بديهيات الانتخاب الطبيعي، وكذلك مساندة الضعفاء أو محاولة حماية المرضى والحرص على بقائهم"[٣].

هذه هي الصورة التي يتيحها التطور، إنها المعادلة الوحيدة المتاحة!

فلا يوجد داخل العالم المادي التطوري ما يُفرح الإنسان أو يسليه، أو يؤسس لقيَّمه أو يؤسس لمبادئه أو يؤسس لأخلاقياته، يستحيل أن يوجد داخل المنظومة المادية ما يجعل الإنسان إنسانًا .

فالأخلاق والقيمة تمثلان ثغرة في النظام الطبيعي، فالأخلاق ثغرة معرفية كبرى في النسق الكوني، فهي تأتي دائمًا ضد المصلحة الشخصية، وضد المكتسبات المادية، ولذا لا يمكن إخضاعها لقوانين الطبيعة أو حتميات داروين العضوية، وهذا الاختلاف بين الأخلاق والطبيعة يُعبِّر عن نفسه في الاختلاف بين المؤشِّر في العلوم الطبيعية والمؤشِّر في العلوم الإنسانية.

فالأخلاق والقيم والمباديء التي تجعل من الإنسان إنسانًا تسير عكس الطبيعة البيولوجية

---

(١) Martin ،James J. Hill ،pp ٤١٤.

(٢)Williams ،Raymond. ٢٠٠٠. Social Darwinism. In Herbert Spencer's Critical Assessment. John Offer.

(٣)Social Status ،p.٤١٥-٤١٤.

التطورية أو بمعنى أدق لا علاقة لها بالطبيعة البيولوجية، فالأخلاق ثغرة في الزمان، وثغرة في النسق الكوني ككل، فهي نتاج خلق والله خلقها كاملة، وهذا يؤكد أصالة ظهور الإنسان .

فالأخلاق والمُثل الإنسانية عقليًا غير مربحة بل ضارة، بل هي أكبر عبء على صاحبها وقد تساءل ماندفيلBernard mandeville أستاذ علم الأخلاق الإنجليزي: "ما أهمية الأخلاق لتقدم المجتمع والتطور الحضاري ؟" وأجاب ببساطة : "لا شيء بل لعلها تكون ضارة "[١] .

ولذا فالأخلاق والقيم والمعاني الإنسانية النبيلة مثل الزهد والتبتل والصدق والأمانة والتضحية لم تتم البرهنة على أيٍ منها عقليًا إلى الآن، والأخلاق والدين هما أقدم الأفكار الإنسانية تُرًا وقد ظهرا سويًا مع الإنسان كل هذا يؤكد أصالة الظهور الإنساني وغائية الأخلاق التي يحملها، إنها اللحظة التي صنعت عصرًا جديدًا، لكن الداروينية تفكك كل ذلك وتدمر كل معنى وتُسمم كل شيء!

والإنسان يتحرك في الحياة وهو يعلم يقينًا أنه ليس مُفصلًا على طراز داروين، ولذا يرفض باستمرار إلحاح العلم المتزايد على أن الجنس الأبيض أفضل من الأسود، أو أن إبادة المعاقين والضعفاء خيرٌ للجنس البشري، أو أن الإنسان حيوان مادي، وهذا يؤكد أن الإنسان لا يستطيع أن يرفض التكليف الإلهي بداخله، وأن التطور لا يصلح لتحليل ظاهرة الوجود الإنساني!

والإنسان بطبيعته وبعيدًا عن الفرضية التطورية يؤسس لمفاهيم مستقلة عن الوجود المادي، ويؤكد بها أنه يترفع عن المادية الحتمية، ولذا لنا أن نتساءل: إذا كان الإنسان ابن المادة فحسب، وابن الطبيعة التطورية لا أكثر كما تزعمون، فلماذا التمحك في ظلال الميتافيزيقيا-الماوراء-؟

لماذا محاولة التأسيس لمعنى الإنسان ؟

إذا كان الإنسان ابن الطبيعة ومن المادة وإلى المادة، فلماذا الحديث عن سموه أو قيمته أو مركزيته ؟

---

(١)http://www.iep.utm.edu/mandevil/.

ثم كيف استوعب الإنسان تلك القيم المتجاوزة والتي ليس في العالم المادي ما يبررها؟

إن الإيمان بالإنسان هو توكيد متزايد على أن التطور شيء والإنسان الروح والجسد شيء آخر تمامًا.

لقد حاول التطوريون بعيدًا عن الرؤى المتجاوزة، تحليل ظاهرة الوجود الإنساني، فوجدوا أن الإنسان لا يعدو أن يكون كائنًا طفيليًا لا يوجد ما يُميزه، ولذا فقد ظهرت دعوات تعميمية تُنادي بإلغاء التفرقة بين البشر والحيوانات والحشرات، بل والنبات، وتخطئة كل من يتعرض للفيروسات أو دودة الأرض، لأنه بيولوجيًا لا فرق بين الإنسان ودودة الأرض فكلاهما على نفس الدرجة من التطور النوعي.

يقول كريستوفر مانيز Christopher Manes " لا يوجد مستند لرؤية البشر ككائن أرقي من غيره".

Christopher Manes ،the green rage

There is no basis for seeing humans as more advanced or developed than any other species

وفي سويسرا ظهرت قوانين عدم إذلال النباتات[(١)].

يقول بيتر سنجر Peter Singer الأُستاذ بجامعة برينستون Princeton University " حياة رضيع ليست أغلى داروينيًا من حياة شيمانزي أو خنزير"[(٢)].

---

(١)http://planetsave.com/١٨/١٠/٢٠٠٨/switzerland-places-ban-on-the-humiliation-of-plants/.

(٢)http://www.lifesitenews.com/news/princeton-professor-singer-and-i-repeat-i-would-kill-disabled-infants.

و يقول الداروينى الأمريكي جيمس لي James Lee : " يجب تقليل عدد البشر قدر الإمكان، يجب إيقاف الزواج وقتل الرُضع" وقد اتخذ هذا الداروينى وسائل حقيقية لقتل البشر باعتبارهم طاعون، وحيوان طفيلي فاسد، وفي سبتمبر ٢٠١٠ قُتل جيمس لي حين اتجه إلى موقع قناة ديسكفوري وأخذ ثلاث رهائن وكان معه بعض القنابل، إلا أن الشرطة لم تمهله وأردته قتيلًا، قبل أن يُنفذ مخططه الدارويني[١] .

هذه الرؤية الأُحادية الاختزالية اعترف بواقعيتها من منظور تطوري فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama في كتابه الأشهر نهاية التاريخ End of history؛ واعتبر أن هذه الرؤية تُسقط معنى حقوق الإنسان ومعنى وجوده ككل فهو يقرر أن: "حقوق الانسان لها مشكلة فلسفية عميقة إذ لابد أولًا أن نفهم الإنسان قبل أن نبحث في حقوقه، نفهم طبيعة الإنسان، فالعلوم الطبيعية الحديثة تشير إلى أنه ليس ثمة فارق بين الانسان والطبيعة، وعندما نوسع في المساواة التي تنكر وجود أي اختلافات بين البشر فيمكن أن يشمل ذلك إنكار وجود اختلافات هامة بين الانسان والقردة العليا، وتنشأ عن ذلك أسئلة لا حصر لها، إذ كيف يكون قتل البشر غير مشروع، في حين قتل هذه الحيوانات ليس كذلك، وسنصل حتمًا في مرحلة ما إلى السؤال التالي: ولماذا لا تتمتع الطفيليات المعوية والفيروسات بحقوق مساوية لحقوق الإنسان ؟

إن عدم اهتمام الناس بهذه المساواة يوضح أنهم لا يزالون يؤمنون بمفهوم ما عن تفوق قدر الانسان، وحتى حماة الطبيعة وحماة الحيوانات، هم فقط يدافعون عن الحيوانات لأنهم يحبون بقائها معنا، ومجرد إفنائها لا سبيل لتعويضه مع ضياع فوائد ربما تُكتشف منها مستقبلًا، فحتى حماة الحيوانات هم للإفادة منها وليس من أجلها وهذا عكس حقوق الحيوان، إن مفهوم التوسع في المساواة أدى إلى حيرتنا الراهنة، إننا لو كنا نؤمن حقًا أن الانسان مجرد كائن في سلسلة حيوانية يخضع لقوانين الطبيعة ليست له قيم متجاوزة، هنا كان لابد أن تتساوى الكائنات جميعًا في

---

(١)http://abcnews.go.com/US/gunman-enters-discovery-channel-headquarters-employees-evacuated/story?id=١١٥٣٥١٢٨.

الحقوق، وسيتعرض ساعتها المفهوم المساواتي للبشر للهجوم من أعلى ومن أسفل، ولا يسمح لنا هذا المأزق الفكري الذي أوقعتنا فيه النسبية الحديثة بأن نرد على هذا الهجوم أو ذاك، وبالتالي لا يسمح لنا بالدفاع عن الحقوق المساواتية – فإما طبقية متفحشة أو مساواتية مستحيلة –"[١] .

إنه تحليل مدهش وحقيقي للمأزق الإنساني، ففرانسيس فوكوياما يرى أن المساواة مستحيلة داخل المجتمع المادي، حيث يتحول الإنسان داخل هذا النموذج إلى كائن قانع بسعادته غير قادر على الإحساس بالخجل عاجز عن الإرتقاء فوق مستوى احتياجاته، وبالتالي فإن الإنسان لم يعد إنسانًا[٢] .

أليس الإنسان الكامل في هذه الصيغة هو كائن فج جدير بالإحتقار– والكلام لفرانسيس فوكوياما–، كائن عاطل عن الإجتهاد والطموح، وهنا تضيع ملحمة الوجود الانساني و دراما الحياة الانسانية .. لقد مات الانسان في النموذج المادي[٣] .

بل إن **فرانسيس فوكوياما يصف المؤمن بالتطور في هذه المرحلة بالكلب**، يقول فوكوياما أنه: "داخل ذلك العالم سيصبح الناس حيوانات من جديد كما كانوا قبل المعركة الدامية التي بدأ بها التاريخ، إن الكلب يقنع بالنوم في ضوء الشمس طوال اليوم شرط أن يُطعموه وذلك لأنه راضٍ بما هو عليه ولن يقلقه أن غيره من الكلاب حالها أفضل من حاله، أو أن مستقبله ككلب قد جُمد أو أن كلابًا في بقعة نائية من العالم تصادف المذلة والهوان "[٤] .

---

(١) فرانسيس فوكوياما . نهاية التاريخ وخاتم البشر .ترجمة : حسين أحمد أمين . الطبعة الأولى ١٩٩٣ مركز الأهرام للترجمة والنشر ص ٢٥٩ والكلام له بالحرف إلا ما بين – –.

(٢) المصدر السابق ص ١٧.

(٣) المصدر السابق ص١٨ إلا ما بين – –.

(٤) المصدر السابق ص٢٧١.

و يتنبأ فوكوياما في صفحة ٢٧٤ من كتابه أن **حياة مجتمع مادي تطوري كامل هي حياة بلا فنون ولا أدب ولا دراما ولا كفاءة**، وقليلون سيتصدرون للخدمة العامة وستكون الحِرف مبتذلة وغير متطورة، وفي مرحلة ما سيكون هذا المجتمع عاجزًا عن الدفاع عن نفسه في وجه الحضارات الأُخرى حيث الحضارات الأخرى أصحابها على استعداد لهجر الراحة والأمن ويخاطرون بحياتهم من أجل القيمة .

لقد صنعت الفلسفة التطورية قبرًا يكفي لدفن كل قيم البشر وكل الفضائل التي يؤسسون لها عبر التاريخ.

وهنا لنا أن نسأل كل تطوري ونقول: ماذا لو أثبت التطور أن العِرق الأبيض أفضل بيولوجيًا من الأسود؟ وأنهم في مرتبة أعلى في سلم التطور، ألسنا ساعتها مجبرون على الفصل العنصري بين البيض والسود داخل المجتمع التطوري؟

أم ستتم معاندة الانتخاب الطبيعي وإقرار المساواة بين البيض والسود، وساعتها ستكون أكبر خيانة للتطور وأكبر ضربة للماديين؟

بالمناسبة : هناك آلاف الأبحاث التي أثبتت تفوق الجنس الأبيض على الجنس الأسود ماديًا وبيولوجيًا، منها قديمًا أبحاث عالمِ الإنسـانيـات الشهير صموئيل مورتن Samuel Morton وأبحاث لويس أجاسي louis agassiz الذي كان يقول بأن البيض ليسوا سفاحين حين أبادوا الهنود الحمر، ولكنهم يتبعون قضية حتمية في تشكل الأعراق، فهذه هي حتمية التطور، وحديثا ظهر كتاب قوس الجرس Bell Curve أكثر الكتب مبيعًا في السبعينـات، وهو الكتاب الذي يتحدث عن أنه لا فائدة من تعليم السود أو تحصينهم من الأمراض، لأنهم أضعف عقلًا وأفقر ذهنـًا من البيض ولابد من إنفاق المـال في أُمـور أكثر فائدة .

ماذا لو أثبت التطور تفوق الرجل على المرأة ماديًا؟

وأن الرجل في مرتبة أعلى بيولوجيًا من المرأة، هل ستتم المساواة بين الجنسين داخل المجتمع الإلحادي، أم سيكون هذا مطلب غير علمي غير عقلاني عبثي يقف في وجه التطور وحتميات

الطبيعة ؟

بالمناسبة: المرأة طبقًا لأدبيات التطور لها تصنيف في السلسلة الحيوانية مستقل تمامًا عن تصنيف الرجل، فالمرأة تندرج تحت تصنيف Homo parietalis بينما الرجل تحت تصنيف Homo frontalis ، فدراسة حجم الجمجمة في القرن التاسع عشر أثبتت وجود فرق جوهري في حجم المخ لصالح الرجل بمقدار ١٢ – ١٩ ٪ ، وكتب كارل بروكا Brucca يقول أن مخ المرأة أضعف بكثير من مخ الرجل.

فحجم المخ الخاص بالمرأة يكاد يطابق ذلك الخاص بالغوريلا!

large number of women whose brains are closer in size to those of gorillas than to the most developed male brains. This inferiority is so obvious that no one can contest it for a moment; only its degree is worth discussion[١].

فالمرأة طبقًا للإلحاد تمثل أدنى مراحل التطور البشري .

represent the most inferior forms of human evolution

.وهي في ذلك تطابق الأطفال والهمج أكثر من مطابقتها للرجال البالغين والمتحضرين

are closer to children and savages than to an adult ، ،civilized man.

ويرى داروين أن المرأة لا تصلح إلا لمهام المنزل، وإضفاء البهجة على البيت،– فالمرأة في البيت أفضل من الكلب–[٢].

---

(١)Gould ،The Mismeasure of Man ،p.١٠٤,١٠٥.

(٢)Charles Darwin ،The Autobiography of Charles Darwin ،١٨٠٩-١٨٨٢New York pp. ٢٣٢-٢٣٣

هذه هي الرؤية التطورية للإنسان بصورتها الحقيقية، فالتطور حرَّر أتباعه من أية أعباء أخلاقية، وإذا حاول التطوريون استمداد قيم غير مادية لإصلاح النسق المعرفي للإنسان ساعتها سيكون هذا اعترافًا بعدم صلاحية التطور كمنظومة مستقلة لتفسير المغزى الوجودي!

إن الأمر الذي لا يجب أن نغفله هنا؛ هو أن التطور زوّد الإمبريالية الغربية بإطار نظري لإبادة الملايين باسم العرقية المادية، والبيولوجية الداروينية، ولن يتجاوز التطوريون هذه الرؤية وإلا لسقط الإطار التطوري ككل، وعليهم أن يتبنوا بمنتهى الهدوء فلسفة اليد الخفية عن آدم سميث، والمنفعة عن بنتام، ووسائل الإنتاج عند ماركس، والجنس عند فرويد، وإرادة القوة عند نيتشه، وقانون البقاء للأصلح، والطفرة الحيوية عند برجسون، والروح المطلقة عند هيجل.

هذا هو التطور عند التطبيق، وهذا هو أصل معركته وشعارها ودثارها، وفي هذا السبيل العنصري الفج قامت حربان عالميتان أُبيد فيهما قرابة ١٢٠ مليون نسمة، وكانت حروب من الدموية بحيث أرجعت كلًا من المنتصر والمهزوم ثلث قرن إلى الوراء، فالحربان العالميتان اللتان أبادتا حوالي ٥٪ من سكان العالم كانتا نزاع إلحادي- إلحادي بنكهة تطورية حيث العرق الأرقى وتنقية الأجناس، وقام الفلاسفة بوضع مبولة في وسط باريس كنايةً عن نهاية الحضارة.

بل إن جميع الأيديولوجيات الإجرامية التي ظهرت في القرن العشرين من نازية إلى فاشية إلى ستالينية إلى ماوية كلها كانت مستندة على الرؤية التطورية، والتنقية العرقية، وأن هناك أجناسًا أفضل من أجناس!

وحتى يومنا هذا وحتى تاريخ كتابة هذه السطور، ما زال هاجس الجنس الأفضل والجنس الأرقى Favored Race يسيطران على العقلية الغربية بسبب التصور التطوري للبشر، وأنهم ليسوا إلا كائنات حية منفصلة جائت نتيجة الصراع الغابي، وأن جنسًا له حق السيادة وتطهير بقية الأجناس.

وقبل شهور قليلة من كتابة هذا الكتاب اشتعلت مدينة فيرغسون بولاية ميزوري الأمريكية بسبب قتل جورج زيمرمان الأبيض للشاب تريفون مارتن الأسود، مما أثار جدلًا في أميركا بسبب

بُعد القضية العرقي، وامتدت المظاهرات لتشمل أنحاء في الولايات المتحدة، ففكرة تمايز الأجناس والتفاضل العرقي موجودة تحت رماد العقل الغربي، وتعود للاشتعال في أية لحظة، أقول ذلك ويحضرني كيف عانت أمريكا الأمرين من أجل وصول رئيس أسود للحكم فيها- باراك أوباما-، وكأنهم قاموا بمعجزة كبرى حين وصل للبيت الأبيض، في حين أن مصر كان يحكمها رئيس أسود منذ قرابة نصف قرن من الزمان دون أن يُلفت ذلك نظر أحد، لأننا نحن المسلمون وكما قال مالكوم إكس نعاني من "عمى ألوان" بفضل تعاليم ديننا، فلا نُميز بين الأبيض والأسود، ولا فضل لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر في ديننا، في حين اعتبر الليبرالي الشهير - رئيس الولايات المتحدة السابق - جون كوينسي آدمز John Quincy Adams أن حرب البيض ضد الهنود الحمر هو قانون الطبيعة، ولهذا القانون تطبيقاته الواسعة جدًا "[١].

فاستئصال طبقة كاملة من الناس، وتفريغ قارتين كاملتين من البشر- تفريغ الأمريكتين من الهنود الحمر- ما كان ليحدث لولا الرؤية المادية للوجود الإنساني، وقد اعتبر الليبراليون الأوائل أن إبادة الهنود الحمر نوع من الدفاع الشرعي، ونتيجةً لذلك: تقلّص عدد الهنود الحمر من ١٠ مليون الى ٢٠٠ الف نسمة خلال سنوات قليلة ولذا يقول سيمون بوليفار Simón Bolívar محرر أمريكا اللاتينية: "يبدو ان الولايات المتحدة تسعى لتعذيب وتقييد القارة باسم الحرية"[٢].

وليست إبادة الملايين في أرخبيل الكولاج The Gulag Archipelago على يد الملحد لينين والملحد ستالين، إلا من خلال مبرّر تطوري مادي صراعي، وليست إبادة ٢٥٪ من سكان كمبوديا إلا بمبرر إلحادي على يد بول بوت Pol Pot ، وليست إقامة الحرب العالمية الثانية كلها إلا بمبرر قومي مادي عِرقي ألماني على يد أدولف هتلر، وليست الثورة الثقافية في الصين التي راح

---

(١)Robert Remini ،John Quincy Adams (٢٠٠٢).

(٢) ناعوم تشومسكي الايديولوجية والاقتصاد ص٦.

ضحيتها عشرات الملايين إلا بمبرر تطوري قاده ماو تسي تونج Mao Zedong .

فالحرب في التطور غاية في ذاتها، والمكاسب المادية وتفريغ القارات من البشر، وتطهير الأعراق ليست كلها إلا إفرازات داروينية مادية، ورؤى عِرقية طبيعية.

يقول ريتشارد فيكارت Richard Weikart: "لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها الطبيعية، في قلب ميزان الأخلاق رأسًا على عقب، ووفرت الأساس العلمي لهتلر وأتباعه، لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم، بأن أبشع الجرائم العالمية، كانت بالحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة"[١].

وهنا نود أن نُلقي نظرية عملية على العنصريات التي أتاحتها الداروينية وتطبيقاتها عبر العالم:

---

(١) Richard Weikart ،from Darwin to Hitler ،p.٢١٥.

حدائق حيوان البشر Human Zoo

من غريب ما يصدم القاريء هنا؛ أنه بناءًا على الرؤية التطورية للإنسان، فقد دخل كثير من البشر أقفاص الحيوانات باعتبارهم حلقات مفقودة أو كائنات أدنى، وقد أوضح داروين في كتابه نشأة الإنسان: أن الأعراق البشرية مجرد أنواع مختلفة من الكائنات الحية، لا يربط بينهم رابط، وبالعودة إلى الوراء فإنه يبدو من المستحيل الإشارة إلى أية نقطة محددة يتحتم عندها استخدام مصطلح الإنسان، ولكنه أمر ذو أهمية قليلة جدًا[١].

ومن العجيب أن داروين كان يرى أن الأجناس البشرية المُختلفة التي تعيش بيننا الآن هي كائنات حية مُختلفة، وقد أقام داروين التدليل على ذلك باستخدام "حجة القمل"، فاختلاف نوع القمل في السكان الأصليين لبعض القارات عن القمل الذي يوجد في أوربا يؤكد اختلاف النوع بين البشر الحاملين لذلك القمل، فالأمر ليس مجرد اختلاف أعراق وإنما اختلاف أنواع.

يقول داروين : "بالفحص الدقيق للقمل الذي تم جمعه من أقطار مختلفة من الأعراق المختلفة للإنسان، وُجد أنهم لا يختلفون في اللون فحسب ولكن في التركيب الخاص بالمخالب والأطراف وفي كل مرة يتم فيها الحصول على العينات فإن الاختلافات تكون ثابتة، وعندما شرد القمل الذي كان يعيش على سكان إحدى الجزر البدائيين وانتقل إلى أجساد البحارة الإنجليز، فقد مات في خلال ثلاثة أو أربعة أيام، وكان هذا القمل داكنًا وأكبر في الحجم وأكثر ليونة من القمل الأوربي، وهذه الحقيقة الخاصة بأن الأعراق الإنسانية يتم ابتلاؤها بالطفيليات التي يبدو أنها متباينة بشكل خاص من الممكن تقديمها كبرهان على أن الأعراق البشرية في حد ذاتها من

(١) نشأة الإنسان The descent of man . تشارلس داروين . ترجمة مجدي محمود المليجي . المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥ . ص ٥٢.

الواجب تصنيفها على أساس أنها أنواع مختلفة ومتباينة من الكائنات الحية "[١].

وكان العبء المُلقى على عاتق الداروينيين فيما بعد واضحًا، ولا يحتاج التأخير فنحن بصدد البحث عن كائنات حية مُختلفة تُسمى مجازًا بشر.

وكانت بدايات القرن العشرين ملحمة المعاناة للسود والأعراق الأفريقية والأجناس المغولية، فظهرت حدائق حيوان الإنسان، والمعارض الأثنيةethnological expositions ، وفي صورة مُهينة للغاية، وعنصرية قبيحة، وداروينية فجة، كان يوصف هؤلاء البشر بأنهم حلقات في سلسلة الإنسان القرد[٢].

وكانت الفترة الذهبية لحدائق حيوان البشر هي الفترة من ١٨٧٠ إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، وكانت تُعرض في حدائق حيوان البشر مجموعة واسعة من الحيوانات، وبينها توجد أقفاص تحتوي على بشر من مختلف الأجناس، وكان يوضع في الأقفاص بجانب السود الأقزام والمصابين بالبهاق ومُحدبي الظهور dwarves، albinos and hunchbacks[٣].

وكانت توجد حدائق حيوان الإنسان في باريس وهامبورج وبرشلونة وأنتيورب ولندن وميلانو ونيويورك، وفي عام ١٨٧٤ قرر الألماني Carl Hagenbeck أن يُحضر مجموعة من النوبيين من مصر باعتبارهم أحد الحيوانات التي يتم البحث عنها لملء بقية الأقفاص[٤].

-ربما لا يصدق الملحدين المصريين أن أجدادهم رسميًا كانوا داخل أقفاص منذ أقل من قرن وربع بإسم الداروينية الملحدة العنصرية الفجة القبيحة.-

وأدرت أقفاص النوبيين الدخل الوفير ل Carl Hagenbeck حيث قام بعمل جولة بهم في

---

(١) المصدر السابق ص٤٠٢.

(٢)Mullan ،Bob and Marvin Garry ،*Zoo culture: The book about watching people watch* ،Second edition ،١٩٩٨ ،p.٣٢

(٣)www.discoverparis.net/newsletter.html?insight=٣١٦٢٩٨٣٨٢٥٦٩٤٤٦٤.

(٤) http://mondediplo.com/٠٧/٠٨/٢٠٠٠humanzoo

باريس ولندن وبرلين .

وفي عام ١٨٧٧ قرر مدير حديقة كوت Geoffroy de Saint-Hilaire وتسمى Jardin d'acclimatation تنظيم حديقتي حيوان مستقلتين للنوبيين وأهل الإسكيمو ووصل عدد الزوار إلى ما يقارب المليون مما أتاح مضاعفة الحديقتين إلى ٣٠ حديقة بين عامي ١٨٧٧ إلى عام ١٩١٢ .

وفي عام ١٨٨٩ عرضت حديقة الحيوان العالمية في باريس ٤٠٠ شخص من السكان الأصليين، وكانت زيارات تلك الحدائق تحقق دخولًا رهيبة مما ساعد في انتشارها في أنحاء أوربا.

ومن المدهش أن حديقة حيوان كولومبيا عام ١٨٩٣ كانت تضم مصريين رسميًا [(١)] .

وفي عام ١٩٠٤ أُنشئت في مدينة سانت لويس بأمريكا حديقة حيوان تعرض الكثير من الفلبينيين فيما كان يُسمى بموكب التقدم الدارويني التطوري parade of evolutionary progress ، وكانت رسالة حديقة الحيوان واضحة للزوار وهي تبرير عبء الرجل الأبيض، في استعمار العالم وأخذ ثروات هؤلاء البدائيين الذين لا يعرفون قيمتها .

وكانت الأقزام من غينيا الجديدة تُعرض في قسم الثدييات الرئيسية في حديقة حيوان برونكس.

The Primate section of the Bronx Zoo[(٢)].

وفي أحيان كثيرة كانت تقوم بعض حدائق الحيوان بنقل قرى بأكملها مع تراكيب البيوت التي كان يعيش بها هؤلاء البشر مع كافة أمتعتهم، حتى تُضفي مزيدًا من البهجة للزوار .

---

(١) Anne Maxell ،"Montrer l'Autre: Franz Boas et les soeurs Gerhard" ،in *Zoos humains.* pp. ٣٣٩-٣٣١.

(٢)http://www.modelminority.com/article٧٥٠.html

تم عرض القرية الكونغولية في معرض بروكسل ١٩٥٨ في العالم[١].

لكن كيف كان هؤلاء البشر المساكين يُمضون أوقاتهم في أقفاص الحيوانات، تذكر لنا الروايات أن متوسط الفترة التي يمضونها كانت لا تتجاوز ثلاثة أشهر حيث يُصابون بأمراض عُصابية ونفسية خطيرة، وأقدم الكثيرون منهم على الانتحار، وكان أشهر هؤلاء المنتحرين على الإطلاق هو [أوتا بينجا] حيث كان يعيش في إحدى قرى الكونغو وكان متزوجًا ولديه طفلان، وقد اقتيد من قريته وعُرض داخل أحد الأقفاص بجانب قرد الشامبانزي في نفس القفص، ثم مع إنسان الغاب وكان يُصنف كأحد الحلقات المفقودة، وظل معروضًا في حديقة حيوان برونكس في نيويورك شهورًا طويلة، ونظرًا لوضعه المأساوي فقد قرر الانتحار، والتخلص من حياته[٢].

بقي أن نقول أن حدائق حيوان البشر كانت في العقل الأوربي منذ القرن السادس عشر الميلادي، منذ أن بدأ الأوربيون يجوبون العالم ويُنشئون مستعمراتهم، وكان العقل الأوربي يرى في هؤلاء الزنوج والأقزام والهنود والسكان الأصليين درجة أدنى بكثير من الجنس القوقازي الأبيض، ولذا ما فعله داروين صراحةً هو تقديم المبرر البيولوجي، والمسوغ العلمي الذي يتيح لهؤلاء مزيدًا من التنكيل والإهانة وتدمير قرى بأكملها باسم الداروينية، ولذا كانت حدائق حيوان البشر توجد على استحياء قبل داروين، لكن عصرها الذهبي هو من عام ١٨٧٠- العام الذي أصدر فيه داروين كتابه نشأة الإنسان - إلى عام ١٩٤٥، فقد حررت الداروينية هؤلاء من أية أعباء أخلاقية في تعاطيهم مع بقية البشر.

لكن ما لم يعرفه هؤلاء أن الإنسان له روح خاصة مستقلة عن جميع المخلوقات؛ فهو ليس مُفصّلًا على طراز داروين، ولم يوجد من أجل الصراع، إنما وُجد لعبادة الله من إقامة الحق أيـا كان

---

(١)http://query.nytimes.com/gst/abstract.html?res=٩C٠٤E٧D٨١F٣EE٧٣٣A٢٥٧٥٣C١A٩٦F٩C٩٤٦٧٩٧D٦CF.

(٢)Philips Verner Bradford ،Harvey Blume ،Ota Benga: The Pygmy in The Zoo ،New York: Delta Books١٩٩٢ ،

مَن اتبع الحق سواء كان أبيض أو أسود ، أما العقل الإلحادي المادي الهيوماني فقد قام بتفكيك البـشر بصـرامة بالغة ليس فيها موطنٌ للمشاعر الإنسانيّة، والقِيَم الروحيّة.

إن البحث عن السعادة على الأرض من منظور تطوري هو شكل من أشكال الغرور الإنساني، وهو يعني القول بمركزية الإنسان، وأن له مكانًا خاصًا في الكون وبداهة لا يمكن القول بوجود غائية إنسانية مستقلة عن الغائية الطبيعية أو المادية .

ولا يأتي الإيمان بمركزية الإنسان وقيمته وسموه إلا بالإيمان بمُطلق أعلى يتجاوز المادة، والإيمان بأن الإنسان مخلوق لله، فالمساواة بين البشر هي مسألة دينية بحتة، فإذا كنّا أبناء التطور البيولوجي، فالناس بجلاء وبلا أمل غير متساوين، وتأسيسًا على الدين فقط يستطيع الضعفاء المطالبة بالمساواة.

ولذا يقول الدكتور المسيري رحمه الله أن الإله هو التركيب اللانهائي المفارق لحدود المُعطى النهائي، هو النقطة التي يتطلع إليها الانسان ويحقق التجاوز من خلالها، ومن ثَّم بعدم الإيمان بالله يتحول العالم إلى مادة طبيعية صماء، خاضعة لقوانين الحركة والصيرورة التي يمكن حصرها وإحاطتها والتحكم فيها، وينضوي الإنسان تحت نفس النمط، إذ بغياب الإله يتحول الإنسان إلى كم مادي يمكن أدلجته وقولبته في إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميته، وفي هذه اللحظة تموت الروح ويتبعها موت الإنسان، فالإيمـان بالإنسان وقيمته ومركزيته وسموه هو إيمـان يتجـاوز حركة المادة وديناميكيتهـا ... فعندما يُقرر الإنسان أن ينسى الإله في هذه اللحظة بالذات يكون قد نسي نفسه﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾ [الحشر:١٩].

فالإنسان كائن أقدامه مغروسة في الوحل وعيونه شاخصة للنجوم .

كائن ميتافيزيقي يسأل أسئلة نهائية عن معنى الكون .

أقصى مُتعة لا تكفي إنسان يعلم أن وُلد ليموت .

بالإيمان بالتطور تفقد كل الكائنات حدودها وحيزها وتنشأ إشكاليات في النظام المعرفي والأخلاقي، وتفقد الأشياء حدودها وهويتها ويَصعُب التمييز بينهما، كما تَختفي التفرقة بين الخير والشر، وتختفي الإرادة والمقدرة على التجاوز وتسود الواحدية والحتمية، وقد اختصر رئيس التشيك فاكيلاف هافل هذه الإشكالية الكبرى فقال عبارته الرائعة " حينما أعلنت الإنسانية أنها حاكم العالم الأعلى، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بُعده الإنساني " فالتطور ضحى أول ما ضحى بالإنسان.

ومنذ اللحظة التي هبط فيها الإنسان من السماء منذ المقدمة السماوية لا يستطيع الإنسان أن يختار أن يكون حيوان بريء أو يكون إنسان مُخير، لم يكن بإمكانه أن يختار بين أن يكون حيوان أو إنسان إنما اختياره الوحيد أن يكون إنسان أو لا إنسان ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢] .

فالإنسان هو المركز والطبيعة هي الهامش .

هذا هو الإنسان وهذه هي طبيعته الحقيقية!

العنصرية القومية

إذا أردنا أن نسأل التاريخ كيف كان شكل البلدان التي حكمها تطوريون؛ فإن أنهار الدماء ستكون أسبق من الإجابة...

فمن الملحد التطوري فلاديمير لينين إلى الملحد التطوري جوزيف ستالين إلى المادي التطوري أدولف هتلر إلى الملحد التطوري بول بوت إلى الملحد التطوري ماو تسي تونج إلى الملحد التطوري سلوبودان ميلوسوفيتش تاريخ طويل عنوانه الأشهر الإبادة الشمولية باسم الأعراق القومية بمنظورها التطوري المادي الفج!

فحين وصل الملحد التطوري سلوبودان ميلوسوفيتش Slobodan Milošević إلى رئاسة صربيا أذاق المسلمين الويلات وأباد قرى مسلمة بأكلمها، وأحرق أكباد المسلمين بطول العالم وعرضه في التسعينيات من القرن الماضي، وأرّق كل المصلحين وأذاب عقول أهل البوسنة، وجعل من هتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل غاية في حياته.

وسلوبودان ميلوسوفيتش ملحد تطوري رسميًا باعترافه، ولم يحضر أي رجل دين مراسم دفنه بسبب إلحاده!.

There were no clergy at the ceremony because Milosevic was an avowed atheist.[١]

(١)http://www.cbc.ca/news/world/milosevic-buried-in-quiet-ceremony-in-his-hometown-١,٥٧١٧٢٨ CBC. ١٨ March ٢٠٠٦

وهو متهم رسميًا بجرائم ضد الإنسانية وجريمة الإبادة الجماعية للمسلمين[(١)] .

وكانت لائحة اتهام ميلوسوفيتش تنص على أنه كان يريد التأسيس لدولة قومية وهي: صربيا الكبرى 'Greater Serbia' وبالتالي إبادة كل الأقليات والأثنيات والأعراق في منطقة البلقان.

والفكرة القومية هي فكرة تطورية في محتواها فهي تقوم على الجنس الأفضل والنقاء العرقي، بينما قوام الديانات على التعاون بين الأمم والقبائل المتنوعة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات:١٣].

ثم إن الأمور الذاتية في الإنسان -الخلقة الإلهية- مثل اللون والصحة والجنس والعِرق وغيره، هذه الأمور التي يقوم الإلحاد بتصنيف البشر خلالها وإعطاء هؤلاء البشر صك الحياة أو صك الحلقة المفقودة أو صك القضاء عليهم بحجة الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح، هذه الأمور الذاتية يؤكد الإسلام -أو الدين عمومًا- منذ البدء بعدم جواز حتى السخرية من أحدهم كائنًا مَن كان فضلًا عن إبادته وتدميره للسماح بتنقية جنسٍ ما عرقيًا، وتطهير منطقة ما برؤية إلحادية، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات:١١].

وقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: «**يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى**».

وقال -صلى الله عليه وسلم-: «**ابغوني الضُّعَفاءَ ، فإنما تُرزقون و تُنصَرون بضُعفائِكم**»[(٢)] .

وهنا يكمن الفرق بين الكهنوت الإلحادي الإجرامي، والدين الذي يؤسس لفضيلة الرحمة

---

(١)http://news.bbc.co.uk/٢/hi/europe/١٦٧٢٤١٤.stm

(٢) صحيح الجامع.

بين البشر .

وفي ١٩ نوفمبر ١٩٨٨ وفي كلمته في بلغراد أعلن سلوبودان أن صربيا تواجه أعداء من الداخل والخارج –ويقصد بهم طبعًا الأقليات والأعراق التي سيقرر إزالتها في مرحلة لاحقة[١] .

إذن المطلوب بناءًا على التصريح السابق: اختفاء المسلمين والقوميات الأخرى للأبد، وإلا فالإبادة في الطريق!

ولم يُفرق المجرم بين الرجال والأطفال والنساء، فالإبادة الإلحادية بمنظورها التطوري لا ترى للبشر قيمة ولا لوجودهم غاية، ففي ١٢ أبريل ١٩٩٣ احتل المجرمون الصرب مدرسة ابتدائية في سربنيتشا وقتلوا فيها ٦٢ طفل مسلم[٢] .

وفي فترة حكم سلوبودان ميلوسوفيتش قام **الملحد التطوري راتكو ميلاديتش** Ratko Mladić بتنفيذ

مجزرة سربنيتشا Srebrenica massacre .

وراتكو ميلاديتش أيضًا كان ملحدًا تطوريًا[٣] .

حيث قام راتكو ميلاديتش بقتل ٨٠٠٠ مسلم بوسني في محيط مدينة سربنيتشا في يوليو من عام ١٩٩٥ بهدف التصفية العرقية والإبادة الجماعية، بحجة البقاء للأصلح والقومية الصربية[٤] .

---

(١)Ramet, Sabrina P. (٢٠٠٦). The Three Yugoslavias: State-Building and Legitimation, ١٩١٨–٢٠٠٥. p.١١٩.

(٢) http://en.wikipedia.org/wiki/Srebrenica_Children_Massacre

http://www.icty.org/x/cases/oric/trans/en/٠٥٠٧١٣ED.htm

(٣)http://biography.yourdictionary.com/ratko-mladic.

(٤) http://www.potocarimc.ba/_ba/liste/nestali_a.php.

وقد ظل المجرم الملحد راتكو ميلاديتش يُعمل في المسلمين القتل والذبح لأيام تحت بصر العالم وسمعه.

وبعد أن قتل ميلاديتش الرجال والأطفال والنساء وأحرق الشوارع، بغية تطهير عرقي شمولي عاقبته المحكمة الجنائية الدولية بتهمة الإبادة الجماعية والتحريض على التصفية العرقية وجرائم ضد الإنسانية وتم اعتقاله في ٢٦ مايو ٢٠١١[(١)].

في واقع الأمر فإن ما قام به سلوبودان ميلوسوفيتش وراتكو ميلاديتش يمكن استيعابه في إطار الرؤية التطورية الداروينية للوجود الإنساني، حيث يصبح البقاء للأصلح منظومة بيولوجية حتمية، وتصير الإبادة الشمولية تسهيل لعملية الانتخاب الطبيعي والتسريع بها، وتتحول كل القوميات إلى حقائق بيولوجية لا سبيل لرفضها والواجب الصراع بينها.

ومن أجل ذلك نقرر أن بذرة نشأة إنسان يعتنق التطور ووصوله للحكم هي بذرة نشأة ميلوسوفيتش جديد ورادكو ميلادتيش جديد!

وسينادي التطوري المصري بالقومية الفرعونية حتى يتاح له في مرحلة لاحقة إفناء المسلمين واستئصال شأفتهم.

وسينادي التطوري الجزائري بالقومية الأمازيغية حتى يثير الأحقاد ويخرج الضغائن ويهلك البلاد!

وستظهر قوميات في كل مكان، وعندنا أعداد من الأغرار والمغيبين والسذج والعاطلين ما تكفي تمامًا لملء أي حشد ولتضخيم أية فكرة ولمتابعة أية دعوى مهما كانت هذه الدعوى حقيرة أو إرهابية أو شاذة، والشباب الصغار يغريهم الشاذ ويتلقفون الغريب ويهتمون بالخارج عن النسق.

ودعوى التطور ستفكك المجتمع إلى قوميات وتغذي الصراعات بين هذه القوميات،

---

(١)http://www.newsweek.com/crimes-against-humanity-١٥١٢١٥.

فالصراع هو أصل رؤية التطور للوجود ولظهور الكائنات، وهو شرط لكل حركة، والذي ينظر للبشر بهذه النظرة ستكون عنده بحور الدم أمر بديهي يجب زيادة روافده.

وهل جرت بحور الدم على يد رجل أكثر مما جرت على يد **أدولف هتلر** Adolf Hitler ؟

الانتهازية المادية التطورية

كان هتلر تطوريًا فجًا؛ فقد كتب آلان بولوك Bullock – وهو أشهر مؤرخي الحقبة النازية –كتب يقول: " كان هتلر ماديًا قاسيًا وكان يرى أن المسيحية تقف في وجه قوانين الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح".

Bullock wrote that Hitler was a rationalist and materialist, who saw Christianity as a religion "fit for slaves", and against the natural law of selection and survival of the fittest[١].

حارب هتلر من أجل الانتخاب الطبيعي، وحاول أن يجعل منه أيديولوجية ألمانيا في القرون العشرة القادمة – الرايخ الثالث –، ومن أجل هذا المبدأ قام هتلر بتأسيس فرقة إبادة الأقليات Einsatzgruppen، حيث تتم إبادة الأقليات عديمة الجدوى في ألمانيا، وكان يتم تجريد الضحايا من أية أدوات نافعة مثل حشوات الأسنان الذهبية ، ثم يقوم الضحايا بحفر القبور بأيديهم ثم يُقتلون وهم واقفون في وسط القبر بمنتهى الترشيد والعقلانية المادية العلمانية .

وفي ١٤ يوليو ١٩٣٣ أصدر هتلر قرارًا بتعقيم ٤٠٠ ألف شاب عن طريق تمريرهم على ترددات عالية من أشعة إكس، حتى يفقدوا القُدرة على الإنجاب، فهؤلاء الشباب كانوا مصابين بأمراض نفسية، وعُصابية كثيرة ربما تضر الأجنة .

وهنا يظن كثيرٌ من العرب أن مشكلة هتلر كانت مع اليهود، وهذا خطأ جوهري في استيعاب رؤيته للإنسان والإنسانية .. كان هتلر يرى أن الألمان هم أرقى الأجناس، وأن اليهود أحد الأقليات التي تؤثِر على نقاء العِرق الألماني النقي –رؤية داروينية–، لكنهم ليسوا الوحيدين في الصورة فهناك الكثير من الأعراق التي اختلطت بالألمان، ولذا لم يقم هتلر بإبادة اليهود فقط،

(١)Alan Bullock; Hitler, a Study in Tyranny; HarperPerennial Edition ١٩٩١; p٢١٩.

وإنما أباد السلافيين والغجر والأقزام والمعاقين وأصحاب الأمراض النفسية وأصحاب الأمراض المزمنة، وعدم شهرة هذه الأقليات بسبب عدم وجود لوبي غربي يطالب بحقوقهم بعكس الحال مع اليهود!

وبذلك أصبح هتلر من أوائل الذين يقومون بتطبيق الانتخاب الطبيعي عمليـاً، ومن أوائل الشخصيـات التي استوعبت الداروينية بصورتهـا الحقيقية[(١)] .

ولذا يمكن اعتبار معسكرات الاعتقال النازية، حيث يتم إحراق كل الأقليات والأثنيات، هي أول مراكز الانتخاب الطبيعي التي يؤسِس لها الإنسان المعاصر الهوموسابين homo-sapiens، حيث يُحرق في هذه المراكز عديمي النفع على حد تعبير هتلر حين قام باحتلال بولندا، وبالفعل تم رسميًا قتل ٣ , ٥ مليون بولندي لهذا السبب.

كان هتلر بنموذجه النازي الصورة المثالية للمادية العلمانية التي دعت لها نظرية الانتخاب الطبيعي .

وقام هتلر بتقرير مشروع ٤T، وهو المختص بعمليات القتل الرحيم Euthenesia، أو القتل العقلاني حيث يتم التخلص من المعاقين، وأصحاب الأمراض النفسية، وأصحاب الأمراض المزمنة، عن طريق القتل المباشر.

وبذلك يُعد مشروع action T٤ أول ورشة عمل حقيقية للتسريع بالانتخاب الطبيعي وتحقيق أهدافه!

وقام الدكتور [بوخنوالد] bboukhnouald، بعمل تجارب طبية على المعتقلين، مثل تعريضهم لغُرف تفريغ الهواء، لمعرفة كم يستطيع الانسان أن يمكث حتى يموت، وتعريضهم لغازات سامة لمعرفة مدى فاعليتها والتركيزات المطلوبة، والقيام بعمليات جراحية بدون تخدير

---

(١)http://en.wikipedia.org/wiki/Untermensch.

لمعرفة درجات الألم ومسارات الأعصاب، وقد وفرَّت الفترة النازية كمية عملاقة من المعلومات الطبية في كافة المجالات .

وكان الدكتور [راشر] يُعرِّض مرضاه للتجميد لمعرفة الفترة التي بعدها يموت الانسان، ودرجة التجمد الكافية للموت، وكان أُسلوب العمل هو تجميد السجناء تدريجيًا مع متابعة النبض والتنفس والحرارة وضغط الدم، بانتظام وقد مات أغلب من تمت التجارب عليهم، والباقون أُصيبوا بلوثات عقلية وتمت إبادتهم بعد ذلك .

وكما قال [بريمو ليفي] Primo Levi، فإن ألمانيا النازية هي المكان الوحيد، الذي كان بوسع العلماء أن يدرسوا فيه جُثتي توأمين قُتلا في نفس اللحظة [(١)] .

كما أُجريت في ألمانيا النازية تجارب زرع الغرغرينة في الجروح، والحقن بالميكروبات، لمعرفة الأسرع فتكا[(٢)] .

لقد كان أدولف هتلر ماديـًا، يؤمن بمقررات الداروينية، والانتخـاب الطبيعي، والبقاء للأصلح، وقامت الحرب العالمية الثانية التي راح ضحيتها ٥٠ مليون نسمة، من أجل تطبيق هذه الفكرة .

ومن هتلر إلى **ماو تسي تونج** Mao Zedong قائد الصين خلال الفترة من عام ١٩٤٩ حتى وفاته عام ١٩٧٦ لم تختلف الصورة كثيرًا إلا في عدد المذابح ومبرراتها المادية!

وقد قتل ماو تسي تونج ما بين عامي ١٩٤٩- ١٩٧٥ حوالي ٢٦ مليون مسلم صيني – الأتراك الأيغور–، وفي عام ١٩٦٤ نشر ماو تهديداته قائلًا : " جميع الحيوانات السُفلية سوف تُعدم ".

وبهذا كان ماو يُخرج معارضيه مِن الإنسانية وكان يعتبر كُل من وقف ضد الثورة خطأً

---

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/Primo_Levi

(٢)http://en.wikipedia.org/wiki/Nazi_crimes_against_the_Polish_nation.

تطوريًا .

يقول James Revee Rusey : " بالنسبة لمـاو فإن أعداء الشعب ليسوا بشرًا وليس لهم أدنى حق بالمعاملة الإنسانية"[١] .

وماو تسي تونج يصنفه النقاد على أنه أكبر مجرم في تاريخ الجنس البشري على الإطلاق، فقد قتل من ٤٠–٧٠ مليون نسمة بسبب سياسات التجويع والعمل القسري والإعدامات والإبادة الشمولية وقتل الأثنيات والعرقيات المختلفة، وما كان ماو تسي تونج ليتيح لنفسه فعل ذلك دون رؤية تطورية مادية للوجود من حوله![٢] .

وقد أعلن ماو تسي تونج في ١٦ مايو من عام ١٩٦٦ مشروع الثورة الثقافية الكبرى Great Proletarian Cultural Revolution .

وفكرة الثورة الثقافية الكبرى ليست نشر الثقافة كما يوحي العنوان وإنما العكس من ذلك تمامًا فالفكرة هي قتل المثقفين فعليًا ، فالمفترض أن تبقى البلاد في ثورة دائمة وصراع مستمر – وهذه هي النظرة الداروينية لوجود الكائنات الحية على الأرض– فأراد ماو تسي تونج تطبيق ذلك عمليًا[٣] .

وقد رأى كبار أعمدة الحكومة الصينية في ذلك الوقت ليو شاي تشي Liu Shaoqi ودينج زياو بينج Deng Xiaoping أن ما يفعله ماو بالشعب يوجب عزله فورًا وإعطاؤه أي منصب

---

(١) China and Charles Darwin, James Revee Rusey, p.٤٥٦.

(٢)http://www.hawaii.edu/powerkills/NOTE٢.HTM.

Modern China: The Fall and Rise of a Great Power, ١٨٥٠ to the Present. Ecco Press. p. ٣٥١.

(٣) Feigon, Lee (٢٠٠٢). Mao: A Reinterpretation. Chicago: Ivan R. Dee.

صوري لأنه سيُدخل البلاد على حافة الهلاك، بسبب قراراته[1].

لكن قرارات ماو كانت أسرع من تدابير ليو ودينج، فقد أطلق ماوتسي تونج أوامره لتلاميذ المدارس وطلبة الجامعات أن يقيموا محاكم خاصة لأساتذة الجامعات والمدرسين، فسادت الفوضى في البلاد، وعم الخراب وأُقيمت المحاكم في الشوارع واضطهد الملايين بما فيهم الفيلسوف العظيم وتشن يون Chen Yuen وأُغلقت المدارس وطُلب من المثقفين أن يذهبوا إلى الريف حتى يقوم الفلاحين بتعليمهم!

أدت الثورة الثقافية إلى فوضى اجتماعية واقتصادية عارمة ودُمرت حياة الملايين، ودخلت الثورة الثقافية في كل شيء في المجتمع الصيني وأصبح الصراع على أشده داخل الأسرة الواحدة، وتصارع الابن مع أبيه والتلميذ قتل أستاذه والمثقفين أُحيلوا إلى الريف لإعادة تأهيلهم على يد الفلاحين الأميين وقدرت الإحصاءات أن قتلى هذه المرحلة كانوا بالملايين[2].

وقد كان ماو تسي تونج يفخر دومًا أنه قاتل العلماء، وقد قال يومًا ما في اجتماع لكوادر الحزب عام ١٩٥٨: "لقد تفوقنا على تشين شي هوانغ Qin Shi Huang –امبراطوار صيني قديم اشتهر بدفن العلماء أحياء– في محاربته للعلماء والمثقفين، لقد دفن تشين شي هوانغ ٤٦٠ عالم وهم أحياء، أما انا فقد دفنت ٤٦٠٠ عالم وهم أحياء، إنكم أيها المثقفون تنسبوني باستمرار إلى تشين شي هوانغ، إنكم مخطئون! لقد تفوقت على تشين شي هوانغ بمائة ضعف".

During a speech to party cadre in ١٩٥٨, Mao said he had far outdone Qin Shi Huang in his policy against intellectuals: "He buried ٤٦٠ scholars alive; we have buried forty-six thousand scholars alive ... You [intellectuals] revile us for being Qin Shi Huangs. You are wrong. We have surpassed Qin Shi

---

(١)Gao, Mobo (٢٠٠٨). The Battle for China's Past: Mao and the Cultural Revolution. London: Pluto Press.

(٢)http://necrometrics.com/٢٠c٥m.htm#Mao.

Huang a hundredfold[(١)].

إن هذا النمط من الصراع التطوري الذي لا يرحم يستحيل تطبيقه على الإنسان فالإنسان له شخصيته المستقلة، وهو لا يسير في هذا العالم كابن للطبيعة بل كمغترب عنها، فالإنسان ضد القولبة والتشكيل والتسوية العامة التي يفرضها نمط الرؤية الإلحادية للإنسان.

فالإنسان سيظل يبحث عن الحُرية والشخصية المستقلة والفردية ولو على حساب المُتع واللذات؛ لأنه وساعتها فقط سيشعر أنه إنسان، فالحرية الشخصية والمسئولية الفردية هما أهم سمات الإنسان، وهما مناط تكليف الإنسان على الأرض .. ، فإما أن يكون الإنسان إنسانًا حُرًا مؤاخذًا أو لا إنسان مُسير تحكمه حتميات مادية فجة بلا معيارية ولا معنى!

وربما لولا إصلاحات ليو شاي تشي Liu Shaoqi ودينج زياو بينج Deng Xiaoping لما وصلت الصين إلى ما وصلت إليه الآن، ولأصبحت حقبة ماو تسي تونج نهاية فعلية للصين، ومن عجيب ما يُذكر أن هذا الأخير دينج زياو بينج Deng Xiaoping كان يحاول إصلاح ما يفسده ماو أولًا باول قدر الإمكان، وكان يرفض الرؤية الحتمية التطورية الدوغمائية التي يتبناها ماو، وقال كلمته الشهيرة عام ١٩٦١: "لا يهم أن تكون القطة بيضاء أو سوداء المهم أن تصطاد الفأر".

"it doesn't matter whether a cat is black or white, if it catches mice it is a good cat"

فليس مُهمًا دوغما تطورية صارمة المهم تحقيق التقدم!

وكانت هذه العبارة صادمة لماو تسي تونج فقد جُن جنونه وطرد دينج زياو بينج ونفاه

---

(١) Mao Zedong sixiang wan sui! (١٩٦٩), p. ١٩٥. Referenced in Governing China: From Revolution to Reform (Second Edition) by Kenneth Lieberthal. W.W. Norton & Co., ٢٠٠٣. p. ٧١.

وتعقبه في كل مكان!

إلا أن دينج زياو بينج عاد للصين بعد وفاة ماو تسي تونج وقاد البلاد من عام ١٩٧٨ إلى عام ١٩٩٢ وأحدث نهضة الصين الكبرى وتجاوز جنون ماو التطوري الإقصائي وتعاطى مع الجميع وأصلح ما أفسده ماو!

هذه كانت نبذة يسيرة ولمحات قصيرة عن أيام مع الملحدين التطوريين حين أصبحت في أيديهم القوة والسلطة فأفسدوا في الأرض وأهلكوا الحرث والنسل، لأنهم لم يكونوا يرون للإنسان قيمة ولا لحياته غاية، وهكذا كل بعيد عن الله وعن معنى الوجود يَفقد الإتجاه ويريد لو دمّر كل شيء لمصلحته هو فقط ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥].

فالذين نسوا الله أنساهم أنفسهم ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ ﴾ [الحشر:١٩].

وأود أن أختم هذا الفصل بقصة مؤلمة لنا نحن العرب بسبب نظرية التطور، وخاصةً المصريين والسودانيين!

مأساة رواندا

مَن منكم يتذكر مخاوفنا في تسعينيات القرن الماضي من تسمم مياه نهر النيل بسبب مئات الآلاف من الجثث البشرية التي كانت تلقيها رواندا في النهر أثناء مجازر الإبادة الجماعية؟

اليوم نحن نعلم أن سبب هذه المجازر المجنونة هو الإلحاد! والرؤية التطورية للبشر!

فقد قامت المجازر بين أبناء الدولة الواحدة الهوتو والتوتسي بسبب حجم الأنف، ومقدار بياض الوجه ولون العين.

ففي أعقاب الاستعمار البلجيكي -الذي احتل رواندا في نهاية الحرب العالمية الأولى خلفًا لألمانيا- تم إدخال الفكرة الداروينية الإلحادية المجنونة إلى تلك البلدة الأفريقية الفقيرة.

وتَقرر طبقًا لقياسات حجم الجمجمة الذي أجراه الاستعمار البلجيكي أن التوتسي Tutsi أرقى داروينيًا من الهوتو Hutu.

وبناءً على هذا القرار تم رسميًا حرمان الهوتو من تلقي التعليم العالي.

وكذلك تم حرمان الهوتو من أي توظيف حكومي أو امتلاك أرض.

مع أن الهوتو يُشكلون حوالي ٨٥٪ من تعداد سكان رواندا.

كل هذا لأن حجم أنف الرجل التوتسي أطول ببعض المليمترات من حجم أنف الرجل الهوتو[(١)].

تخيل!

The size of the nose and the color of the eyes were factors that determined

---

(١)https://www.wcl.american.edu/humright/center/rwanda/documents/Jigsaw١_History.pdf

whether a person was classified as Hutu, Tutsi or Twa.

ونظرًا لهذا الجنون الإلحادي فقد زاد السخط من الجانبين حدةً عبر السنين.

فالكل يتحامل على الآخر والتوتسي يعتبرون أنفسهم الأرقى داروينيًا والأحق بالسيادة.

والهوتو يعتبرون أن هذا هضم لحقوقهم كبشر فهم الأغلبية!

وتمضى المناوشات بين الطرفين عبر العقود.

إلى أن يأتي عام ١٩٩٤ لتفجر الأوضاع وتحدث أكبر مجزرة في تاريخ القارة الأفريقية "مجزرة رواندا الكبرى".

تلك المجزرة التي راح ضحيتها مليون نسمة من الطرفين طبقًا للوثائق الرسمية.

وتمت إبادة ٧٠٪ من التوتسي و٢٠٪ من الهوتو.

بسبب حجم الأنف!

وكان القتل للتشفي لا لمجرد القتل.

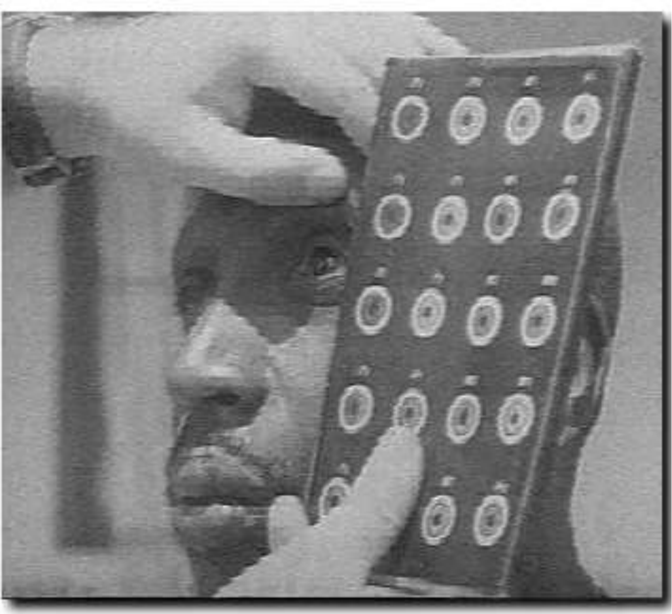
ولذا كان يتم اغتصاب النساء أيضًا لنفس السبب وقُدرت أعداد السيدات اللاتي تم اغتصابهن بربع مليون امرأة[١].

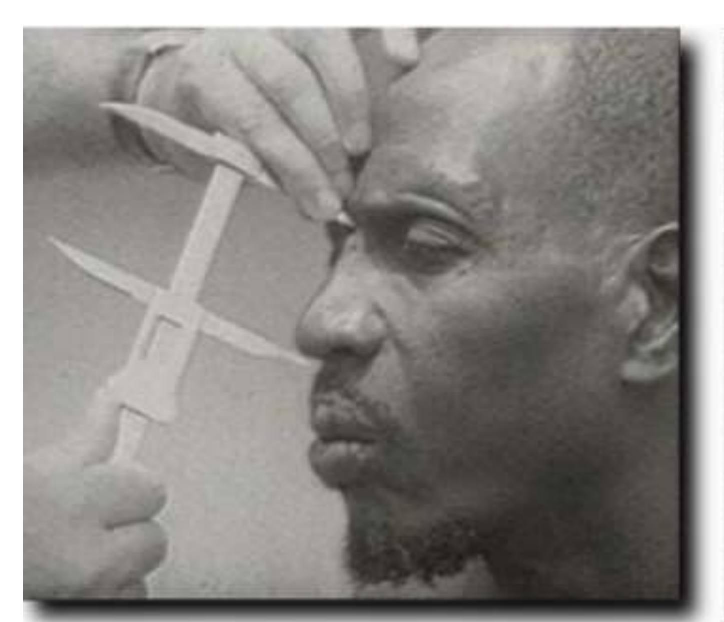
إن التولي عن الإيمان بالله عز وجل مصدر لكل مصيبة، فالإنسان بدون إيمان لا يرى فرقًا بين الإفساد والإعمار!

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد:٢٢].

---

(١)Tina Rosenberg, Editorial Observer; New Punishment for an Ancient War Crime , N.N. Times, ٥ Apr. ١٩٩٨, at § ٤, ١٤.





The size of the nose and the color of the eyes were factors that determined whether a person was classified as Hutu, Tutsi or Twa.

لكن هنا قد يقول ملحد: التطور أفرز هذه البلايا لكن الدين كان له دور في الشر أيضًا!

هل الدين مصدر للشر؟

عاشت البشرية مع شرائع التوحيد آلاف السنين، ومع الشرائع الإبراهيمية الثلاث الكبرى أربعة آلاف سنة، ولم يمثل الدين خطرًا مباشرًا على الجنس البشري بل قدّم للبشرية قيمًا أخلاقية عليا يتفق عليها المؤمن والملحد وأسس لحضاراتٍ أصيلة، بل يمكن أن نزعم أن كل خير في الأرض هو من آثار تلك النبوات!

فقد أراح الدين المحاكم من آلاف القضايا، وفوق كل هذا وذاك وضع الدين الأساس المعرفي والسلوكي والقيمي لغاية الوجود الإنساني على الأرض!

والدول التي احتضنت الشرائع التوحيدية ما زالت إلى اليوم تملك تنوعًا ثقافيًا أبقى على المخالفين لهم ووفّر لهم سقف حماية بموجب الشرائع التوحيدية ذاتها.

في حين أن قرن واحد اقتربت فيه بعض الدول من الإلحاد كانت البشرية كلها على شفير هلاك!

ثم يأتي الآن هؤلاء الملاحدة ويحدثونا عن خطر الدين على البشرية!

أيها الملاحدة! لم يعرف التاريخ البشري دينًا أشد بؤسًا وأحقر منهجًا وأخطر إفزاعًا للبشرية كلها من الإلحاد، فلم تكن مذابح الكولاج في الإتحاد السوفيتي السابق على يد الملحد لينين، وإبادة الأقليات الأثنية في ألمانيا النازية –كما فصّلنا فقبل قليل–، وتفريغ ربع سكان كمبوديا من البشر على يد الملحد Pol Pot، وقتل ٥٢ مليون صيني في الثورة الثقافية الكبرى على يد الملحد ماو تسي تونج Mao Zedong ، وظهور رابطة الملحدين العسكرية League of Militant Atheists في أوربا والتي أغلقت رسميًا ٤٢ ألف مؤسسة دينية –كنائس ومساجد–، وقتلت عشرات الآلاف من المتدينين، إلا إفرازات إلحادية صرفة[١].

بل إن الحربان العالميتان الأولى والثانية كانتا حروب علمانية –علمانية، تحكمهما تصورات إلحادية للأجناس البشرية وخرافات السعي نحو النقاء العرقي فكانت النتيجة إبادة قرابة ٥٪ من سكان العالم.

وخلفت المعارك الإلحادية ترسانات من الأسلحة النووية تكفي لإزالة الجنس البشري كله مرات عديدة.

إن قراءة بسيطة لحروب القرن العشرين تُظهر مدى بؤس الإلحاد.

ولذا لم ينتهي القرن العشرين إلا بتراجع الإلحاد وأضحى رسميًا لا يتجاوز معتنقوه أكثر من ٢٪ من سكان العالم atheists٢٠١ , ٢٪[٢].

ولم تبق دولة تعلن أنها ملحدة إلا المجنونة كوريا الشمالية North Korea is officially

---

(١)https://en.wikipedia.org/wiki/League_of_Militant_Atheists.

(٢)http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_religious_populations.

only atheist state التي يتم الإعدام الفوري فيها لكل صاحب ديانة وكل حامل كتاب مقدس وكل مستمع لبرامج كوريا الجنوبية[١].

فالكهنوت الإلحادي يرفض أية دوغما مضادة، وقد اعتبر لينين الدعاية المعادية للإلحاد واحدة من أصل ست جرائم جنائية، تعاقَب بالإعدام ، طبقًا للقانون الجنائي الذي قدمه لينين RSFSR .

لقد خلفَّ الإلحاد ورائه فكرة أن زوال الجنس البشري في أية معركة قادمة هي فكرة قائمة، هذا هو الإفراز الذي يمكن أن نجعله حكرًا على الإلحاد والملحدين.

الإلحاد في صورته النهائية دوغما حمقاء يجري خلفها المخابيل ويتصدر لها مفاليس القيم، فالإلحاد طوفان فاجر في أزمان الكفر وأرضه، ونهايته الحتمية تقويض أركان النظام الأخلاقي وانهيار الأمم.

وفي النهاية دعونا نقرر أنه :

لم يُفرز الإلحاد حتى الساعة سوى ثالوث العِرق والجنس والطبقة.

العِرق عند داروين

والجنس عن فرويد

والطبقة عند ماركس.

هل أفرز الإلحاد شيئًا سوى ذلك؟

---

(١)http://arabic.rt.com/news/٦٣٣٣٥٨/.

الفصل الثاني عشر

نظرة في النصرانية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [النساء: ١٧٠- ١٧١]

أديان الأرض!

يوجد على وجه الأرض ثلاث شرائع - يهودية ومسيحية وإسلام - يُشكل أتباعها أكثر من ٦٥٪ من سكان الارض، باقي الديانات في صيغتها الحالية أصبحت وضعية لا حاجة حتى للرد عليها -تعترف ببشريتها وهي في طريقها للإنقراض-، وأتباعها يُصنفون في مراكز الأبحاث العلمية أنهم مُلحدون أو روحيون - بلا دين-.

إذن محك الجدال بين الديانات الثلاث الكبرى لا أكثر.

اليهودية: أصبحت ديانة قومية لا يدخلها إلا يهودي الأبوين، والتحريف يملأ أكنافها كما سيأتي بيانه.

النصرانية: أدخلت التثليث والأقانيم والآلهة البشرية في قلب عقيدتها، مع أن المسيح عليه السلام لم يقل ولو لمرةٍ واحدة في الإنجيل كله الذي بين أيدي النصارى اليوم أنا الله أو اعبدوني أو أنا لاهوت وناسوت، لكن أتباع النصرانية أصروا على صورتها الوثنية المعاصرة .

وكلمة " أُقنوم" التي هي أصل من أصول النصرانية لم ترِد في الإنجيل.

وفكرة الأقنوم تدور في إطار تعدد الآلهة، مع محاولة الحفاظ على نسق التوحيد الفطري - صيغة الثلاثة في واحد-، فهم يقولون : أقنوم الابن الإله الكامل، وأقنوم الآب الإله الكامل، وأقنوم الروح القدس الإله الكامل.

ولا يجوز أن يكون الإبن هو الآب، بل كل إله مستقل تمامًا عن الآخر، ومع ذلك هؤلاء الآلهة الثلاثة إله واحد.

وبداهةً هذه منتهى الوثنية، والتحدي لبديهيات العقل.

أما التحريف في كتاب النصارى واليهود فلا ينكره إلا جاهل.

فالكتاب المقدس نفسه يعترف بالتحريف والوضع.

يقول مثلًا كاتب سفر المكابيين الثاني إصحاح ١٥: "٣٩ فإن كنت قد أحسنت التأليف وأصبت الغرض فذلك ما كنت أتمنى، وإن كان قد لحقني الوهن والتقصير فإني قد بذلت وسعي".

هل هذا كلام إلهي موحى به من الله، أم جهد بشري يصيب ويخطيء، يجتهد ويُقصر؟

هذا النص وحده يقطع بأن الكتاب وقع فيه تحريف واجتهاد شخصي.

بل انظر إلى النص المباشر في الإنجيل والذي يقطع بتحريف الكتاب المقدس، وأنه من وضع بشر. في رسالة كورنثوس الأولى إصحاح ٧: "٢٥ وأما العذارى فليس عندي أمرٌ من الرب فيهن و لكنني أعطي رأيا".

هل هذا كلام الرب أم كلام كاتب الإنجيل؟

أما الإسلام: فالإسلام ليس فِرقة من الفِرق ولا عقيدة من بين عقائد الأرض، حتى يوضع في مجال مُقارنة مع باقي الديانات، بل هو أصل الأديان والعقائد.

فالإسلام هو تصحيح لمسار الديانات التي انحرفت، وإعادة لنهج أنبياء العهد القديم من لدن آدم إلى نوح وصالح وأيوب وهود وإبراهيم وموسى وعيسى، فعقيدة هؤلاء جميعًا هي عقيدة الرب إلهنا رب واحد بلفظ التوراة والإنجيل، هذه العقيدة التي لا تعرف تثليث ولا أقانيم ولا موت آلهة منتحرة -موت يسوع على الصليب في معتقدهم-، ولا انتزاع آلهة من آلهة أخرى - انتزاع الروح القدس من الآب - ولا آلهة قومية .

قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ [النساء:١٦٣].

إذن فالإسلام ليس ديانة كالديانات وإنما هو أصل الديانات، وتصحيح للخلل الذي أصاب الشرائع وبالأخص اليهودية والمسيحية في نسختيهما العهد القديم والجديد.

مزيد بيان للفَرق بين الدين الإلهي والدين المُحرف؟

الدين الذي لا يتيح ذاته للبشر لاعتناقه -كاليهودية والهندوسية- لا يمكن وصفه كحقيقة مطلقة.

الدين الذي لا يتيح إلا موضه روحية ضيقة -كالبوذية والجينية والديانات الروحية القبلية- ويرتضي لنفسه أن يشغل زاوية معينة فقط تُخصص له، ولا يتدخل في ضبط مشكلتي المعرفة والسلوك الإنسانيتين فهو فلسفة وليس بدين!

الدين الذي يَسقط بأبسط أبجديات التعقل -نموذج الثلاثة في واحد النصراني- هو تشويش ذهني وليس عقيدة لا يقبل الله غيرها!

الدين الذي تكاتف النبيون على إيصاله للبشر -الدين التوحيدي الأنقى- وبلّغه صاحب الرسالة أفضل وأنصح تبليغ وتركنا من بعده على المحجة البيضاء منسجمًا تمامًا مع فحوى عقائد الرسالات السابقة ويقدم نفسه على أنه بديل قوي ومتكامل لجميع المذاهب والفلسفات والثقافات هو الدين عند الله هو الإسلام!

فسبحان الله والحمد لله والله أكبر

شتان ما بين الإسلام والكفر، أيًا كان نوع هذا الكفر.

ونحن في حواراتنا مع الكفار يظهر تمامًا الفرق الشاسع من نوعية الأسئلة ذاتها.

فمثلًا كل أسئلتنا للملحدة والنصارى هي أسئلة وجودية كبرى.

فنقول للملحد: كيف ظهر الكون من اللازمان واللامكان؟

لماذا نحن هنا؟

كيف ظهر الضبط الدقيق لكل منظومات الكون والحياة منذ اللحظة الأولى؟

كيف انتقلت اللاحياة إلى حياة؟

لماذا نحن نعي الأخلاق والموت والحياة؟

ونقول للنصراني: كيف تؤمن بألوهية المسيح وهذا مناقض لعقيدة جميع أنبياء العهد القديم الذين تؤمن بهم وتؤمن بأنهم كانوا كاملين؟

كيف تؤمن بألوهية المسيح ولا يوجد نص واحد في الإنجيل الحالي قال فيه المسيح اعبدوني؟

كيف تكفر بالنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- والطريق الذي بها تثبت نبوة الأنبياء بمثلها وبأعظم منها بكثير تثبت نبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-؟

وهذه أسئلة وجودية كبرى تضرب أصل المعتقد في مقتل.

وهذا ينطبق على كل الديانات والوثنيات الأخرى.

في المقابل بماذا يرد الملحد أو النصراني أو الوثني أو أية طائفة على الإسلام؟

صراحةً بحمد الله لا يجد الملحدة ولا الكفار ما يحتجون به على ديننا سوى أسئلة في غير محل الشاهد نسميها شبهات تافهة من سذاجة سطحيتها، لا علاقة لها بأصل الاعتقاد ولا حتى بفرعه.

فالملحد لا يملك إلا غرائب الفتاوي وشاذ الأقوال وخاص التصرفات.

تجتمع كلها تحت مسمى شبهات!

فالملحد لا يملك إلا سفسطة أدلة الآخر لا أكثر! ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَـٰدِلُوكُمۡ﴾ [الأنعام:١٢١].

أما المسلم فيستطيع ببساطة أن ينتقد أصل الإلحاد وأصل النصرانية وأصل الوثنية دون التطرق إلى شاذ أقوال فرويد أو ماركس أو داوكينز أو بولس أو غيرهم.

طريق الجنة!

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء:١٢٣].

ليس دخول الجنة بالأماني!

وليس الفوز بمجرد الالتحاق بفصيلٍ دون آخر!

وإنما يحصل الفوز بالجد في طاعة الله والعمل الصالح.

فمن يرتكب معصية يجازِه الله بها، مؤمنًا كان أو كافرًا، ولن يظلم الله أحدًا!

ولن يدخل النار مَن لم تصله الحجة ولم تسعه المقدرة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

وسيخلد في النار مَن رفض رسالة الإسلام بعد أن وصلته وقامت عليه الحجة، ثم تعلق بالدنيا ورضي بالهوى الزائل وكابر الحق وخاف مفارقة الندماء!

فعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**والذي نفس محمدٍ بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**». رواه مسلم.

وهل في الدنيا كلها على التوحيد النقي سوى الإسلام ؟

وهل في الدنيا كلها شريعة الدين والدنيا سوى الإسلام؟

وهل في الدنيا كلها مَن هم على عقيدة أنبياء العهد القديم التوحيدية النقية سوى المسلمون؟

وهل في الدنيا كلها مَن هم على عقيدة إبراهيم وأيوب وهارون وموسى وداوود وسليمان وعيسى سوى المسلمون؟

فالذي يرى أن دينًا سوى دين الأنبياء مقبولٌ عند الله فقد كذّب بالحق إذ جاءه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

سقوط النصرانية بسؤال بسيط!

انهيار الديانات المحرفة يسير، فالحق أبلج وهذا من رحمة الله بعباده.

وأحد أشهر التناقضات في الديانة النصرانية ما نطرحه من خلال هذا السؤال.

والسؤال كالتالي: أيها النصراني! إذا كنت الآن واقفًا أمام المسيح وهو على الصليب، فهل ستتركه يموت أم ستنقذه؟

إذا قال النصراني حتمًا سأنقذه، فهو بهذا يُبطل العمل الكفاري للمسيح على الصليب ويكون سببًا في هلاك الجنس البشري.

لأن النصرانية تتخيل طبقًا لفلسفة بولس أن المسيح جاء ليموت على الصليب فداءً لخطايا البشر.

وإيقاف العمل الكفاري جريمة في حق الجنس البشري -طبقًا للعقيدة النصرانية-.

وإذا قال النصراني سأتركه يموت فهذا يعني بمنتهى البساطة أن النصارى قتلة الأنبياء وقتلة الآلهة بمعنى أدق، وهنا لا فرق بين النصراني الذي يترك المسيح على الصليب حتى الموت وبين اليهود الذين عرفوا أنه هو المسيح وحاولوا قتله.

هذه معضلة كبرى؛ تبين إلى أي حد يصل الكفر بأهله.

الفداء والصلب

عقيدة الفداء والصلب هذه تخالف عقيدة جميع أنبياء العهد القديم، فلم يكن نبي من الأنبياء يؤمن أنه لابد من الخلاص بموت يسوع على الصليب!

بل إن هذه العقيدة تخالف عقيدة المسيح ذاته التي يخبر بها الكتاب المقدس.

فالمسيح لم يأت كذبيحة وإنما جاء رحمة.

والمسيح جاء لا ليدعو الأبرار بالعمل الكفاري على الصليب، وإنما جاء ليدعو الخطاة إلى التوبة ككل الأنبياء قبله.

يقول المسيح عليه السلام: "إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لاَ ذَبِيحَةً لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ"[(١)].

إن مشكلة منظومة الفداء والصلب الحقيقية أنها تضيع المسئولية الفردية لكل إنسان عن جرائمه، وتقتل قيمة العمل الصالح، وتؤدي إلى عدم المبالاة بالذنوب.

فأنت كل ما عليك مجرد الإيمان بالعمل الكفاري ليسوع على الصليب! هكذا يُبشرون.

ولا ندري ما علاقة صلب زيد بتكفير ذنب عمرو.

في أية منظومة عقلية تصح هذه المعادلة؟

إن المنظومة العقلية تقتضي الإيمان بما آمن به الرسل، وترك كل هذه الفروض الوثنية التي تخالف روح المعتقد الديني لأنبياء العهد القديم.

---

(١) إنجيل متى الأصحاح ٩ العدد ١٣.

نفي ألوهية المسيح عليه السلام.

والآن نأتي لنفي ألوهية المسيح، كان المسيح عليه السلام -بأبي وهو وأمي- أكثر الناس حرصًا على مصلحة أتباعه، وما تأخر لحظةً في بيان أصل عقيدته، وهذا باقٍ في الإنجيل الذي بين أيدينا إلى اليوم!

فما بين أيدينا هو من بقايا النبوات التي أخبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم في خطبته بشأنها أن: «**الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**».

وكان المسيح عليه السلام قويًا في الحق، لا يخاف لومة لائم، وقد صنع يومًا سوطًا من حبال لإنكار منكرٍ رآه كما ورد في إنجيل يوحنا: "فصنع سوطا من حبال وطرد الجميع من الهيكل، الغنم والبقر، وكب دراهم الصيارف وقلب موائدهم"[١].

ومَن كان هذا شأنه فكيف نعتقد فيه بغير ما قاله؟

وكيف ننسب إليه عقيدة لم ينطق بها يومًا؟

فهل قال المسيح يومًا بألوهيته -في الإنجيل الذي بين أيدينا اليوم -حتى نجعل نحن منه إلهًا؟

ألم يكن صريحًا قويًا واضحًا في توحيده وعبادته لله؟

ألم يقل المسيح في الإنجيل بالحرف: "إن اول كل الوصايا هي: اسمع يا اسرائيل. الرب الهنا رب واحد"[٢].

فهو لم يقل إلا ما أمره الله به من عبادة الله وحده ﴿ مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة:١١٧].

---

(١) إصحاح٢ عدد١٥.

(٢) إنجيل مرقس١٢-٢٩.

بل ويُخبرنا الإنجيل الذي بين أيدينا اليوم أن المسيح عليه السلام كان صريحًا في تعاليمه وأن عقيدته لا يوجد فيها شيء غير مُعلن: "فَسَأَلَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ يَسُوعَ عَنْ تلاَمِيذِهِ وَعَنْ تَعْلِيمِهِ. أَجَابَهُ يَسُوعُ: أَنَا كَلَّمْتُ الْعَالَمَ علاَنِيَةً. أَنَا عَلَّمْتُ كُلَّ حِينٍ فِي الْمَجْمَعِ وَفِي الْهَيْكَلِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ الْيَهُودُ دَائِمًا. وَفِي الْخَفَاءِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ"[١].

فكان أحرص الناس على أتباعه، وأصل عقيدته هو ما يقوله لهم وليس ما يحكيه الكهان: "إِذًا الإِيمَانُ بِالْخَبَرِ وَالْخَبَرُ بِكَلِمَةِ الله"[٢].

فالإيمان لا يكون إلا بالخبر (الدليل) ولا يكون الخبر إلا بكلمة الله، وليس بافتراضات وظنون ما أنزل الله بها من سلطان.

والآن نأتي لبيت القصيد هنا ونقول: هل كان في تعاليم المسيح العلنية أنه هو الله؟

هل كان في تعاليمه العلنية أنه أحد أقانيم الثالوث؟

هل كان في تعاليمه العلنية أنه طالب بعبادته؟

هل كان في تعاليمه العلنية أنه أخبر أنه لاهوت كامل وناسوت كامل؟

هل كان في تعاليمه العلنية أنه جاء من أجل خطيئة آدم؟

أليس الذي لا نستطيع جميعًا أن ننكره أن المسيح لم يقل ولو لمرة واحدة أنا الله؟

لم يقل ولو لمرة واحدة اعبدوني!

لم يقل أنا لاهوت وناسوت!

لم يقل أنا جئت من أجل خطيئة آدم!

---

(١) يوحنا الأصحاح ١٨ العدد ٢٠.

(٢) رومية الأصحاح ١٠ العدد ١٧.

أليست كلمة مثل أقنوم لا توجد في الإنجيل كله ولو لمرة واحدة خير دليل على أنها من تعاليم الكهان وليست من تعاليم المسيح؟

أليست كلمة مثل ثالوث لا توجد في الإنجيل الذي بين أيدينا اليوم ولو لمرة واحدة خير دليل على أنها من تعاليم الكهان؟

ألم يجزم المسيح عليه السلام ويقطع بأن الله واحد وأن الله هو آخر غير المسيح؟

أُكرر مرةً أخرى: وأن الله هو آخر غير المسيح؟

يقول المسيح: "إِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقًّا. الَّذِي يَشْهَدُ لِي هُوَ آخَرُ وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ الَّتِي يَشْهَدُهَا لِي هِيَ حَقٌّ"[(١)].

الَّذِي يَشْهَدُ لِي هُوَ آخَرُ

الَّذِي يَشْهَدُ لِي هُوَ آخَرُ

الَّذِي يَشْهَدُ لِي هُوَ آخَرُ

إذن الله هو آخر غير المسيح!

والمسيح ليس هو الله!

هذا النص وحده يقطع بنفي ألوهية المسيح عليه السلام.

فالرب واحد وليس آخر سواه كما يقول الإنجيل: "اللهُ وَاحِدٌ وَلَيْسَ آخَرُ سِوَاهُ"[(٢)].

بل إن المسيح يجزم في الإنجيل الذي بين أيدينا اليوم أن الله منفصل تمامًا عن المسيح: "لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ كَذَلِكَ أَعْطَى الاِبْنَ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ"[(٣)].

فالمسيح هو آخر غير الله وهو مرسل من عند الله كما كل الرسل والصديقين الأطهار، ولذلك

---

(١) يوحنا الأصحاح ٥ العدد ٣٢.

(٢) مرقس الأصحاح ١٢ العدد ٣٢.

(٣) يوحنا الأصحاح ٥ العدد ٢٦.

الذي يؤمن بالمسيح سيؤمن بالذي أرسله وهو الله، وفي ذلك يقول المسيح: "فَنَادَى يَسُوعُ: الَّذِي يُؤْمِنُ بِي لَيْسَ يُؤْمِنُ بِي بَلْ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي" [(١)].

فوظيفة المسيح هي أن يؤمن الناس بالآب الله الذي أرسله.

بل إن الجنة لن يدخلها إلا من قال: "لا إله إلا الله المسيح رسول الله" وهذا لفظ الإنجيل، حيث يقول المسيح في الإنجيل: "وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ" [(٢)].

لقد شهد المسيح أن الحياة الأبدية -أي الجنة- هي في شهادة أن لا إله إلا الله وأن يسوع المسيح رسول الله وهو عين ما يؤمن به المسلمون جميعًا.

إذن المسيح ليس أكثر من نبيٍ عظيم كما يقول الإنجيل صراحةً في عشرات المواضع: "يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ الَّذِي كَانَ إِنْسَانًا نَبِيًّا مُقْتَدِرًا فِي الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ أَمَامَ اللهِ وَجَمِيعِ الشَّعْبِ" [(٣)].

بل إن المسيح عليه السلام يعترف في الإنجيل الذي بين أيدينا اليوم أنه لا يعلم الغيب ككل الأنبياء السابقين عليه فهو ليس بأفضل منهم في معرفة الغيب: "وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ الاِبْنُ إِلاَّ الآبُ" [(٤)].

أما معجزات المسيح العظيمة كإحياء الموتى وشفاء العمي -وهذه بالمناسبة يشاركه فيها كثير من أنبياء العهد القديم كإيليا ويشوع- فلم تكن هذه المعجزات لإثبات ألوهيته بل على العكس تمامًا هي لإثبات أنه رسول من عند الله لا أكثر، ولذا قال المسيح في معجزة إحياء الميت الشهيرة

---

(١) يوحنا الأصحاح ١٢ العدد ٤٤.

(٢) يوحنا الأصحاح ١٧ العدد ٣.

(٣) لوقا الأصحاح ٢٤ العدد ١٩.

(٤) إنجيل مرقس الأصحاح ١٣ العدد ٣٢.

في الإنجيل: "وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ وَقَالَ: أَيُّهَا الآبُ أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلَكِنْ لأَجْلِ هَذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي"(١).

فعظمة المعجزة هي في أن يؤمن الواقفون أنه رسول من عند الله!

فالمسيح عبد لله ولن يستنكف عن عبادته، وما صلاته بين يدي الله في الإنجيل مرارًا وتكرارًا إلا علامة خضوع وعبودية لخالقه سبحانه. يقول الإنجيل: "وفي تلك الايام خرج الى الجبل ليصلي. وقضى الليل كله في الصلاة لله"(٢).

ويوم القيامة سيكون المسيح بلفظ الإنجيل خاضعًا لله: "وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ الْكُلُّ فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أَيْضًا سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ"(٣).

إن النصوص تواترت على عبودية المسيح لله في الإنجيل الذي بين أيدينا اليوم وما هذه إلا شواهد يسيرة لمن أراد الشهادة الحق لله وهي شهادة أن المسيح ومحمد وإبراهيم كلهم رسل الله وعباد الله وأن الله لم يجعل أحدًا من أنبيائه إلهًا!

فالله كما يقول الكتاب المقدس الذي بين أيدينا اليوم ليس إنسانًا: "لَيْسَ اللهُ إِنْسَانًا"(٤).

والله لم يسكن مع الإنسان على الأرض حاشاه سبحانه، وقد أخبر الله عز وجل هذه الحقيقة المدوية التي تسقط كل ألوهيةٍ لبشرٍ فقال الكتاب المقدس صراحةً وفي منتهى الدقة والوضوح: "لأَنَّهُ هَلْ يَسْكُنُ اللهُ حَقًّا مَعَ الإِنْسَانِ عَلَى الأَرْضِ؟ هُوَذَا السَّمَاوَاتُ وَسَمَاءُ السَّمَاوَاتِ لاَ تَسَعُكَ فَكَمْ بِالأَقَلِّ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي بَنَيْتُ!"(٥).

إن هذا برهان يتطلب قرارًا، وهذا القرار لا يتجاوز شهادة أن لا إله إلا الله وأن المسيح عبد الله ورسوله!

---

(١) يوحنا الأصحاح ١١ العدد٤٢.

(٢) إنجيل لوقا إصحاح٦ عدد١٢.

(٣) كورنثوس ١ الأصحاح ١٥ العدد ٢٨.

(٤) العدد الأصحاح ٢٣ العدد ١٩.

(٥) أخبار الأيام الثاني الأصحاح ٦ العدد ١٨.

نفي التثليث

أما الثالوث فالثالوث عقيدة شرك، يشترك فيها عدة أشخاص في الألوهية.

فعندما تقول النصرانية أن هناك ثلاثة أشخاص يتكلمون مع بعضهم البعض و يحبون بعضهم، ويجلسون بجوار بعضهم البعض يكون النصارى هنا قد سلبوا من مفهوم اللـه أحد أهم مميزات وحدانيته!

وهذا يختلف كل الاختلاف عن عقائد التوحيد التي نادى بها أنبياء العهد القديم. فجميع أنبياء العهد القديم بلا استثناء باتفاق النصارى واليهود والمسلمين لا يعرفون تثليثًا ولا أقانيم ولا موت آلهة إرضاءً لآلهةٍ أخرى -موت يسوع على الصليب لإرضاء الآب-.

يقول ميخائيل جولدر المحاضر في اللاهوت بجامعة برمنجهام في كتابه اسطورة التجسد الالهي: "يسوع نفسه لم يكن يظن أنه الأقنوم الثاني في ثلاثية الأقانيم"[(١)].

وفي دائرة المعارف البريطانية: "كان المسيحيون الاوائل ضد التثليث، فالتثليث كان يبدو لهم ضد التوحيد الإلهي الذي تُعلمه الكتب المقدسة"[(٢)].

أيضًا وفي نفس المصدر تقرر دائرة المعارف البريطانية أن: "لفظ الثالوث وعقيدة الثالوث الصريحة، لم يردا فى العهد الجديد كذا ما قصد المسيح ولا أتباعه أبدًا أن ينقضوا وصية العهد القديم التي هي :إِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ والتي وردت في سفر التثنية "[(٣)].

ولذا يتسائل الأب الكاثوليكى وعالم اللاهوت الشهير هانز كونج Hans Kung: "لماذا لا يوجد مطلقًا أى حديث فى طول العهد الجديد وعرضه عن إله مثلث الإقانيم؟"

---

(١) كتاب أسطورة التجسد الإلهي، ص١٠٧.

(٢) دائرة المعارف البريطانية الجزء الثالث ص ٦٣٤.

(٣) سفر التثنية الأصحاح ٦ العدد ٤.

ويذكر قاموس الكتاب المقدس نقطة في غاية الأهمية وهي أنه: "مع الأخذ فى الاعتبار إلى أى حدٍ كان اليهود على وعيٍ بعقيدتهم التوحيدية، فبحسب الدليل المستمد من العهد الجديد فالمناوءة اليهودية لم توجه تهمة الإيمان بثلاثة آلهة أو الشرك للمسيحيين الأوائل، وهو نقد شائع وُجِّه فيما بعد من قِبَل اليهود"[1].

وهنا يعلق هانز كونج على ذلك بالقول: "إذا ما أردنا أن نحكم على المسيحيين فى الحقبة التى سبقت مجمع نيقية فى ضوء مجمع نيقية فليس فقط اليهود المتنصرون سيدانون بتهمة الهرطقة بل تقريبًا جميع آباء الكنيسة اليونانيين".

وقد كان المتفق عليه بوجهٍ عام أن آباء الكنيسة المتقدمين على مجمع نيقية كانوا يقولون بالتفاوت فى المنزلة بين الآب والإبن subordinationists وهذا ظاهر بوضوح فى كتابات اللاهوتيين الدفاعيين فى القرن الثانى، ولقد سار إيرينايوس على نفس الدرب، واستكمل هيبوليتس وترتيليانوس فى الغرب هذا المشروع اللاهوتى.

وتحت مادة Subordination-ism تقول دائرة معارف أوكسفور ص١٣١٩ ما يلي: "تطلق هذه التسمية على مَيْل، حاضر بقوة فى الكتابات اللاهوتية فى القرنين الثانى والثالث الميلادى، لاعتبار المسيح، كإبن لله، فى مرتبة أدنى من الآب وتقف خلف هذا الميل عبارات واردة بالعهد الجديد والتى يؤكد فيها المسيح نفسه على ذلك: أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي.. والتي وردت في إنجيل يوحنا الأصحاح ١٤ العدد ٢٨؛ وأيضًا: وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ الاِبْنُ إِلاَّ الآبُ والتي وردت في إنجيل مرقس الأصحاح ١٣ العدد ٣٢".

فالكتاب المقدس نفسه يحسم القضية ويؤكد أن الآب أعظم من الإبن ولا ندري كيف يجري الجدل بخصوص الأمر بعد ذلك!

ويظهر هذا الميل خاصة فى كتابات لاهوتيين من أمثال يوستينيوس، وترتيليانوس، وأوريجانوس ونوفاتيانوس بل حتى فى كتابات إيرينايوس Irenaeus.

---

(١) قاموس الكتاب المقدس في ص٣٣٧.

وكلهم آباء الكنيسة الكبار على مر العصور!

يقول البروفيسور مارتن فرنر Martin Werner: "فى أى موضع من العهد الجديد عندما تكون العلاقة بين المسيح والآب محل اعتبار، فإنها تُصور وتمُثل على أنها علاقة بين الأدنى منزلةً والأعلى منزلةً، إن جميع اللاهوتيين العظام قبل مجمع نيقية يمثلون المذهب القائل بأن الإبن فى مرتبة أدنى من الآب".

ويضيف روبرت جرانت Robert M. Grant : "إن كريستولوجيا كتابات اللاهوتيين الدفاعيين، كما هو الحال بالنسبة لتلك الخاصة بالعهد الجديد، بصفة أساسية تقول بتفاوت المنزلة. فالإبن دائمًا خاضع للآب الذى هو الإله الواحد الوارد ذكره فى العهد القديم، فما نجده إذن فى كتابات هؤلاء الكتاب القدامى ليست هى عقيدة الثالوث، فقبل مجمع نيقية كان الفكر اللاهوتى المسيحى على مستوى العالم فى الجملة يقول بتفاوت المنزلة".

إن المسيح عليه السلام كان يُعلّم التلاميذ أنه عبدٌ لله لا يعلم إلا ما علمّه الله. وفي آخر حياته عليه السلام حين سأله أحد الكتبة عن أعظم الوصايا قالها مدويةً: "إِنَّ أَوَّلَ كُلِّ الْوَصَايَا هِيَ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ. الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ، وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى"[1].

أضف إلى ما سبق أن مشكلة التثليث مربكة للعقل محيرة للفطرة التوحيدية النقية.

ولذا حين ظهر الإسلام كانت المحنة النصرانية الكبرى، لأن الإسلام يعيد نهج التوحيد الذي عليه أنبياء العهد القديم.

ومن أجل ذلك خرجت التعديلات اللاهوتية على يد توما الاكويني فحاول الرجل تنسيق ديانته بما يتناسب مع التوحيد فقال ب**"الثلاثة في الواحد والواحد في الثلاثة"** وهذه المحاولة

(١) إنجيل مرقس إصحاح ١٢ عدد٣٠.

الانتحارية التي تخالف أبسط بديهيات العقل هي فقط محاولة لمواربة الصدع والتقرب من عقيدة التوحيد، فالتحسينات لم يكن منها مناص لإيقاف أفواج الداخلين في الدين الجديد.

يقول د. عبدالله بن سعيد الشهري -باحث في العلوم الإنسانية - في أحد منشوراته على حسابه الشخصي في الفيس بوك: "اطلعت على موقع نصراني انجليزي يستقبل سؤالات المستفتين فوجدت منها:

من ندعو الله أم عيسى أم روح القدس؟

وآخر: بأيهما نبدأ ؟

وآخر: هل يضر البدء بالله؟

شاهد عمليّ حي على عواقب الانحراف عن التوحيد".

قال الله تعالى ذامًا هذه الصور من التثليث الشركي ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر:٢٩].

فلا يستوي العبد لجماعة والعبد لواحد!

ولذا قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٧٣][1].

---

(١) بعض الاقتباسات في هذه الفقرة من موقع المرصد الإسلامي:

http://tanseerel.com/main/.

الفَصْلُ ٱلثَّالِثُ عَشَرَ

الشذوذ الجنسي المشكلة والعلاج

حفرت ثقافة الشذوذ الجنسي لنفسها أخدودًا عميقًا في الوعي الغربي المعاصر، يكفيك أن تعلم أنه في مسح إحصائي شمل ٣٩ دولة، تبيّن أن أكثر من ٨٠٪ من الغربيين يتقبلون فكرة الشذوذ الجنسي، في حين تصل نسبة القبول في الدول الإسلامية إلى أقل من ١٪ [(١)].

ويوجد أكبر تجمع للشواذ جنسيًا في العالم على الإطلاق وحصريًا داخل أكثر دول العالم إباحية جنسية، فتأتي دول هولندا ثم إيطاليا ثم كندا ثم فرنسا وأمريكا وبريطانيا في مقدمة دول العالم التي تستحوذ على أعلى معدلات للشواذ جنسيًا بها[(٢)].

في حين تظل الدول الإسلامية الأقل على الإطلاق. ومن عجائب ما يُذكر هنا أنه في حرب الخليج الثانية كانت التعليمات المباشرة للجنود الأمريكان، إذا رأيت سعوديين يُشبِّك أحدهما في يد الآخر فهذا طبيعي عندهم[(٣)].

ولم يعد يمانع من ممارسة الشذوذ في الغرب إلا مناطق كنسية محدودة لما ورثوه من بقايا النبوات، باستثناء ذلك فالغرب مُطبِق الآن على قبول "ثقافة الشذوذ الجنسي".

لكن هل للشذوذ الجنسي علاقة بالمورثات -الجينات-؟

ثقافة الشذوذ الجنسي أصبحت تفرض نفسها فرضًا في الثقافة الغربية، فمن البديهي أنها تبحث عن الأدلة التي تدعمها.

وبالفعل ففي العام ١٩٩٣ قام عالم الجينـات الأمريكي دين هامر Dean Hamer بدراسة المؤشر الجيني ٢٨Xq الموجود على الكروموسوم X وهذا المؤشر الجيني كان يُعتقد حتى وقت قريب أن له علاقة بالشذوذ الجنسي، وقام بالبحث في محاولة لإثبـات ذلك وبعد تجارب كثيرة

---

(١)http://www.pewglobal.org/٠٤/٠٦/٢٠١٣/the-global-divide-on-homosexuality/

(٢)http://www.insidermonkey.com/blog/١٠-countries-with-the-biggest-gay-populations-in-the-world-fix-٣٥٥٨٨٧/

(٣)https://www.youtube.com/watch?v=M_CX-JjGFO٨

تبين فشل الأمر وأنه لا توجد علاقة بين الشذوذ الجنسي والجينـات[١].

ثم جائت أبحاث قِسم العلوم العصبية الإكلينيكية، بجامعة أونتاريو الغربية بكندا عام ١٩٩٩، ردًا على بحث دين هامر Dean Hamer ، وفي مرحلة لاحقة تراجع هامر بنفسه.

فعمليًا فشلت الأبحاث تمامًا في إيجاد تلك الصلة بين الشذوذ الجنسي والجينات[٢].

وقد جائت أبحاث التوائم المتماثلة -الذي تتطابق جيناتها- لتقضي على أي أملٍ لدعاة الشذوذ الجنسي.

فالتوأم المتماثل لا تسوده نفس الميول الجنسية بل تختلف تمامًا[٣].

Identical twin studies prove homosexuality is not genetic

وفي دراسة أخرى معمقة ومستقلة في هذا الشأن تبين مدى الفارق في الميول الجنسية بين التوأم المتماثل[٤].

فالمحدد الرئيس للشذوذ الجنسي هو البيئة المتفسخة أخلاقيًا لا المورثات -الجينات-.

ولذلك يقرر الأطباء الآن أن الشاذ جنسيًا يمكن أن يتعافى من الشذوذ، فالقضية ليست حتمية كما كانوا يروجون من قبل[٥].

بل ويعترف الرئيس السابق للجميعة الأمريكية للطب النفسي صراحة أن: "الشاذ جنسيًا يمكن أن يتغير".

---

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/Xq٢٨.

(٢) http://www.sciencemag.org/content/٥٧١ /٥٤١٤ /٢٨٤.summary.

(٣) http://www.hollanddavis.com/?p=٣٦٤٧.

(٤) http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pubmed/١٨٥٣٦٩٨٦

(٥)http://www.pfox.org/sidebar-pages/athiest/.

Former American Psychological Association President Says Homosexuals Can Change[١].

والآن رسميًا يمكن مداواة الشاذ جنسيًا إلى أن يصبح شخص سوي[٢].

فالشذوذ الجنسي خلل سلوكي ظاهر، وفتحة الشرج الضيقة لم يخلقها الله لهذه المهمة الشاذة، فهي لا تتمتع بإفرازات طبيعية تسهل عملية الإيلاج، ولذا لابد من المواد المزلجة، ولابد من حدوث تقرحات وتشقق لبطانة الشرج وهذا سبب انتشار أمراض الإيدز والالتهابات الكبدية والأمراض المسرطنة بين الشواذ جنسيًا[٣].

والمقزز في الأمر ليس كل ما سبق وإنما أن بعض المصابين بهوس الشذوذ الجنسي، يحاولون إيجاد مبرر لهم في سلوك بعض الحيوانات.

تخيل!

وإذا افترضنا جدلًا أي بعض الحيوانات تمارس الشذوذ فهل هذا يعدو مبررًا للإنسان لممارسته؟

الأرملة السوداء – أحد أنواع العناكب – تقتل زوجها ليلة الدخلة. فهل يمكن تقديم هذا السند أمام المحاكم في قضايا قتل الأزواج؟

أما عن وجود ممارسات للشذوذ الجنسي داخل عالم الحيوان. فيقول الدكتور شارلز سوكرايدز Dr. Charles Socarides الباحث المتخصص في دراسات الشذوذ الجنسي يقول: "الشذوذ الجنسي يجب أن يكون قاصرًا على الإنسان، لا يوجد شذوذ جنسي في الحيوان وإنما هي توجهات هيمنة قاصرة على بُعدها التسلطي."

---

(١)http://www.thenewamerican.com/culture/item/١١٦٤٠-former-apa-president-says-homosexuals-can-change.

(٢)http://www.psychiatricnews.org/pnews/١٧-٠٤-٩٨/browde.html.

(٣)https://en.wikipedia.org/wiki/HIV_and_men_who_have_sex_with_men.

ويعتبر الدكتور شارلز أن الشذوذ الجنسي عند الحيوانات هو أسطورة سخيفة فالمثلية الجنسية عند الحيوان لا تعدو طقوس صراع بين ذكور القطيع ساعيةً للبرهنة للأنثى على شدة ذكوريتها[١] .

بل والمُدهش أنه قد لوحظ أن بعض الكلاب تلجـأ للشذوذ الجنسي عن طريق الخطـأ، فالأنثى عندما تكون في مرحلة استعداد للاتصال الجنسي فإنها ترسل رائحة مميزة جدًا، وبعد الاتصال بالذكر تعلق الرائحة بالذكر فيصير هو نفسه هدفـًا لذكر آخر مما يؤدي في أحيـان نادرة إلى ممارسة الشذوذ الجنسي بطريق الخطأ .

لكن بغض النظر عن ذلك؛ فمِن المدهش فعليـا أن يبحث الشواذ جنسيـًا داخل مملكة الحيوان عن تبريرٍ لفعلتهم، إنه التأثير الداروينى الخبيث على أذهـانهم.

لكن يا ترى ما هي المرحلة التالية للشذوذ الجنسي، والتي ستتفتق لها أذهان المعربدين جنسيًا؟

ماذا بعد الشذوذ الجنسي؟

صراحةً هذا سؤال عسير فالغربيون الآن يطالبون بالسماح لهم بالشذوذ الجنسي مع الأطفال الصغار، راجع في ذلك تنظيم رجال يحبون الأطفال NAMBLA.

North American Man/Boy Love[٢].

وسويسرا الآن بصدد الموافقة على مشروع السماح بزنا المحارم[٣] .

---

(١)www.leaderu.com/orgs/narth/exploding.html.

(٢)https://en.wikipedia.org/wiki/North_American_Man/Boy_Love_Association.

(٣)https://www.youtube.com/watch?v=rlH٣٣btuhdM.

وفي السويد تمت الموافقة رسميًا على الاستمناء في الأماكن العامة[١].

لكن أنا أتخيل أن المرحلة التالية ستكون طلب السماح بالشذوذ مع الحيوانات. وهذه القضية بالفعل بدأت تتواجد وبقوة، وأنت تقرأ الآن في الصحف بين الحين والآخر حوادث خيانة طرفها ليس امرأة أخرى وإنما حيوان أليف.

ومعدلات ارتكاب الشذوذ مع الحيوانات ارتفعت بصورة مخيفة في الفترة الأخيرة لتقترب من الخمس في بعض البلاد، وفي البرازيل تصل نسبة مرتكبي الشذوذ الجنسي مع الحيوانات إلى ٣٤٪ من تعداد السكان[٢].

فهذه طبيعة النفس الإنسانية، ما أن تُفتح لها نافذة إباحية حتى تطلب فتحَ أخرى وهكذا إلى ما لا نهاية.

أما إذا فطمتها عن الفواحش تنفطم، فالنفس كالطفل كما رُوي عن الإمام علي -رضي الله عنه-.

مشكلة الشذوذ الجنسي هي مشكلة أخلاقية مائة بالمائة، ترتبط بثقافة متفسخة أخلاقيًا وتشيع في وسطٍ ينعدم فيه وخز الضمير الاخلاقي.

والشاذ جنسيًا حتى يتعافى لابد أن يعترف بينه وبين نفسه بمعاصيه التي غرق فيها حتى الثمالة، قبل أن تطفو أفكار الشذوذ الجنسي في مخيلته.

فمعاصي ما قبل الشذوذ أوصلته إلى الشذوذ!

والإباحة الجنسية بريد الشذوذ.

---

(١)http://www.dailymail.co.uk/news/article-٢٤٢٤٤١٦/Swedish-court-rules-IS-legal-masturbate-public-directed-specific.html

(٢)http://onlinelibrary.wiley.com/doi/١٠,١١١١/j.-١٧٤٣٦١٠٩,٢٠١١,٠٢٥١٢.x/abstract

فالشذوذ الجنسي يأتي في مرحلة تالية للعربدة السلوكية الغير منضبطة.

وهنا لا يلومن الإنسان إلا نفسه. فكلما زاغ المرء أزاغ الله قلبه أكثر ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [الصف:٥].

فإذا ظلم الإنسان نفسه وأتبعها هواها بلا رادعٍ، فهذا مظنة تشرُّب الضلال ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

والخروج من وحل المعصية يسير، لكن لابد أن تسبقه إرادة ونية وعزم وقصد.

ثم صدق اللجوء إلى الله عز وجل، والانكسار بين يديه، والإقرار بالمعصية، والعزم على عدم العودة ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥].

وإذا علم الله من عبده نية التوبة الصادقة، يعينه الله ويهديه ويرزقه التقوى التي تردعه عن العودة ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد:١٧].

فاتقوا الله في أنفسكم ولا تبدلوا نعمة الله خبثًا ﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

بما أننا في ملف الشذوذ الجنسي فيحضرني الآن هذا السؤال الذي يردده كثير من الملاحدة وهو: هل توجد الخنثى التي ليست بذكرٍ ولا أنثى؟

ثم كيف يتعامل الإسلام مع الخنثى hermaphrodite ؟

وطالما وُجدت الخنثى فما المانع من الشذوذ في هذه الحالة؟

الرد: هذه ليست شبهة هذه أسميها أضحوكة ماكرة، يروج لها ملحد جاهل أو علماني خبيث.

لأن ثنائية الجنس بمعناها اللغوي - إنسان يحتوي على مبيض يعمل وخصية تعمل - هذا غير موجود في تاريخ الجنس البشري. There are no documented cases in which both types of gonadal tissue function

True hermaphroditic humans do not exist at all.

هذه حقيقة علمية. سواءًا عرفها الملحد أو لم يعرفها.

فكلمة إنسان ثنائي الجنس هي تسمية خطأ لغويًا وكذلك كلمة خنثى خطأ لغويًا لأن هذا كائن غير موجود أصلًا .

وإنما الموجود إنسان يحتوي على مشكلة هرمونية تستتبع تغير طفيف في الأجهزة التناسلية الخارجية -وهي حالات نادرة جدًا This condition is very rare -.

وهذا الذي يُسمى خطًأ بالخنثى.

وهذا ليس خنثى أو ثنائي جنس وإنما هذا حالة مرضية تُعدل هرمونيًا كما هو معلوم عند الأطباء بحيث لو كان الاتجاه العضوي نحو الذكورة فإن المهمة الطبية هي ضخ هرومونات ذكرية والعكس بالعكس.

ولا يوجد كائن ٥٠٪ ذكر ٥٠٪ أنثى إلا داخل أدمغة الملاحدة.

فلا يوجد كائن حي يعيش بيننا يحتوي على وظيفية أنثوية وذكورية كاملة -خنثى ثنائي

الجنس- إلا في أذهان الملاحدة.

True hermaphroditic humans do not exist, but pseudohermaphrodism does, where an individual has both male and female external genital organs, sometimes at the same time. Female embryos exposed to high levels of androgens (the male hormones) develop female internal reproductive organs but male external genitalia.[(١)]

.

---

(١)Campbell, N., J. Reece, and L. Mitchell. Biology. ٥th ed. Menlo Park: Benjamin Cummings, Inc. ٢٠٠٠.

خاتمة

علاجٌ وحلٌ إن شاء الله لشبهاتك

وجفاف روحك وبطّال خيالاتك

في القرآن أسرار ربانية، وفتوحٌ نورانية، ومعارج إيمانية خاصة.

وكان المشركون حين يستمعون القرآن يزدحمون لشدة تأثرهم كما روى البخاري في صحيحه (ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وبرز فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقصّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين).

ولم يُشر القرآن إلى مجرد تأثرٍ يسير، بل يصل الأمر إلى الخرور إلى الأرض.

هل هناك انفعال وتأثر وجداني أشد من السقوط إلى الأرض؟

تأمل معي هذا المشهد المدهش الذي يرويه ربنا جل وعلا عن سطوة القرآن في النفوس: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء:١٠٧].

وقومٌ آخرون في عصر الرسالة ذكر الله خبرهم ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾ [المائدة:٨٣].

أي شخصٍ يقرأ الآية السابقة يعلم أن هذا الذي فاض في عيونهم من الدموع حين سمعوا القرآن أنه شيءٌ فاق قدرتهم على الاحتمال ..

لماذا تساقطت دمعاتهم؟ إنها أسرار القرآن..

وتأمل كيف انبهر (صناديد المشركين) بسكينة القرآن، ففي البخاري أن جبير بن مطعم أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- يريد أن يفاوضه في أسارى بدر، فلما وصل إلى النبي وإذا بالمسلمين في صلاة المغرب، وكان النبي إمامهم، فسمع جبير قراءة النبي، ووصف كيف خلبت أحاسيسه

سكينة القرآن، كما يقول جبير بن مطعم:

«سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم– يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، قال: كاد قلبي أن يطير».

لله در العرب ما أبلغ عباراتهم..

هكذا يصور جبير أحاسيسه حين سمع قوارع سورة الطور، حيث يقول: «كاد قلبي أن يطير»، هذا وهو مشرك، وفي لحظة عداوة تستعر إثر إعياء القتال، وقد جاء يريد تسليمه أسرى الحرب، ففي خضم هذه الحالة يبعد أن يتأثر المرء بكلام خصمه، لكن سكينة القرآن هزّته حتى كاد قلبه أن يطير

وكل تقصيرٍ يقع فيه الإنسان، سواء كان تقصيرًا علميًا بالتأويل والتحريف للشريعة، أو كان تقصيرًا سلوكيًا بالرضوخ لدواعي الشهوة، فإنه فرع عن قسوة القلب.

وعلاج جميع ذلك تدبر القرآن...

نعم تدبر القرآن

قسوة القلب ناشئة عن البعد عن الوحي، ألا ترى الله تعالى يقول ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:١٦].

أرأيت يا أخي؟ إنه طول الأمد .. !

لما طال بهم الأمد قست قلوبهم .. ولو جددوا العهد مع الوحي لحيت قلوبهم..

ولذا فأفضل مقاومة وتفنيد للأفكار الضالة والشبهات والهلاوس والوساوس، ليس أن تتبحر في علوم الأمم ولا أن تغرق في دراساتٍ فكرية لا تنتهي، وهذا كله جيد لكن في وقته وحين

يَصلح القلب أولًا، والذي يُصلح القلب ويوفر العلاج الناجع والسريع والخاتم هو "خَتمة تدّبر".

فلو نجحنا في تعبئة الشباب المسلم للإقبال على القرآن، وتدبر القرآن، ومدارسة معاني القرآن، لتهاوت أمام الشاب المسلم كل التحريفات الفكرية المعاصرة ريثما يختم أول "ختمة تدبر".

بالله عليكم لو قرأ الشاب المسلم - الباحث عن الحق- آيات القرآن في

وسيلية الدنيا ومركزية الآخرة ..

وآيات القرآن في أزلية الصراع بين الحق والباطل ..

وآيات القرآن في معنى التكليف ولزوم التمحيص والابتلاء وأن هذا سر وجودك!

- فبالله عليكم قولوا لي ماذا سيتبقى - بعد ذلك - من أطلال الانحرافات الفكرية المعاصرة؟!

حين يقرأ الشاب المسلم مثل هذه الآيات فإنه ليس أمام "خطابٍ فكري" يستطيع التخلص منه عبر مخرج "الاختلاف في وجهة النظر" ..

بل هو أمام "خطاب الله" مباشرةً ..

فإما الانصياع وإما النفاق الفكري ..

ولا تسويات أو حلول وسط أمام أوامر ملك الملوك سبحانه وتعالى..

لنجتهد فقط في تحريض وتأليب العقل المسلم المعاصر على الإقبال على القرآن، وتدبر القرآن، في تجردٍ معرفيٍ صادق للبحث عن الحقيقة.. وصدقوني ستفاجأ كثيرًا بالنتائج ..

قراءة واحدة صادقة لكتاب الله .. تصنع في العقل المسلم ما لا تصنعه كل المطولات الفكرية بلغتها الباذخة وخيلائها الاصطلاحي ..

هذا القرآن حين يقرر المسلم أن يقرأه بـ"تجرد" .. فإنه لا يمكن أن يخرج منه بمثل ما دخل

عليه .. هذا القرآن يقلب شخصيتك ومعاييرك وموازينك وحميتك وغيرتك وصيغة علاقتك بالعالم والعلوم والمعارف والتاريخ ..

وخصوصًا .. إذا وضع القارئ بين عينيه أن هذا القرآن ليس مجرد "معلومات" يتعامل معها ببرود فكري ..

بل هو "رسالة" تحمل قضية ودويًّا ..

لكن ماذا لو كنت لا تعرف كيف تتدبر آيات القرآن وعِبره؟

هنا أنصحك أن تستعين بتفسير مثل أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري. فتقرأ آية من كتاب الله أو بضع آيات ثم تتدبرها ثم تقرأ تفسير أبو بكر الجزائري وهكذا.

فكلنا جميعًا وأنت منهم وأنا منهم كلنا نحتاج إلى ختمة تدّبر![١].

---

(١) هذه النصيحة الغالية قدّمها الباحث إبراهيم السكران –حفظه الله– في ثنايا كتبه فأحببت أن أنقلها بين أيديكم، بتصرف!.

وختامًا!

"مَلاك الأمر كله ورأسه الإيمان، فالإيمان يشبع الجائع ويدفيء المقرور ويقوي الضعيف ويسخي الشحيح، ويجعل للإنسان من وحشته أنسًا ومن خيبته نجحًا"

علي الطنطاوي رحمه الله.

والتسليم لله هو نهاية قصة المصير الإنساني، سواءً شئنا أم أبينا!

فسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

والحمد لله رب العالمين

الفهرس